أشهر ٥٠ خرافة عن الأديان

جون مورال وتمارا صَن

أشهر ٥٠ خرافة عن الأديان

تأليف
جون مورال وتمارا صَن

ترجمة
فايقة جرجس حنا

مراجعة
جلال الدين عز الدين علي

هنـــداوي

أشهر ٥٠ خرافة عن الأديان

جون مورال وتمارا صَن

50 Great Myths About Religions

John Morreall and Tamara Sonn

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٧ ١٤٥٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٨.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لجون وايلي أند صنز، إنك.

Copyright © 2014 John Wiley & Sons, Ltd. All Rights Reserved. Authorised translation from the English language edition published by John Wiley & Sons, Inc. Responsibility for the accuracy of the translation rests solely with Hindawi Foundation and is not the responsibility of Wiley. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder, John Wiley & Sons Inc.

المحتويات

١- مقدمة: الخرافات والمعتقدات الخاطئة	٧
٢- خرافات عن الأديان عمومًا	١٧
٣- خرافات حول اليهودية واليهود والكتاب المقدس اليهودي	٥٩
٤- خرافات عن المسيحية، والمسيحيين، والكتاب المقدس المسيحي	١٠١
٥- خرافات عن الإسلام، والمسلمين، والقرآن	١٥١
٦- خرافات عن تقاليد غربية أخرى	١٩٧
٧- خرافات عن التقاليد الشرقية	٢١٩
٨- خرافات عن غير المؤمنين	٢٣٧
خرافات إضافية	٢٥٥

الفصل الأول

مقدمة: الخرافات والمعتقدات الخاطئة

> يتراءى لي أن [الناس الذين يرتابون في القصص الدينية] يلجَئون إلى الحيلة التي يستخدمها كثيرٌ من اليهود المُحدَثين في تناولهم للقصص الكتابية التي تستعصي على التصديق من أول وهلة؛ بدءًا من قصة الخلق في ستة أيام، ووصولًا إلى قصة يونان الذي يعيش في بطن حوت. نحن نفرِّق ما بين قصص النصف الأيسر من المخ (التي يُقصد بها نقل حقيقة واقعية) وقصص النصف الأيمن من المخ (التي يُقصد بها إبراز غاية ما من خلال قصة؛ بمعنى أن الرسالة ستكون حقيقة حتى لو لم يكن ممكنًا الدفاع عن واقعية القصة). (الحاخام هارولد كوشنر (٢٠١٣))

(١) معنيان للخرافة

هذا الكتاب مستوحًى من كتاب آخر من كتب وايلي بلاكويل، وهو «أشهر ٥٠ خرافة في علم النفس» الذي ألَّفه سكوت ليلينفيلد وآخرون (٢٠١٠)، وتعني فيه لفظة «خرافة» معتقدًا شائعًا غير مدعوم جيدًا بالأدلة القوية. بعضٌ من خرافاتنا على هذه الشاكلة؛ مثل الاعتقاد بأن موسى كتب الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس، وأن يسوع وُلد في حظيرة في بيت لحم يوم ٢٥ ديسمبر. لكننا نعتبر من الخرافات أيضًا تلك المعتقدات الشائعة المشكوك فيها لأسباب أخرى، مثل أنها تتنافى مع تعاليم أديان المؤمنين. على سبيل المثال، يعتقد بعض المسلمين (وعدد لا حصر له من غير المسلمين) أن القرآن يَعِد أولئك الذين يُفَجِّرون أنفسهم بـ ٧٢ حورية عذراء. غير أن كلًّا من الانتحار والإرهاب مذمومان في القرآن باعتبارهما من الكبائر. ويؤمن مسيحيون كثيرون بأن الشيطان وأجناده يعذبون البشر في الجحيم، لكن هذا يتعارض مع التعاليم الأساسية للمسيحية في حقيقة الأمر. حينما نقول عن شيء ما إنه

«خرافة»، فإننا نقصد معنًى قريبًا من تعريف القاموس للفظة «معتقَد خاطئ»: الخرافة هي معتقَد أو رأي خاطئ أو زائف، أو منحرف، وخصوصًا في الدين.

ثَمَّة معنًى آخر لـ «الخرافة» ينبغي أن نذكره لما له من أهمية في حقل الدراسات الدينية الأكاديمي. حينما يتحدث علماء الدين عن «الخرافات» فإنهم يقصدون بصفة عامة القصص التقليدية التي تُفسِّر جوانبَ مهمة من جوانب الحياة، مثل: من أين أتينا، ولماذا نحن هنا، ومن هم أبطالنا، وما الذي يميزهم، وكيف ينبغي أن نعيش؟ وخير مثال على هذا القصة المذكورة في سفر التكوين عن عصيان آدم وحَوَّاءَ لله بأكلهما من شجرة معرفة الخير والشر، ثم طرْد الله لهما من الجنة. غالبًا ما يتميز هذا الوصف لنشأة الشر وما يشاكله من القصص بأحداث عجيبة، بل وخارقة للطبيعة، ويؤمن بعض الناس بأنها حقيقية بالمعنى الحرفي — حقيقية مثلما يكون تقرير عن الحالة المرورية أو تشخيص طبي حقيقيين. وهم يعتبرون هذه القصص تمثيلات دقيقة لأشياء وقعت بالفعل. لكن كثيرًا من العلماء يعتقدون بأن مثل هذه القصص لا يُحكَم عليها على أساس الدقة التاريخية أو العلمية. الواقع أن هذه القصص ظهرت بصفة عامة قبل وضع المعايير الحديثة للدقة التاريخية والعلمية. وغالبًا ما تتعلق بأشياء في غياهب ما قبل التاريخ، وأحيانًا ما تتعلق بأشياء في المستقبل البعيد. وهي بهذا الوصف تفُوق قدرات مملكَتَي التاريخ والعلم. لكننا على كل حال نُجِلُّ هذه القصص لأنها تساعدنا في فهم مَن نحن، وتجيب عن بعضٍ من أكثر الأسئلة إلحاحًا في الحياة، ومنها: لِمَ تحدث الأمور السيئة، ومَن هم الجديرون بالثقة، وماذا قد يحدث بعد؟

حينما نستمع إلى قصص مثل قصة آدم وحَوَّاءَ في الجنة، ينتابنا أحيانًا إحساس بأننا على صلة بواقعٍ أسمَى؛ وكأننا في مملكة المتعالي؛ مملكة تسمو على الأوهان والقيود التي تسم الواقع اليومي. يشيع تناقل خرافات من هذه النوعية في الأديان بكثرة حتى إن كثيرًا من العلماء يُدرجون الخرافات ضمن المكوِّنات الأساسية للأديان. مثال آخر لهذه النوعية من الخرافات هو «قصة الخلق» في الكتاب المقدس والقرآن؛ وفق هذه القصة، خلَق اللهُ — الذي له طبيعة شخصية، وهو واحد وقدير — الأرضَ وكل ما عليها في بضعة أيام فقط، وأمدَّها بكل ما يلزم لأجَلِّ مخلوقاته، البشر. تُقدِّم لنا قصص كهذه معيارًا للتيقن من أن الأشياء هي كما ينبغي لها من حيث الأساس، وسببًا للمضي قُدمًا حتى في أحلك الظروف.

حينما تُرى الخرافات في الدين وفق هذه الرؤية، يمكن اعتبارها حقيقية — بطريقتها الفريدة؛ فهي تقدِّم السياق، والاستمرارية، والطمأنينة للمجتمعات التي تتشاركها. وبهذا،

تكون حقيقية من وجهة نظر من يؤمنون بها. تحدَّث المؤرخ الروماني سالوست الذي عاش في القرن الرابع وفق هذه الرؤية حينما قال: «الخرافات أمور لم تحدث قطُّ لكنها كائنة دائمًا» (سالوست، ١٩٩٦). ووصف جوزيف كامبل، أحد أشهر علماء الخرافة في القرن العشرين، الخرافات بأنها «الرحم الذي تتذوق فيه البشرية الحياة والموت» (١٩٦٩: ١٢). وتُعرِّف الأستاذة بجامعة شيكاجو، ويندي دونيجر (١٩٩٨)، الخرافات بأنها تعبيرات تخيلية عن تجارب بشرية عامة تتيح لنا التواصل عبر الثقافات. وتُبرز الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج (٢٠٠٥: ٤) الجانب المقدس من الخرافة بقولها إن الخرافات تتحدث عن «أفقٍ آخَر كائنٍ إلى جانب عالمنا، ويُقدِّم له العون بطريقة ما. والاعتقاد بهذا الواقع الخفي ولكنه الأقوى — الذي أحيانًا ما يُطلق عليه عالَم الآلهة — هو موضوع أساسي في علم الخرافة.» من وجهة نظر باحثين كهؤلاء، تشبه الخرافات بشدة ما قاله بابلو بيكاسو عن الفن: «أكذوبة تجعلنا ندرك الحقيقة» (بوروفسي، ١٩٢٣).

يحذِّر باحثون آخرون من مثل هذه النظرة الرومانسية إلى الخرافة، فيصف الأستاذ بجامعة شيكاجو، بروس لينكولن (٢٠٠٠: ١٤٧) الخرافات بأنها «أيديولوجية» في زي روائي.» والخرافات، من هذا المنطلق، وعلى غرار أي أيديولوجية أخرى، تؤسِّس الهوية، و«تُميِّزنا» من «الآخرين». وهي ترسِّخ أيضًا النظام الداخلي للجماعة، وتصبغه بالشرعية. يهتم لينكولن في المقام الأول بالخرافات التي قَبِلت ضمنيًّا، بل وشجَّعت، الهويات الإقصائية من النوعية التي تقلل من شأن الجماعات الأخرى، مثل أولئك الذين يروجون معاداة أوروبا للساميَّة. على عكس الطمأنينة التي تبعثها الآفاق المقدسة، تترك الخرافات التي تناولها لينكولن آثارًا عملية عميقة — ومدمرة أحيانًا.

يتخذ كُتَّاب أمثال كريستوفر هيتشنز، وسام هاريس، وريتشارد دوكينز نهجًا نقديًّا للخرافات الدينية أيضًا. يزعجهم أن كثيرًا من الناس لا يمكنهم التفريق بين نوعية الحقيقة «الخاصة» أو «المقدَّسة» التي تنقلها قصص علم الخرافة الخيالية، وبين الحقيقة العادية مثل تلك التي نجدها في الصحف. كثيرون لا يمكنهم التمييز بين الخرافة الخارقة وبين الحقيقة الحَرْفية. وهم يخفقون في إدراك أهمية التحقق من ادعاءات الحقيقة بدلًا من قبولها قبولًا أعمى على أساس أنها صادرة عن سلطة غير خاضعة للمساءلة. مرة أخرى، يمكن أن يُسفر هذا عن مشكلات جسيمة في الحياة الواقعية. خذ مثلًا قصة الخلق. شتان بين أن تجد فيها تأكيدًا أن الحياة لها غاية وهدف، وبين أن تتشبث بأن القصة صحيحة حرفيًّا، وأن أي عِلم آخر يثبت غير ذلك، مثل نظرية التطور، لا بد من رفضه باعتباره

هجومًا على مرجعية عليا لا يرقى إليها الشك. ومع ذلك؛ فهذا هو الواقع على ما يبدو. يشير استطلاع أجرته مؤسسة جالوب عام ٢٠١٢ إلى أن ٤٦ في المائة من الأمريكيين يؤمنون بأن تفاصيل قصة الخلق الواردة في سفر التكوين حقيقية بكل ما تحويه الكلمة من معنًى. يمثل هذا الرقم زيادة بنسبة ٢ في المائة عن عام ١٩٨٢، بما يعكس ميلًا نحو تدريس «عقيدة الخلق» بدلًا من العلم، أو اعتبارها خيارًا بديلًا مناسبًا. في عام ٢٠١٣ أفادت صحيفة «ذي نيويورك تايمز» بأن استطلاع رأي لأكثر من ٩٠٠ مدرس لمادة الأحياء في الولايات المتحدة كشف أن حوالي ١٣ في المائة يُدرِّسون أشكالًا متنوعة من قصة الخلق بوصفها «بدائل علمية صحيحة من النظرية التطورية الداروينية» (ريتش، ٢٠١٣). هذا على الرغم من قرار المحكمة الدستورية العليا بالولايات المتحدة حظر تدريس «خرافات الخلق» بوصفها علومًا (قضية «إدواردس ضد أجيلارد»، ٤٨٢ يو إس ٥٧٨، [١٩٨٧]). بالمثل، دفع انتشار عقيدة الخلق في أوروبا برلمان المجلس الأوروبي لإصدار قرار في عام ٢٠٠٧ بعنوان «مخاطر عقيدة الخلق في التعليم». يحذِّر القرار من أن إنكار العلم الذي تقوم عليه نظرية التطور، بسبب الإيمان المطلق بخرافة الخلق لدى جماعة معينة، من شأنه أن يقوِّض الأبحاث الضرورية للتعامل مع التحديات الكبرى التي تواجهها البشرية اليوم، مثل الأمراض الوبائية والكوارث البيئية.

نحن نُقدر ونحترم الفهم الأكاديمي للخرافات بوصفها قصصًا تنقل حقائق سامية — حقائق مُحصَّنة من صرامة المنهج العلمي. لكننا، لأغراض هذا الكتاب، نستخدم النظرة التشكيكية إلى الخرافات: أي اعتبارها مزاعم يشيع الاعتقاد بها غير مدعومة جيدًا بالأدلة التاريخية أو العلمية. سينصَبُّ تركيزنا على التقاليد الرئيسية في الغرب — اليهودية والمسيحية والإسلام. لكننا سوف نُدرج بعض القصص حول تقاليد غربية أصغر، بالإضافة إلى بعض الخرافات الغربية عن التقاليد الشرقية. وسنناقش أيضًا بعض المعتقدات الخاطئة الشائعة حول الأفراد الذين لا يعتنقون متعقدات دينية — الملحدين واللاأدريين.

المراجع

Armstrong, K. (2005) *A Short History of Myth*, Canongate, Edinburgh.

Borofsky, S. (1923) Picasso Speaks, The Arts, May 1923, in *Picasso: Fifty Years of His Art* by A.H. Barr Jr., published for The Museum of Modern Art by Arno Press, New York, 1980, www.gallerywalk.org/PM_Picasso.html (accessed January 10, 2014).

Campbell, J. (1969) *Bios and Mythos*, Scriptor Press, Portland, OR.

Council of Europe (2007) Resolution 1580: The Dangers of Creationism in Education. http://assembly.coe.int/main.asp?link=/documents/adoptedtext/ta07/eres1580.htm (accessed January 6, 2014).

Doniger, W. (1998) *The Implied Spider: Politics and Theology in Myth*, Columbia University Press, New York.

Gallup (2012) In U.S., 3 in 10 Say They Take the Bible Literally, July 8, www.gallup.com/poll/148427/say-bible-literally.aspx (accessed January 10, 2014).

Kushner, H. (2013) Letter. *New York Times* (Jul 29).

Lilienfeld, S.O., Lynn, S.J., Ruscio, J. and Beyerstein, B. (2010) *50 Great Myths of Popular Psychology: Shattering Widespread Misconceptions about Human Behavior*, John Wiley & Sons, Ltd, Chichester.

Lincoln, B. (2000) *Theorizing Myth: Narrative, Ideology, and Scholarship*, University of Chicago Press, Chicago.

Rich, M. (2013) Creationists on Texas panel for biology textbooks. *The New York Times* (Sep 28), http://www.nytimes.com/2013/09/29/education/creationists-on-texaspanel-for-biology-textbooks.html?_r=0 (accessed January 6, 2014).

Sallustius (1996) Concerning the Gods and the Universe, Ars Pub.

(٢) من أين تأتي الخرافات؟

ثمة سمات عديدة يتَّسم بها البشر، وتجعلهم ميَّالين إلى خلق خرافات كتلك الواردة في هذا الكتاب وتداولها. سنتناول ثمانيًا من هذه السمات. الأولى والأكثر إطراءً لصورتنا الذاتية البشرية هي أننا — كما قال الفيلسوف القديم أرسطو — حيوانات «عاقلة». نحن نسعى على الدوام إلى فهم العالم من حولنا، وإدراك المراد مما نمر به. نصبو إلى تفسير لما يجعل بعضنا حلفاء والبعض الآخر أعداءً، وكيف ننجح، ولماذا أخفقنا، وأمور أخرى لا حصر لها.

وفي محاولة فهم العالم، نبحث عن أوجه التشابه بين التجارب الحالية وتجارب الماضي. ونربط الأمور الجديدة بما نعرفه بالفعل، ومِن ثَمَّ نكوِّن مفاهيم عن أنواع الأشياء، كما هي الحال عندما نصنف أحد المعارف الجدد على أنه «طالب» أو «مسلم». وبالتفكير بهذه الطريقة، نخلق على نحو فطري تعميمات حول كل أعضاء الجماعة أو معظمهم، بناءً على سمة معينة قد يتصف بها بعض أعضاء الجماعة؛ فعلى سبيل المثال، إن كنا مررنا بواقعة سيئة مع شخص ما، فغالبًا ما نكوِّن فكرة نمطية سلبية عن كل أعضاء الجماعة التي يمثلها هذا الفرد لنا أيًّا ما كانت.

سمة ثانية يتصف بها البشر، وتدفعنا إلى إنشاء الخرافات، هي أننا حيوانات «اجتماعية». نحن نولد في جماعات، ومن هذه الجماعات نتلقى الرعاية؛ فعائلتنا ومجتمعنا هما المصدران الأوَّلان لسلامتنا وأمننا. من ثم، يتعين علينا أن نتمكن من تحديد جماعتنا وتعلُّم العيش معهم في تناغم، وأن نستطيع التمييز بينهم وبين أولئك الذين قد يمثلون تهديدًا لنا. عاش البشر الأوائل، مثلما لا يزال كثيرون يعيشون، في قبائل. والتعايش مع بقية قبيلة الفرد يستلزم تتبُّعًا لهويتهم جميعًا، ونوعية الصلات بين كلٍّ منهم، وهل هم متعاونون أم خطرون، وما إلى ذلك. تقول إحدى النظريات المعنية بسبب تطور العقل البشري بسرعة كبيرة للغاية خلال الثلاثة ملايين سنة الأخيرة إن أسلافنا؛ إذ تخلَّوا عن حياة الغابة وبدءوا يعيشون في جماعات اجتماعية في إقليم السافانا الأفريقي، احتاجوا إلى تذكُّر المزيد والمزيد من المعلومات عن أعداد أكبر وأكبر من الناس. لهذا يختص جزء كبير من العقل البشري اليوم بالتعرف على الوجوه وتسجيل معلومات أساسية عنها. ولهذا السبب أيضًا تتعامل خرافات كثيرة جدًّا مع تعريف جماعتنا البشرية باعتبارها متميزة من الجماعات الأخرى.

لا نواكِب مَن يفعل ماذا مع من ولمن من خلال الملاحظة المباشرة وحدها، ولكن أيضًا من خلال التحدث مع الأفراد عن الأفراد الآخرين الغائبين، وهذه سمة ثالثة يتسم بها البشر، وتؤدي بهم إلى إنشاء الخرافات: أننا حيوانات «نمَّامة».

سمة رابعة تجعلنا صانعي خرافات هي أننا حيوانات «أخلاقية»؛ فعند التفكير في الأفراد والتحدث عنهم، نُقوِّم أمانتهم، وسخاءهم، وشجاعتهم، وولاءهم للجماعة وما إلى ذلك — أو افتقارهم إلى هذه الخصال. ومثلما تميل القصص التي نخلقها عن جماعتنا إلى تسليط الضوء على النقاط الإيجابية التي تنعم بها، تميل القصص التي نسردها عن الغرباء إلى إبراز لماذا ينبغي ألَّا نثق بهم. حقًّا، تشوِّه معظم الخرافات المتعلقة بالجماعات

الأخرى، شأنها شأن معظم النميمة، صورة الآخرين. وكما سنرى، قلَّما تمتدح الخرافات ديانات الآخرين.

السمة الخامسة التي يتسم بها البشر وتحْدوهم إلى خلق الخرافات هي أننا حيوانات «قصَّاصة»؛ فعلى مدار عشرات الآلاف من السنين في كل أنحاء العالم، ابتدع الناس الروايات — لتفسير الأحداث، والإشادة بالأبطال، وتعليم الأطفال العِبَر الأخلاقية، وليُسليَ بعضهم بعضًا، ولأغراض أخرى كثيرة. ونحن نخزن المعلومات عن الأفراد في صورة حكايات عنهم في المقام الأول، وقبل اختراع الكتابة منذ بضعة آلاف من السنين، كانت القصص هي الشكل الأساسي الذي حفظ البشر فيه معظم المعلومات عن أي شيء على الإطلاق. يمثل هذا أكثر من ٩٨ في المائة من تاريخنا، ومِن ثَمَّ فلا عجب أننا لا نزال نهوى ابتداع القصص الجيدة، وسردها، والإنصات إليها.

لسنا قصَّاصين وحسب، لكننا قصَّاصون متخيِّلون، وهي سادس سمة تحدونا إلى صنع الخرافات. فإذا كانت القصص تنقل معلومات دقيقة في بعض الأحيان، فالدقة ليست سمة ضرورية للقصص الجيدة. يحب البشر سرد القصص حبًّا جمًّا، حتى إنهم بدءوا منذ زمن سحيق في خلق ما نطلق عليه الآن «السرد التخيلي». وكما أشار والتر أونج (١٩٨٢) في أبحاثه بشأن الثقافات الشفهية، كلما ازدادت القصة إبداعًا، زاد احتمال تذكُّرها. هكذا، إن كنا نسرد قصة عن أحد الأسلاف الذي نُقدِّر شجاعته وقوته، فربما تكون أوصاف الشجاعة والقوة الاستثنائية — بل والخارقة — هي الأكثر احتمالًا أن يتناقلها الناس من جيل إلى جيل. بالمثل إن كنا نشعر بالتهديد من جماعة بعينها، فإننا قد نغالي بشدة في تضخيم خصالهم السلبية.

تستدعي هذه النقطة بشأن الأبطال الذين نعجب بهم والأشرار الذين نخشاهم سمة سابعة يتصف بها البشر وتحدوهم إلى خلق الخرافات، ألا وهي أننا حيوانات «عاطفية»؛ فلكي تشدَّ انتباهنا قصة، ونتذكرها، ونتناقلها، سيسهل الأمر إذا كانت تثير مشاعر مثل الإعجاب بالأبطال، والخوف، والرغبة الجنسية، والرهبة، والفخر بجماعتنا، وكره الجماعات الأخرى. يتأفف بعض الناس اليوم من كمِّ الجنس والعنف اللذين يعج بهما الإعلام، لكن لطالما كان الجنس والعنف هما محور سرد الحكايات، بدايةً من الكتاب المقدس والأدب اليوناني. انظر إلى القصة الواردة في الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني حول الكيفية التي دبر بها داود الملك، بعد أن حملت منه بثشبع، مقتل زوجها في الحرب. وفكر في مسرحية سوفوكليس التراجيدية «الملك أوديب» التي يقتل فيها أوديب أباه ويتزوج أمه.

تحوِّل المنطقة ذاتها من المخ التي تعالج المشاعر — الجهاز الحوفي — الذكريات القصيرة الأجل إلى ذكريات طويلة الأجل أيضًا. وعادة ما تكون الخبرة المباشرة بحدث مثير عاطفيًّا هي أقوى وسيلة لجعل شيء ما يؤثر فينا وينحفر في ذاكرتنا طويلة الأجل، لكن ربما تكون ثاني أقوى وسيلة هي قصة مؤثرة عاطفيًّا.

لا تمنح الأساطير معنًى لما نمر به فقط، ولكن لما نفعله أيضًا. بالأساطير يمكننا أن نبرر أفعالنا؛ فعلى سبيل المثال، حينما تضطهد جماعةٌ ما جماعةً أخرى، فغالبًا ما تُستخدَم الخرافات السلبية عن الجماعة المستهدَفة تبريرًا: هؤلاء الناس يسمِّمون آبارنا، ويخطفون أطفالنا، ويعبدون الشياطين، ويزاولون السحر الأسود، وما إلى ذلك. الخرافات التي سندرسها عن اليهود والمسلمين وغير المؤمنين على سبيل المثال، كانت على الأغلب من صنع أعدائهم. لقد استهللنا قائمة الصفات البشرية التي تجعلنا ننزع إلى خلق الخرافات بقول إننا حيوانات عاقلة، لكننا يمكن أن نضيف أيضًا مع سيجموند فرويد أننا حيوانات «معقلِنة» — وهذه صفتنا الثامنة — ولا أقول هذا على سبيل الإطراء.

في ثقافتنا العلمية التكنولوجية، قد نظن أننا تخطينا مرحلة الخرافات، لكن قضاء ساعة في قراءة الصحف الصفراء، أو تصفح الإنترنت، أو مشاهدة برامج التليفزيون، يُبيِّن أن هذه الخصال البشرية الثماني والخرافات التي تنضح بها لا تزال حية ويانعة. لا نزال نمَّامين نفكر وفق صور نمطية عرقية ودينية. ولا نزال نحب قصة تستثير الإعجاب بالأبطال، أو الخوف، أو الرغبة الجنسية، أو الرهبة، أو الفخر بجماعتنا، أو كره الجماعات الأخرى. ولا نزال عرضة للقَبَلية كما يتجلى في ولائنا لجيش بلادنا، وفرقنا الرياضية. ولا ينتعش تقديس الأبطال في الحياة العسكرية والرياضية فحسب، ولكن أيضًا في صناعة الأفلام والموسيقى. ولا يزال رهاب الأجانب — الخوف من الناس من خارج الجماعة — مستشريًا، كما يتضح من استمرار معاداة الساميَّة ومن الإسلاموفوبيا.

لم تفعل وسائل الإعلام الإلكتروني إلا أن جعلت صنع الخرافات وتداولها أيسر وأسرع. وغالبًا ما يُطلق على الخرافات الحديثة «الخرافات الحضرية» أو «الأساطير الحضرية»، وقد أنشأ الأفراد مواقع إلكترونية كاملة لتقصِّيها. على سبيل المثال، يصف موقع Snopes.com نفسه بأنه «المصدر المرجعي الحاسم على الإنترنت للأساطير الحضرية، والتقاليد الشعبية، والخرافات، والشائعات، والمعلومات المغلوطة.» ويختبر برنامج «ميثباسترز» التليفزيوني الأمريكي (على قناة ديسكفري) الخرافات الحضرية، مثل الزعم بأن طلاء الجسم بالذهب أو الضرب بعملة أُسقطت من أعلى مبنى إمباير ستيت يمكن أن يكون مميتًا. يتعلق كثير

من الأساطير الحضرية بالدين، مثل خبر علماء الجيولوجيا الذين كانوا يحفرون في سيبيريا، واخترقوا الجحيم بالمصادفة، أو خبر «مشروع المجيء الثاني» الذي يحاول استنساخ يسوع من الحامض النووي لرفاته، أو الزعم بأن بعض شركات الطيران ترفض أن تضع على متن الطائرة طاقم قيادة مكوَّنًا من طيار مسيحي ومساعد طيار مسيحي حيث يمكن أن يُختطف كلاهما في عملية «اختطاف المؤمنين إلى السماء»، فتُترك الطائرة لتتحطم. سنترك هذه النوعية من الخرافات لموقع «سنوبس» وبرنامج «ميثباسترز»، ونركز نحن على عينات من بعض خرافات العالم الأكثر صمودًا، وهي تندرج ضمن الفئات العامة الآتية:

- معتقدات خاطئة شائعة عن الأديان بصفة عامة.
- معتقدات شائعة حول أصول أديان متنوعة تَبيَّن في ضوء الأبحاث التاريخية أنها موضع شك.
- معتقدات في إطار التقاليد الدينية، يشيع الاعتقاد بها، لكنها ليست جزءًا من مذهب رسمي.
- مزاعم زائفة عن معتقدات مجتمعات دينية معينة وممارساتهم، يتمسك بها أناس من خارج تلك المجتمعات.

المراجع

Ong, W. (1982) *Orality and Literacy*, Routledge, New York.

Snopes.com (accessed January 6, 2014).

الفصل الثاني

خرافات عن الأديان عمومًا

(١) لكل المجتمعات أديان.
(٢) يتعلق الدين بالروحي.
(٣) يتعلق الدين بالخارق للطبيعة.
(٤) يتعلق الدين بالإيمان أو الاعتقاد.
(٥) العبادة ركن من أركان الدين.
(٦) الدين شأن شخصي.
(٧) سيحل العلم محل الدين في النهاية.
(٨) يتسبب الدين في العنف.

مقدمة

يظن معظم الناس أن لديهم فكرة جيدة إلى حد ما عمَّا هو الدين، وكثيرون ممن يكبرون في ظل تقليد ديني واحد يستخدمونه نموذجًا للأديان عمومًا. وحينما يسمعون بأديان الآخرين، يبحثون عن أوجه التشابه مع دينهم، ويفترضون أن لديهم فهمًا أساسيًّا عن الأديان الأخرى. بعبارة أخرى، يستخدمون دينهم قالبًا لكل الأديان. تكمن المشكلة في أنه طالما كان هناك تنوع هائل من الأديان المختلفة عبر التاريخ. وفق «الموسوعة المسيحية العالمية» (باريت وآخرون، 2001: vi)، يوجد الآن أكثر من عشرة آلاف ديانة، وهي تختلف في جوانب كثيرة.

على سبيل المثال، كلٌّ من الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية (الروم الأرثوذكس) وكنيسة يسوع المسيح لقدِّيسي الأيام الأخيرة (المورمون) مسيحيتان، بيد أنهما تختلفان في فهمهما

لما أعلنه الله، ومن يكون يسوع، وماذا يحدث بعد الموت، وعشرات من الأمور الأخرى. ومن بين تقاليد اليهودية والمسيحية والإسلام التوحيدية الغربية؛ ترفض اليهودية فكرة أن يسوع هو «المسيَّا»، والمسيحية تقبل هذه الفكرة، وتقول إن يسوع هو الله أيضًا، والإسلام يقبل أن يسوع هو المسيح، بل وأنه سيأتي أيضًا مرة أخرى، لكنه يرفض فكرة أن يسوع هو الله. تتجلى اختلافات أكبر من ذلك حينما نقارن التقاليد التوحيدية الغربية بالتقاليد الشرقية للهندوسية والبوذية. في النظرة الغربية للعالم، الزمن خطي. كانت للكون بداية، وسوف تكون له نهاية، وكل حدث يحدث مرة واحدة فقط. أما في رؤيتَي العالم الشرقيتين الهندوسية والبوذية، فالوقت دائري. الكون موجود دائمًا، وأُعيد تشكيله وهدمه ملايين المرات. وكل إنسان أيضًا وُلد وعاش ومات ما لا يُحصى من المرات في خضم العملية التي تُعرف بالتقمُّص (تناسخ الأرواح).

تختلف التقاليد الغربية والشرقية أيضًا من حيث طريقة تفكيرها في الحقيقة المطلقة. في اليهودية، والمسيحية، والإسلام، الحقيقة المطلقة هي الله — خالق الكون، ومَلِكه، وقاضيه. الله يحكم الكون بإعطاء الأوامر، وسوف يحاسِب كل إنسان بعد الموت بناءً على مدى اتباعه هذه الأوامر، وسيكافئه أو يعاقبه. أما في الهندوسية فالحقيقة المطلقة هي «براهمان» الذي يسمو على كل الآلهة. ووفقًا لإحدى الأفكار القديمة الواردة في النصوص المقدسة للهندوسية المعروفة باسم «الأوبانيشاد»، فبراهمان هو نفسه أيضًا «أتمان» — النفس أو العقل — مِن ثَمَّ، فوعي كل شخص هو حقيقة مطلقة. لكن البوذية تتخذ وجهة نظر مختلفة إلى الحقيقة المطلقة. لم يُعلِّم مؤسسها «سيدهارتا جوتاما» عن آلهة، وذكر أنه لا يوجد براهمان ولا أتمان. والواقع أنه علم أن كل شيء يتغير باستمرار؛ مِن ثَم فما من مواد باقية على الإطلاق. فما أراه على أنه نفسي — أي جوهري الذي يبقى هو نفسه من يوم لآخر وسنة لأخرى — هو وهم. من وجهة نظر البوذية، الحقيقة المطلقة ليست إلهًا من الآلهة أو براهمان، وإنما هي حالة ذهنية تُسمى «نيرفانا». وهي حالة من البهجة، لكن أهم ما يميزها هو المفقود؛ فهي شبيهة بنوم بلا أحلام. يقولون إنك تصل إلى النيرفانا عندما تكف عن التعلُّق بكل الأوهام التي جعلتك تُعاني وتولَد من جديد، مثل الاعتقاد بأنك مادة خالدة. وفيما يكون هدف الحياة في أغلب الأديان التوحيدية (الزرادشتية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام، والبهائية) هو بلوغ السماء والوجود مع الله؛ فإن هدف البوذية هو الوصول إلى حالة النيرفانا؛ أي إنه بينما تكون فكرة الأديان التوحيدية عن الجنة هي أن تُحقَّق لك رغباتك، ففكرة النيرفانا هي أن تُخمَد رغباتك.

يقول البوذيون؛ إذ يشبِّهون الرغبة بلهب الشمعة، إن النيرفانا هي إطفاء الشمعة. قد تبدو الهندوسية أقرب إلى الأديان الغربية من البوذية لأنها تنطوي على وجود آلهة. لكن بدلًا من الإله الواحد في الأديان التوحيدية، هناك ٣٣٠ مليون إله (في الهندوسية) — وإن لم يكن المقصود أن يُؤخذ هذا الرقم مأخذًا حرفيًّا — وهم لم يخلقوا الكون، ولا يحكمونه، ولا يترأسون في «يوم الدينونة الأخير»، ولا يكافئون الناس ويعاقبونهم بإرسالهم إلى السماء أو الجحيم.

من الموضوعات الأخرى التي تختلف فيها التقاليد الغربية عن الشرقية الحياة بعد الموت؛ ففي الأديان الغربية، نحن نعيش على الأرض مرة واحدة، وغاية وجودنا هي عمل مشيئة الله. وعادة ما يُوصف ذلك بعبادة الله وطاعته. عصيان الله خطيئة تحتاج إلى مغفرة الله. وبعد الموت سيحاسبنا الله؛ وعندئذٍ إما سنُكافأ أو نُعاقَب في عالم آخر — السماء أو الجحيم كما يُطلق عليهما في معظم الطوائف — حيث سنكون إما مع الله، أو ننفصل عنه. المشكلة الكبيرة في الحياة إذًا هي الانفصال عن الله بفعل الخطيئة، والحل الكبير هو العودة لنكون مع الله من خلال ما يُطلق عليه المسيحيون الخلاص أو الفداء. في المقابل، لا تُخلق الفضيلة في كلٍّ من الهندوسية والبوذية بأوامر إلهية، لكنها مبنيَّة في الكون في صورة «كارما» — عدالة العالم الطبيعية. الأعمال الطيبة تقود على نحوٍ طبيعيٍّ إلى نتائج طيبة، والأعمال السيئة تقود بالطبيعة إلى عواقب سيئة، ولا يتعين على إله أن يدين، أو يجازي، أو يعاقب. وحين الموت ننتقل إلى حياة تالية، لكن تلك الحياة على الأرض، وليست في السماء أو الجحيم. نحن نتناسخ.

إذًا، كل افتراض بأن الأديان كلها متشابهة هو افتراض مفعم بالمشكلات؛ فهي لا تختلف فقط من حيث رؤية العالم، وادعاءات الحقيقة، ولكنها تختلف اختلافًا عميقًا في المجال — جوانب الحياة التي يتعاملون معها. بينما تتميز تقاليد بالاعتقاد بما وراء الطبيعة، وما يرتبط بذلك من طقوس وقيم، تَعتبر تقاليد كثيرة أن الحياة بأكملها هي مجال الدين، ومن ذلك القانون، والحُكم، وعلوم الصحة. بعد أن أدرك مثل هذا التنوع باحث القرن التاسع عشر الألماني ماكس مولر — الذي يُعزى إليه الفضل في تطوير الدراسة الأكاديمية للدين (الدراسات الدينية)، حذَّر من التعميم بشأن الدين بناءً على تجربة الفرد، وكثيرًا ما يُقتبَس قوله: «من يعرف واحدة، لا يعرف أي واحدة.»

في هذا الفصل، نحدد بضعة معتقدات خاطئة شائعة حول طبيعة الدين، معظمها ينبع من الميل نحو التعميم بشأن الأديان كافةً بناءً على القوالب المستمدة من أحد الأديان أو من بضعة أديان.

المراجع

Barrett, D., Kurian, G. and Johnson, T. (eds) (2001) *World Christian Encyclopedia*, 2nd edition, Oxford University Press, New York.

(١) لكل المجتمعات أديان

لا تشترك الأديان جميعها في مجموعة المعتقدات نفسها، لكن يوجد الدين بشكل أو بآخر في كل المجتمعات البشرية المعروفة. (أشيلي كروسمان (على الإنترنت))

استُخدِمت عبارة «الأديان العالمية» أول ما استُخدمت حينما عُقد أول برلمان لـ «أديان العالم» في شيكاجو عام ١٨٩٣. ولم يكن التمثيل في البرلمان شاملًا. بطبيعة الحال، هيمن المسيحيون على الاجتماع، وكان هناك تمثيل لليهود، أما المسلمون فقد مثلهم مسلم أمريكي واحد. ومثَّل تقاليد الهند المتنوعة تنوعًا هائلًا معلِّم واحد، بينما مثَّل ثلاثة معلِّمين ما يقال إنه التيارات الأكثر تناغمًا في الفكر البوذي. ولم يكن هناك تمثيل للأديان الأصلية للأمريكتين وأفريقيا. بيد أنه منذ انعقاد البرلمان، ساد الاتفاق على تحديد اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والهندوسية، والبوذية، والكونفوشية، والطاوية باعتبارها أديانًا عالمية. وأحيانًا ما يُطلق عليها «السبعة الكبار» في الكتب الأساسية في «الدراسات الدينية»، وكثير من التعميمات المتعلقة بالأديان استُمدت منها.

يتشكك العلماء باطراد في هذا التشخيص. ومن أسباب هذا أنه يستند إلى معايير مشكوك فيها بصدد ما يجعل «السبعة الكبار» تُعَد «أديانًا عالمية». لا يمكن إرجاع ذلك إلى أعداد أتباعها الغفيرة؛ فاليهودية تقع في مرتبة أقل بكثير من الشنتوية والسيخية بهذا المعيار، وهما لا يُعتبران «دينين عالميين». يمكن اعتبار اليهودية واحدًا من «الأديان العالمية» لأنها تُمثل أساس أكثر ديانتين أتباعًا في العالم — المسيحية والإسلام — لكن إذا كان هذا هو المعيار، فينبغي أن تُحسب الزرادشتية من الأديان العالمية أيضًا بسبب تأثيرها في اليهودية، والمسيحية، والإسلام. إذا فكرنا في «الأديان العالمية» على اعتبار أنها الأديان التي يعتنقها الناس في مناطق مختلفة من العالم، فلِمَ تُحسب الديانتان الكونفوشية والطاوية من بينها؟ ومع ذلك، فالأدهى أن تعبير «الأديان العالمية»، على ما يبدو، يشير ضمنًا إلى أن كل المجتمعات تملك شيئًا يمكن تمييزه على أنه دين، تمامًا مثلما تملك المجتمعات كافةً لغة. (في الواقع، كانت اللغة هي بالضبط الندَّ الذي استخدمه مولر عندما

استهل الدراسة البحثية للأديان. واستعار عبارة «من يعرف واحدة، لا يعرف أي واحدة.» من دراسة اللغات.) والنظر إلى الدين بهذه الطريقة يمكن أن يجعل الأفراد أكثر تسامحًا مع الأديان الأخرى، مع أنه يشيع بين الأفراد الاعتقاد بأن دينهم — وحده من بين كل أديان العالم — هو الأسمى. في كلتا الحالتين، فكرة أن ما نفكر فيه باعتباره دينًا في ثقافتنا له نظير في كل الثقافات الأخرى هي فكرة تنطوي على مشكلات في رأي كثير من العلماء المعاصرين.

إحدى المشكلات التي تنطوي عليها فكرة أن كل المجتمعات لها أديان أنها تفترض، في أقل تقدير، أن الأمور أو جوانب الحياة التي تُصنَّف على أنها «دينية» يمكن تمييزها من الأمور أو الجوانب التي تقع خارج هذه الفئة. ومعنى ذلك أنها تفترض أن هناك جوانب للحياة لا يشملها الدين. بيد أنه في حقيقة الأمر، لا يوجد هذا التصنيف للدين في كل المجتمعات اليوم، ولم يكن له وجود قبل عام ١٥٠٠. بل إن كثيرًا من اللغات لا تحتوي على كلمة مساوية للكلمة الإنجليزي religion («دين»)، ولا توجد مثل هذه الكلمة في الكتاب المقدس أو القرآن ولا يتحدث أيٌّ من قبائل السكان الأصليين في الأمريكتين، على سبيل المثال، عن «الدين» باعتباره شيئًا متميزًا من بقية الحياة.

وفقًا لكثير من المؤرخين، استُخدِم مفهوم «الدين» أول ما استُخدم في أوروبا في القرن السادس عشر للتمييز بين مضمار سلطة الكنيسة وبين مضمار السلطات المدنية. وفرَّق الملوك والأباطرة الذين راموا الحصول على بعض الولاء والخدمة التي اختص بها الناس الأساقفة والبابا ما بين «الدين» و«السياسة»؛ فعلى سبيل المثال، لبناء الدول القومية، أراد الملوك والأباطرة احتكارًا للاستخدام الشرعي للقوة أو العنف، واقتضى ذلك تخلِّي قادة الكنيسة عن سلطتهم في بناء الجيوش، كما سبق أن فعلوا في الحملات الصليبية. وفي آخر المطاف، طالب الملوك والأباطرة بالسيطرة الكاملة على الأمور المتعلقة بـ «هذه الدنيا» — أي العالم العلماني (كلمة «علماني» أو «سِكْيولار» بالإنجليزية مشتقة من كلمة «سيكَلَم» saeculum اللاتينية التي تشير إلى الأشياء الموجودة في الأزمنة العادية). لقد أرادوا سنَّ القوانين وإنفاذها، وجبي الضرائب، وتنظيم التجارة، بالإضافة إلى شن الحروب. ومِن ثَمَّ، رغبوا في أن يقصر رجال الكنيسة أنشطتهم على الأمور التي تتعامل مع العالم «الآخر»؛ أي العالم الأبدي. لقد أرادوا إبقاءهم بعيدًا عن سياسة القوة، وقصر أدوارهم على أمور مثل تفسير الكتاب المقدس، وصياغة المذاهب، وإقامة الشعائر الدينية. هذه المسائل التي انتهى الأمر إلى تشخيصها على أنها «مقدَّسة» أو «دينية»، من وجهة نظر المسيحيين، صارت هي المجال المناسب للدين.

على أن كلمة «دين» لم تكن جديدة في القرن السادس عشر، فقد استخدمت المجتمعات الغربية القديمة والقروسطية المصطلح اللاتيني «ريليجيو» religio الذي أشار إلى فضيلة تنفيذ المرء التزاماته الاجتماعية كافة — تجاه العائلة، والجيران، والحكَّام، والله. وكان معنى أن يكون لديك «ريليجيو» هو أن تكون مسئولًا في جميع مناحي الحياة. وحينما وصل مصطلح «ريليجيو» إلى اللغة الإنجليزية في صورة كلمة religion نحو عام ١٢٠٠، اكتسب معنًى مختلفًا كما يخبرنا «قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية»، وهو: «حالة حياة مرتبطة بالنذور الرهبانية.» سيكتب المسيحيون بعد ذلك عن «ديانات» الرهبان «البنديكتيين» و«الفرنسيسكان» و«الدومينيكان» (كافانوغ، ٢٠٠٩: ٦٤). والآن يتغير معنى المصطلح مرة أخرى ليعني فقط جوانب الحياة التي تحكمها السلطات الكنسية.

ليعظم الملوك والأباطرة من قوتهم، أبرموا الاتفاقيات، مثل «صلح أوجسبورج» عام ١٥٥٥ الذي أرسى مبدأ «كيوسو رجيون إيوس ريليجيو»، وهي عبارة لاتينية تعني أن يكون «الناس على دين ملوكهم». ما كان لمثل هذه المحاولات لنزع السلطة من قادة الكنيسة أن تنجح بالكامل؛ لأن السلطات الكنسية أحكمت قبضتها على جانب كبير من السلطة «السياسية» لقرون. احتفظ البابا حتى عام ١٨٧٠ بقوة مليك مطلق على الدول البابوية لشبه الجزيرة الإيطالية — منطقة تبلغ مساحتها ضعف ولاية ماساتشوستس — كما لا يزال يحتفظ اليوم بحكم الدولة الأصغر كثيرًا التي تُدعى «مدينة الفاتيكان». لكن الفكرة الجديدة بتمييز «الدين» من «السياسة» كانت قد ترسَّخت.

حينما استعمر المسيحيون الأوروبيون آسيا وأفريقيا، طبقوا «الدين» بهذا المعنى الجديد على المجتمعات هناك، وفي خضم ذلك أنشَئوا مفاهيم جديدة مثل «الهندوسية»، و«البوذية»، و«الكونفوشية» و«الطاوية». وصنَّفوا هذه المفاهيم مع مئات من التقاليد الأصغر على أنها أنواع داخل فصيلة «الدين»، مثلما ينتمي كلٌّ من الأسد والنمر إلى جنس السباع. كما دأب العلماء على أن يقولوا، منذ أن أصدر ويلفرد كانتويل سميث كتابه المميز عام ١٩٦٢ «معنى الدين ونهايته»، إن فرض هذا المفهوم الأوروبي للدين على الثقافات غير الأوروبية يشوِّه ما يفعله الناس وما يظنونه في بقية العالم. على سبيل المثال، قُبيل استعمار بريطانيا للهند، لم يكن لدى الناس هناك مفهوم «الدين» ولا مفهوم «الهندوسية». بل، ولم يكن هناك ذكر لكلمة «هندوس» في الهند القديمة، ولم يتحدث أحد عن «الهندوسية» قُبيل مطلع القرن التاسع عشر.

حتى استحداث هذه اللفظة، كان الهنود يُعرِّفون أنفسهم وفقًا لأي مجموعة من المعايير — كالعائلة، أو التجارة أو الحرفة، أو المستوى الاجتماعي، وربما وفقًا للكتب

المقدسة التي كانوا يتبعونها أو الإله المعين أو الآلهة التي يعتمدون على رعايتها لهم في مختلف السياقات، أو التي يكرسون أنفسهم لعبادتها. على أن هذه الهويات المختلفة كانت متحدة، كلٌّ منها جزء لا يتجزَّأ من الحياة؛ لم يكن أحدها موجودًا في مجال منفصل يُعرَف بأنه مجال «ديني». ولم تكن التقاليد المختلفة مجمَّعة معًا تحت مصطلح «الهندوسية»، يوحدها تشارُكُها في مثل هذه الخصائص العامة للدين بوصفه مؤسِّسًا، أو معتقدًا، أو لاهوتًا، أو تنظيمًا مؤسسيًّا واحدًا. ولعل أبرز صفة تشاركوا فيها — إلى جانب حقيقة أنهم كانوا من شبه القارة الهندية (التي هي لب معنى لفظة «هندوسي») — هي أنهم لم يكونوا يهودًا، أو مسلمين، أو مسيحيين. في حقيقة الأمر، ربما يرجع استخدام لفظة «هندوسي» إلى أول تعداد سكاني منهجي للهند أجرته بريطانيا عام ١٨٧١، واشتمل على الهوية الدينية ضمن إحصاءاته.

«البوذية» هي، بالمثل، مفهوم أوروبي يُجمِّع ما فعله واعتقده ملايين الناس على مرِّ ٢٥٠٠ عام، ويصنِّفه على أنه «دين». المؤسِّس المعلَن للممارسات المتنوعة المعروفة بالبوذية هو سيدهارتا جوتاما الذي أُطلق عليه «البوذا»؛ أي «اليقظ». على أنه لم يقدم تعاليم عن الله أو آلهة أو أرواح أو سماء أو جحيم أو خطيئة أو فداء أو معظم الأمور الأخرى المرتبطة بالمفاهيم الغربية للدين. تمحورت تعاليمه حول انتشار المعاناة وكيفية تقليلها. وكانت في اليونان القديمة أفكار مماثلة تسمى «الرواقية»، وكانت تُصنف على أنها فلسفة. وأحيانًا ما تُدرَس البوذية في الجامعات اليوم في أقسام الفلسفة، ويُصنَّف بعض الطرق البوذية تحت بند «علم نفس تنمية الذات». كان لب رسالته نفسانيًّا. تتلخص تعاليم البوذا في «الحقائق النبيلة الأربع»:

الحياة مليئة بالمعاناة.
سبب المعاناة هو التعلق (أو الاشتهاء).
يمكن التحرر من المعاناة من خلال التغلب على التعلق (أو الاشتهاء).
وسيلة وقف المعاناة هي «الطريق الثُّماني النبيل».

وعلى غرار «الحقائق النبيلة الأربع»، لا يتعلق «الطريق الثُّماني النبيل» بأمور الآخرة، ولكن بالطريقة التي يفكر بها البشر ويسلكون في كل جانب من جوانب حياتهم. والبنود الثمانية هي: الفهم السليم، والنية السليمة، والكلام السليم، والفعل السليم، والمعيشة السليمة، والسعي السليم، والانتباه السليم، والتأمل السليم. خليق بالأفراد إمعان التفكير

في أهدافهم، وتوطين أنفسهم على بلوغها، والتحدث والسلوك بطرق تعززها، واختيار مهن تبقيهم في الطريق القويم، ووضع أهدافهم نصب أعينهم دائمًا لتفادي الملهيات.

كثيرًا ما تُصنف «الكونفوشية» أيضًا على أنها فلسفة — للعلاقات الاجتماعية والحُكْم. والواقع أنه حتى القرن العشرين، كان لزامًا على من يسعون إلى الالتحاق بالوظائف الحكومية في الصين اجتياز امتحان في مبادئ الكونفوشية. وعلى غرار البوذا، لم يُقدِّم كونفوشيوس تعاليم تتعلق بالآخرة مثل الآلهة أو الأرواح أو الحياة الآخرة، ولكنه نظم الأفكار الصينية القديمة عن العلاقات الاجتماعية والحكم التي اعتُبرت جميعها جزءًا من النظام الكوني العظيم. تركز تعاليم كونفوشيوس على الطرق العملية لتحقق الاتزان والعيش في تناغم مع الكون. مرة أخرى، يشتمل هذا على كل جوانب الحياة، ومنها العمل والتعليم والفنون والحُكم.

بيد أن المبشِّرين والعلماء المسيحيين صنَّفوا فئة الكونفوشية على أنها نوع يندرج تحت فصيلة «الدين»، كما جمعوا أيضًا نثريات من الأفكار والممارسات الصينية التقليدية الأخرى تحت فئة «الطاوية» التي تعاملوا معها على أنها نوع آخر يندرج تحت فصيلة «الدين»، في حين أن الصينيين عمومًا ليسوا كونفوشيين ولا طاويين في حقيقة الأمر، ولكنهم يُدمجون في حيواتهم اليومية جوانب من تعاليم وطقوس من كلٍّ من التقاليد الكونفوشية والطاوية، بالإضافة إلى تلك المستمدة من مختلف المعلِّمين البوذيين. يُشار إلى تعاليم الكونفوشية والطاوية والبوذية على أنها «التعاليم الثلاثة» للصين. وتُعتَبر «التعاليم الثلاثة» «متناغمة كتعليم واحد»، وهي معًا تساعد الناس على أن يحيوا حيوات ناجحة.

هكذا تكوَّنت فكرة «الدين» الحديثة لتساعد الملوك الأوروبيين في تمييز سلطتهم من سلطة الكنيسة. على أن فصل الحياة إلى مجالين علماني وديني لم تشترك فيه أجزاء أخرى كثيرة من العالم. ونتيجة لذلك، لا يشبه «الدين» «اللغة» أو «استخدام الأداة»؛ فهو لا يُشير إلى حقيقة موضوعية توجد في أنحاء العالم وعلى مرِّ القرون.

يساعد هذا في تفسير لماذا لم يقدم باحثو الأديان تعريفًا وافيًا للكلمة ينطبق حتى على المسيحية واليهودية والإسلام والهندوسية والبوذية والكونفوشية والطاوية، فضلًا عن التقاليد العشرة آلاف الأخرى التي يصنفونها على أنها «أديان». حاول بعض الباحثين في القرن التاسع عشر تعريف لفظة «دين» على أنها علاقة مع الله أو الآلهة، غير أن هذا لا ينجح مع بوذية ثيرافادا، والكونفوشية، والطاوية، وغيرها من التقاليد التي لا تشتمل قوم على آلهة (بوذية ثيرافادا أقدم نوع من البوذية، وهي الأقرب إلى تعاليم البوذا. لا تشمل

الثيرافادا أي آلهة، لكن المذاهب البوذية اللاحقة، مثل أشكال بوذية ماهايانا، لها آلهة). وفشلت تعريفات أكثر إبهامًا لـ «الدين» بوصفه علاقة مع «العليِّ» لأسباب مماثلة. لا يبدو أن بوذية ثيرافادا لها علاقة بأي شيء وراء الكون أو خارجه، والأمر نفسه ينطبق على الكونفوشية. كان لقدماء الإغريق آلهة، ولكنهم لم يعتبروهم متعالين؛ إذ كان كلٌّ من زيوس وهيرا كائنين ماديين، بدوا كرجل وامرأة، وعاشا على مقربة من الناس على جبل الأوليمب.

في القرن العشرين، عانى الدارسون من أجل العثور على طرق شاملة لوصف «الدين». حدد باحث الأديان الشهير نينيان سمارت (١٩٩٩) سبع سمات للدين: الهوية الاجتماعية، والأخلاق، والشعائر، والخرافات، والمذاهب، والتجارب العاطفية، والأشياء والأماكن التي تبرز المقدسات. حاول عالم اللاهوت بول تيليش (تُوفِّي عام ١٩٦٥) تجاوز تعريفات «الدين» التي كانت تميل نحو التوحيدية الغربية من خلال تحليل الدين على اعتبار أنه يقوم على «الشاغل المطلق» للناس. وتبعه في ذلك باحثون كثيرون، لكن هذا التحليل يبدو أنه يسرف في الشمول لا في التحديد؛ فمن وجهة نظر بعض الناس، الفن أو الموسيقى أو الثروة أو حتى كرة القدم هي شاغلهم المطلق، لكن قلة من العلماء قد يرغبون في عَدِّ هذه الأمور أديانًا. توقف باحثون آخرون عن استخدام لفظة «دين»، وفعل كثير منهم ذلك تأثرًا برائد الدراسات الدينية البارز في القرن العشرين ويلفرد كانتويل سميث الذي وصف المفهوم الحديث، «الدين»، بأنه بنية غربية محضة اختزلت مجموعة هائلة من التجارب البشرية إلى «نظام لإقامة الشعائر أو المعتقدات» (سميث، ١٩٦٢: ٢٩). وإذ أدرك العلماء المعاصرون الغموض والالتباس اللذين يكتنفان لفظة «دين»، صاروا بصفة عامة يستخدمون اللفظة بحذر، مستعيضين عنها بلفظة «تقليد» حينما يشيرون إلى أديان غير المسيحية. واقترح بعض العلماء حتى تفادي التصنيفات المِلِّية لصالح «أنماط التدين» أو «أنماط انعدام التدين»؛ فبدلًا من تعريف الناس على أنهم يهود أو مسيحيون أو مسلمون على سبيل المثال، يقترح هؤلاء العلماء تعريفهم بأنهم متزمتون أو أصوليون أو شكوكيون بغض النظر عن مِلَّتهم. يعكس هذا الاعترافَ بأن اليهود والمسيحيين والمسلمين الأصوليين، على سبيل المثال، ربما تكون لديهم قواسم مشتركة فيما بينهم أكثر مما لديهم مع الشكوكيين أو المتحررين من بني دينهم. بالطبع، ليس من المحتمل أن يشيع هذا،

نظرًا إلى العواقب النفسية والاجتماعية للهوية الدينية، لكنه يُظهر حقًّا أهمية الاعتراف بأن «الدين» ليس فئة بسيطة.

المراجع

Cavanaugh, W. (2009) *The Myth of Religious Violence*, Oxford University Press, New York.

Crossman, A. (online) *Sociology of Religion*. About.com, http://sociology.about.com/od/Disciplines/a/Sociology-Of-Religion.htm (accessed January 6, 2013).

Smart, N. (1999) *Worldviews: Crosscultural Explorations of Human Beliefs*, Scribner, New York.

Smith, W.C. (1962) *The Meaning and End of Religion*, Fortress, Minneapolis MN.

قراءات إضافية

Masuzawa, T. (2005) *The Invention of World Religions: Or, How European Universalism Was Preserved in the Language of Pluralism*, University of Chicago Press, Chicago.

Morreall, J. and Sonn, T. (2011) *The Religion Toolkit: A Complete Guide to Religious Studies*, John Wiley & Sons, Ltd, Chichester.

Prothero, S. (2010) *God is Not One: The Eight Rival Religions that Run the World and Why Their Differences Matter*, HarperCollins, New York.

Teiser, S. (1996) The spirits of Chinese religion, in *Religions of China in Practice* (ed D. Lopez), Princeton University Press, Princeton.

Whitehouse, H. (2004) *Modes of Religiosity: A Cognitive Theory of Religious Transmission*, AltaMira Press, Walnut Creek, CA.

(٢) يتعلق الدين بالروحي

> أحبُّك ساجدًا في مسجدك، وراكعًا في هيكلك، ومصلِّيًا في كنيستك؛ فأنت وأنا أبناء دين واحد هو الروح. (خليل جبران، فنان وشاعر لبناني (نجار، ٢٠٠٨: ١٥٠))

تتصل فكرة أن الدين يتعلق بما هو روحاني اتصالًا وثيقًا بفكرة أن الدين يمكن فصله عن مجالات الحياة غير الدينية. هذا تمييز آخر يبرز في بعض الأديان، لكن ليس في جميعها أو حتى معظمها.

تُخبرنا القواميس أن الصفة «روحي» تقوم على «روح»، وأن «الروح» عكس المادة. كما يجيء في المعنى الأول للفظة «روحي» في «قاموس وبستر المختصر المنقح»:

> يتألَّف من الروح؛ لا مادي؛ غير جسماني؛ مثل جوهر أو كائن روحاني.

بذلك المعنى لـ «الروحي»، نجد أن طريقة أخرى للتعبير عن الزعم المتضمن في هذه الخرافة هي القول إن الأديان تتعلق باللامادي. من وجهة نظر مسيحيي اليوم تبدو هذه الفكرة مألوفة، وتتناسب والتمييز بين الجسد المادي والروح أو النفس اللامادِيين. لطالما كان المبشرون المسيحيون يصفون عملهم بأنه «إنقاذ الأرواح»، بمعنى إنقاذ الجزء اللامادي في البشر الذي سوف يقضي الأبدية في السماء أو في الجحيم.

حدث في العصور الوسطى أن اللاهوتيين المسيحيين الغربيين استحدثوا الفرق بين الجسد المادي وبين الروح أو النفس اللامادِيين. تأثر مفكرون أمثال أوغسطينوس، أسقف هيبو، وتوما الأكويني بالفلاسفة اليونانيين، ولا سيما أفلاطون الذي رأى الروح مركز الوعي وقلب هوية الفرد، بينما لم يكن الجسد ضروريًّا للشخص. يُطلق على هذه الرؤية اسم «الثنائية» dualism، وهي لفظة مشتقة من اللفظة اللاتينية «دو» duo بمعنى «اثنين». يعتقد الثنائيون أنه على الرغم من أن أجسادنا — لكونها مادية، وجزءًا من العالم الطبيعي — عرضة للتغيير، فثَمة شيء غير مادي يمنح الاستقرار والاتساق لهويتنا الفريدة. ويقول أفلاطون إنه على عكس الجسد المادي، فالروح خالدة بطبيعتها — مستحيل أن تموت. ولم يصف لاهوتيُّو القرون الوسطى الروح وحدها بأنها روحانية، لكن الله والملائكة والشياطين أيضًا.

وبالتمييز بين الروح والمادة، استطاع المسيحيون حينذاك التحدُّث عن «حيواتهم الروحية» على أنها مختلفة عن «حيواتهم المادية». وكما يخبرنا «قاموس أكسفورد

للغة الإنجليزية»، قُصد بلفظة «روحي» في القرن السابع عشر: «التعلق بأمور الروح أو مراعاتها مقابل الاهتمامات المادية أو الدنيوية.»

غير أن ديانات كثيرة لا تمييز فيها بين ما هو مادي وما هو روحي. تنطوي مئات الديانات التقليدية في الأمريكتين وأفريقيا، على سبيل المثال، على المذهب الروحي؛ أي الاعتقاد بأن كل الأشياء تُحرِّكها الأنفس أو الأرواح. وفقًا لهذه التقاليد، تحيط بنا الأرواح في أشياء مثل الأشجار والصخور؛ هي ليست جزءًا من مملكة غير مادية «روحانية».

ولا تتعلق الأديان الصينية التقليدية أيضًا بما هو «روحي»؛ فلطالما كانت الطاوية والكونفوشية تُعلِّمان الناس على مدار ٢٥٠٠ عام الطريقة التي يُنظَّم بها الكون، والكيفية التي يُفترَض أن يُنظم بها المجتمع، والكيفية التي ينبغي أن يعامِل بها الأفراد بعضهم بعضًا، دون أن تتحدث عن «الروحي». تُعلِّم الطاوية عن «الطاو»؛ أي «السبيل» التي تعمل وفقًا لها العمليات الطبيعية، وينبغي أن نتبعها. ينظر الطاويون إلى الحياة نظرة شمولية دون إقامة فرق جذري بين ما هو مادي وما هو غير مادي. وينطبق الشيء نفسه على الكونفوشية. قدَّم كونفوشيوس تعاليم عن نظام أخلاقي يحترم فيه الناس ويراعون بعضهم بعضًا. الفضيلة الأساسية في الطاوية هي «وُو-وي»، بمعنى العيش وفقًا لسبيل الكون (الطاو)، بدلًا من محاولة التحكم في الأحداث. يتشارك كلٌّ من الطاوية والكونفوشية نظرة إلى العالم تسودها الطاو؛ فهي تتغلغل في كل الأمور والأحداث المحيطة بنا، وليست في مملكة غير مادية منفصلة.

ولا يتجلى التمييز بين ما هو روحاني وما هو مادي حتى في النصوص الكتابية الأولى. انظر إلى أوصاف الله في الكتاب المقدس العبري. في سفر التكوين، الخالق مذكر. هو يخلق العالم في ستة أيام ثم يستريح من عمله:

> وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلَهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. (سفر التكوين ٢: ٧–٨)

ثم يصف سفر التكوين (٣: ٨–٩) آدم وحَوَّاءَ بعدما أكلا من الشجرة المحظورة، فيقول:

> وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلَهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟»

هنا، الله ليس «روحيًّا». هو يحوِّل التراب إلى شكل إنسان، وينفخ في أنفه ليمنحه حياة، ويزرع جنة، ويمشي في الجنة عندما يهدأ حر النهار. وعند خلق آدم وحَوَّاءَ قال، «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا» (سفر التكوين ١: ٢٦).

وتتوالى الأوصاف المادية لله في كل أجزاء الكتاب المقدس. في سفر الخروج (٣٣: ٢٠–٢٣)، يخبر الله موسى بأنه لن يُريه وجهه، لكن سيُريه ظهره. وفي سفر المزامير (١٨: ٨)، كان الله غاضبًا و«صَعِدَ دُخَانٌ مِنْ أَنْفِهِ وَنَارٌ آكلة مِنْ فَمِهِ.» ويذكر سفر يشوع (١٠: ١١) أنه لمساعدة الإسرائيليين في معركتهم مع الأموريين «رَمَاهُمُ الرَّبُّ بِحِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ السَّمَاءِ.» السماء، مكان سُكنى الله، هي مكان يعلونا، لكنه ليس مملكة منفصلة؛ فكثيرًا ما يصوَّر على أنه مدينة يحكمها الله الذي يجلس على عرش، والملائكة حاشيته (سفر المزامير ١٠٣: ١٩–٢١؛ سفر أيوب ١: ٦). يطلب أشعياء (سفر أشعياء ٦٣: ١٥) من الله: «تَطَلَّعْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَانْظُرْ مِنْ مَسْكَنِ قُدْسِكَ وَمَجْدِك.» الله هو «إيل إيليون» بمعنى «الأعلى» الذي يعيش في أسمى مكان. ولكون السماء تعلو الأرض، فهي مكان مثالي للتطلُّع إلى أمور البشر. «مِنَ السَّمَوَاتِ نَظَرَ الرَّبُّ. رَأَى جَمِيعَ بَنِي الْبَشَرِ. مِنْ مَكَانِ سُكْنَاهُ تَطَلَّعَ إِلَى جَمِيعِ سُكَّانِ الأَرْضِ» (سفر المزامير ٣٣: ١٤). السماء هي أيضًا مكان يمكن لله أن يفعل أشياء منه للبشر؛ فهو يرسل منها نيرانه علامة على قَبوله بعض الذبائح (سفر أخبار الأيام الأول ١٢: ٢٦؛ سفر أخبار الأيام الثاني ٧: ١).

إذا لم يُوصف الله بأنه غير مادي في الكتاب المقدس، فليس غريبًا أن الملائكة أو الشياطين لم يوُصفوا بهذا أيضًا. على سبيل المثال، في قصة الرُّسل الثلاثة المبعوثين من الله لزيارة إبراهيم في سفر التكوين (١٨–١٩)، تارة يُدعَون «ملائكة» وتارة أخرى يُدعون «رجالًا». وعندما التقيا لوطًا في سدوم [في الإصحاح الثامن عشر، كانوا ثلاثة حينما زاروا إبراهيم؛ وفي الإصحاح التاسع عشر، زار اثنان لوطًا. المترجمة]، تناولوا الطعام معًا ثم «أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ رِجَالُ سَدُومَ ... فَنَادَوا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: أَيْنَ الرَّجُلانِ اللَّذَانِ دَخَلا إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا [لنمارس الجنس معهما]» (سفر التكوين ١٩: ١–٥). بكل وضوح، هذه ليست كائنات «روحانية».

يضم العهد الجديد أيضًا فقرات تحثُّنا على التفكير في الملائكة والناس على أنهم متشابهون للغاية. تذكر الأناجيل الأربعة أنه عندما ذهبت مريم المجدلية والمرأتان الأخريان إلى قبر يسوع في صبيحة الفصح، أخبرهن شخص ما أنه قام. في إنجيل مرقس (١٦: ٥)

كان «شَابًّا جَالِسًا عَنِ الْيَمِينِ لَابِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ.» وفي إنجيل متَّى (٢٨: ٢-٣) كان «مَلَاكَ الرَّبِّ ... وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ.» وفي إنجيل لوقا (٢٤: ٤) «رَجُلَانِ بِثِيَابٍ بَرَّاقَةٍ.» وفي إنجيل يوحنا (٢٠: ١٢) «ملَاكَانِ بِثِيَابٍ بِيضٍ.»

على غرار الملائكة، وُصفت الشياطين أو «الأرواح الشريرة» في الكتاب المقدس بأنها كائنات مادية. على سبيل المثال، حينما يطرد يسوع «الأرواح النجسة» في إنجيل لوقا (٨: ٢٦–٣٦)، «فَخَرَجَتِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الإِنْسَانِ وَدَخَلَتْ فِي الْخَنَازِيرِ فَانْدَفَعَ الْقَطِيعُ مِنْ عَلَى الْجُرْفِ إِلَى الْبُحَيْرَةِ وَاخْتَنَقَ.» توجد الأرواح هنا في حيز مادي بوضوح، وهي تغيِّر مكانها من كونها داخل الإنسان إلى كونها داخل الخنازير.

إلى جانب الله والملائكة والشياطين كما ذكرنا، الشيء الآخر الذي يقول عنه اللاهوتيون المسيحيون إنه روحاني وليس ماديًّا هو روح الإنسان. لكن هذه الفكرة لا تتفق أيضًا مع ما ورد في الكتاب المقدس. جاء في الكتاب المقدس أن الرُّوح هي ما يجعل شيئًا ما حيًّا. الكلمات التي وردت في الكتاب المقدس للتعبير عن الروح هي الكلمتان العبريتان «نِفِش» و«روَح»، والكلمتان اليونانيتان «سِيري»، و«نِوْما». تعني هذه الكلمات الريح والنَّفَس — الهواء المُتَنقِّل. تذكر كيف أحيا الله آدم في الإصحاح الثاني من سفر التكوين — بنفخ نسمة حياة في أنفه. تُدرَك النفس في الكتاب المقدس بوصفها مادةً أرقَّ وأخفَّ من الأذرع والأرجل. هي ما نُطلق عليه الآن مادة غازية وليست صلبة، على أنها لا تزال مادة.

لا يوجد فقط في الوقت الراهن آلاف من الأديان التي لا تقوم على «الروحي» باعتباره غير مادي، لكن الدين الذي يصب جُل تركيزه على «الروحي» اليوم — وهو المسيحية — بدأ هو أيضًا وليس لديه مفهوم لغير المادي؛ إذ كان يعتبر الأرواح نوعًا خفيفًا من المادة.

المراجع

Najjar, A. (2008) *Kahlil Gibran: a Biography*, Saqi, Beirut.

Oxford English Dictionary (1989) Oxford University Press, Oxford.

Webster's Revised Unabridged Dictionary (1913) G. and C. Merriam, New York.

(٣) يتعلق الدين بالخارق للطبيعة

الدين: هو الخدمة والعبادة لله أو للخارق للطبيعة. («قاموس مريم وبستر»)

كثيرًا ما يظن الناس اليوم أن الدين يتعلق بما هو «خارق للطبيعة» — تلك الفئة التي تشتمل على أشياء مثل الله والمعجزات والملائكة والشياطين. تعني الكلمة اللاتينية «سوبر» أي «فوق»؛ ومِن ثَمَّ فما هو خارق للطبيعة هو فوق الطبيعة. وبينما يمكن تفسير العالم الطبيعي بالفيزياء والكيمياء والأحياء، بمعادلات مثل قوانين نيوتن للجاذبية، فالعالم الخارق للطبيعة غير مقيد بقوانين العلم. وكثيرًا ما يفسر الناس الانجذاب إلى الدين بقولهم إن العلم لا يمكن أن يفسر كل شيء، ومِن ثَمَّ فهم يؤمنون بالعالم الخارق للطبيعة إلى جانب العالم الطبيعي. ومن الطرق التي يستوعب بها الناس المعجزات على سبيل المثال، هي أنها خرق الله القوانين العلمية ليعلن عن ذاته، أو ليستجيب لصلوات البشر.

مع أن هذا التفسير ينجح مع الكثير من النسخ المعاصرة من المسيحية واليهودية والإسلام، فإنه لا ينجح مع آلاف الأديان عبر التاريخ، أو حتى مع المسيحية واليهودية والإسلام قبل مولد العلم الحديث نحو عام ١٦٠٠. وعليه، فليس دقيقًا أن نقول إن الدين عمومًا يدور حول ما هو خارق للطبيعة.

لا يفرق معظم أديان العالم العشرة آلاف بين الطبيعي والخارق للطبيعة؛ بل لا يملك كثير منها حتى كلمة «طبيعة» أو «طبيعي»؛ ففي الأديان القَبَلية في أفريقيا وأستراليا والأمريكتين على سبيل المثال، النباتات والحيوانات والبشر والسحرة والآلهة والأرواح والأشباح وكل شيء آخر هو ببساطة جزء من العالم. وما من علم يفسر الأحداث «الطبيعية»؛ ولذا، لا تتبقى أحداث «خارقة للطبيعة» غير مبررة علميًّا. ربما تعتبر الآلهة والأرواح لديها قوًى خارقة للطبيعة — قوًى أعظم من تلك التي لدى البشر — لكن الآلهة والأرواح لا تكون في عالم «خارق للطبيعة» منفصل عن عالم النباتات والحيوانات والبشر.

تتضمن أديان قَبَلية كثيرة فكرة الإحيائية؛ أي الاعتقاد بأن لكل الأشياء أنفسًا أو أرواحًا، حتى الصخور والأنهار. وفي هذه الأديان، لا توجد الأرواح في عالَمٍ ما خارق للطبيعة، منفصل عن العالم الطبيعي.

وفي الديانات الكبيرة بالهند والصين أيضًا، نادرًا ما ينطبق التمييز بين الطبيعي والخارق للطبيعة؛ ففي الديانة الهندوسية على سبيل المثال، البقرة مقدسة، وهانومان، وهو قرد، هو التجسيد الحادي عشر للإله شيفا وبطل في الملحمة الدينية «رامايانا». هل البقر وهانومان طبيعيان أم خارقان للطبيعة؟ لا معنى لهذا السؤال في الهندوسية.

أحد المعتقدات الرئيسة في الهندوسية هو التناسخ، أو الميلاد مجددًا، لكن هذا لا يُعَد شيئًا خارقًا للطبيعة. هو فقط ما ظل يحدث دائمًا للأفراد حينما يموتون.

لم يقدم سيدهارتا جوتاما — الرجل الذي أصبح «البوذا»؛ أي «اليقظ» — تعاليم عن الآلهة والأرواح أو «الخارق للطبيعة». كما رأينا، يقوم لب رسالته، «الحقائق النبيلة الأربع»، على الكيفية التي تعيش بها حياة مُرْضِية. ويصف «الطريق الثُّماني النبيل» كيف ينبغي للناس أن يفكروا ويتصرفوا لكي يحققوا هذا الهدف: الفهم السليم، والنية السليمة، والكلام السليم، والفعل السليم، والمعيشة السليمة، والسعي السليم، والانتباه السليم، والتأمل السليم. لا شيء من هذه الأمور خارق للطبيعة ولا حتى الفضائل الأساسية التي غرسها البوذيون التي هي: «مِتَّا» أي الشفقة، و«كارونا» أي الرحمة، و«موديتا» أي الفرح التعاطفي.

يؤمن البوذيون بنوع من الميلاد الجديد، لكنهم — شأنهم في ذلك شأن الهندوس — لا يعتبرونه «خارقًا للطبيعة». يمكن بلوغ «النيرفانا» — التي هي نعمة التحرر من المعاناة والولادة المتكررة — بالعيش وفق «الطريق الثُّماني النبيل» وممارسة الفضائل الأساسية.

بالمثل، تتعلق ديانتا الصين المحليتان، الكونفوشية والطاوية، بكيف ينبغي أن يعيش الأفراد ويكونوا سعداء. قدم كونفوشيوس تعاليم عن نظام أخلاقي يحترم فيه الناس ويراعون بعضهم بعضًا. الفضيلة الأساسية في الطاوية هي «وو-وي»، بمعنى العيش وفقًا لسبيل الكون بدلًا من محاولة التحكم في الأحداث وفقًا لإرادة المرء أو رغباته. توجد في الديانتين الكونفوشية والطاوية فكرة الطاو التي تمثل الطريقة التي تحدث بها الأشياء، على أن تلك الطاو موجودة في كل ما يحيط بنا من أشياء وأحداث، وليست فوقها. قد تحيط بنا أرواح المتوفَّيْن، إلى جانب أرواح الأنهار والجبال، لكنها، مرة أخرى، جزء من البيئة «الطبيعية».

إذا نظرنا إلى الأديان التي لم تعُد تمارَس، مثل أديان اليونان وروما وشمال أوروبا القديمة، نجد آلهة أمثال زيوس وفينوس وثور التي هي جزء من العالم الواحد الذي يعيش فيه البشر، وليست فوق ذلك العالم. على سبيل المثال، كان يُعتقد أن الآلهة الإغريقية تعيش على جبل الأوليمب وتزور الناس من حين إلى آخر.

حتى في الثقافات الأوروبية، مفهوم «الخارق للطبيعة»، بوصفه نعتًا، يعني ما هو «منسوب إلى قوةٍ ما تتجاوز الفهم العلمي أو قوانين الطبيعة» («قاموس أكسفورد

للغة الإنجليزية»)، هو مفهوم حديث المنشأ نسبيًّا. وبالنسبة إلى الأوروبيين في العصور الوسطى، لم تكن لفظة «خارق للطبيعة» تعني عالمًا منفصلًا عن العالم «الطبيعي»؛ إذ كانت تُستخدم لوصف شخص يتصرف بطريقة لم يكن بمقدورهم عادة التصرف بها. وفي أغلب الأحيان كانت تُطلق على بشر يتصرفون بالاستعانة ببركة الله. من الواضح أنه وفقًا لهذا المعنى، لم يكن من الممكن بأي حال أن تنطبق لفظة «خارق للطبيعة» على الله نفسه. لكن حالما وضع المفكرون الحدثاء الأوائل فكرة أن الطبيعة نظام مادي يمكن تفسيره في ضوء الفيزياء وغيرها من «العلوم الطبيعية»، أصبح «الخارق للطبيعة» يعني الكائنات التي لم تكن موضوعًا لقوانين الطبيعة — مثل الله والملائكة والشياطين والأشباح والأرواح.

المراجع

Merriam-Webster Dictionary Online, http://www.merriam-webster.com/dictionary/religion (accessed January 10, 2014).

(٤) يتعلق الدين بالإيمان أو الاعتقاد

> تشكَّك بجرأة حتى في وجود الله؛ لأنه، إن كان يوجد إله، فلا بد أن يؤثِر إجلال العقل على إجلال الخوف الأعمى. (توماس جيفرسون، في خطاب إلى بيتر كار، ١٧٨٧)

في العالم المتحدث باللغة الإنجليزية اليوم، كثيرًا ما تُستخدَم لفظة «إيمان» faith مرادفةً لكلمة «دين»، حتى من قِبل دارسي الدين. طُبِعت المقدمة الشهيرة لأديان العالم بعنوان «شعوب كثيرة، إيمانات كثيرة» لروبرت إيلوود وباربرا ماكجرو (٢٠١٣)، على سبيل المثال، عشر طبعات حتى الآن. وهناك أيضًا كتاب جون بوكر (٢٠٠٦) «أديان العالم: استكشاف الإيمانات الكبرى وتفسيرها». وكثيرًا ما تُستخدم لفظة «إيمان» مرادفةً لكلمة «اعتقاد» belief؛ ولذا يُشار إلى الأديان على أنها «أنظمة عقائدية». لكن في حقيقة الأمر، الإيمان والاعتقاد ليسا متساويين، ولا يمكن اختزال «الدين» إلى أيٍّ منهما.

كرَّس رائد الدراسات الدينية البارز ويلفريد كانتويل سميث (تُوفِّي عام ٢٠٠٠) جزءًا كبيرًا من أبحاثه للتفريق بين «الإيمان» و«الاعتقاد». يقول سميث إنه في العصور المسيحية

كانت لفظة «إيمان» تعني الاطمئنان (المشتقة من الجذر اللاتيني نفسه لكلمة إيمان، وهو «فيديو» fideo)، أو الثقة، ولا سيما المعبَّر عنها في علاقة مع ما يُدرك أنه المتجاوِز أيًّا ما كان. وعلق سميث بأنه أيًّا ما كان هذا المتجاوِز، فيمكن التعبير عن الالتزام تجاهه بأشكال عدة، منها الطقس، والفن، والسلوك الأخلاقي، والولاء للمجتمع. كما يمكن التعبير عنه أيضًا في صورة تفسيرات أو مذاهب عقلانية عن المتجاوِز؛ وذكر سميث (١٩٩٨: ٣٩) أن هذا التعبير عن الولاء للمتجاوز هو «سمة مميزة للمسيحيين». واسترسل قائلًا إن الاعتقاد يعني، بحسب الاستخدام الحالي، التسليم الفكري بآراء معينة ليست لها أدلة تجريبية. لكن سميث يرى أن هذا المعنى غير وارد في الكتاب المقدس ولا القرآن. ويزعم أن ما هو وارد هو الاعتقاد كما قُصد به في أزمنة ما قبل الحداثة (وكما لا يزال مقصودًا في الجذر الألماني للكلمة belieben)، بمعنى «الاعتزاز»، و«الولاء»، و«التقدير العالي» أي «الحب» (سميث ١٩٩٨: ٤١). وهكذا، من وجهة نظر سميث، ليس الإيمان بالله مجرد التسليم بوجود الله، لكن التعهد بالالتزام بأن يحيا الإنسان حياته في خدمة الله. بهذا المعنى، افترض الاعتقاد بالله مسبقًا وجود الله. ولم يكن التشكك في وجود الله واردًا على الإطلاق في السياق الكتابي. وكان الاختيار الحقيقي بين أن تكون مخلصًا لله بالعيش وفقًا لإدراكك لمشيئته، وأن ترفض فعل ذلك. بعبارة أخرى، لا يمكن التعبير عن الاعتقاد إلا بالأعمال. لم يكن ممكنًا اختزاله إلى مجموعة من الأقوال.

شق الاعتقاد بالمعنى الحديث لقبول صحة أقوال معينة طريقه نحو المركزية في المسيحية حينما انتقلت المسيحية من كونها التزام الناس الطوعي اقتداءً بمعلميهم، وصارت من مستلزمات المواطَنة في الإمبراطورية الرومانية. حينما اكتسبت المسيحية بذلك طابعًا سياسيًّا، كان أفراد المجتمع يُعرَّفون وفقًا لإقرارهم بقائمة مزاعم محددة.

كان الإمبراطور الروماني قسطنطين (تُوفِّي عام ٣٣٧) هو السبب في جعل هذا المعنى للفظة «الاعتقاد» الصفة المميزة لكون المرء مسيحيًّا. اعتُبر المسيحيون من وجهة نظر الأباطرة الأوائل طائفة منشقة، غير أن قسطنطين شرَّع المسيحية، لضمان ولاء المسيحيين له. بل إنه ضم قادة مسيحيين إلى حكومته الجديدة، ودعم الأساقفة ماديًّا، ومنحهم مباني حكومية، ومباني رومانية عامة لاستخدامها كنائس.

كان هدف قسطنطين إعادة توحيد الإمبراطورية الرومانية، التي كانت منقسمة آنذاك إلى مناطق مستقلة عدة. كان من المحتمل أن يساعد المسيحيون الذين حررهم قسطنطين من الاضطهاد مؤخرًا في كل هذه المناطق في توحيد الإمبراطورية. لكن سرعان ما اتضح وجود خلافات بين مختلف القادة المسيحيين حول من كان يسوع، وماذا فعل.

ذكر البعض، على سبيل المثال، أن يسوع هو ابن الله غير المخلوق المساوي للأب، بينما قال آخرون إن يسوع خلقه الله، ومِن ثَمَّ فهو غير مساوٍ له. أراد قسطنطين أن يحل المسيحيون خلافاتهم ويتفقوا على مجموعة موحدة من المعتقدات ومِن ثَم يمكن للمسيحية أن تكون أيديولوجية واحدة، وموحِّدة كما هو مأمول؛ ولذا، دعا الإمبراطور عام ٣٢٥ قادة المسيحيين معًا في مدينة نيقية بالقرب من عاصمة الإمبراطورية الجديدة، مدينة القسطنطينية، وأمرهم بإصدار مجموعة من التعاليم لكل المسيحيين.

كما تبيَّن، لم تكن هذه مهمة يسيرة؛ فقد ناقشت السلطات الكنسية في مَجْمَع نيقية ثم في المجامع اللاحقة مزاعمها المختلفة، ووضعت مجموعة من التعاليم الرسمية بدأت بكلمة «أعتقد» — «كريدو» credo باللاتينية، وهي أصل كلمة عقيدة creed. لكن الأفهام المختلفة للمسيحية استمرت. وكانت الخلافات حول فكرة الثالوث — التي مفادها أن الله هو الآب والابن والروح القدس معًا — سائدة.

وفي عام ٣٨٠، أعلن الحكام الرومانيون عن «المدونة الثيودوسية» التي تُلزم كل شخص في الإمبراطورية الرومانية بالاعتقاد بالثالوث. ومن لا يفعل يكن «مخبولًا أحمق». واسترسل المرسوم قائلًا: «ولسوف يُوصمون باسم الهراطقة المهين ... ولسوف ينزل بهم في المقام الأول عقاب الدينونة الإلهية، ثم عقاب سلطاتنا التي سوف تقرر أن تنزله بهم بحسب المشيئة الإلهية» (بيتنسون، ١٩٤٣: ٣١). في غضون خمس سنوات، قُطِعت رءوس «الهراطقة» الأوائل — أسقف من مدينة آبلة بإسبانيا يُدعى بريسكيليان وستة من أتباعه. جميعهم أُعدموا، لا لجرم اقترفوه، وإنما لشيء اعتقدوا به — تَشابُه تقشعر له الأبدان مع الأسباب التي لأجلها اضطُهد المسيحيون في روما ما قبل المسيحية. متى ما تصبح أيديولوجية دينية معينة أساسًا للشرعية السياسية؛ فإن من لا يعتنقونها يعانون.

ظل التسليم بالمزاعم المُبيَّنة في عقائد معينة السمةَ المحدِّدة للمسيحية. وكانت المسائل المتعلقة بالرُّوح القُدس — الذي وصفه اللاهوتيون بأنه أحد «الأقانيم» الثلاثة للإله الواحد — في صميم انشقاق المسيحية الغربية عن المسيحية الشرقية عام ١٠٥٤. وتمحور انقسام المسيحية الغربية إلى طوائف مختلفة في عصر الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر حول مسألة المزايا النسبية للاعتقاد والأعمال الحسنة. وكانت الصيغة التي وضعها البروتستانت هي «الإيمان وحده»، بمعنى أن الخلاص يحدث بالإيمان الحقيقي بالله، وليس بالأعمال الحسنة.

هذا هو أصل المعنى الحديث للاعتقاد ومساواته بالإيمان، واختزال «الدين» إلى «عقيدة» أو «نظام عقدي». لكن المسيحية، كما يشير سميث، فريدة في هذا الشأن. فما من دين عالمي آخر — اليهودية أو الإسلام أو الهندوسية أو البوذية أو الطاوية أو الكونفوشية — يرى نفسه على أنه نظام معتقدات.

كيف إذًا تفهم الأديان غير المسيحية نفسها؟ يعرِّف كلٌّ من اليهودية والإسلام — الديانتين الأقرب إلى المسيحية — أفراد مجتمعيهما على أساس اتِّباعهما القوانين الإلهية — التوراة والشريعة على التوالي. ويؤكدان «الأورثوبراكسية» (استقامة السلوك)، التي تعني الفعل الصحيح، لا «الأرثوذوكسية» (سلامة المعتقد)؛ أي التعليم الصحيح.

وبانتقالنا إلى ديانات جنوب آسيا وشرقها، نجد أن اعتبارها أنظمة عقدية أقل دقة. في الهندوسية آلهة لا حصر لها — أحيانًا ما نسمع عن وجود ٣٣٠ مليون إله. يُخلص بعض الناس لأحدها — مثل شيفا أو فيشنو. ويُبجِّل آخرون بعض الآلهة الكبيرة، ويلجَئون إلى الآلهة الصغيرة لتُعينهم في مسائل محددة. ويتبع بعض الناس تقليدًا قديمًا متركزًا حول براهمان، الحقيقة المطلقة، الذي وُصف بأنه متجاوز للآلهة. ولا يعني إخلاص المرء لإله أو أكثر، أو غياب الإخلاص لأي إله، أنه يرفض وجود الآلهة الأخرى. وأيًّا ما كانت الآلهة التي يعبدها هندوسي ما، فلا توجد مذاهب رسمية مقترنة بها يمكن أن تقارَن بالأقوال المروية عن يسوع في العقائد المسيحية.

وعلى غرار الهندوسية، البوذية تعددية — تُسلِّم بالكثير من رؤى العالم والكثير من طرائق الحياة. بدأ مؤسِّس التقليد، سيدهارتا جوتاما كما نسميه الآن، هندوسيًّا، لكنه لم يقدم تعليمًا عن الآلهة. انصب اهتمامه على التحرر من المعاناة. وكما رأينا أعلاه، كان من تعاليمه أنه خليق بالناس ممارسة الطريق الثُّماني (الفهم السليم، والنية السليمة، والكلام السليم، والفعل السليم، والمعيشة السليمة، والسعي السليم، والانتباه السليم، والتأمل السليم)، والفضائل الأساسية المتمثلة في الشفقة، والرحمة، والفرح التعاطفي. يُبجَّل سيدهارتا باعتباره البوذا؛ أي اليقظ، لا لأنه إله أو لأن هذه الحقائق هي وحي إلهي، ولكن لأن الطريقة التي درَّسها كانت ناجحة في التعامل مع المعاناة وفي تحقيق السعادة لملايين الناس على مرِّ القرون. الطريق الثُّماني والفضائل الأساسية ليست مذاهب تُقبل على أساس الإيمان، وإنما هي أساليب يجدها أفراد كثيرون نافعة.

تتعلق الكونفوشية، على غرار البوذية، بمشكلات الإنسان، لا بآلهة أو معتقَدات. نشأ كونفوشيوس في الصين في زمن الحرب والتمزق الاجتماعي، فتساءل كيف يمكن أن يسترد المجتمع التناغم الاجتماعي الذي ساد في قرون أسبق. لم يزعم كونفوشيوس أن أفكاره موحًى بها من إله، أو يجب قبولها بوصفها صحيحة على نحو مطلق وفريد بناءً على الإيمان. ولكنه محَّص الأدب الصيني، وعثر على الحكمة البشرية التي سبق أن قادت الناس بنجاح نحو التناغم الاجتماعي في الماضي. بُني هذا على نموذج معاملة الآخرين بالاحترام والطاعة والاهتمام التي يعامل بها الأبناء البررة والديهم.

انتشرت الكونفوشية عبر الصين لتصبح أكثر تقاليدها ذيوعًا، لكنها تتعايش بتناغم مع التقاليد الأخرى أيضًا. ظهرت الطاوية في الصين في زمان ظهور الكونفوشية تقريبًا، لكنها اتخذت نهجًا مغايرًا إزاء ما كان الناس يحتاجون إليه ليكونوا سعداء. لم ينصَبَّ تركيزها على العلاقات الاجتماعية المبنية على الخضوع المتسم بالاحترام، ولكن على توافق الناس مع أنماط الترتيب الطبيعي للكون وإيقاعاته، التي تُعرف بالطاو. الفضيلة الرئيسية في الطاوية، كما رأينا، هي «وو-وي»؛ أي التعايش في تناغم مع السبيل، بدلًا من محاولة التحكم في الأحداث وفقًا لرغبات المرء.

في الصين، كما هي الحال في الهند، لا توجد سلطة مركزية كإمبراطور أو أسقف يخبر الناس ما يجب عليهم أن يعتقدوا به؛ ولذا لا يوجد هراطقة. لا تتعايش التقاليد المختلفة في القرى فقط، ولكن في الأفراد أيضًا. قد يضم المعبد الواحد كهنة طاويين ورهبانًا بوذيين؛ قد يتمم شخص واحد زواجًا على الطريقة الطاوية وجنازة على الطريقة الكونفوشية. قد يتبع الناس مبادئ الاحترام الاجتماعي الكونفوشية، ويتزوجون في معبد طاوي، ويمارسون طرق التأمل البوذية. هناك أيضًا طقوس لآلهة العائلة وآلهة القرية التي سبقت الطاوية والكونفوشية. هكذا، بينما كانت المعتقدات موجودة، ولا شك، في الديانات الهندية والصينية؛ فإن التركيز ينصب على الممارسة، بما يجعل مصطلح «الإيمان»، محدِّدًا غير كافٍ كما هي الحال مع اليهودية والإسلام بالمثل.

المراجع

Bettenson, H. (ed) (1943) *Codex Theodosianus. Documents of the Christian Church*, Oxford University Press, Oxford.

Bowker, J. (2006) *World Religions: The Great Faiths Explored and Explained*, DK, London.

Ellwood R. and McGraw, B. (2013) *Many Peoples, Many Faiths*, Pearson, New York.

Jefferson, T. (1787) Letter to Peter Carr, August 19, www.let.rug.nl/usa/presidents/thomas-jefferson/letters-of-thomas-jefferson/jefl61.php (accessed January 10, 2014).

Smith, W.C. (1998) *Believing—An Historical Perspective*, Oneworld, Oxford.

قراءات إضافية

Smith, W.C. (1998) *Faith and Belief: The Difference between Them*, 2nd edition, Oneworld, Oxford.

(٥) العبادة ركن من أركان الدين

> البشر في صميم طبيعتهم عبَّادون. ليست العبادة شيئًا نفعله؛ هي تعرِّف من نكون. لا يمكنك أن تُقسِّم البشر إلى عَبَدة وغير عبَدة. الجميع عبَدة؛ كل ما هنالك هو مسألة ماذا أو مَن نعبد. (بول ديفيد تريب (٢٠٠٢: ١٦))

شهدت خمسينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة، تحت تأثير الحرب الباردة، ظهور مخاوف واسعة النطاق من الشيوعية المُلحِدة رسميًّا. وفي مساعي مكافحتها، أعد مجلس الدعاية الأمريكي، بدعم من الرئيس آيزنهاور، حملة شعبية لتعزيز الدين، مكتملة بدعاية قومية. صورت آلاف من اللافتات الإعلانية عائلات سعيدة ومعها الكلمات «نتعبد معًا هذا الأسبوع» (سبرينج، ٢٠١١: ٩٤).

تعكس حملة مجلس الدعاية الإدراك العام الذي يُشير إلى أن ممارسة الدين تعني «التعبُّد» في المقام الأول — كما في إظهار الإخلاص لقيمة عليا يتمتع بها شيءٌ ما والاعتراف بها. ويمكن أن نرى هذا في عناوين كثير من المقدمات للأديان العالمية مثل كتاب ماري بوب أوسبورن (١٩٩٦) «عالم واحد، ديانات كثيرة: طرق عبادتنا». ينعكس هذا

أيضًا في المصطلح العام المحبَّذ المبتكَر للتعبير عن تجمعات المجتمعات الدينية المختلفة؛ حيث يُشار إلى الكنائس والهياكل والمعابد جميعًا بأنها «دور عبادة» أو «مراكز عبادة».

يمكن فهم ارتباط الدين بالعبادة في الديانات الغربية التوحيدية — تلك التي تؤمن بإله واحد. نشأت اليهودية والمسيحية والإسلام في مناطق كانت فيها ممالك قوية لها حكام مطلقون. حكم الفراعنة مصر تقريبًا منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد. وبالاتجاه شرقًا، حكم قادة مثل حمورابي ونبوخذ نصَّر بابل منذ مطلع الألفية الثانية. وحالما استقر الإسرائيليون في كنعان، أرادوا أن «يكونوا مثل سائر الأمم». أرادوا أن يحكمهم ملوك لا شيوخ الأسباط أو القضاة كما كانوا قَبْلًا (سفر صموئيل الأول ٨: ٢٠) (حذرهم صموئيل — آخر القضاة — من أن هذه فكرة سيئة، لكن هذه قصة أخرى). وفيما ظل الله حاكمهم المطلق، كان من الطبيعي النظر إلى الله على أنه الملك المطلق — أو حتى «ملك الملوك» كما كان يُطلق على الحكام القدامى العتاة. كما أشاروا إلى الله أيضًا بأنه «أدوناي»؛ أي السيد، على غرار السيد مالك الأرض العظيم. وتشير مقاطع من الكتاب المقدس إلى عرش الله وملكوته السماوي. ومثلما كان ملوك وفراعنة وأباطرة يحكمون مختلف بقاع الأرض، اعتُقِد بأن يهوه يحكم العالم بأسره. لهذا تبدأ صلوات يهودية كثيرة بالكلمات «مبارك أنت أيها السيد إلهنا، ملك الكون.» ولأن الملوك والأباطرة احتفظوا بسلطتهم من خلال الفتوحات العسكرية، وُصِف الله أيضًا بأنه «رب الجنود» (الجيوش)، حيث قاد بني إسرائيل في معركتهم ضد القبائل المجاورة (على سبيل المثال في سفر صموئيل الأول ١٧: ٤٥).

ورث يسوع بصفته يهوديًّا فكرة الله الملك، وإن وعظ عن مملكة «ليست من هذا العالم» (يوحنا ١٨: ٣٦)، لا عن مملكة أرضية عظيمة. لم يزل الهدف من تبشيره هو تأسيس ملكوت الله — حُكم الله. في الصلاة التي علمها لتلاميذه، يطلب يسوع: «لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ» (متَّى ٦: ١٠). وبعدما أعلنت الكنيسة الأولى أن يسوع هو الله، كان من الطبيعي أن يتصوره المسيحيون في هيئة بطريرك أيضًا. تصوِّر بعض اللوحات والصور الفسيفسائية المسيحية الأولى يسوع على أنه «البانتوكراتور»، المقابل اليوناني لعبارة «المهيمن على الجميع». توطدت هذه الفكرة في العصور الوسطى، وهكذا يُطلق على الكثير من الكنائس الكاثوليكية اليوم كنيسة «يسوع الملك»، وتظل الإشارة إلى يسوع بأنه «السيد» شائعة.

عندما ظهر الإسلام في القرن السابع، كان لديه أيضًا هدف إقامة مملكة الله على الأرض. لفظة «إسلام» نفسها تعني «استسلام»؛ أي الاستسلام لحكم الله. تبدأ أول سورة في القرآن، «الفاتحة»، التي يتلوها المسلمون يوميًّا، بالآتي:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

في نطاق هذا الفهم الغربي التوحيدي للعلاقة بين الله والبشر، من السهل أن نرى كيف يمكن أن يفكر الناس في العبادة على أنها جوهر الدين. عبادة الله هي التعبير عن أقصى درجات التبجيل والخضوع لله، وهذه هي النسخة القصوى لما يفعله رعايا أي حاكم عندما يُقِرُّون على الملأ بعظمته وقوته. وهي تظهر في أوضاع جسدية مثل انحناء المرء أمام الحاكم بالركوع أو السجود أو الانبطاح على الأرض.

تشتمل الممارسات المقترنة بالعبادة على الإعلان عن عظمة الحاكم (تمجيده)، والاعتراف بمذلة الإنسان وإخفاقاته (خطاياه). قد يشمل هذا التعهد بالتكفير عن الذنوب، كأن يصوم المرء مثلًا. تعكس العبادة التوحيدية أيضًا النموذج الدنيوي للخنوع لأصحاب السلطة عبر إدراج تعبيرات العرفان بالجميل على كل ما فعلوه، وطلب استحسانهم المستمر — وربما ذكر مطالب بعينها — والتعبير عن شيء من الرد بالمثل بتقديم أشياء قيِّمة (مهاداتهم).

مهما تكن قوة الرابطة بين الدين والعبادة في اليهودية والمسيحية والإسلام، فهي ليست سائدةً في كثيرٍ من الديانات الأخرى. وثلاثة أمثلة لذلك هي بوذية ثيرافادا في جنوب آسيا وجنوب شرقها، والكونفوشية والطاوية في الصين. ظهرت هذه الديانات الثلاث جميعها قبل المسيحية بقرون، ولا وجود فيها لله الخالق فيمجَّد أو يُشكَر أو يُتَوَسَّل إليه أو يُستغفَر.

الثيرافادا هي شكل البوذية الذي يُعتبر الأقرب إلى تعاليم البوذا، وهو الذي كان يُعنى بالطريقة التي يمكن بها تقليل المعاناة وعيش حياة متزنة. الهدف الأساس هو الامتناع عن اشتهاء الأشياء. وكثيرًا ما يُطلق على هذا الهدف «التحرر من التعلق». لا توجد آلهة فتُعبَد. وليس الهدف الأسمى هو تمجيد الله إلى الأبد في السماء، وإنما الوصول إلى «النيرفانا»؛ أي حالة البهجة التي تقترن بالقضاء على الرغبات.

عاش كونفوشيوس في حقبة صراع سياسي في الصين، كانت تُسمَّى حقبة الدول المتحاربة، وكان هدفه إعادة إرساء مجتمع مسالم عادل قوامه الاحترام المتبادل والاهتمام بالصالح العام. وكي يفعل ذلك، تطلع إلى زعماء القرون الأولى العظماء، وخصوصًا دوق تشو، للاقتداء بهم. ذكر كونفوشيوس أنه بوجود القائد بصفته قدوة أخلاقية، سيتحلى الناس بالفضيلة أيضًا. وكانت الفضائل التي أكدها هي المروءة، والعدالة، واللياقة، والمعرفة، والنزاهة، وقد رأى أن هذه الفضائل تنشأ من خمس علاقات أساسية. العلاقة الأولى هي علاقة الأب بابنه، وتقتدي بها العلاقات الأخرى: الحاكم بالرعية، والأخ الأكبر بالأخ الأصغر، والزوج بالزوجة، والصديق بصديقه. يُبدي الابن البار لوالديه «الهسايو»؛ أي الاحترام والعناية، وهذا هو النموذج الذي ينبغي أن تحتذي به العلاقات الاجتماعية الأخرى. وجميع أعضاء المجتمع مدعوُّون للسلوك بإنسانية، ومنهم الحاكم.

وعلى عكس البوذا، تحدَّث كونفوشيوس عن الآلهة، لكنهم لم يكونوا سادة كونيين، ولا محط اهتمامه الأساس؛ فقد قال إن عبادة الآلهة ينبغي أن تقوم على «الهسايو» مثل العلاقات الاجتماعية الأخرى.

الطاوية هي التقليد الأصلي الكبير الآخر في الصين. وعلى عكس الكونفوشية، هي مرتابة في القادة والحكومات والهياكل الاجتماعية عامة. ولا تصب تركيزها على الله أو آلهة وإنما على الطاو؛ أي «السبيل»، النظام الذي ينظم كل شيء وكل عملية. وكما رأينا أعلاه، الفضيلة الأساسية للطاوية هي «وو-وي»، وهي العيش ببساطة وبنجاح وفقًا لسبيل الكون. تؤكد الطاوية أيضًا فضيلتَي التواضع والرحمة. تتحدث الطاوية عن آلهة، لكنهم، مرة أخرى، ليسوا حكامًا سائدين يُطاعون مهما كان الثمن. هم جزء من الكون، وتحكمهم الطاو شأنهم شأن البشر.

ولذا، ليست معابد بوذية الثيرافادا والكونفوشية والطاوية «دور عبادة» على نحو صارم مثلما هي الكُنُس والكنائس والمساجد. قد تحتوي معابد بوذية ثيرافادا على رفات وصور للبوذا أو تلاميذه، وقد يقدم الأشخاص القرابين على أمل الحصول على البركات، لكن المعابد هي في المقام الأول أماكن لتلقي التعليم والتأمل. قد تُستخدَم المعابد الطاوية بوصفها أماكن لممارسة الوظائف الدينية مثل عقد الزيجات، والجنازات. لم يكن كونفوشيوس قطُّ — شأنه شأن البوذا — إلهًا، على الرغم من وجود معابد مخصصة له، وأناس قد يقدمون حتى القرابين. لكن المعابد تُوصف من حيث الأساس على أنها أماكن لتبجيل تعاليم كونفوشيوس، لا شخصه.

المراجع

Osborne, M.P. (1996) *One World, Many Religions: The Ways We Worship*, Random House, New York.

Spring, D. (2011) *Advertising in the Age of Persuasion: Building Brand America, 1941–1961*, Palgrave Macmillan, New York.

Tripp, P.D. (2002) *Instruments in the Redeemer's Hands: People in Need of Change Helping People in Need of Change*, P & R Publishing, Phillipsburg NJ.

(٦) الدين شأن شخصي

> أومن برئيس تكون آراؤه الدينية هي شأنه الشخصي، لا يفرضها على الشعب، ولا يفرضها الشعب عليه شريطة تبوُّئه ذلك المنصب. (جون إف كينيدي (١٩٦٠))

كثيرًا ما يميز الأوروبيون والأمريكيون الحدثاء بين الدين وسائر الحياة. يتعلق الدين بالمقدَّس كما قال عالم الاجتماع البارز إميل دوركايم (١٩٩٥)، ويمتاز ذلك من أمور كالسياسية، والأعمال، والرياضة. تلك الأمور هي أمور «دنيوية». يذهب أشخاص كثيرون إلى أبعد من ذلك ويزعمون أن الدين، على عكس ما هو دنيوي، هو مسألة شخصية — بين الفرد والله. منذ قرن، كتب فيلسوف جامعة هارفارد، ويليام جيمس (٢٠٠٨: ٣١) أن الدين هو «مشاعر الناس وأفعالهم وتجاربهم في عزلتهم، طالما أنهم يفهمون أنهم يقفون في علاقة مع أي شيء يعتبرونه إلهًا.»

تنعكس فكرة أن الدين شأن شخصي أو خاص في الفصل الحديث للدين عن السياسة. في الولايات المتحدة على سبيل المثال، ربطت الولايات الأولى، على غرار البلدان الأوروبية، حكوماتها بطوائف مسيحية معينة، ومِن ثَمَّ، كان هناك تمييز ضد أولئك الذين لم يكونوا أعضاءً في الطائفة المحددة. أراد «الأب المؤسس»، الرئيس الثالث للولايات المتحدة، توماس جيفرسون أن تكف حكومات الولايات والحكومة الفيدرالية الجديدة عن هذه الممارسة. كانت ولايته، فيرجينيا، منحت امتيازات كثيرة للأنجليكانيين، وميَّزت ضد

غير الأنجليكانيين. ونص مرسوم فيرجينيا للحريات الدينية الذي صاغه جيفرسون أنه ما من أحد:

> يُجبَر على المواظبة على أي عبادة، أو مكان، أو هيئة دينية من أي نوع، أو تأييدها، أو يجبر أو يُقيَّد أو يؤذى أو يُشَق عليه في بدنه أو ممتلكاته، أو يعاني بطريقة أخرى بسبب آرائه الدينية أو معتقده؛ ولكن يتمتع كل الناس بحرِّيَّة المجاهرة بآرائهم في الأمور الدينية وحمايتها بالنقاش والحُجة، ولا يقلل هذا بأي حال من صلاحياتهم المدنية ولا يزيد منها ولا يمس بها.

بعدها بسنوات قليلة، حينما كُتِب دستور الولايات المتحدة، وأدرجت هذه الأفكار في المُسوَّدة الأولى: «لن يسنَّ الكونجرس أي قوانين تتعلق بترسيخ دين أو منع حرية ممارسته.» كتب جيفرسون إلى مجموعة من المعمدانيين بولاية كونيتيكت الذين سبق أن عبَّروا عن مخاوفهم بشأن تأسيس ديانات رسمية، معبرًا عن اتفاقه معهم على أن الدين «شأن يقع فقط بين الله والإنسان، وأنه ليس مدينًا لأي شخص آخر بشرح إيمانه أو عبادته» (بادوفر، ١٩٤٣: ٥١٨-٥١٩).

على مدار القرنين التاليين اشتُهرت الولايات المتحدة بفصلها بين الكنيسة والدولة. وفي عام ١٩٦٠، كان هذا في صميم حملة جون إف كينيدي الرئاسية. كان كينيدي كاثوليكيًّا، وكانت هناك شُبهة مستمرة بأن الكاثوليك ملزمون في نهاية المطاف بتقديم فروض الطاعة للفاتيكان، وغير قادرين على فصل الدين عن السياسة. روَّج لهذا التحيز ضد الكاثوليك جماعات من قبيل كو كلوكس كلان. راجت الشائعات بأن كينيدي سوف يتلقَّى أوامره من البابا، وسوف يضخ أموال الاتحاد الفيدرالي في المدارس الكاثوليكية؛ ولذا، في ١٢ سبتمبر ١٩٦٠، ألقى خطابًا مهمًّا على جمعية هيوستن الدينية الكبرى، تضمَّن السطر الآتي: «أومن برئيس تكون آراؤه الدينية هي شأنه الشخصي، لا يفرضها على الشعب، ولا يفرضها الشعب عليه شريطة تبوُّئه ذلك المنصب.»

هذا الفهم للدين يجعل دين كل شخص شأنه الخاص؛ فعلى غرار تفضيلاته الشخصية في الموسيقى والشعر على سبيل المثال، يكون الدين شأنًا شخصيًّا. ربما يرغب المرء في إخبار الآخرين عنه، لكنه ليس ملزمًا بفعل ذلك.

يخلط الادعاء بأن الدين شأن شخصي بين أمرين؛ الأول حرية الدين — حق الشخص في اتباع أي دين أو ألا يتبع أي دين — والثاني هو طبيعة الدين. الحرية الشخصية في اختيار المرء دينَه محل تقدير بالغ، ولا سيما في العالم الحديث. لكن القول إن المرء ينبغي أن يكون حرًّا في اختيار أي دين أو الامتناع عن اتباع أي دين لا يعني أن الأديان التي يختارون منها هي «شأن شخصي» فعلًا. حقًّا، قليلة هي الأشياء التي تضاهي الدين في الوطأة الاجتماعية. حدد الباحث الشهير في علم الأديان نينيان سمارت (١٩٩٩) الذي عاش في القرن العشرين سبع سمات للدين: الهوية الاجتماعية، والأخلاق، والشعائر، والخرافات، والمذاهب، والتجارب العاطفية، والأشياء والأماكن التي تُبرز المقدسات. أول ست سمات من هذه اجتماعية بوضوح. تضع الهوية الاجتماعية التي يمنحها دينٌ ما الناس في جماعة. أما الأخلاقيات فهي القواعد المتعلقة بكيفية تعامل الناس. وأما الشعائر فقد تُقام على نحو منفرد، لكنها عادة ما تكون أعمالًا اجتماعية. وأما الخرافات (في مفهوم الباحث للقصص التي تفسر جوانب مهمة من الحياة) فهي تُسلَّم من جيل إلى جيل داخل الجماعات. وأما المذاهب فهي التعاليم الرسمية لجماعة ما كما يعلنها القادة الدينيون الذين يستمدون سلطتهم من تلك الجماعة. وحتى الأشياء والأماكن ذات الأهمية الدينية، عادة ما تستمد تلك الأهمية المُسبَغة عليها من الجماعات.

كما رأينا في الكتاب المقدس العبري، أو العهد القديم، على سبيل المثال، لم يكن هناك تمييز بين الدين وبقية الحياة الاجتماعية. لا توجد كلمة «دين» في الكتاب المقدس العبري. وكانت شريعة موسى هي الشريعة المدنية والدينية لشعب إسرائيل، وتعامل الله مع شعب إسرائيل بصفتهم جماعة، عبر ممثلين يُدعَوْن أنبياء.

والمسيحية أيضًا بدأت بوصفها حركة اجتماعية. كانت محاولة يسوع لتحقيق ملكوت الله على الأرض؛ أي أن يجعل كل إنسان يعيش كما أراد الله له أن يعيش. وحينما أصبحت المسيحية الديانةَ الرسمية للإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع، صارت حتى أكثر اجتماعية في تكوينها. يقول مسيحيون كثيرون اليوم إن جوهر دينهم هو القبول الشخصي بأن يسوع المسيح مخلِّصهم. لكن حينما وصف يسوع يوم الدينونة في الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متَّى، لم يكن المعيار هو مقدار العلاقة الشخصية التي كونوها معه بصفته مخلِّصهم، وإنما كان المعيار هو كيفية نجاحهم في سد حاجات الآخرين من طعام وملبس ومأوًى ورفقة.

إذا نظرنا فيما وراء الديانات التوحيدية الغربية، نجد أن الطبيعة الاجتماعية للدين لا تزال أكثر وضوحًا. الكونفوشية، على سبيل المثال، وهي التقليد العظيم الذي حكم

الصين آلاف السنين، هي من حيث الأساس مجموعة من الإرشادات للتنظيم الاجتماعي والسياسي.

ربما نعترض، مثل توماس جيفرسون، على الطرق التي تَلاعَب بها أفراد بديانات مختلفة من أجل منفعتهم، وقد يحثنا هذا على الدفاع عن التعديل الأول لدستور الولايات المتحدة. لكن احتمالية استغلال الجماعات للدين من أجل مصالحها هي نفسها تبرهن عن أن الدين هو من حيث الأساس شأن اجتماعي وليس شخصيًّا.

ويُلقي البعد الاجتماعي للدين أيضًا بظلال من الشك على الفكرة التي أشاعها جون إف كينيدي بأن دين المرشح الرئاسي هو دين شخصي حقًّا؛ ففي الانتخابات الرئاسية التمهيدية في الولايات المتحدة عام ٢٠١٢، جعل ريك سانتورم رؤاه الأخلاقية الرومية الكاثوليكية المحافظة جزءًا من حملته الانتخابية. ذكر سانتورم أنه ينبغي تعديل الدستور بحيث يُحرِّم الإجهاض وزواج المثليين؛ وأضاف أن المحكمة العليا قد أخطأت في حكمها عام ١٩٦٥ بأن للأمريكيين حقًّا في الخصوصية يشمل استخدام موانع الحمل. وكما تمنى، جلبت له هذه التصريحات الكثير من الأصوات الانتخابية من المسيحيين المحافظين. لكن كان منطقيًّا أيضًا ألا يمنحه الأشخاص الذين لا يشاركونه معتقداته الدينية أصواتهم بناءً على تلك المعتقدات. لم تكن شأنًا شخصيًّا محضًا.

المراجع

Durkheim, É. (1995) *The Elementary Forms of Religious Life*, translated by Karen Fields, Free Press, New York.

James, W. (2008) *The Varieties of Religious Experience*, Arc Manor, Rockville MD.

Kennedy, J.F. (1960) Speech to the Greater Houston Ministerial Association, September 12.

Padover, S. (ed) (1943) *The Complete Jefferson*, Tudor, New York.

Smart, N. (1999) *Worldviews: Crosscultural Explorations of Human Beliefs*, Scribner, New York.

(٧) سيحل العلم محل الدين في النهاية

> آن للعلماء وغيرهم من عامة المفكرين أن يلحظوا أن حصيلة الصراع بين الإيمان والمنطق هي صفر … ما من سبب وجيه على الإطلاق لتصديق [نوعية الأشياء التي يؤمن بها المتعصبون الدينيون]، وجدير بالعلماء التوقف عن التواضع الشديد وجعل نورهم يسطع بقوة أمام الجميع. (سام هاريس (٢٠٠٥))

طرأت تغيرات هائلة على المجتمع في القرنين المنصرمين، مع تطور الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا الحديثة بالإضافة إلى علم النفس والعلوم الاجتماعية. مكَّنت العلوم الحديثة بدورها من حدوث الثورة الصناعية التي شهدت إنشاء السكك الحديدية، والسيارات، والطائرات، والمركبات الفضائية، والمواد التخليقية، والأجهزة الإلكترونية، والكمبيوترات وغيرها من العجائب التكنولوجية التي تشكل حياتنا اليوم.

كيف أثرت العلوم والتكنولوجيا الحديثة في الديانات التقليدية؟ من الأفكار الرائجة التي تشكلت في النصف الأول من القرن التاسع عشر أنه كلما اكتسبت العلوم والتكنولوجيا أهمية في حيوات الناس، تتراجع أهمية الدين. على سبيل المثال، ذكر كلٌّ من عالم الاجتماع البارز أوجست كونت (توفي عام ١٨٥٧)، وكارل ماركس (توفي عام ١٨٨٣)، وسيجموند فرويد (توفي عام ١٩٣٩) أن الدين بدأ في مرحلة مبكرة للغاية من نشأة الجنس البشري، عندما كان الناس يعرفون القليل عن العالم المادي وعن أنفسهم. حينها لم يكن الناس يفكرون تفكيرًا منطقيًّا، وكانوا يؤمنون بشدة بالخرافات؛ ولذا استعانوا بالسحر والأضاحي لمحاولة ضمان صيد سمين، أو حصاد وفير، وإبعاد الأمراض. وذكر هؤلاء المفكرون أنه مع تزايد معرفة الناس بطريقة عمل الكون وأجسادهم وعقولهم بالفعل، انحسر الاحتياج إلى الدين؛ فعلى سبيل المثال، بينما كان الناس يظنون في وقت من الأوقات أن البرق والرعد هما من أفعال الآلهة في السماء، علَّمنا العلم أن البرق هو تفريغ الكهرباء الساكنة، وأن الرعد هو الأثر الصوتي لهذا التفريغ. وظنت أجيال لا حصر لها من البشر أن الطواعين هي عقاب إلهي، لكن العلم علَّمنا أن وراءها كائنات دقيقة مثل البكتيريا والفيروسات. وهكذا، أزالت المعرفة العلمية الغموض من العالم ومنحتنا سُبل فهم أسباب مشكلاتنا، ومِن ثَمَّ أدوات حلها.

فيما يتوالى تطور العلوم والتكنولوجيا، سيتمكن الناس، كما ظن كونت وماركس وفرويد وكثيرون غيرهم، في نهاية المطاف من تفسير ما يدور في العالم من حولهم والتحكم

فيه دون التضرع إلى أي قوًى غيبية أو آلهة. لن يترك هذا شيئًا للدين ليفعله، وهكذا سوف يذبل ويندثر. جرى التعبير عن هذا الرأي في اقتباسٍ كثيرًا ما يُعزى إلى الفيلسوف برتراند راسل: «الدين هو فضلة مهد ذكائنا؛ سوف ينزوي كلَّما اهتدينا بالعقل والعلم.»

في السنوات القلائل الماضية، قدم أربعة ملحدين بارزين أفكارًا مشابهة — دانييل دينيت، وسام هاريس (المقتبَس عنه أعلاه)، وريتشارد دوكينز، وكريستوفر هيتشنز. يفترض الفيلسوف الأمريكي دانييل دينيت (٢٠٠٧) في كتابه «كسر السحر: الدين بوصفه ظاهرة طبيعية» أن الدين طمأن البشر الأوائل أن بمقدورهم التحكم في العالم من حولهم. على أن هذه الطمأنينة كانت مبنية على معتقدات زائفة عن الآلهة والأرواح، ومِن ثَمَّ كانت هذه الطمأنينة وهمية. الدين قوامه فكر قائم على التمني، وينبغي الاستعاضة عنه بالعلم.

وألَّف عالِم الأعصاب الأمريكي سام هاريس كتابين يؤيدان الاستعاضة عن الدين بالعلم: «نهاية الإيمان: الدين، والإرهاب، ومستقبل العقل» (٢٠٠٤)، و«رسالة إلى أمة مسيحية» (٢٠٠٨). يقول هاريس إن البشر الأوائل لم يسيئوا فهم العالم فحسب، ولكن معتقداتهم الزائفة قادتهم أيضًا إلى عادات همجية مثل تقديم الأطفال قرابين للآلهة؛ إذ يُظهر أمر الله لإبراهيم بالتضحية بابنه المذكور في الكتاب المقدس كيف كانت تلك الممارسة مألوفة للإسرائيليين القدماء. يقول هاريس إننا بحاجة إلى الاستعاضة عن الدين بالعمل، ليس فقط من أجل فهم أفضل للعالم، لكن أيضًا كي يعامل بعضُنا بعضًا معاملة أفضل.

ويُظهِر عنوان كتاب عالِم البيولوجيا التطورية البريطاني ريتشارد دوكينز «وهم الإله» (٢٠٠٦)، تشابُهه مع العلماء الثلاثة الآخرين في هذه المجموعة. يقول دوكينز في تفسير الكون وأصل الكائنات الحية إن نظريَّتَي الانفجار العظيم والتطور أكثر عقلانية وصدقية من التفسيرات الدينية. ويصر على أن إحلال الخرافات الدينية محل التفسيرات العقلانية للحياة يَحْرم الناس من الأدوات اللازمة لأن يَحْيوا حيوات ناجحة مستقلة. ويزيد على ذلك بافتراض أن تدريب الأطفال من خلال تهديدات بالعنف ووعود بالمكافأة لا تستندان إلى أساسٍ هو نوع من سوء معاملة الأطفال (٢٠٠٦).

ويقدم الكاتب الصحفي البريطاني-الأمريكي كريستوفر هيتشنز (٢٠٠٧) بعضًا من أقوى الهجمات على الدين. يفرد هيتشنز في كتابه «الله ليس عظيمًا: كيف يسمم الدين كل شيء» فصلًا كاملًا (الفصل السادس عشر) للدين باعتباره إساءة معاملة للأطفال. ويزعم أن الدين «عنيف، وغير عقلاني، وعديم التسامح، وموالٍ للعنصرية والتعصب والتزمت، ومفعَم بالجهل ومعادٍ لحرية التساؤل، ومزدرٍ المرأة ومتعسف بالأطفال.» (٢٠٠٧: ٥٦).

إن صحَّت مقولات كهذه، فمن المفترض أن نتوقع اختفاء الدين تدريجيًّا مع تزايد ما يفسره العلم عن عالمنا. تنبأ بعض العلماء منذ خمسين عامًا بأنه بحلول عام ٢٠٠٠، سوف تصبح أوروبا وأمريكا الشمالية علمانيتين بالكامل، لأن الناس ابتعدوا كثيرًا عن الدين. سوف تصبح معتقدات الناس عن العالم الطبيعي وعن أنفسهم معتقدات علمية، وسوف تُبنى القيم والأعراف المجتمعية على العلم. لم يتوقع ذلك الملحدون وحدهم، ولكن عدد كبير من المؤمنين المتدينين أيضًا؛ فعلى سبيل المثال، بشَّر هارفي كوكس، الأستاذ بكلية هارفارد ديفِنيتي، بمثل هذه التغيرات في كتابه الأكثر مبيعًا «المدينة العلمانية» (١٩٦٥).

تحققت التنبؤات بشأن انحسار الدين تحققًا واسع النطاق في أوروبا على مدار العقود الأربعة المنصرمة. كثيرًا ما تُوصف السويد على سبيل المثال بأنها البلد الأقل تدينًا في العالم. وحتى أواخر القرن التاسع عشر، كان يوجد بها كنيسة الدولة التي ينتمي إليها كل فرد تلقائيًّا. لكن بالتدريج على مدار القرن العشرين فصل السويديون حكومتهم عن الكنيسة. ولا تزال الأغلبية الساحقة أعضاءً في «كنيسة السويد» حيث يُعمَّدون ويعقدون مراسم الزواج والجنائز، لكن هذه هي أقصى حدود «الدين» عندهم. يقول ٩٥ في المائة منهم إنهم «قلَّما» يحضرون الصلوات الجماعية الكنسية، أو لا يحضرونها «أبدًا». وبحسب تقديرات الكنيسة نفسها، يحضر أقل من ٢ في المائة بانتظام. ولا يؤمن سوى ١٥ في المائة من الشعب بإله شخصي، ولا يؤمن سوى ١٩ في المائة بالحياة بعد الموت.

لكن العكس حدث في الولايات المتحدة. كما ظلت العلوم والتكنولوجيا تزدهران هناك، استمر ازدهار الدين أيضًا، ولا سيما بين البروتستانت الإنجيليين. على سبيل المثال، بلغت «الكنيسة الإنجيلية الحرة بأمريكا» في عام ٢٠٠٠ ستة أمثال حجمها عام ١٩٦٠؛ وبلغت «كنيسة الله في المسيح» ١٣ مثل حجمها. وفي عام ١٩٧٠، كان هناك ٥٠ كنيسة عملاقة — تلك الكنائس التي يحضر إليها ٢٠٠٠ شخص أو أكثر أسبوعيًّا — في الولايات المتحدة؛ ويبلغ عددها الآن ١٣٠٠ كنيسة. وتجتذب الكنيسة الكبرى على الإطلاق، كنيسة ليكوود في هيوستن بولاية تكساس، ٤٥ ألف شخص أسبوعيًّا. الولايات المتحدة هي أكثر بلدان العالم الصناعي تدينًا، إذ يعرِّف ٧٦ في المائة من سكانها أنفسهم بأنهم مسيحيون وفقًا للتعداد السكاني للولايات المتحدة. وهي البلد المتقدم الوحيد الذي يقول أغلبية سكانه إن للدين دورًا بالغ الأهمية في حياتهم. وفي استطلاع رأي أجراه منتدى بيو حول الدين والحياة العامة، ذكر ٣٦ في المائة من الأمريكيين أنهم يحضرون الصلوات الجماعية مرة واحدة على الأقل في الأسبوع.

كيف أمكن للتنبؤات الأكاديمية بشأن اندثار الدين أن تخطئ على هذا النحو الشديد؟ يستند الزعم بأنه كلما كان المجتمع متقدمًا علميًّا وتكنولوجيًّا انخفض تدينه إلى مفهومين خاطئين جوهريين عن الدين. أولهما أنه عندما يفسر الناس الأمور بالاستعانة بالله؛ فإنهم يظنون بأن الله يسبب هذه الأشياء بطريقة مباشرة مثلما يتسبب ركل الكرة في أن تطير في الهواء. صحيح أنه قبل أن يتيح الميكروسكوب للعلماء رؤية الميكروبات المسبِّبة للأمراض، كان كثير من المتدينين يفكرون في الله على أنه مسبِّب المرض. لكن اكتشاف الميكروبات لم يجعل الناس يستبعدون الله من تفسيرهم للمرض. لم يحوِّل المؤمنين بالتأكيد إلى ملحدين. حافظ معظم الناس على اعتقادهم بأن الله هو مسبِّب كل شيء — ومن ذلك الميكروبات المسبِّبة للأمراض — وأضافوا حقيقة جديدة إلى نظرتهم إلى العالم: ألا وهي أن الميكروبات هي الأسباب «المباشرة» لأمراض كثيرة. ولا يزالون يرون أن الله هو خالق كل الأشياء الذي يحفظ بقاءهم على قيد الحياة من لحظة إلى أخرى. ولم يزل الله من وجهة نظرهم هو السبب «المطلق» لكل الأشياء وكل الأحداث، ومنها الميكروبات التي تُمرض الناس. وهكذا درس آلاف من المؤمنين العلم وظلوا مؤمنين. واليوم، عندما يصلي معظم الناس إلى الله كي يشفيهم من عدوى ما، على سبيل المثال، فهم يدركون جيدًا أن السبب المباشر لهذه العدوى هو كائنات دقيقة خبيثة، إلا أنهم يلتمسون العون من الله بصفته السبب المطلق لكل الأشياء والأحداث، ومنها البكتيريا والفيروسات.

الافتراض الخاطئ الثاني في خرافة أن الدين يتقلص باتساع العلم، هو أن الوظيفة الأساسية للدين هي تفسير الأمور. وبينما تفعل الأديان ذلك بالتأكيد، فهي تفعل ما هو أكثر من ذلك كثيرًا؛ فكما رأينا أعلاه، حدد الباحث في العلوم الدينية نينيان سمارت (١٩٩٩) سبع سمات للدين: الهوية الاجتماعية، والأخلاق، والشعائر، والخرافات، والمذاهب، والتجارب العاطفية، والأشياء والأماكن المقترنة بالمقدسات. من هذه السمات السبع، نجد أن الخرافات والمذاهب هما فقط اللتان تنطويان على تفسير الأمور، ويمكن أن يكون أي من السمات الخمس الأخرى أكثر قيمة عند الشخص من إيجاد التفاسير. بل قد يتجاهل الأشخاص التفاسير التي تقدِّمها مذاهبهم الدينية، ولكنهم يظلون أعضاءً في ذلك الدين، لأنهم يقدِّرون الإحساس الذي يقدِّمه بالهوية وبالمجتمع، والشعائر والتقاليد الأخرى، والنظام الأخلاقي، والناس الذين هم في الجماعة، والأماكن التي يلتقون فيها. وحتى رجال الدين يمكن أن يرفضوا المذاهب، ومنها المذهب الجوهري المتعلق بوجود الله. على سبيل المثال، درَّس واحد من أشهر الحاخامات اليهود، وهو مردخاي كابلان، في كلية اللاهوت اليهودية بنيويورك خمسين عامًا، وأسس فرع الدين الإلحادي الذي عُرِف باسم

«اليهودية الداعية إلى إعادة البناء». ويُشتهر الحاخام ريتشارد إل روبنشتاين، أحد تلاميذ كابلان، بكتابه «ما بعد أوشفيتز: التاريخ واللاهوت واليهودية المعاصرة» (١٩٩٢) الذي ينكر وجود الله. وبالمثل، الأسقفان الأنجليكانيان: جون روبنسون، مؤلف الكتاب الأكثر مبيعًا «مُخلِص لله» (١٩٦٣)؛ وجون شيلبي سبونج، مؤلف كتاب «مسيحية جديدة من أجل عالم جديد» (٢٠٠٢)، هما ملحدان يرفضان الكثير من المعتقدات المسيحية التقليدية. لكنهم جميعهم ظلوا رجال دين بسبب الكثير من الأمور الثمينة في تقاليدهم.

هكذا، لم تكن التعاليم المتعلقة بمنشأ العالم وطبيعته هي الغرض الوحيد للدين. ولا يُقصد بالخرافات الدينية أنها علوم بالمعنى الحرفي كما رأينا في الفصل الأول. لطالما كانت الأديان معنا منذ زمن سحيق، وعلى الرغم من تكهنات المتشكِّكين، فالأرجح أنها ستظل معنا على الدوام.

المراجع

Cox, H. (1965) *The Secular City*, Collier, New York.

Dawkins, R. (2006) *The God Delusion*, Mariner Books, Boston.

Dennett, D. (2007) *Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon*, Penguin, New York.

Harris, S. (2004) *The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason*, Norton, New York.

Harris, S. (2005) The Politics of Ignorance, *Huffington Post*, August 2, www.samharris.org/site/full_text/the-huffington-post-aug-2-2005 (accessed January 6, 2013).

Harris, S. (2008) *Letter to a Christian Nation*, Vintage, New York.

Hitchens, C. (2007) *God Is Not Great: How Religion Poisons Everything*, Twelve, New York.

Pew Forum on Religion and Public Life (2012) Summary of key findings, *US Religious Landscape Survey,* http://religions.pewforum.org/pdf/report2religious-landscapestudy-key-findings.pdf (accessed Janury 10, 2014).

Robinson, J. (1963) *Honest to God*, Westminster John Knox, Philadelphia.

Rubenstein, R. (1992) *After Auschwitz: History, Theology, and Contemporary Judaism*, Johns Hopkins University Press, Baltimore and London.

Smart, N. (1999). *Worldviews: Crosscultural Explorations of Human Beliefs,* Scribner, New York.

Spong, J.S. (2002) *A New Christianity for a New World: Why Traditional Faith Is Dying and How a New Faith Is Being Born*, HarperOne, San Francisco.

(٨) يتسبب الدين في العنف

> شيء فينا ... يجذبنا لارتكاب الخطأ. أعتقد أنه من السهل تفسيره. نحن رئيسيات، صحيح أننا رئيسيات عليا، لكن رئيسيات. يفرقنا عن الشمبانزي نصف كرموسوم، وهو يكشف عن نفسه. يتضح خصوصًا في عدد الأديان التي نخترعها لتعزية أنفسنا، أو لتوفير أمور لنتنازع مع الرئيسيات الأخرى عليها. إن كان هناك شيء يثبت أن الله هو من صنع الإنسان، لا أن الإنسان من صنع الله، فبالتأكيد سيكون الأديان التي ابتكرتها هذه الكائنات الشبيهة بالشمبانزي، والأذى الذي تكون على استعداد لإلحاقه بالآخرين بناءً على ذلك الأساس. (كريستوفر هيتشنز (٢٠٠٧أ))

يبدو أن الأخبار الدولية تحوي في كل يوم خبرًا واحدًا على الأقل عن العنف الديني. سرعان ما تخطر ببالنا الهجمات التي ارتكبها إرهابيون مسلمون في الولايات المتحدة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وفي المملكة المتحدة في ٧ يوليو ٢٠٠٥. وفي مطلع تسعينيات القرن العشرين في يوغسلافيا السابقة، خلَّف القتال بين الصرب الأرثوذكسيين، والكروات الكاثوليكيين، والبوسنيين المسلمين أكثر من ٢٠٠ ألف قتيل مسلم. ويمتلئ التاريخ الأوروبي أيضًا بالعنف المرتبط بالدين. قُدِّر قتلى حرب الأعوام الثلاثين (١٦١٨–١٦٤٨) بين الكاثوليك والبروتستانت بنسبة ١٥–٣٠ في المائة من شعب الولايات الألمانية، شاملة نصف الذكور تقريبًا. وفي أيرلندا، استمر النزاع ما بين الروم الكاثوليك وبين الأنجليكانيين طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين، وحتى الآن لم يستتب السلام بينهم. وليست الديانات التوحيدية الغربية وحدها المقترنة بالعنف؛ فحتى البوذية التي كثيرًا ما تُعتَبر دين الرحمة،

لها نصيبها من العنف. تتألف سريلانكا — تلك الدولة الجزيرية التي تقع جنوب الهند، ويُلزمها دستورها «برعاية البوذية وحمايتها» — من أغلبية بوذية وأقلية من الهندوس التاميليين. في ثمانينيات القرن العشرين، عندما ضغط التاميليون من أجل الحصول على الاستقلال من سريلانكا، شنت الحكومة حملة وحشية لقمعهم، أيَّدتها الأغلبية البوذية بحماسة. وأسفرت الحرب الأهلية التي ترتبت على ذلك عن قتلى يتراوح عددهم بين ٨٠ ألفًا و١٠٠ ألف. ولم تكن هذه حادثة فردية في تاريخ البوذية كما يوضح كلٌّ من مايكل جيريسون ومارك يورجنسماير في كتابهما «الحرب البوذية» (٢٠١٠). الاستنتاج الذي يستخلصه بعض الناس من كل هذا القتل هو أن الدين عنيف بالفطرة، وأن الانتماء إلى دين ما يجعل أفراده يمتلكون مشاعر سلبية تجاه من لا يعتنقونه، ويتصرفون بعدوانية نحوهم. وفي كتاب كريستوفر هيتشنز بعنوان «الله ليس عظيمًا: كيف يسمم الدين كل شيء» (٢٠٠٧ب)، يتناول الفصل المعنون «الدين يقتل» الكثير من الأمثلة المزعومة. يكتب هيتشنز أنه في عام ٢٠٠١ كان في جلسة مع مذيع متدين دعاه إلى المشاركة في تجربة فكرية. قال الرجل: افترض أنك كنت في مدينة غريبة والليل يُخيِّم، ورأيت مجموعة كبيرة من الرجال يدنون منك. هل ستشعر بأنك أكثر أم أقل أمانًا إذا علمت بأنهم عائدون من صلاة جماعية؟ أجاب هيتشنز بثقة: «سأشعر بأنني أقل أمانًا.»

> مررت بالفعل بهذه التجربة في كلٍّ من بلفاست، وبيروت، وبومباي، وبلجراد، وبيت لحم، وبغداد، لو أنني سأذكر فقط البلدان التي تبدأ بحرف الباء. وفي كلٍّ منها أستطيع القول على نحوٍ مطلق، ويمكن أن أوضح أسبابي، لماذا كنت أشعر في الحال بالخطر إذا فكرت أن هذه المجموعة من الأشخاص المقتربين مني في الغسق كانوا عائدين من ممارسة شعيرة دينية. (٢٠٠٧ب: ١٨)

يتفق كثير من المتدينين، ومنهم دارسو الأديان الذي عُينوا خُدَّامًا، مع هيتشنز على أن الدين خصوصًا نزَّاع للعنف. هكذا استهل الباحث، الخادم بالطائفة المعمدانية الجنوبية، تشارلز كيمبول، كتابه «حينما يصير الدين شرًّا» (٢٠٠١: ١): «أمر مبتذل نوعًا ما، لكنه حقيقي مع الأسف، أن تقول إن حروبًا اندلعت، وبشرًا قُتلوا، وشرًّا ارتُكب هذه الأيام باسم الدين أكثر مما وقع باسم أي قوة مؤسسية أخرى في التاريخ البشري.» ووفقًا لكيمبول، يتسبب الدين بطبعه في العنف لأنه مطلق — فهو ينظر إلى العالم باللونين الأسود والأبيض، وبمصطلحات إقصائية متبادلة مثل «الخير» و«الشر» و«نحن» و«هم».

يتفق معه في هذا الرأي ريتشارد إيه وينتز، خادم «كنيسة المسيح المتحدة»، مؤلف كتاب «لماذا يرتكب الناس الشرور باسم الدين» (١٩٩٣)، وكذلك مارتن مارتي، الخادم اللوثري، الأستاذ بجامعة شيكاجو. كتب مارتي (٢٠٠٠: ٢٨): «حالَما تَعتبر مجموعة معينة نفسها مختارة إلهيًّا وترسم حدودًا صارمة بينها وبين الآخرين، يتحدد العدو بوضوح، ويمكن أن يصبح العنف فعليًّا.»

وكتب عشرات من العلماء الآخرين أيضًا في مجالات الدراسات الدينية، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والتاريخ عن كيفية وجود صلة خاصة بين الدين والعنف على مَر التاريخ وفي مختلف الثقافات. يقول مارك يورجنسماير (2000: xi) ببساطة في كتابه «الإرهاب في عقل الله: الصعود العالمي للعنف الديني»: «يبدو أن الدين يرتبط بالعنف في كل مكان تقريبًا.»

هل يمكن أن تكون مزاعم هؤلاء العلماء العظماء، مع كل أمثلة العنف التي يقدمونها عبر العالم وعلى مَرِّ التاريخ، قاطعة؟

صحيح أن ملايين الناس قتلوا ملايين آخرين من الناس على مر التاريخ وفي مختلف الثقافات، ولكن قول هذا مختلف تمام الاختلاف عن قول إن شيئًا يسمى «الدين»، مقابل شيء يُسمى «السياسة» أو «الهوية الإثنية» أو «الصراع الطبقي»، أدى إلى ذلك العنف. كي نلقي باللائمة على «الدين»، يتعيَّن علينا تمييز الدين من هذه الأمور الأخرى، وإثبات أن الدين أكثر احتمالًا منها لتحفيز العنف. مشكلة هذه الادعاءات أنه لا يوجد لدى أي من هؤلاء العلماء الذين يقولون إن الدين عنيف على نحو خاص، تعريف لـ «الدين» يميزه بوضوح من الظواهر الاجتماعية الأخرى، وخصوصًا السياسة. من دون مثل هذا التحديد، لا يتضح ما الذي يلقي عليه هؤلاء العلماء مسئولية العنف.

معروف أنه يصعب تعريف الدين. لا يمكن أن يشمل التعريف الملائم الاعتقاد بالله أو بآلهة، كما رأينا، لأن ديانات كثيرة لا تشتمل على آلهة. كما لا يمكن تعريف الدين بناءً على «المتجاوِز» أو «الخارق للطبيعة» للسبب نفسه. يقر مارتي بمشكلة تعريف «الدين»، لكنه يقدم «خمس سمات من شأنها أن تساعد في الإشارة إلى المصطلح وتحديده»: «فهو يستحوذ على اهتمامنا النهائي»، و«ينشئ مجتمعًا» و«تستهويه الخرافات والرموز»، و«يتوطد عبر إقامة الشعائر والمراسم»، و«يقتضي من أتباعه التزام سلوك معين» (مارتي، ٢٠٠٠: ١٠–١٤).

لكن هذه السمات يمكن أن نجدها في أمور أخرى كثيرة، ولا سيما الأيديولوجيات السياسية، مثل الماركسية والقومية والوطنية. والمثير للنظر أن مارتي يقول إن السياسة

كثيرًا ما تشترك في هذه السمات. يتضح هذا جليًّا في استبيان لأمثلة للحروب التي يُزعَم أنها اندلعت بسبب الدين. ربما تكون الحرب التي يُستشهد بها أكثر من غيرها كثيرًا هي حرب الأعوام الثلاثين (١٦١٨–١٦٤٨)، التي تمثل جزءًا كبيرًا من القرن الذي أعقب الإصلاح البروتستانتي ونصف العنف الذي شهده. شهدت هذه الفترة سلسلة من الصراعات التي كثيرًا ما يُطلق عليها «الحروب الدينية»، في أعقاب انشقاق اللوثريين والكالفنيين والهيجونوتيين وغيرهم من البروتستانت عن الكنيسة الكاثوليكية. خلقت الاختلافات في المعتقدات والممارسات العداوةَ بين الجماعات المختلفة، وتطورت خلافاتهم إلى صراع مسلح. مشكلة إطلاق وصف «الديني» على هذا العنف هي أنه لا يقل وجاهة عن تعريفه بأنه سياسي أو اقتصادي أو حتى اجتماعي، كما أثبت ويليام كافانو في كتابه «خرافة العنف الديني» (٢٠٠٩).

في فرنسا على سبيل المثال، لم يكن معظم ما كان البروتستانت الهيجونوت يحاربون من أجله هو المعتقدات أو المراسم أو الأخلاقية الكاثوليكية، وإنما كانوا يحاربون من أجل مسألتين سياسيتين؛ كانت إحداهما هي محاولات الملك (الكاثوليكي) انتزاع القوة من النبلاء. وفي هذا الصراع، غالبًا ما كان النبلاء البروتستانت يضمون قواتهم إلى قوات النبلاء الكاثوليك. في عام ١٥٧٣ على سبيل المثال، قاد دوق بوليون الكاثوليكي قوات الهيجونوت ضد الملك (كافانو، ٢٠٠٩: ١٤٤). وفي فرنسا، كما كانت الحال في أماكن أخرى، انطوى الكثير من الصراع في الفترة بأكملها على مقاومة النبلاء المحليين محاولات الملوك والأباطرة تركيز السلطة في دول مركزية. (كافانو، ٢٠٠٩: ١٦٣). بدأت تلك المقاومة قبل الإصلاح البروتستانتي بمعارضة النبلاء الكاثوليك للملوك الكاثوليك. كما عارض الفرنسيون البروتستانت أيضًا فساد الملوك والأساقفة. وبدءًا من عام ١٥١٦، كان يحق للملوك الفرنسيين (الكاثوليك) تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة. منح الملك فرانسيس الأول هذه المناصب لرفاقه، وفي أغلب الأحيان لنبلاء لم يتلقَّوا أي تدريب في الشئون الكنسية. تبوأ كاردينال دي تورنو على سبيل المثال مناصب الحاكم الإقليمي؛ والخبير المالي للملك؛ ورئيس أساقفة كلٍّ من أوش وبورج وأومبرون وليون؛ ورئيس أكثر من اثني عشر ديرًا في الوقت نفسه (كافانو، ٢٠٠٩: ١٦٧).

لو كانت هذه حقًّا حروبًا «دينية» لما كان القتال بين جنود من الدين نفسه، وما كانت جيوش أتباع الديانات المختلفة لتتحالف معًا. لكن كلا الأمرين كان شائعًا، فقد تحالف الكاثوليك الفرنسيون مع المسلمين الأتراك ضد إمبراطور الإمبراطورية الرومانية

المقدسة شارل الخامس. وكان معظم قوات شارل من المرتزقة الذين كان كثيرون منهم من البروتستانت، ومِن ثَمَّ، كثيرًا ما تَقاتَل على أرض المعركة بروتستانتيون ضد بروتستانتيين. وكان النصف الثاني من حرب الأعوام الثلاثين بالدرجة الأولى بين سلالتين كاثوليكيتين كبيرتين من أوروبا، الهيجونوت والبوربون. في ثلاثينيات القرن السابع عشر، أدخل الكاردينال ريشيليو فرنسا في حرب الأعوام الثلاثين إلى جانب السويد اللوثرية ضد إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الكاثوليكي) فرديناندو الثاني. وفي عام ١٦٣٥ أعلنت فرنسا الكاثوليكية الحرب على إسبانيا الكاثوليكية، واستمرت تلك الحرب حتى عام ١٦٥٩. وفي عام ١٦٤٣ هاجمت السويد اللوثرية الدنمارك اللوثرية؛ وآزر إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الكاثوليكي) فرديناند الثالث الدنمارك.

يقدم كافانو ستة وثلاثين مثالًا آخر لم يكن فيها أطراف النزاع متخاصمين بسبب الاختلاف الديني. لم يكن السبب الرئيس للعنف هو «الدين مقابل الأسباب السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية المحضة»، و«مستحيل فصل الدوافع الدينية عن الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية» (كافانو، ٢٠٠٩: ١٧٧). هكذا كانت التسمية الخاطئة «الحروب الدينية». قد نطلق عليها على أكثر تقدير أنها «حروب متعلِّقة بالدين والسياسة والاقتصاد والمسائل الاجتماعية.»

إذا محَّصنا بالتفصيل أمثلة العنف الأخرى المذكورة في بداية هذا النقاش، نجد أسبابًا مشابهة للتشكك في نَسبها إلى الدين. ليس المقصود أن الاختلافات الدينية لا تلعب دورًا على الإطلاق في هذه الصراعات، لكن أن العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية متضمَّنة، ويستحيل أن نجد طريقة لفرز الاختلافات الدينية باعتبارها السبب الرئيس للعنف. الصراع في سريلانكا على سبيل المثال هو بين السريلانكيين السنهاليين المسيطرين وبين الأقلية التاميلية. تُعَد هذه اختلافات إثنية وليست دينية. والحق أنه بينما أغلب السنهاليين بوذيون ثيرافاديون؛ فإنهم يشتملون على أقلية مسيحية. والتاميليون هندوس في غالبيتهم لكن منهم أقليات مهمة مسلمة ومسيحية.

بالمثل في الصراع ما بين الروم الكاثوليك والأنجليكانيين بأيرلندا، تعد الاختلافات في الأيديولوجية والطقوس والقوانين الأخلاقية طفيفة للغاية، وليس لها أدنى علاقة بالأعمال العدائية. بل ويطلق بعض الأنجليكانيين في أيرلندا — وكذلك في بقاع أخرى — على أنفسهم وصف «أنجلو-كاثوليك». أما لُبُّ العراك بين الجماعتين فهو قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية، وخصوصًا سيطرة الإنجليز على أيرلندا التي بدأت في القرن الثاني عشر.

واليوم، يرى الروم الكاثوليك الأنجليكانية دليلًا على نفوذ إنجلترا المستمر على أيرلندا الشمالية، بينما كانت الكاثوليكية دائمًا هي دين الفقراء الأيرلنديين وأولئك الذين قاوموا الحكم الإنجليزي.

كان لب الصراع في البوسنة في تسعينيات القرن العشرين سياسيًّا أيضًا. نشأت البوسنة من تفكك يوغسلافيا إلى ثلاث جماعات إثنية متحاربة — الصرب الأرثوذكسيين، والكروات الروم الكاثوليكيين، والبوشناق المسلمين. بعد وفاة الزعيم الشيوعي القوي جوزيف تيتو في عام ١٩٨٠، سقطت يوغسلافيا في الفوضى السياسية. ومع أواخر عقد الثمانينيات ظهر زعيم جديد هو سلوبودان ميلوشيفيتش، وهو صربي أشعل جذوة التوترات الإثنية القديمة من أجل مكسب سياسي. في عام ١٩٩١ غزت قواته كرواتيا من أجل «حماية» الأقلية الصربية هناك التي مثلت ١٢ في المائة من السكان. حاصرت قواته مدينة فوكوفار، وبعدما أتوا على الأخضر واليابس، قتلوا مئات الرجال الكروات ودفنوهم في مقابر جماعية. وفي أبريل ١٩٩٢، اعترفت الولايات المتحدة والمجتمع الأوروبي باستقلال البوسنة التي كانت أغلبيتها من المسلمين لكن ثلثها من الصرب. سرعان ما هاجم ميلوشيفيتش عاصمة البوسنة، سراييفو. وأطلق القناصة الصربيون النيران على آلاف من المدنيين في الشوارع، ومنهم ٣٥٠٠ من الأطفال. ولما لاقى الصرب مقاومة هزيلة من المسلمين، بدءوا يأسرون الرجال والصبيان، ويعدمون المئات منهم، ويغتصبون النساء والفتيات. ودعَوا هذا العنف «تطهيرًا عرقيًّا». وفي نهاية الأمر، أوقفت الولايات المتحدة والناتو القتل الجماعي (الذي كان يُشار إليه عمومًا بالإبادة)، لكن بعد أن ذبح الصرب ٨٠٠٠ رجل وصبي آخرين في مدينة سِربِرنيتسا في أسوأ إبادة جماعية في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية. ولم يكن عنف الصرب ضد البوسنيين المسلمين، وكذلك عنفهم ضد الكروات الكاثوليكيين، من باب معارضة معتقداتهم وممارساتهم الدينية. وإنما كان وسيلة لزيادة القوة السياسية والإقليم الصربيين.

في حالة الهجمتين الإرهابيتين في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة، و٧ يوليو ٢٠٠٥ في المملكة المتحدة، على خلاف بقية الأمثلة، ذكر مرتكبوها أن لهم دوافع دينية بتسميتها «الجهاد»؛ فقد زعموا أن عليهم واجبًا أخلاقيًّا يُلزمهم بقتل الأمريكيين والبريطانيين بسبب تلك الإهانات التي ارتكبوها مثل تمركز القوات الأمريكية والبريطانية في مسقط رأس دينهم، الإسلام، المملكة العربية السعودية، إبان حرب الخليج الأولى. وبصورة أوسع، عبَّروا عن استيائهم من الإمبريالية والاستعمار الغربيَّين، ولا سيما محاولة السيطرة على أراضي المسلمين من خلال تقويض الشريعة الإسلامية هناك؛ ولذا،

نستطيع أن نتحدث عن سبب ديني في هذه الهجمات. ومع ذلك، فلا فرق من وجهة نظر مرتكبي هذه الأفعال بين الدين والسياسة، ومِن ثم كانت هذه الهجمات عنفًا «سياسيًّا» بقدرِ ما هي عنف «ديني». مهم أيضًا أن نلحظ، بصرف النظر عن رأي الإرهابيين في هذه الهجمات فيما كانوا يفعلونه، أن أفعالهم لم تكن تستند إلى مرجعية دينية. أدان القادة الإسلاميون عبر العالم تلك الأعمال. وكما سنرى في الفصل الخامس، فكلٌّ من الانتحار والإرهاب من الكبائر في الإسلام. مِن ثَمَّ لم يكن القرآن أو الإسلام هو ما ساعد في تحفيز هذا الإرهاب، ولكن التفاسير الخاطئة للقرآن والإسلام. مرة أخرى، ما من شيء هنا يُثبت أن الدين نَزَّاع على وجه الخصوص إلى التسبب في العنف.

المراجع

Cavanaugh, W. (2009) *The Myth of Religious Violence*, Oxford University Press, Oxford.

Hitchens, C. (2007a) "Poison or Cure? Religious Belief in the Modern World", Debate with theologian Alister McGrath, Georgetown University, October 11, www.youtube.com/watch?v=xq-KiDdYvsY&t=54m47s (accessed January 7, 2014).

Hitchens, C. (2007b) *God Is Not Great: How Religion Poisons Everything*, Twelve, New York.

Jerryson, M. and Juergensmeyer, M. (2010) *Buddhist Warfare*, Oxford University Press, Oxford.

Juergensmeyer, M. (2000) *Terror in the Mind of God: The Global Rise of Religious Violence*, University of California Press, Berkeley.

Kimball, C. (2002) *When Religion Becomes Evil*, HarperSanFrancisco, San Francisco.

Marty, M., with Moore, J. (2000) *Politics, Religion, and the Common Good*, Jossey-Bass, San Francisco.

Wentz, R. (1993) *Why People Do Bad Things in the Name of Religion*, Mercer University Press, Macon GA.

الفصل الثالث

خرافات حول اليهودية واليهود والكتاب المقدس اليهودي

(١) آمن الإسرائيليون القدماء بالله الواحد.
(٢) كتب موسى الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس.
(٣) يتعارض سفر التكوين ونظرية التطور.
(٤) يعتقد اليهود أنهم اختيروا من الله لنَيْل امتيازات خاصة.
(٥) قتل اليهود يسوع.
(٦) فرية الدم: يستخدم اليهود دم المسيحيين في شعائرهم.
(٧) نصح بنجامين فرانكلين حكومة الولايات المتحدة بطرد اليهود.
(٨) «بروتوكولات حكماء صهيون»: مؤامرة زعماء اليهود للهيمنة العالمية.
(٩) يمثل عيد الأنوار لليهود ما يمثله عيد الميلاد للمسيحيين.

مقدمة

المفاهيم الخاطئة الشائعة عن اليهود واليهودية التي نتعرض لها في هذا الفصل على أنواع ثلاثة. بعضها يعكس مفاهيم خاطئة تغيرت من خلال البحوث العلمية، مثل الاعتقاد بأن موسى كتب الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس. وبعضها يعكس تفاسير اعتُبِرت صحيحة لكن لا يتقاسمها الآخرون، مثل الزعم بأن المؤمنين ينبغي أن يختاروا بين قصة الخلق المذكورة في سفر التكوين ونظرية التطور. وهذا مثال للفروق بين قراءة القصص النصوصية على أنها حقيقة علمية وتاريخية حرفية، وقراءتها على أنها استعارات لحقيقة

خارقة للطبيعة. ومعظم المفاهيم الخاطئة من نوعية كره الأجانب المذكورة في الفصل الأول التي أنتجها أشخاص يرتابون بمن هم خارج جماعتهم ويخشونهم ويزدرون بهم.

(١) آمن الإسرائيليون القدماء بالله الواحد

> أراد الإسرائيليون القدماء أرضهم التي تمكنوا فيها من عبادة إلههم. آمن معظم الناس في منطقة البحر المتوسط بآلهة كثيرة. كانت هناك آلهة الموت، والشمس، والمطر. أما الإسرائيليون القدماء فآمنوا بإله واحد؛ يهوه. (ممالك البحر المتوسط (على الإنترنت))

ينسب اليهود والمسيحيون والمسلمون والبهائيون أديانهم إلى الأب القديم إبراهيم (الذي عاش نحو عام ١٨٠٠ قبل الميلاد)، الذي أقام الله معه عهدًا. تأكَّد هذا العهد من جديد، وتعمَّق عندما سلَّم الله الشريعة إلى موسى على جبل سيناء نحو عام ١٤٥٠ قبل الميلاد، وصار إلزامًا للموحدين بالله — أولئك الذين يؤمنون بالله الواحد فقط — منذئذٍ. وكما تقول القصة، ظل شعب إسرائيل، وهو محاط بقبائل وإمبراطوريات تعبد آلهة كثيرة، مخلصًا لإله واحد؛ يهوه.

في القرنين الماضيين، عثر دارسو الكتاب المقدس على أدلة مقنعة على أن هذا الوصف للإسرائيليين القدماء ابتُدع في وقت ما بعد عام ٦٢١ قبل الميلاد، عندما حرَّم الملك يوشيا في أورشليم عبادة أي إله غير يهوه.

وينبثق الدليل على أن الإسرائيليين لم يكونوا موحِّدين على نحو صارم قبل عام ٦٢١ قبل الميلاد من مصدرين أساسيين — الكتاب المقدس العبري وعلم الآثار. يصف سفر الملوك الثاني (٢٣: ٤–٧) حملة الملك يوشيا للتخلص من عبادة الآلهة الأخرى والتكريس ليهوه وحده:

> وَأَمَرَ الْمَلِكُ حِلْقِيَّا الْكَاهِنَ الْعَظِيمَ وَكَهَنَةَ الْفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ وَحُرَّاسَ الْبَابِ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ هَيْكَلِ الرَّبِّ جَمِيعَ الآنِيَةِ الْمَصْنُوعَةِ لِلْبَعْلِ وَلِلسَّارِيَةِ وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ، وَأَحْرَقَهَا خَارِجَ أُورُشَلِيمَ فِي حُقُولِ قَدْرُونَ، وَحَمَلَ رَمَادَهَا إِلَى بَيْتِ إِيلَ. وَلَاشَى كَهَنَةَ الأَصْنَامِ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ مُلُوكُ يَهُوذَا لِيُوقِدُوا عَلَى الْمُرْتَفَعَاتِ فِي مُدُنِ يَهُوذَا وَمَا يُحِيطُ بِأُورُشَلِيمَ، وَالَّذِينَ يُوقِدُونَ لِلْبَعْلِ: لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْمَنَازِلِ، وَلِكُلِّ أَجْنَادِ السَّمَاءِ. وَأَخْرَجَ السَّارِيَةَ مِنْ بَيْتِ الرَّبِّ خَارِجَ أُورُشَلِيمَ إِلَى وَادِي

قَدْرُونَ وَأَحْرَقَهَا فِي وَادِي قَدْرُونَ، وَدَقَّهَا إِلَى أَنْ صَارَتْ غُبَارًا، وَذَرَّى الْغُبَارَ عَلَى قُبُورِ عَامَّةِ الشَّعْبِ. وَهَدَمَ بُيُوتَ الْمَأْبُونِينَ الَّتِي عِنْدَ بَيْتِ الرَّبِّ حَيْثُ كَانَتِ النِّسَاءُ يَنْسِجْنَ بُيُوتًا لِلسَّارِيَةِ.

«هيكل الرب» هو الهيكل العظيم في أورشليم الذي بناه سليمان الملك. من كان البعل والسارية و«كل أجناد السماء»؟ البعل هو إله للخصوبة، غالبًا ما كان يُمثَّل على هيئة شاب مجنَّح. أما السارية فكانت إلهة للخصوبة، وغالبًا ما كانت تُمثل في صورة كائن نصفه العلوي امرأة ونصفه السفلي شجرة. وتعني لفظة «أجناد» «مجموعة كبيرة». كانت أجناد السماء مجموعة كبيرة من الكائنات السماوية التي كان يُعتقد أنها تسكن السماء.

وتتوالى القصة المذكورة أعلاه من سفر الملوك الثاني (٢٣: ١٣–٢٠) بتدمير يوشيا للمذابح الدينية خارج أورشليم:

وَالْمُرْتَفَعَاتُ الَّتِي قُبَالَةَ أُورُشَلِيمَ الَّتِي عَنْ يَمِينِ جَبَلِ الْهَلَاكِ الَّتِي بَنَاهَا سُلَيْمَانُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ لِعَشْتُورَثَ رَجَاسَةِ الصَّيْدُونِيِّينَ، وَلِكَمُوشَ رَجَاسَةِ الْمُوآبِيِّينَ، وَلِمَلْكُومَ كَرَاهَةِ بَنِي عَمُّونَ، نَجَّسَهَا الْمَلِكُ. ... [وِفِي بَيْتِ إِيلَ فِي مُدُنِ السَّامِرِيَّةِ] ذَبَحَ جَمِيعَ كَهَنَةِ الْمُرْتَفَعَاتِ الَّتِي هُنَاكَ عَلَى الْمَذَابِحِ.

في هذه الحملة، لم يدمر الملك يوشيا فقط المذابح التي بناها الملك سليمان للآلهة عشتورث وكموش وملكوم، ولكنه ذبح الكهنة الذين قادوا العبادة على بعض المذابح. واضح أنه قُبيل هذه الحملة عبَد بعض الإسرائيليين على الأقل آلهة أخرى غير يهوه.

تظهر «أجناد السماء»؛ أي مجموعة الآلهة التي تسكن السماء، في مكان آخر من الكتاب المقدس. يصف المزمور ٨٢ يهوه وهو قائم في مَجمع للآلهة، منتقدًا إياهم على حماية الأشرار وإهمال المحتاجين. في الاقتباس الآتي (المأخوذ في اللغة الإنجليزية عن النسخة القياسية المنقحة الجديدة من الكتاب المقدس) يوجد بين علامات الاقتباس ما يقوله يهوه للآلهة الأخرى المجتمعة في الاجتماع السماوي:

«اللهُ قَائِمٌ فِي مَجْمَعِ اللهِ. فِي وَسَطِ الآلِهَةِ يَقْضِي. حَتَّى مَتَى تَقْضُونَ جَوْرًا وَتَرْفَعُونَ وُجُوهَ الأَشْرَارِ؟ سِلَاهْ. اقْضُوا لِلذَّلِيلِ وَلِلْيَتِيمِ. أَنْصِفُوا الْمِسْكِينَ وَالْبَائِسَ. نَجُّوا الْمِسْكِينَ وَالْفَقِيرَ. مِنْ يَدِ الأَشْرَارِ أَنْقِذُوا.»

لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ. فِي الظُّلْمَةِ يَتَمَشَّونَ. تَتَزَعْزَعُ كُلُّ أُسُسِ الأَرْضِ.
أَنَا قُلْتُ «إِنَّكُمْ آلِهَةٌ وَبَنُو الْعَلِيِّ كُلُّكُمْ. لَكِنْ مِثْلَ النَّاسِ تَمُوتُونَ وَكَأَحَدِ الرُّؤَسَاءِ تَسْقُطُونَ.»

كان الإلهان اللذان كثيرًا ما يتنافسان مع يهوه هما البعل والسارية. يُقدم سفر الملوك الأول في الإصحاح ١٨ أدلة على أهمية البعل والسارية في القرن التاسع قبل الميلاد. هناك يواجه نبي الله إِيلِيَّا ملك إسرائيل أخاب متهمًا إياه «بِتَرْكِكُمْ وَصَايَا الرَّبِّ وَبِسَيْرِكَ وَرَاءَ الْبَعْلِيمِ» (سفر الملوك الأول ١٨: ١٨). يطلب إِيلِيَّا من الملك أن ينظم مناظرة بينه وبين أنبياء البعل والسارية:

«فَالآنَ أَرْسِلْ وَاجْمَعْ إِلَيَّ كُلَّ إِسْرَائِيلَ إِلَى جَبَلِ الْكَرْمَلِ وَأَنْبِيَاءَ الْبَعْلِ أَرْبَعَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ، وَأَنْبِيَاءَ السَّوَارِي أَرْبَعَ الْمِائَةِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ عَلَى مَائِدَةِ إِيزَابَلَ.» فَأَرْسَلَ أَخْآبُ إِلَى جَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَمَعَ الأَنْبِيَاءَ إِلَى جَبَلِ الْكَرْمَلِ ... ثُمَّ قَالَ إِيلِيَّا لِلشَّعْبِ: «أَنَا بَقِيتُ نَبِيًّا لِلرَّبِّ وَحْدِي، وَأَنْبِيَاءُ الْبَعْلِ أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ رَجُلًا. فَلْيُعْطُونَا ثَوْرَيْنِ، فَيَخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ ثَوْرًا وَاحِدًا وَيُقَطِّعُوهُ وَيَضَعُوهُ عَلَى الْحَطَبِ، وَلَكِنْ لَا يَضَعُوا نَارًا. وَأَنَا أُقَرِّبُ الثَّوْرَ الآخَرَ وَأَجْعَلُهُ عَلَى الْحَطَبِ، وَلَكِنْ لَا أَضَعُ نَارًا. ثُمَّ تَدْعُونَ بِاسْمِ آلِهَتِكُمْ وَأَنَا أَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ. وَالإِلَهُ الَّذِي يُجِيبُ بِنَارٍ فَهُوَ اللهُ.» فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ: «الْكَلاَمُ حَسَنٌ!» (١٩–٢٤)

عندما دعا أنبياء البعل باسمه كي يأتي بنار على ذبيحتهم، لم يحدث شيء. وعليه «عِنْدَ الظُّهْرِ سَخِرَ بِهِمْ إِيلِيَّا وَقَالَ: «ادْعُوا بِصَوْتٍ عَالٍ لأَنَّهُ إِلَهٌ! لَعَلَّهُ مُسْتَغْرِقٌ أَوْ فِي خَلْوَةٍ أَوْ فِي سَفَرٍ، أَوْ لَعَلَّهُ نَائِمٌ فَيَتَنَبَّهَ!»» (٢٧) لكن عندما صلى إِيلِيَّا إلى يهوه:

سَقَطَتْ نَارُ الرَّبِّ وَأَكَلَتِ الْمُحْرَقَةَ وَالْحَطَبَ وَالْحِجَارَةَ وَالتُّرَابَ، وَلَحَسَتِ الْمِيَاهَ الَّتِي فِي الْقَنَاةِ. فَلَمَّا رَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ ذَلِكَ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَقَالُوا: «الرَّبُّ هُوَ اللهُ! الرَّبُّ هُوَ اللهُ!». فَقَالَ لَهُمْ إِيلِيَّا: «أَمْسِكُوا أَنْبِيَاءَ الْبَعْلِ وَلَا يُفْلِتْ مِنْهُمْ رَجُلٌ.» فَأَمْسَكُوهُمْ، فَنَزَلَ بِهِمْ إِيلِيَّا إِلَى نَهْرِ قِيشُونَ وَذَبَحَهُمْ هُنَاكَ. (٣٨–٤٠)

وفقًا لما جاء في الكتاب المقدس، كان هناك على الأقل ٩٥٠ نبيًّا من أنبياء البعل والسارية في إسرائيل في القرن التاسع قبل الميلاد. لو كان لكلِّ نبيٍّ ١٢ تابعًا فقط، لتجاوز عدد الذين عبدوا البعل أو السارية عشرة آلاف شخص.

تؤكد الأدلة الأثرية انتشار عبادة آلهة بين الإسرائيليين القدماء. عُثِر على مئات تماثيل السوراي المنحوتة الصغيرة التي تعود إلى القرون التي تسبق الملك يوشيا. كشفت عمليات التنقيب في صحراء سيناء التي أجراها باحثون من جامعة تل أبيب عامي ١٩٧٥-١٩٧٦ عن بقايا حانة تعود إلى النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد. وكانت فيها رسومات خطية وكتابات على الجدران، وعلى جرَّتين كبيرتين. ترجم بعض العلماء أكثر النقوش المحيرة كالتالي «يهوه وساريته». كان هناك جدل كبير حول هذه الترجمة لعقود، لكن إن كانت ترجمة دقيقة، فربما كان كاتب هذه الكتابة يظن أن السارية هي قرينة يهوه أو رفيقته.

الاستنتاج الواضح هو أن التوحيد لم يبدأ في إسرائيل القديمة في زمن إبراهيم وموسى. وإنما ظهر بعدهما بقرون، وفُرض سياسيًّا على الناس الذين كانوا يؤمنون بآلهة كثيرة. وكما يلخص الباحث في العهد القديم، بيرنهارد لانج (١٩٨١) الرأي العلمي الحالي:

> في القرون الأربعة ونصف القرن التي تخللتها مملكة أو مملكتان إسرائيليتان (١٠٢٠–٥٨٦ قبل الميلاد)، كان هناك دين سائد متعدد الآلهة، لا يمكن تمييزه من أديان الشعوب المجاورة. بقدر ما كانت توجد اختلافات بين نسخ أديان العمونيين والموآبيين والأدوميين والصوريين، إلى آخره؛ فإن هذه المعتقدات ظلت في إطار التعددية الدينية التي وسمت الشرق الأدنى، وكلٌّ منها ينبغي تفسيره على أنه نسخة محلية مختلفة للنمط الأساسي نفسه. بجَّل الإسرائيليون ... إلههم الحامي الخاص بهم الذي يرعى صحتهم وعائلاتهم. على أنهم عبدوا يهوه بالمثل، الإله الإقليمي والقومي الذي كان مجاله الخاص يتعامل وقضايا الحرب والسلام. وفي آخر المطاف، عبدوا آلهة يؤدون وظائف محددة؛ أولئك المسئولون عن احتياجات خاصة متنوعة: مثل الطقس، والمطر، وخصوبة النساء، وما إلى ذلك.

من يعرفون قصة عودة موسى من على جبل سيناء ليجد شعبه يعبدون العجل الذهبي (سفر الخروج ٣: ٢٤) لن تدهشهم معرفة أن الإسرائيليين القدماء لم يكونوا ملتزمين

بصرامة دائمًا بعبادة الله وحده. وبالفعل، وفقًا للمنظور اللاهوتي، كان من التحديات التي واجهها الأنبياء تذكير مجتمعاتهم بضرورة الاعتراف بالله الواحد وطاعته. يقدم الفحص الدقيق لقصص البعل والسارية مثالًا جيدًا للكيفية التي يمكن أن يكمل بها البحث الأكاديمي في الكتاب المقدس والأدلة الأثرية المواقف اللاهوتية، الأمر الذي يتمخض عن صورة غنية لمدى صعوبة التحول إلى الوحدانية.

المراجع

Lang, B. (1981) Die Jahwe–allein–bewegung, quoted in O. Keel and C. Uehlinger (1998) *Gods, Goddesses, and Images of God in Ancient Israel*, Fortress, Minneapolis, p. 2.

Mediterranean Kingdoms (online) *The Ancient Israelites: Under One God,* https://sites.google.com/site/mediterranean12345/articles–to–read/the–ancient–israelitesunder–one–god (accessed January 7, 2014).

قراءات إضافية

Coogan, M. (1987) Canaanite origins and lineage: reflections on the lineage of ancient Israel, in *Ancient Israelite Religion: Essays in Honor of Frank Moore Cross* (eds P.D. Miller, P.D. Hanson and S.D. McBride), Fortress, Philadelphia, pp 115–126.

Hadley, J. (2000) *The Cult of Asherah in Ancient Israel and Judah*, Cambridge University Press, Cambridge.

Keel, O. and Uehlinger, C. (1998) *Gods, Goddesses, and Images of God in Ancient Israel,* Fortress, Minneapolis.

Mayes, A. (1989) Sociology and the Old Testament, in *The World of Ancient Israel: Sociological, Anthropological and Political Perspectives* (ed R.E. Clements), Cambridge University Press, Cambridge, pp. 39–63.

(٢) كتب موسى الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس

> لا توضح الأدلة الكامنة في الكتب المقدسة أن موسى هو من كتب الأسفار الخمسة [أول خمسة أسفار من الكتاب المقدس]، وحسب، ولكنَّ أسفارًا أخرى من العهد القديم تُظهر التأليف الموسوي. (josh.org (موقع))

بدأت كتابة الكتابات التي جُمِّعت في نهاية المطاف على اعتبار أنها الكتاب المقدس العبري (العهد القديم عند المسيحيين) منذ ٢٥٠٠ سنة تقريبًا. يُطلَق على الأسفار الخمسة الأولى منها — التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية — التوراة (بالمعنى الضيق) في اليهودية، أو «التعليم»؛ إذ تحتوي على لب التقليد اليهودي. كما يُطلق عليها «البنتاتوش» المشتقة من الكلمتين اليونانيتين «خمسة» و«مجلدات». كما في اليهودية نفسها، أهم شخصية في هذه الأسفار هي موسى. يخبرنا سفر الخروج كيف أنه أخرج شعب إسرائيل من العبودية في مصر وقادهم إلى أرض الميعاد في كنعان. وعلى جبل سيناء التقى موسى بالله شخصيًّا، وتسلَّم الألواح التي تحتوي على لب الشريعة التي حكمت حياة اليهود منذ ذلك الحين. الخروج من مصر وتسلُّم ألواح الشريعة على جبل سيناء هما أهم حدثين في اليهودية. أما سفر اللاويين فهو مجموعة من الشرائع التي تخص الأضحيات والطقوس الأخرى، والأطعمة النجسة والطاهرة، والحياة اليومية. تبدأ كل شريعة تقريبًا بالكلمات: «وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى ...» وعلى غرار سفر الخروج، نزلت الشرائع من الله عبر موسى إلى شعب إسرائيل. وفي سفر العدد أيضًا، موسى هو الشخصية المحورية. على مدار ٤٠ عامًا يقود موسى شعب إسرائيل — كما كان يُطلق على اليهود، ولا يشير هذا إلى بلد ما وإنما إلى جد اليهود، القائد القَبلي يعقوب الذي تغيَّر اسمه إلى إسرائيل — في الصحراء نحو أرض الميعاد. وأما سفر التثنية فيتألف من خطابات عدة ألقاها موسى على الإسرائيليين (مصطلح آخر لشعب إسرائيل) قبل عبورهم نهر الأردن لدخول أرض الميعاد.

نظرًا إلى أهمية موسى في هذه الأسفار، أحيانًا ما يُطلق على الشرائع الموجودة فيها الشريعة الموسوية، وتُسمَّى الأسفار نفسها أسفار موسى. يمكن أن تعني «أسفار موسى» ببساطة أنها أسفار «عن» موسى، لكن تكوَّن معنًى أقوى على مدار القرون. صار من المعتاد أن تقول إنه — بوحي إلهي — «كتب» موسى خمسة أسفار. ووفقًا للتلمود البابلي («التعليم» المعتمَد لليهودية) الذي يعود إلى عام ٦٠٠ تقريبًا، أملى الله هذه الأسفار على موسى. ليس ذلك شيئًا يدَّعيه الكتاب المقدس نفسه، لكنه أصبح معتقدًا مألوفًا في كلٍّ من

اليهودية والمسيحية. وحتى اليوم، لا يزال ملايين الناس يسلِّمون به. في مثال معبِّر، يكتب بي إن بنوير في كتابه «دراسة للعهد القديم» (١٩٩٣: ٢٧) إن «موسى كان المؤلف البشري لسفر التكوين وغيره من الأسفار الخمسة ... «أسفار الشريعة» الخمسة هذه كتبها موسى وحده، باستثناء الإصحاح ٣٤ بسفر التثنية الذي يسجل موت موسى.»

يعكس استثناء بنوير الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية نقدًا للاعتقاد التقليدي بأن موسى كتب خمسة أسفار التوراة، وهو نقد بدأه عالِم القرن السابع عشر باروخ سبينوزا. ذكر سبينوزا أن الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية يصف جنازة موسى:

> فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلى هَذَا اليَوْمِ. وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ وَلَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ وَلا ذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ. فَبَكَى بَنُو إِسْرَائِيلِ مُوسَى فِي عَرَبَاتِ مُوآبَ ثَلاثِينَ يَوْمًا ... وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وجْهًا لِوَجْهٍ. (سفر التثنية ٣٤: ٥–٨، ١٠)

كيف يمكن أن يكون موسى قد كتب عن جنازته؟ استنتج سبينوزا أنه لم يفعل.

هناك كثير من الحجج الأخرى التي تتعارض وادعاء أن موسى كتب جميع أسفار التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية. يقدم سبينوزا (١٦٧٠) اثنتي عشرة حجة، منها:

(١) تقول الفقرة المذكورة أعلاه المقتبسة من سفر التثنية «وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى.» لا يمكن أن يقيم هذه المقارنة سوى شخص عاش بعد ظهور أنبياء في إسرائيل، والأنبياء لم يظهروا إلا بعد قرون من موت موسى.

(٢) كثير من أسماء الأماكن المذكورة في الأسفار الخمسة لم تكن مستخدمة إبان حياة موسى. على سبيل المثال يقول سفر التكوين (١٤: ١٤) إن إبراهيم تبع أعداءه «إِلَى دَانَ». على أن هذا المكان لم يكن يُطلق عليه «دَانَ» حتى بعد مضي وقت طويل على موت يشوع، وفقًا لما جاء في سفر القضاة (١٨: ٢٩). ويشوع جاء بعد موسى، وعليه، أيًّا كان من كتب سفر التكوين (١٤: ١٤) والفقرات المشابهة؛ فإنه شخص عاش بعد موسى بوقت طويل.

(٣) بالمثل، في سفر التكوين (٢٢: ١٤)، يسمَّى المكان الذي يعد فيه إبراهيم العدة للتضحية بابنه إسحاق، وهو جبل موریاه، «جبل الرب»، وهو اسم لم يُطلق عليه قبل بناء الهيكل الأول؛ أي بعد موسى بقرون.

(٤) يقول سفر التكوين (٣٦: ٣١): «وَهَؤُلاءِ هُمُ الْمُلُوكُ الَّذِينَ مَلَكُوا فِي أَرْضِ أَدُومَ قَبْلَمَا مَلَكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.» أيًّا كان من كتب هذا، فلا بد وأنه عاش بعدما ملك على إسرائيل على الأقل ملكها الأول، شاول، الذي حكم نحو عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، بعد موسى بوقت طويل.

(٥) في سفر التكوين (١٢: ٦)، يقول الكاتب إن إبراهيم اجتاز في أرض كنعان، ويضيف، «وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ.» يعني هذا ضمنًا أنه في زمن كتابة سفر التكوين، لم يعد الكنعانيون في الأرض. قد يرجع هذا إلى أن شعب إسرائيل كانوا قد استولوا على أرض كنعان باعتبارها أرض الميعاد. لكن أثناء حياة موسى، كان الكنعانيون لم يزالوا ساكنين في كنعان، ومِن ثَمَّ لم يكن ممكنًا أن يكون موسى هو من كتب الفقرة المذكورة.

(٦) يتحدث كاتب الأسفار الخمسة عن موسى بضمير الغائب، قائلًا أشياء من قبيل «وتكلم موسى مع الله»، و«تكلم الرب مع موسى وجهًا لوجه.» لكن في هذه الأسفار الخمسة، عندما يتحدث موسى عن أعماله التي قام بها؛ فإنه يتكلم بصيغة المتكلم بشكل طبيعي. على سبيل المثال في سفر التثنية (٢: ٢)، يقول موسى: «ثُمَّ كَلَمَنِي الرَّبُّ.» وفي سفر التثنية (٢: ١٧): «قَال لِي الرَّبُّ.» لو كان موسى كتب كل القصص التي تتناول أعماله في الأسفار الخمسة، لاستخدم صيغة المتكلم لا ضمير الغائب في كل أجزائها.

يستنتج سبينوزا (١٦٧٠: الجزء الثاني، الفصل الثامن): «مما قيل، فالأمر إذًا أوضح من الشمس في وقت الظهيرة، أن الأسفار الخمسة لم يكتبها موسى، ولكن شخص عاش بعد موسى بزمن طويل.»

ومع تعمُّق العلماء في دراسة الأسفار الخمسة، حللوا اختيار الكلمات (ولا سيما استخدام أسماء مختلفة لله)، والأساليب الأدبية، والآراء اللاهوتية. وخلُص كثيرون إلى أن الأسفار الخمسة لم يكتبها كاتب واحد ولكن كتَّاب عدة. وفقًا لنظرية مقبولة على نطاق واسع أعدها باحث ألماني يُدعى يوليوس فلهاوزن (١٨٨٥)، وتُعرف باسم «الفرضية الوثائقية»، كتب الأسفارَ الخمسة أربعةُ كُتَّاب عاشوا في أجزاء مختلفة من فلسطين على مدى قرون. يشير العلماء إلى هؤلاء الكُتَّاب بأربعة حروف استهلالية

هي: جيه، وإي، ودي، وبي. الكاتب جيه هو الكاتب الذي استخدم كلمة «يهوه» YHWH باعتباره «اسم الله غير المنطوق». تُكتب يهوه في اللغة الإنجليزية Yahweh وأحيانًا ما تكتب Jehovah. على النقيض، لا يُطلِق الكاتب إيه على الله اسم يهوه البتة ولكن «إلوهيم». والكاتب دي هو مؤلف سفر التثنية، أما الكاتب بي فقد أضاف معلومات عن الكهنوت بين الإسرائيليين. وتقول الفرضية الوثائقية إنه إلى جانب كل هؤلاء الأربعة، كان هناك آر، المنقِّح أو المحرِّر الذي صاغ كتابات جيه وإيه وبي ودي فيما هو الآن الأسفار الخمسة.

ما من شيء في الدراسة النقدية للأسفار الخمسة يقلل من عظمة موسى، بالطبع. فسيظل أهم شخصية في الديانة اليهودية — مُحرِّر العبرانيين من العبودية في مصر، والشخص الذي تسلَّم الشريعة من الله في سيناء. وكانت إضافة كتابة الأسفار الخمسة إلى هذه الأعمال هي الطريقة التقليدية للإشادة بعظمة موسى، لكن كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة، تكشف القراءة المتأنية لهذه الأسفار أن موسى كان ميتًا منذ زمن طويل حين تدوينها.

المراجع

Benware, P.N. (1993) *Survey of the Old Testament*, Moody Press, Chicago.

Josh.org (website) *Did Moses Write the First Five Books?* Josh McDowell Ministry, www.josh.org/resources/study-research/answers-to-skeptics-questions/did-moseswrite-the-first-five-books (accessed January 7, 2014).

Spinoza, B. (1670) *Theologico-Political Treatise*, published anonymously.

(٣) يتعارض سفر التكوين ونظرية التطور

> قد لا يوجد أي أدلة أحفورية تُثبت وجود ديناصورات وبشر في المكان نفسه وفي الزمان نفسه. لكنه مكتوب بوضوح [في الكتاب المقدس] أنهم كانوا أحياءً في الوقت نفسه. (مارك لوي، المتحدث الرسمي باسم متحف الخليقة، في منطقة بطرسبرج بولاية كنتاكي. (سلاك، ٢٠٠٧))

لأكثر من قرن من الزمان، تقول الجماعات المسيحية الأصولية، ولا سيما في الولايات المتحدة، إن المسيحيين يجب أن يرفضوا نظرية التطور، لأنها تناقض وصف الكتاب المقدس للطريقة التي خلق بها الله كل الأنواع والنباتات والحيوانات في بضعة أيام. وهم يقولون إنه بعد اليوم السادس من الخلق، جَبَلَ الله كل أنواع الكائنات الحية التي ستوجد — النباتات والحيوانات التي نعرفها اليوم كافة، بالإضافة إلى الكائنات التي انقرضت فيما بعد مثل الديناصورات. في متحف الخليقة في منطقة بطرسبرج بولاية كنتاكي، تُظهِر المعارض البشر والديناصورات وهم يعيشون جنبًا إلى جنب؛ فقد احتوى فُلْك نوح على تريسيراتوب واستيجوصور. وعلى الرغم من أن سفر التكوين لا يذكر الديناصورات؛ فإن العاملين بالمتحف يقولون إن الأدلة الأثرية تُثبت أنها كانت موجودة بالفعل. لكن لا بد أنها تعايشت مع الإنسان ومع كل أنواع الكائنات الحية الأخرى في الأيام الأولى من الخلق؛ لأن الكتاب المقدس يذكر أن كل الأنواع خُلقت معًا.

لو أن كل أنواع النباتات والحيوانات خلقت في الأسبوع الأول من عمر الكون، لكان مؤكدًا أنه لم تظهر أنواع أخرى بعد ذلك. وعليه، وفقًا لهذا الرأي، لا بد أن يكون علماء البيولوجيا مخطئين عندما يقولون، على سبيل المثال، إنه على مدار ملايين السنين، تطورت الطيور من الديناصورات، وتطور البشر من القردة.

يعترف الأصوليون المسيحيون الذين ينكرون نظرية التطور بأنهم لا يستطيعون إثبات قصة الخلق المذكورة في سفر التكوين، لكنهم يقولون إن أولئك الذين يؤمنون بالتطور لا يستطيعون إثبات صحة نظريتهم أيضًا؛ فكلا التفسيرين يعتمدان على الإيمان؛ ويعني ذلك أن اختيارنا لما نؤمن به هو ما بين كلمة الله من ناحية، وشيء فكَّر فيه تشارلز دارون والعلماء الذين أتوا من بعده من ناحية أخرى. هل ينبغي أن نضع إيماننا في الله، خالق الكون، أم في البشر؟ من وجهة نظرهم، الإجابة واضحة.

صاغ مثلَ هذه المقولات في أول الأمر مسيحيون أمريكيون محددون في أواخر القرن التاسع عشر. أصبحت معارضة نظرية التطور حينذاك بالغة الأهمية بين الأصوليين — الأشخاص الذين سُمُّوا نسبةً إلى «الأصول»، وهي عمل مُكوَّن من ١٢ مجلدًا، نشره في الفترة ما بين عامي ١٩١٠ و١٩١٥ معهد الكتاب المقدس بلوس أنجلوس. كان الغرض من المقالات التي وُزِّعت على نطاق واسع بين الخدام والمعلمين البروتستانت هو الدفاع عن تفسير الأصوليين للكتاب المقدس ضد هجمات مجموعة من الأجيال الحديثة، ومنها الليبرالية والإلحادية (بالإضافة إلى العدو اللدود القديم، الكاثوليكية). في عام ١٩١٩،

أسس جمعية الأصوليين المسيحيين في العالم الخادم المعمداني ويليام بيل رايلي. وكان من بين الأصول — المعتقدات الأساسية — الحقيقة الحرفية للكتاب المقدس. ويُقصد بذلك أن كل آية من آيات الكتاب المقدس دقيقة تاريخيًّا وعلميًّا. وحيث إن القصة المذكورة في سفر التكوين تقول إن العالم خُلق في ستة أيام، فلا بد أن تكون نظرية التطور زائفة كما قال الأصوليون.

في عشرينيات القرن العشرين، حارب الأمريكيون الأصوليون نظرية التطور جهارًا من خلال سنِّ قوانين حكومية تُحرِّم تعليم التطور في المدارس العامة. وفي محاكمة سكوبس عام ١٩٢٥، اتُّهم مدرِّس بالمرحلة الثانوية، هو جون سكوبس، بتدريس نظرية التطور في مدرسة بولاية تينيسي، وغُرِّم ١٠٠ دولار. (كان مَن يساعد المدعي العام المحلي هو ويليام جيننجز بريان، الذي ترشح لانتخابات الرئاسة الأمريكية ثلاث مرات، وتولى منصب وزير الخارجية في حكومة الرئيس وودرو ويلسون.)

واليوم، لا تزال الحجة القائلة إن نظرية التطور لا بد أن تكون زائفة لأن الكتاب المقدس على صواب، مقنعة لنصف الأمريكيين تقريبًا. في استطلاع لمؤسسة جالوب عام ٢٠١٢ (نيوبورت، ٢٠١٢)، اتفق ٤٦٪ من المشاركين على جملة: «خلق الله البشر في شكلهم الحالي تقريبًا مرة واحدة في خلال العشرة آلاف سنة المنصرمة تقريبًا.»

يَعتبر المسيحيون الأصوليون أن أولئك الذين يؤمنون بالتطور مشبوهون؛ ولذا يعبِّر كثير من الساسة الذين يسعون إلى أصوات الناخبين المسيحيين المحافظين في الانتخابات الأمريكية عن الشك في النظرية. من بين المنافسين على ترشيح الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية عام ٢٠١٢، لم يعترف سوى ميت رومني وجون هانتسمان بقبول نظرية التطور، وفي تغريدة لهانتسمان، استهلَّ اعترافه قائلًا: «انعتوني بالجنون، لكن ...» وصرح ريك بيري، حاكم ولاية تكساس، مرات كثيرة بأن التطور هو مجرد «نظرية شاذة»، يرفضها. ورفض النظرية أيضًا رون بول الطبيب المترشح لخوض الانتخابات الرئاسية. وأصرَّ نيوت جينجريتش، الرئيس الأسبق لمجلس النواب على أن الولايات المتحدة أُسِّست على المبادئ المسيحية، وأنه ينبغي تدريس عقيدة الخلق — فكرة أن الله خلق العالم وكل ما فيه في ستة أيام، كما يقول الكتاب المقدس — مرة أخرى في المدارس. ورفض كلٌّ من عضوة مجلس النواب ميشيل باكمان وعضو مجلس الشيوخ الأسبق ريك سانتورم نظرية التطور، وذكرا أنه ينبغي تدريس التصميم الذكي — نسخة من

نظرية الخلق تؤكد أن الكون معقد لدرجة أنه لا يمكن تفسيره في ضوء أي شيء سوى الله — بدلًا من نظرية التطور.

حتى في زمن دارون، كان العلماء الذين يدرسون سفر التكوين يقولون إن قصته لم تكن بالسهولة التي كان يظنها كثير من المسيحيين. على سبيل المثال، يذكر الإصحاح الثاني قصة مختلفة للخلق عن تلك المذكورة في الإصحاح الأول؛ ففي قصة الإصحاح الثاني، يخلق الله الإنسان «قبل» أن يخلق الأشجار. حدت مثل هذه التضاربات بعض دارسي القرن التاسع عشر إلى أن يقترحوا أن الإصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين كتبهما أناس مختلفون في أزمنة مختلفة، وهي فكرة يقبلها الآن أغلبية دارسي الكتاب المقدس. وتجعل هذه التضاربات أيضًا قراءة النص قراءة حرفية وعقلانية أمرًا متعذرًا. كيف أمكن خلق الإنسان الأول قبل خلق الأشجار وبعده؟ وماذا عن «الْجَلَدَ» المذكور في تكوين ١: ٦–٨، قبة فوق الأرض، «لِيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ» التي دعاها الله «سَمَاءً»؟ يعكس هذا الوصف النظرة القديمة إلى العالم التي تكون فيها الأرض مسطحة والسماء قبة فوق الأرض. ربما يتساءل أولئك الذين حلَّقوا بطائرات نفاثة وشاهدوا الرحلات الفضائية أين هذه القبة، لكن الأصوليين يعرفون أنها موجودة.

من التحديات الباعثة على المزيد من الحيرة المقترنة بفهم سفر التكوين فهمًا حرفيًّا وصفه لله بأنه خالق الشمس والقمر والنجوم في «اليوم الرابع» (١: ١٤–١٩). ماذا كان يعني «يوم» قبل وجود شمس؟ في بداية الإصحاح الأول من سفر التكوين، تقول الآيتان ٣-٤ إن الله خلق النور «وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلًا.» لكن ماذا كان يمكن أن يكون هذا النور قبل وجود الشمس والقمر والنجوم بثلاثة «أيام»؟

لا تزال هناك مشكلة أخرى في سفر التكوين، ألا وهي أن معظم فقرات سفر التكوين تصف الله على أنه كائن مادي محدود — كالإنسان، ولكنه أقوى وحسب. يصف سفر التكوين (٢: ٢) الله بأنه استراح «مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ.» تتعارض هذه الطريقة للتفكير في الله مع الاعتقاد بأن الله غير مقيد بالشكل المادي، وأنه كُلِّيُّ القوة (كُلِّيُّ القدرة) وكامل. ومع ذلك تلزم القراءة الحرفية المحضة لسفر التكوين المرء بالاعتقاد بإله مادي يعمل ويتعب ويحتاج إلى راحة.

يظهر تشبيه الله بالإنسان بالمثل في قصص تعامل الله مع آدم وحواء. على سبيل المثال:

> وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلَهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟» (سفر التكوين ٣: ٨–٩)

لو أن المرء قرأ هذه الفقرة حرفيًّا، فمن الصعب تحاشي أسئلة عن حجم الله ومظهره مثلًا. هل الله في حجم الإنسان العادي، أم أنه، كما تعبِّر عنه كوميديا مونتي بايثون الساخرة، «ضخم للغاية»؟ وأيضًا السؤال الأكثر إزعاجًا عن حدود معرفة الله؛ فعادة ما تَعتبر الديانات التوحيدية (الزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام والبهائية) أن الله كُلِّيُّ العلم؛ أي كُلِّيُّ المعرفة. لِمَ لَمْ يَدْرِ الله بمكان آدم وحوَّاء؟

في ضوء مثل هذه الأسئلة، تناول كثير من علماء الكتاب المقدس على مدار القرنين المنصرمين مسألة حرفية قصة الخلق، وأشاروا إلى أن طرقنا الحديثة في كتابة التاريخ وممارسة العلم لم تكن موجودة في العالم القديم. وكما رأينا في المقدمة، أكد كثيرون أن هذه القصص لم يكن مقصودًا بها أن تكون قصصًا تاريخية وعلمية قابلة للتحقق منها تجريبيًّا، ولكن أن تنقل، مع ذلك، حقائق أساسية. منها أن الله خلق الكون وكل ما فيه بطريقة أو بأخرى. والكتاب المقدس ليس مطالبًا بشرح السبل الدقيقة التي حدث بها الخلق؛ إذ يمكن للمرء أن يؤمن بالأدلة العلمية التي تشير إلى حدوث عملية التطور التدريجي على مدار ملايين السنين، ومع ذلك لا يزال يقبل التعليم الكتابي الذي يقول إنه ما كان شيء ليوجد لولا الله.

وبينما يرفض بعض الحاخامات الأرثوذكسيين نظرية التطور ويُصِرون على قراءة سفر التكوين باعتباره علمًا أو تأريخًا، يقبل كثيرون أن قصة الخلق في سفر التكوين لا تستبعد التطور التدريجي لأشكال الحياة؛ وعوضًا عن ذلك، فالتطور التدريجي للحياة الذي ثبت بالأبحاث العلمية هو ببساطة جزء من خطة الخلق الإلهية الكلية. الله هو الأصل؛ والتطور هو الأداة. هذا هو الموقف المعبَّر عنه في كُتُب مثل كتاب جيرالد شرودر (١٩٩١) «التكوين والانفجار العظيم: اكتشاف التناغم بين العلم الحديث والكتاب المقدس». بالمثل، يصر الحاخامات المحافظون والإصلاحيون على المنشأ الإلهي للعالم، ولكنهم يدعمون في الوقت نفسه أيضًا الاستكشاف والفهم العلميَّين للطريقة التي تطورت بها الحياة. يصر

الحاخام مايكل شواب (٢٠٠٥)، على سبيل المثال، على أن «اليهودية بوصفها ديانة، وبالطبع اليهودية المحافظة، تعتبران الخلق عملية هادفة يوجهها الله ... فما يراه دارون عشوائيًّا، نراه نحن تطورًا طبيعيًّا وإعجازيًّا لخطة الله الحاذقة والجميلة.» يقول شواب؛ أي إنه بدلًا من قراءة سفر التكوين على أنه تاريخ وعلم حرفيان، من الممكن الحفاظ على حقيقته وعلى صدقية الاكتشافات العلمية من خلال قراءته على أنه قصة رمزية. بالمثل، يرى بعض علماء اليهودية الإصلاحية أن علم التطور والانتخاب الطبيعي متفقان مع المنشأ والتوجيه الإلهيين لتطور العالم في أشكاله المتنوعة كافة. ومن ثم، ففي حين إن اليهودية ليست ديانة عقائد، ولكنها تقليد يهتم بالطريقة التي يتصرف بها الناس، ومن ثم لا يوجد أي تعليم بشأن ادعاءات حقيقة عقيدة الخلق، ثمة بالتأكيد رأي سائد بين المرجعيات اليهودية، هو أن التطور ليس متعارضًا مع الإيمان بالكتاب المقدس.

اتخذت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية موقفًا مشابهًا؛ ففي عام ١٩٥٠، أصدر البابا بيوس الثاني عشر منشورًا بابويًّا (رسالة مرجعية) بعنوان «الجنس البشري» يتناول بعض القضايا في الفكر الحديث، ومنها نظرية التطور. ينص المنشور البابوي على أنه لا شيء في نظرية التطور يتعارض بالضرورة مع المذهب الكاثوليكي؛ ولذا، فدراستها مباحة، وإن كان الحذر لازمًا:

> لا تحظر المرجعية التعليمية في الكنيسة، اتساقًا مع الحالة الراهنة للعلوم الإنسانية واللاهوت المقدس، أن تُجرى أبحاث ومناقشات من جانب رجال محنَّكين في كلا المجالين بشأن مذهب التطور، فيما يتعلق ببحثه في منشأ الجسم البشري باعتباره ناشئًا من مادة حية وموجودة مسبقًا — حيث تُلزمنا العقيدة الكاثوليكية بالإيمان بأن الأرواح هي من خلق الله مباشرة. على أنه لا بد من فعل ذلك بطريقة تُوزَن بها حجج كلا الطرفين؛ أي تلك المؤيدة وتلك المعارضة للتطور، ويُحكَم عليها بما يلزم من جدية واعتدال وقياس، وشريطة أن تكون كلها مهيأة للخضوع لحكم الكنيسة التي أناط المسيح بها مهمة تفسير الكتب المقدسة تفسيرًا موثوقًا به، والدفاع عن العقائد الإيمانية.

وفي وقت أحدث، مضى البابا يوحنا بولس الثاني (١٩٩٦) أبعد من ذلك. فبالإشارة إلى المنشور البابوي لبيوس الثاني عشر، قال:

> اليوم، وقد مضى ما يقرب من نصف قرن على صدور هذا المنشور البابوي، أدَّت المعارف الجديدة إلى الاعتراف بأكثر من افتراض في نظرية التطور. من

> الجدير بالملاحظة حقًّا أن هذه النظرية تزداد قبولًا من الباحثين، بعد سلسلة من الاكتشافات في مختلف حقول المعرفة. إن التقارب الذي لم يكن مرغوبًا ولا ملفقًا بين نتائج العمل الذي أُجري بصفة مستقلة، هو بذاته حجة مهمة لصالح هذه النظرية.

بالمثل، أصدرت الكنيسة الإنجيلية المشيخية بالولايات المتحدة الأمريكية (١٩٦٩) بيانًا حول نظرية التطور، تعلن فيه أنه «لا الكتاب المقدس، ولا مجاهرتنا بإيماننا، ولا تعاليمنا الشفهية تُعلِّم خلق الإنسان بأفعال الله المباشرة والفورية، على نحو يستبعد احتمالية التطور باعتباره نظرية علمية.» ويقر البيان بأن أسلافهم ربما فهموا عبارات مثل «ستة أيام»، و«من تراب الأرض»، و«ضلع الرجل» فهمًا حرفيًّا، لكن هذه الأفهام ليست ملزمة. ويسترسل البيان، مستندًا إلى مرجعية جون كالفن نفسه، «إن الكتاب المقدس ليس كتابًا علميًّا.» ومِن ثَمَّ، «نخلص إلى أن العلاقة الحقيقية بين نظرية التطور والكتاب المقدس غير متناقضة ...»

وصرحت الكنيسة الأسقفية في «التعاليم الشفهية عن عقيدة الخلق» (كنيسة إنجلترا، ٢٠٠٥) أنها لا تتبنَّى موقفًا رسميًّا من التطور. «ومع ذلك»، كما يقول التعليم الكنسي، «فرجال الدين والعلماء من كلٍّ من التقليدَيْن الكاثوليكي والإنجيلي في المذهب الأنجليكاني قبلوا التطور، من زمن دارون وحتى الوقت الحالي. أكدت الكنيسة في قرار صادر عن المؤتمر العام عام ١٩٨٢، قدرة الله على الخلق بأي شكل وبأي طريقة قد تشمل التطور.» بل يقول التعليم الكنسي علاوةً على ذلك، إن «الكتاب المقدس، ومنه سفر التكوين، ليس كتابًا دراسيًّا علميًّا مُمْلًى إلهيًّا.» وهكذا، على الرغم من أن التطور هو «شبكة من النظريات»، فهو «مدعوم بقوة بالملاحظات والتجارب» (التي يصفها التعليم الكنسي)، ولا يتعارض مع الكتاب المقدس. إن الوصف الكتابي للخلق يؤكد أن البشر قد حباهم الله «بالعطايا الإلهية المتمثلة بالحب والرحمة غير المشروطين، أو عقلنا ومخيلتنا، أو قدراتنا المعنوية والأخلاقية، أو حريتنا، أو قدرتنا على الإبداع.» ولا يصف السبل المحددة التي خلق بها الله.

وبالمثل، أصدرت الكنيسة الميثودية المتحدة (٢٠١٢) بيانًا رسميًّا حول التطور، يبدأ كالآتي: «نحن نعترف بالعلم بوصفه تفسيرًا شرعيًّا للعالم الطبيعي الذي خلقه الله.» وينص البيان أنه بعزل المسائل اللاهوتية عن المسائل العلمية، «فإننا نجد أن تفاسير العلم للتطور الكوني والجيولوجي والبيولوجي لا تتضارب مع علم اللاهوت.» وتؤكد الكنيسة

حقًّا: «نجد أنه مع توسيع العلم فهمَ الإنسان للعالم الطبيعي، يتحسن فهمنا خفايا خلق الله وكلمته.»

هناك بالطبع جماعات مصرة على أن قصة الخلق المذكورة في الكتاب المقدس تتنافى ونظريات التطور، وتحظر قبولها. ويشمل هذا سنودس الكنيسة اللوثرية بميزوري، وكنيسة جمعية المعمدانية الجنوبية، وبعض المسلمين المحافظين. على أن هذا الموقف لا تؤيده المرجعيات اليهودية والمسيحية السائدة، ولا المسلمون التقدميون، ولا يمكن اعتباره قاطعًا.

المراجع

Bible Institute of Los Angeles (1910–1915) *The Fundamentals* (12–volumes), Bible Institute of Los Angeles, Los Angeles.

Church of England (2005) *Catechism of Creation: Creation and Science,* http://episcopalscience.org/creation–science (accessed January 7, 2014).

John Paul II (1996) Message to the Pontifical Academy of Sciences: On evolution, October 22, www.ewtn.com/library/papaldoc/jp961022.htm (accessed January 7, 2014).

Newport, F. (2012) In U.S., 46% Hold Creationist View of Human Origins, *GALLUP Politics,* June 1, www.gallup.com/poll/155003/Hold–Creationist–View–Human–Origins.aspx (accessed January 7, 2014).

Pius XII (1950) *Humani Generis*, 36, www.vatican.va/holy_father/pius_xii/encyclicals/documents/hf_p–xii_enc_12081950_humani–generis_en.html (accessed January 7, 2014).

Presbyterian Church USA (1969) Evolution and the Bible, www.presbyterianmission.org/ministries/theologyandworship/evolution (accessed January 7, 2014).

Schroeder, G. (1991) *Genesis and the Big Bang: The Discovery of Harmony Between Modern Science and the Bible*, Bantam, New York.

Schwab, M. (2005). *How Did We Get Here?* November 4, Jewish Virtual Library, www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Judaism/jewsevolution.html (accessed January 7, 2014).

Slack, G. (2007) *Inside the Creation Museum*. Salon.com, May 31, www.salon.com/2007/05/31/creation_museum (accessed January 7, 2014).

United Methodist Church (2012) Science and technology, in *The Book of Discipline of the United Methodist Church*, United Methodist Publishing House, paragraph 160F.

قراءات إضافية

Marsden, G. (2006) *Fundamentalism and American Culture*, Oxford University Press, Oxford.

Numbers, R. (2006) *The Creationists: From Scientific Creationism to Intelligent Design*, Harvard University Press, Cambridge MA.

(٤) يعتقد اليهود أنهم اختيروا من الله لنَيْل امتيازات خاصة

قَلَّما كانت معتقدات يهودية عرضةً لسوء الفهم مثل مبدأ «الشعب المختار». (كلية اللاهوت اليهودي بأمريكا (١٩٨٨))

فكرة أن اليهود هم شعب اختاره الله هي فكرة مهمة في التقليد اليهودي، لكن تأويل هذه الفكرة هو الأمر الذي طالما كان عرضة لسوء الفهم؛ فعلى مدار قرون، ظن المسيحيون أن المقصود بها هو أن اليهود يعتقدون أنهم هم وحدهم مَن اختارهم الله لاستقبال عطية الوحي الذي يقدم الهداية اللازمة لبلوغ الحياة الأبدية في العالم الآتي. بعبارة أخرى، وفقًا لهذه الخرافة، يؤمن اليهود بأنهم هم وحدهم الذين لديهم حق الحصول على الثواب الأبدي. بل إن بعض المفكرين المسيحيين قدَّموا تعليمًا يُشير إلى أن المسيحيين ورثوا وعود الله حينما أنكر اليهود أن يسوع هو المسيَّا. ومن ثم أصبح المسيحيون شعب الله المختار،

وهم — بدلًا من اليهود — الذين أمسكوا بمفاتيح ملكوت الله. تُقرَن هذه الفكرة بعالِم لاهوت القرن الثالث أوريجانوس، ومارتن لوثر، على سبيل المثال. وثمة سوء إدراك آخر ربما أكثر تعقيدًا هو أن اليهود يؤمنون بأن لديهم حقًّا ممنوحًا من الله بملكية الأرض التي أصبحت دولة إسرائيل، وأنهم مأمورون بأن يبيدوا أي شخص يقاوم ادعاءهم.

كوْن اليهود شعبَ الله المختار له أساس في الكتاب المقدس. «لأَنَّكَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ ... وَقَدِ اخْتَارَكَ الرَّبُّ لِتَكُونَ لهُ شَعْبًا خَاصًّا فَوْقَ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلى وَجهِ الأَرْضِ.» كما جاء في سفر التثنية (١٤: ٢). يقتبس سفر النبي عاموس عن الله وهو يخبر الإسرائيليين: «إِيَّاكُمْ فَقَطْ عَرَفْتُ مِنْ جَمِيعِ قَبَائِلِ الأَرْضِ ...» (سفر عاموس ٣: ٢، النسخة القياسية المنقحة الجديدة).

على أن فكرة أن اليهود هم شعب اختاره الله لا تفسرها المرجعيات اليهودية على أنها تعني أنهم هم وحدهم يستطيعون تحقيق الثواب الأبدي. وبدلًا من هذا، فعادة ما يفسرونها على أن المقصود بها هو أن الله اختار اليهود من أجل مهمات معينة وسوف يحاسبهم على تنفيذها. في حقيقة الأمر، كما يستطرد اقتباس سفر عاموس: «إِيَّاكُمْ فَقَطْ عَرَفْتُ مِنْ جَمِيعِ قَبَائِلِ الأَرْضِ لِذَلِكَ أُعَاقِبُكُمْ عَلَى جَمِيعِ ذُنُوبِكُمْ.» في التقليد اليهودي، اصطُفي اليهود من الله حقًّا لتسلُّم وحيه، التوراة. وتُعلمهم التوراة كيف يكونون شعبًا صالحًا، ومراعاة التوراة هي التزامهم الحصري. لا يُنتظر من الشعوب الأخرى الالتزام بالتوراة، لكن هذا لا يعني أنه لن يكون لهم نصيب في الآخرة. يُعلِّم التلمود — مجمل الحكمة الذي ألفه علماء يهود على مدار قرون — أن الحياة بعد الموت متاحة لكل البارِّين. أما لليهود فالطريق إلى الحياة الآخرة هو الالتزام بالتوراة. وأما لغير اليهود، فالطريق إلى الحياة الآخرة هو العيش بنزاهة.

إذا كان الالتزام بالتوراة هو أساس العهد بين الله واليهود، فماذا عن الأرض؟ يُسجل السفر الأول من الكتاب المقدس العبري قول الله لإبراهيم: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفُرَاتِ ...» (سفر التكوين ١٥: ١٨). ثم يذكر السفر أن هذه الأرض كانت في تلك الآونة ملكًا لشعوب أخرى، على أن السفر يطمئن إبراهيم (سفر التكوين ١٧: ٦–٨) قائلًا: «وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ ... وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مِلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلَهَهُمْ.»

وبعد أجيال كثيرة، وموسى يقود الإسرائيليين نحو امتلاك الأرض الموعودة، يأمرهم الله أن يأخذوا الأرض بالقوة:

> حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ. فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ. وَإِنْ لمْ تُسَالِمْكَ بَل عَمِلتْ مَعَكَ حَرْبًا فَحَاصِرْهَا. وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ التي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي ليْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلاءِ الأُمَمِ هُنَا. وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا. (سفر التثنية ٢٠: ١٠–١٦، النسخة القياسية المنقحة الجديدة)

كما أوضح روبرت آيزن (٢٠١١)، فسَّرت المرجعيات اليهودية على مرِّ القرون الأمر بالغزو بالقوة بطرق شتى. يشدد بعض المرجعيات، في «محاولة قبول المشكلات الأخلاقية الملازمة للغزو الكنعاني»، على ضرورة محاولة تحاشي قتل الأبرياء بتقديم الصلح أولًا. ويؤكد بعضها أن أولئك الذين أخلوا الأرض سلمًا «كُوفئوا بمنحهم أرضًا أخرى.» (آيزن، ٢٠١١: ٩١، عدد راباح ١٩: ٢٧؛ تانهوما تساف ٣؛ تثنية راباح ١٣–١٤). فقط أولئك الذين اختاروا الحرب أُبيدوا. وفي جميع الأحوال، طالما تحاشت تأويلات الحاخامات اليهود التقليدية الأمر العام بإبادة سكان أرض كنعان الأصليين، وتؤكد مصادر حاخامية أن الأمر بالغزو كان مقيَّدًا بصرامة بزمانه ومكانه. لم يكن لدى الإسرائيليين التزام (أو حق) مستقبلي بقتل أي شخص يعيش مسالمًا في الأرض.

في العالم الحديث، ازداد تعقُّد مسألة الوعد الإلهي بامتلاك الأرض بسبب نقص الأدلة الأثرية التي تشير إلى غزوٍ إسرائيلي للأرض. في الواقع، يؤمن معظم علماء الآثار المعاصرين بأن الإسرائيليين كانوا من سكان كنعان الأصليين ولم يغزوها بوصفهم دخلاء. وإذ كانت لهم هوية دينية فريدة، فقد رأوا أنفسهم مميَّزين على قاطني كنعان الآخرين. أما القصص التي أُمِر الإسرائيليون فيها بإبادة الكنعانيين فقد طُوِّرت نوعًا ما، وفقًا لهذه

النظرية، لتثبيط اليهود الأوائل عن الزواج من الشعوب التي تعبد آلهة متعددة الذين عاشوا بينهم.

إلَّا أن قصص غزو الإسرائيليين العنيف للأرض استُغِلت على نطاق واسع لدعم الصهيونية، تلك الحركة التي ظهرت بين اليهود الأوروبيين المعاصرين للهروب من ويلات معاداة الساميَّة بتأسيس دولة يكونون مستقلين فيها وقادرين على حماية أنفسهم. كان هذا الاحتياج للحماية من خطر الانقراض الذي فرضته معاداة أوروبا للساميَّة هو ما تمخض عن إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. ومِن ثَمَّ لم يكن تشريد السكان الأصليين الفلسطينيين غير اليهود من الأرض التي صارت دولة إسرائيل هو نتيجة لاتباع أعمى لأوامر الكتاب المقدس بإبادة أولئك الذين يقاومون اليهود؛ إنما كانت نتيجة مأساوية لمعاداة الساميَّة وستظل كذلك.

الشيء المثير، أنه وفقًا لتقرير صادر عام ٢٠١٣ عن مركز بيو للأبحاث، يعتقد فقط ٤٠ في المائة من اليهود الأمريكيين الآن أن الله أعطى إسرائيل لليهود (٢٠١٣: ٨٦)، بينما يشعر ٧٥ في المائة من اليهود المتدينين بالارتباط عاطفيًّا بإسرائيل، ويعتقد ٦١ في المائة أن إسرائيل ودولة فلسطينية مستقلة يمكنهما أن يتعايشا بسلام في الأرض (٢٠١٣: ٨٧).

المراجع

Eisen, R. (2011) *The Peace and Violence of Judaism: From the Bible to Modern Zionism*, Oxford University Press, Oxford and New York.

The Jewish Theological Seminary of America (1988) God's Covenant: The Election of Israel, in *Emet Ve-Emunah: Statement of Principles of Conservative Judaism* p. 28, www.icsresources.org/content/primarysourcedocs/ConservativeJudaismPrinciples.pdf (accessed January 7, 2014).

Pew Research Center (2013) *A Portrait of Jewish Americans: Findings from a Pew Research Center Survey of US Jews*, Pew Research Center, Washington DC.

قراءات إضافية

Silberman, N.A. and Finkelstein, I. (2011) *The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of Its Sacred Texts.* Touchstone, New York.

(٥) قتل اليهود يسوع

قتل اليهود يسوع. لن تتغير تلك الحقيقة أبدًا. ولم يتوبوا قطُّ.
(www.jewskilledjesus.com)

هذا الادعاء متجذِّر بعمق في تاريخ اللاهوت المسيحي، واستُغل منذ القرن الثاني بوصفه سببًا لمعاداة الساميَّة. بعدما أعلنت المجامع الكنسية التي عُقدت بين القرنين الرابع والسادس أن يسوع هو الله، انتشر الادعاء بأن اليهود قتلوه على أصعدة عالمية. قتل اليهود يسوع، ويسوع هو الله، إذًا، قتل اليهود الله. و«قتل الله» هو أكبر جريمة يمكن تخيلها. في الكنيستين اليونانية الأرثوذكسية والبيزنطية الكاثوليكية، تذكر صلوات «خميس العهد»: «قتلة الله، أمة اليهود المارقة.» وحتى عام ١٩٥٩، كانت الصلوات التقليدية في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في يوم «الجمعة العظيمة» (يوم ذكرى موت يسوع على الصليب) تتضمن صلاة «من أجل اليهود الخونة [أو الغادرين] تقول: يا الله القدير، انزع الشر من قلوبهم، حتى يعترفوا هم أيضًا بيسوع المسيح ربنا.»

تعكس هذه الصلوات تعاليم مستوحاة من الكتاب المقدس المسيحي. ونرى في الأناجيل الأربعة المرجعيات اليهودية تتهم يسوع بالتجديف على الله بادعائه أنه «ابن الله». كانت هذه جريمة عقوبتها الإعدام، ومِن ثَمَّ طالبت المرجعيات اليهودية بإعدام يسوع (متَّى ٢٦: ٦٣–٦٥؛ لوقا ٢٢: ٧٠–٧١؛ يوحنا ١٩: ٧). ومع ذلك، حينما مَثُل يسوع أمام الوالي الروماني بيلاطس البُنطي، لم يجد سببًا لإدانة يسوع. فاضطُرت المرجعيات اليهودية إلى فرض ضغط سياسي على بيلاطس من خلال تهييج الشعب المحلي ليصرخ «اصلبه!» ووفقًا لما جاء في إنجيل متَّى (٢٧: ٢٤–٢٦)، كان للجمع دور أيضًا في موت يسوع.

ومِن ثَمَّ عندما رأى بيلاطس أنه ليس بمقدوره فعل شيء، ولكن شغبًا بدأ يحدث، أخذ ماءً وغسل يديه قُدَّامَ الجمع، قائلًا: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارِّ. أَبْصِرُوا أَنْتُمْ.»

فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ: «دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلَادِنَا!» حِينَئِذٍ أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ [سجينًا آخر] وَأَمَّا يَسُوعُ فَجَلَدَهُ وَأَسْلَمَهُ لِيُصْلَبَ.

أول مصدر مكتوب لفكرة أن اليهود «قتلة المسيح» هو رسالة بولس الرسول إلى أهل تسالونيكي التي كتبها في خمسينيات القرن الأول. يشير بولس الرسول إلى «الْيَهُودِ، الَّذِينَ قَتَلُوا الرَّبَّ يَسُوعَ وَأَنْبِيَاءَهُمْ، وَاضْطَهَدُونَا نَحْنُ» (رسالة تسالونيكي الأولى ٢: ١٤-١٥).

في القرن الثاني، كتب عالم اللاهوت جاستن مارتير مناقشة تخيلية مع يهودي «حوار مع تريفو» (براون، ٢٠١٠). وفي الفصل السادس عشر، يشرح مارتير لتريفو سبب تدمير هيكلهم ونفيهم من أرضهم: «فُرضت عليكم المحن بالعدل لأنكم قتلتم العادل [يسوع].»

ازدادت الهجمات البلاغية على اليهود في القرون التالية، ولا سيما بعدما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الرابع. وأصبح الهجاء المعادي لليهودية لونًا أدبيًّا معتادًا في الأدب المسيحي يُطلَق عليه «المعادي لليهود». كتب القديس يوحنا ذهبي الفم (١٩٧٩) معظم هذه الوثائق وأكثرها شراسة. إذ يهاجم في ثماني عظات المسيحيين الذين يشاركون في احتفالات اليهود وطقوسهم الأخرى. ويقول عن اليهود إنهم «فُجار، وعبدة أصنام، وقتلة أطفال، يرجمون الأنبياء، ويرتكبون عشرة آلاف فظيعة.» ويسترسل قائلًا:

> اليهود أخس البشر. هم فُجار وطمَّاعون وجشعون. هم قتلة المسيح الغادرون. يعبدون الشيطان. دينهم كريه. اليهود هم قتلة المسيح المقيتون، وما من كفَّارة لقتل الله ولا غفران ولا صفح. قد لا يتوقف المسيحيون البتة عن الثأر، ولا بد أن يعيش اليهود في العبودية إلى أبد الدهر. مقت الله اليهود دائمًا، وعلى المسيحيين كافة أن يمقتوهم.

وفي حال لم تكن جريمة قتل الله كافية لأن تبتعد رعيته عن كل ما هو يهودي، يضيف يوحنا ذهبي الفم قائلًا:

> اليهود يقدِّمون أطفالهم قربانًا للشيطان. هم أسوأ من الوحوش الضارية. معبدهم ماخور، وعرين للأوغاد، ومعبد الشياطين المخصص للعبادات الوثنية، ومجمع إجرامي لليهود، وملتقى سافكي دم المسيح، ومكان مشبوه، ومأوى الظلم، هو هاوية جهنم. لقد تدنَّى اليهود إلى مرتبة أدنى من أحقر حيوان. جعلهم فجورهم وسُكرهم ينحطون إلى مستوى العنزة الشبقة والخنزير. هم

لا يعرفون سوى شيء واحد: أن يُشبعوا بطونهم، أن يسكروا، وأن يقتلوا، ويضرب بعضهم بعضًا مثل الشخصيات الشريرة في المسرح وسائقي عربات الخيول.

في أواخر العصور الوسطى، أصبحت المسرحيات التي تصوِّر صلب يسوع من الطقوس الدينية الشائعة في أوروبا. وأشهرها «مسرحية الآلام بقرية أوبرامرجاو»، التي تُعرض منذ عام ١٦٣٤ في ولاية بافاريا الألمانية. غالبًا ما تقدِّم إعادات التجسيد المسرحية هذه لمحاكمة يسوع وموته — التي كانت تُؤدَّى عادةً أثناء موسم التوبة المسيحي الذي يُطلق عليه الصوم الكبير — صورةً نمطية من الناحية الإثنية ليهوذا وهو يخون يسوع مقابل ٣٠ قطعة من الفضة، ثم يصرخ رعاع اليهود إلى بيلاطس البنطي قائلين «اصلبه!» فيما يقول زعماء اليهود «دمه على رءوسنا.» على مدار قرون، اضطر اليهود الذين يعيشون في مناطق تُعرض فيها مسرحيات الآلام إلى الاحتياط من المسيحيين الذين يريدون أن يصبوا جامَ غضبهم على «قتلة المسيح».

تحدى الإصلاح البروتستانتي الذي بدأه مارتن لوثر في مطلع القرن السادس عشر أمورًا كثيرة في الكنيسة الكاثوليكية، إلا أنه لم يكن من بينها معاداة اليهودية. فبينما أعرب لوثر في شبابه عن تفاؤله بإمكان تحويل اليهود إلى المسيحية؛ فإنه صار كارهًا لهم في كتابته الأخيرة؛ ففي أعمال مثل «اليهود وأكاذيبهم» (١٥٤٣)، يكتب قائلًا إن اليهود «شعب وضيع وأبناء زنًى، وليسوا شعب الله، وتباهيهم بنسبهم إلى الله وختانهم وناموسهم يجب اعتباره نجاسة.» إنهم مليئون بـ «براز الشياطين ... الذي يتمرَّغون فيه مثل الخنازير.» وكما يقتبس مايكل عن الكتاب (٢٠٠٦: ١١١–١١٣)، دعا لوثر إلى حرق معابدهم ومدارسهم، ومنع حاخاماتهم من الوعظ، وإتلاف كتب صَلاتهم، وهدم بيوتهم، ومصادرة ممتلكاتهم. بل ويكتب أيضًا أن هؤلاء «الديدان السامة المسمومة» ينبغي أن يُجبروا على العمل القسري أو الطرد على الدوام. بل ويشير لوثر إلى واجب المسيحي بقتل اليهود حينما يكتب «ونحن على خطأ إن لم نقتلهم.»

تغلغلت فكرة أن اليهود قتلوا يسوع حتى في الكتابات الدينية اليهودية. يحتوي التلمود البابلي، مجلد «السَّنهدرين»، مجلد ٤٣أ، على «بيريتا»؛ أي تعليم يعود إلى ما قبل عام ٢٠٠، يقول إن يسوع أُعِدم بمحاكمة يهودية على جريمتَي السحر وإثارة الفتنة. وحُذف هذا التعليم من كثير من النصوص الرسمية للتلمود، تاركًا مساحة بيضاء في الصفحة. في الأدب الشعبي اليهودي أيضًا، مثل «توليدوت ييشو»، وهي سيرة يهودية

لحياة يسوع، ينسب موت يسوع إلى اليهود. ويشير مارتن لوكشين من مركز الدراسات اليهودية بجامعة يورك إلى أن «هناك احتمالية أن اليهود في أوروبا المسيحية حتى القرن التاسع عشر على الأقل كانوا يعتقدون أن أسلافهم قتلوا يسوع» (لوكشين، على الإنترنت).

وليس مثيرًا للغرابة أنه فيما تبنَّت ألمانيا سياساتها المعادية للساميَّة قبل الحرب العالمية الثانية، انجذب النازيون لإدانة لوثر لليهود. وهل كانت خطة هتلر التي أُطلق عليها «الحل الأخير» سوى امتداد منطقي لفكرة لوثر التي تقول «نحن على خطأ إن لم نقتلهم»؟ في عام ١٩٢٣ امتدح هتلر «مارتن لوثر» واصفًا إياه بأنه عبقري ألماني عظيم، استطاع أن «يرى اليهود كما بدأنا نراهم اليوم» (سوس، ٢٠٠٦). عقب «ليلة البلور» — الهجوم المدبر على اليهود وممتلكاتهم في العاشر من نوفمبر عام ١٩٣٨ — أشار أسقف تورينجن إلى أن لوثر وُلد في اليوم نفسه عام ١٤٨٣، ووصف حرق المعابد اليهودية بأنه حدث يليق بالاحتفاء بذكرى مولده (جولدهاجين، ١٩٩٧: ١١١). وأثناء الهولوكوست، كان الكاثوليك في سلوفاكيا يتلقَّون تعليمًا من كهنتهم بأن النازيين كانوا يحققون مشيئة الله في إبادة اليهود. وفي سلوفاكيا عام ١٩٤٢، توسل الحاخام ميخائيل دوف-بير فايسماندل إلى رئيس الأساقفة كيمتكو للتوسط عند الرئيس تيسو من أجل إيقاف ترحيل اليهود من سلوفاكيا إلى معسكرات الموت النازية. فكان هذا رد رئيس الأساقفة:

> ليس هذا مجرد ترحيل. لن تموتوا هناك من الجوع والطاعون؛ هناك سوف يذبحونكم جميعكم، صغيركم وكبيركم، نساءكم وأطفالكم، في يوم واحد؛ فهذا هو عقابكم على موت مخلِّصنا. لكن أملكم الوحيد في النجاة هو أن تتحولوا إلى ديننا؛ فعندها سأصدر أمرًا بإلغاء هذا المرسوم. (بيركوفيتس، ١٩٧٣: ١٦-١٧)

صدمت أهوال المحرقة العالم حتى النخاع، ودفعت المرجعيات المسيحية إلى مراجعة تعاليمها. وفي عام ١٩٥٩ أمر البابا يوحنا الثالث والعشرون بحذف كلمة «الخونة» من صلوات الجمعة العظيمة. وفي عام ١٩٦٢، دعا البابا يوحنا إلى عقد مجمع الفاتيكان الثاني من أجل تجديد المفاهيم الكتابية في ضوء التجارب الحديثة. بعدها ببضع سنوات، أصدر البابا بولس السادس منشورًا بابويًّا بعنوان «نوسترا إيتاتي»؛ أي «زمننا»، (١٩٦٥) نتج من مداولات الكنيسة حول التعددية الدينية. واستنكر منشور «نوسترا إيتاتي» لوم اليهود كافة عبر جميع العصور على موت يسوع. ينص المرسوم أنه «يجب ألا يُعبَّر عن اليهود بوصفهم مرفوضين أو ملعونين من الله، كما لو كان هذا متَّبَعًا من الكتاب المقدس.» وفي

عام ١٩٧٠ أُعيدت كتابة صلوات الجمعة العظيمة بالكامل بعد حذف الإشارات السلبية إلى اليهود، بل واعتُرِف بهم باعتبارهم أول من تلقَّوا كلمة الله.

استأنف البابا يوحنا بولس الثاني (الذي تولى المنصب من عام ١٩٧٨ إلى عام ٢٠٠٥) الجهود لتصحيح توجهات المسيحيين نحو اليهود. وفي أولى رحلاته الرسمية في أنحاء ألمانيا عام ١٩٨٠، التقى المجلس المركزي اليهودي والمؤتمر الحاخامي الألماني، حيث دعا إلى المزيد من الحوار، وصرَّح بأن عهد الله مع اليهود لم يُنقَض قطُّ. وعبَّر البابا بندكت السادس عشر عن شكوكه في الدقة التاريخية لمقولة «ليكن دمه علينا وعلى أولادنا»، في كتابه «يسوع الناصري» (٢٠١١). أشار العديد من العلماء إلى أن هذه الكلمات كتبها بعد موت يسوع بخمسين عامًا أشخاص كانوا يحاولون نَيل استحسان الإمبراطورية الرومانية بتمييز أنفسهم من اليهود الذين سبق أن تمردوا على الحكومة الرومانية، فأسفر هذا عن الهجوم على أورشليم عام ٧٠. ويفترض بعض الدارسين أنه بقول إن بيلاطس وجد يسوع بريئًا، بينما قَبِل «اليهود» مسئولية إعدام يسوع؛ فإن كاتب إنجيل متَّى أخلى مسئولية الرومان من صلب يسوع، ربما كي لا يسيء هو نفسه إلى الرومان (انظر «قاموس أنكور للكتاب المقدس»، ١٩٩٥: ٣٩٩–٤٠٠).

أصدرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أيضًا بعض الإرشادات لمسرحيات الآلام التي تُعرض خلال الصوم الكبير. وانحسرت معاداة الساميَّة في النصوص التقليدية. ويظهر بيلاطس أكثر قوة واستبدادًا. واختُزل دور الباعة في الهيكل. وأُضيف مؤيدو يسوع إلى الجموع الصارخة خارج قصر بيلاطس. وحُذفت عبارة «ليكن دمه علينا وعلى أولادنا.» وأُكِّدت يهودية يسوع بجعله ينطق بالعديد من العبارات باللغة العبرية، ويُلقَّب عند التحدث إليه باسم «الرابي ييشوا». وفي عام ١٩٩٨، تبنَّت الكنيسة الإنجيلية اللوثرية بأمريكا قرارًا يحث أي كنيسة لوثرية تقدِّم مسرحية الآلام على الالتزام بوثيقة «المبادئ التوجيهية للعلاقات اللوثرية–اليهودية». تنص هذه الوثيقة أنه «يُحظر استخدام العهد الجديد مبررًا للعداء تجاه يهود الزمن الحاضر»، و«يُحظر الإلقاء باللائمة على موت يسوع على اليهودية أو الشعب اليهودي.» ومع ذلك فمن أسفٍ، كما يتضح من موقع jewskilledjesus.com ومواقع أخرى، أنه لا يزال على المسيحيين أن يبذلوا مزيدًا من الجهد قبل أن يُجتث جذر معاداة الساميَّة هذا.

المراجع

Anchor Bible Dictionary (1995) Volume 5, Bantam, New York.

Benedict XVI (2011) *Jesus of Nazareth*, Doubleday, New York.

Berkovits, E. (1973) *Faith after the Holocaust*, KTAV, Jersey City NJ and Brooklyn NY.

Brown H. (ed) (2010) *Justin Martyr's Dialogue with Trypho the Jew*, Gale ECCO, Farmington Hills MI.

Chrysostom, J. (1979) Discourses against Judaizing Christians, translated by Paul Harkins *The Fathers of the Church* Volume 68, Catholic University of America Press, Washington.

Goldhagen, D. (1997) *Hitler's Willing Executioners*, Vintage, New York.

Lockshin, M.I. (online) *Who Killed Jesus? A History of the Idea that the Jews Killed Jesus,* www.myjewishlearning.com/beliefs/Issues/Jews_and_Non-Jews/Attitudes_Toward_Non-Jews/Christianity/who-killed-jesus.shtml (accessed January 7, 2014).

Luther, M. (1543) On the Jews and Their Lies. Translated by Martin Bermann, in *Luther's Works* (1971), Fortress Press, Philadelphia.

Michael, R. (2006) *Holy Hatred: Christianity, Antisemitism, and the Holocaust*, Palgrave Macmillan, New York.

Paul VI (1965) *Declaration on the Relation of the Church to Non-Christian Religions: Nostra Aetate (In Our Time)*, October 28, www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decl_19651028_nostra-aetate_en.html (accessed January 2014).

Süss, R. (2006) *Luthers Theologisch Testament*, VU University Press, Amsterdam.

(٦) فرية الدم: يستخدم اليهود دم المسيحيين في شعائرهم

> خطف يهود بلدة لينكولن صبيًّا ابن ثمانية أعوام اسمه هيو ... وأرسلوا إلى جميع مدن إنجلترا تقريبًا حيثما يقطن اليهود، واستدعوا بعضًا من طائفتهم من كل مدينة لحضور أضحية من المزمع أن تُقدم في لينكولن، حيث كانوا يُخفون صبيًّا، كما ذكروا، بغية تقديمه قربانًا. (نسخة من قصة مقتل القديس هيو الصغير، من تأليف ماثيو باريس، مقتبسة في هيامسون، ١٩٠٨: ٨١)

علاوة على موت يسوع، أشير بإصبع الاتهام إلى اليهود في عدد لا حصر له من الجرائم الأخرى. ومن أكثرها سخافة ذلك الزعم — الذي كان شائعًا في العصور الوسطى في أوروبا — بأن اليهود كانوا يقتلون الأطفال المسيحيين ويستخدمون دماءهم في طقوسهم الدينية. وفقًا للباحث ديفيد بياله (٢٠٠٧: ٢)، هذه الخرافة التي يُطلق عليها «فرية الدم» «ترجع في التاريخ الأوروبي إلى القرن الثالث عشر ... وقد استمرت في أشكال شديدة التشابه حتى يومنا هذا.» لكن ثمة حالة أسبق، اكتشفها دوجلاس ريموند وبستر (١٩١٣)، وهي حالة ويليام النورتشي، البالغ من العمر اثني عشر عامًا، الذي يُقال إنه عُثِر على جثته المشوهة في الغابة بالقرب من مدينة نورتش بإنجلترا عشية عيد الفصح اليهودي عام ١١٤٤. كتب راهب بندكتي من المنطقة يُدعى توماس المونماوثي كتابًا عن الطفل يدَّعي فيه أن طبيعة الجروح الموجودة على الجثة تشير إلى أن ويليام قُتل بطقوس معينة بأيدي اليهود. يقول توماس إنه وقع الاختيار على ويليام من أجل أضحية عام ١١٤٤. واقتنع الناس على نطاق واسع بـ «استشهاد» ويليام، حتى إنه رُسمت صورة فنية تصور هذه الحادثة على حجاب هيكل بكنيسة الثالوث المقدس بلندن بمقاطعة نورفولك، التي بُنيت عام ١٤٩٠. ولا يزال من الممكن اليوم مشاهدة صورة اليهود وهم يصلبون طفلًا مسيحيًّا ويفصدون دمه.

ولعل أشهر حالات فرية الدم تتضمن طفلًا إنجليزيًّا ابن تسعة أعوام يُدعى هيو، يُعتَقد أنه عُثر عليه ميتًا في إنجلترا عام ١٢٥٥. اختفى هيو، وبعدها ببضعة أسابيع عُثر على جثته في بئر. ويقال إن أصدقاءه زعموا أن أحد اليهود المحليين خطفه وعذبه وصلبه — في محاولة للاستهزاء بيسوع. قبضت السلطات المحلية على اليهودي المتهم، ويبدو أنه اعترف تحت التعذيب بأنه قتل الصبي من أجل منفعة المجتمع اليهودي بأسره. اتُّهم تسعون يهوديًّا بالمشاركة في تعذيب هيو وفصد دمه وصلبه — استهزاءً بيسوع. أُعدِم ١٨ شخصًا شنقًا، وصادر الملك هنري الثالث ممتلكاتهم. نُسِبت معجزات إلى الطفل. وأُطلق

عليه القديس هيو الصغير، وعُرض جسده في كاتدرائية لينكولن. بعدها تداولت الأغاني الشعبية القصصية الإنجليزية والاسكتلندية قصة «استشهاده»، مثل أغنية «سير هيو أو ابنة اليهودي (التي استدرجت الصبي إلى حديقتها)». وفي «حكايات كانتربري» التي ألفها جيفري تشوسر، تروي رئيسة الدير كيف استأجر اليهود قاتلًا «لذبحه وإلقائه في حفرة ... في منزل خارجي، حيث طهر هؤلاء اليهود أوانيهم.» استغرق الأمر من الكنيسة الأنجليكانية ٧٠٠ عام حتى تكذِّب هذه القصة التخيلية.

وفقًا للمؤرخ وولتر لاكور (٢٠٠٦: ٥٥–٦٦)، كان هناك نحو ١٥٠ حالة موثقة عن فرية الدم كانت السبب في اعتقال اليهود أو قتلهم، وهو الأكثر شيوعًا. وكان معظم هذه الحالات في العصور الوسطى، كما يقول لاكور، وإن كانت الادعاءات بأن اليهود يستخدمون الدم البشري من أجل الطقوس الدينية مستمرة حتى اليوم.

لماذا كان من شأن اليهود أن يقتلوا الأطفال المسيحيين؟ ادعى توماس المونماوثي أن أحد اليهود المحليين سبق وأخبره بنبوءة قديمة تقول إن اليهود يمكنهم العودة إلى وطنهم القديم لو أنهم ضحوا بطفل مسيحي سنويًّا. غير أن مزاعم فرية الدم كانت فعليًّا جزءًا من معاداة اليهود الخبيثة التي انتشرت في أنحاء إنجلترا، وفعليًّا في أنحاء كثيرة من أوروبا المسيحية. وكما رأينا، تقتفي دراسات جذور معاداة اليهود جذورها المتعددة، ومنها المزاعم بأن اليهود يدَّعون أن الله اختارهم وحدهم من أجل الخلاص وأن اليهود قتلوا يسوع. يمكننا أن نجد سببًا أكثر دنيوية لمشاعر معاداة اليهود في قوانين القرون الوسطى فيما يتعلق بإقراض الأموال. لم يكن مسموحًا للمسيحيين بإقراض المال بربًا. ولم يكن مسموحًا لليهود أيضًا طبقًا للكتاب المقدس العبري أن يقرضوا يهودًا بربًا (سفر الخروج ٢٢: ٢٤؛ سفر اللاويين ٢٥: ٣٦–٣٧؛ سفر التثنية ٢٣: ٢٠–٢١). لكن اليهود كان مباحًا لهم الربا على غير اليهود. وعليه كان مسيحيون كثيرون يلجَئون إلى المرابين اليهود، فأسفر هذا عن مشاعر حنق متوقعة. في إنجلترا، بلغت مشاعر معاداة اليهود أوْجَها لدرجة طرد كل اليهود من البلد عام ١٢٩٠، ذلك النفي الذي دام أكثر من ٣٥٠ عامًا.

ظهرت قصص مشابهة حول خيانة اليهود في أنحاء أوروبا، ولا سيما في أوقات الأزمات، مثلما حدث خلال «الموت الأسود» الذي ظهر في القرن الرابع عشر حينما أباد الطاعون شعوبًا بأكملها في المنطقة المحيطة بالبحر المتوسط؛ فعلى الرغم من الكثير من التفاسير العلمية، اكتسبت الادعاءات بأن اليهود سمموا آبار المسيحيين شعبية. رأينا

بالفعل أن قائد الإصلاح البروتستانتي، مارتن لوثر (١٥٤٣)، نشر كتابًا كاملًا بعنوان «عن اليهود وأكاذيبهم».

كما ذكرتُ قبلًا، لم تتعامل المرجعيات الكنسية بجدِّية مع جذور معاداة الساميَّة في تعاليمها إلا في منتصف القرن العشرين. ولم تظهر الاعتذارات العلنية حتى نهاية القرن العشرين. أصدرت الجماعات اللوثرية سلسلة من الاعتذارات بدءًا من عام ١٩٩٤، وحذت الكنيسة الكاثوليكية حذوها عام ١٩٩٨. لكن من دواعي الأسف أن تستمر معاداة الساميَّة ومنها الافتراءات بأن اليهود يستخدمون دم المسيحيين.

المراجع

Biale, D. (2007) *Blood and Belief: The Circulation of a Symbol between Jews and Christians*, University of California Press, Berkeley.

Hyamson, A. (1908) *History of the Jews in England*, Jewish Historical Society of England, London.

Laqueur, W. (2006) *The Changing Face of Antisemitism: From Ancient Times to the Present Day*, Oxford University Press, Oxford.

Luther, M. (1543) *On the Jews and Their Lies*. Translated by Martin Bermann, in *Luther's Works* (1971), Fortress Press, Philadelphia.

Webster, D.R. (1913) William of Norwich, in *Catholic Encyclopedia*, Volume 15, http://en.wikisource.org/wiki/Catholic_Encyclopedia_(1913)/St._William_of_Norwich (accessed January 7, 2014).

قراءات إضافية

Dundes, A. (ed) (1991) *The Blood Libel Legend: A Casebook in Anti-Semitic Folklore*, University of Wisconsin Press, Madison.

Glassman, D. (1975) *Anti-Semitic Stereotypes without Jews: Images of the Jews in England 1290–1700*, Wayne State University Press, Detroit.

Rubenstein, W.D. (1996) *A History of the Jews in the English-Speaking World: Great Britain*, Macmillan, New York.

(٧) نصح بنجامين فرانكلين حكومة الولايات المتحدة بطرد اليهود

أتفق تمامًا مع الجنرال واشنطن بأننا يجب أن نحمي هذه الأمة الشابة من التأثير والاختراق اللئيمين. الخطر، أيها السادة المحترمون، هو اليهود. أينما نزلوا بأي بلد بأعداد كبيرة، حطُّوا من شأنه الأخلاقي؛ وأفسدوا نزاهته التجارية؛ وعزلوا أنفسهم، ولم يندمجوا؛ وازدروا بالدين المسيحي الذي تقوم عليه هذه الأمة، وسعَوا إلى تقويضه باستهداف ضوابطه؛ فبنوا دولة داخل الدولة؛ وحين مقاومتهم، حاولوا خنق هذا البلد ماليًّا، كما هي الحال في إسبانيا والبرتغال.

على مدار أكثر من ١٧٠٠ عام يندب اليهود مصيرهم المشئوم بأنهم طُردوا من وطنهم الذي يسمونه فلسطين. لكن أؤكد لكم أيها السادة أنه حتى لو أعطاهم العالم إياه بلا شروط، فسيتذرَّعون في الحال بأي حجة للعودة. لماذا؟ لأنهم مصاصو دماء، ومصاصو الدماء لا يعيشون على مصاصي الدماء. لا يمكنهم العيش فيما بينهم هم فقط. لا بد أن يقتاتوا على المسيحيين والشعوب الأخرى التي ليست من جنسهم.

إن لم تطردوهم من هذه الولايات المتحدة، في دستورها، ففي أقل من ٢٠٠ عام سيملئون الأرض هنا بأعداد هائلة حتى إنهم سوف يسيطرون على الأرض ويفترسونها، ويغيرون شكل حكومتنا التي أهرقنا نحن الأمريكيين دماءنا من أجلها، وضحينا بأرواحنا وممتلكاتنا، وجازفنا بحرِّيتنا.

إن لم تطردوهم، ففي أقل من ٢٠٠ عام سوف يعمل أحفادنا في الحقول ليكسبوا قوتهم، بينما سيكونون هم مغتبطين في مكاتب المحاسبة. احذروا أيها السادة من أنه إن لم تطردوا اليهود دائمًا؛ فإن أولادكم سوف يلعنونكم في قبوركم.

أيها السادة، اليهود آسيويون، فدعوهم يولدوا حيث لن يكونوا، مهما تعاقبت أجيالهم بعيدًا عن آسيا، غير ذلك. إن أفكارهم لا تناسب أفكار أي

> أمريكي، ولن تناسبها وإن عاشوا بيننا عشرة أجيال. لا يستطيع النمر المرقط أن يغير رقطه. اليهود آسيويون، وهم خطر على هذا البلد لو سُمح لهم بالدخول، وينبغي إقصاؤهم من قِبَل هذا المؤتمر الدستوري.

مثال أحدث لخرافات معاداة الساميَّة، هو الادعاء بأن الأب المؤسس للولايات المتحدة، بنجامين فرانكلين، ألقى الخطاب المشار إليه أعلاه عام ١٧٨٧ في المؤتمر الدستوري الذي عُقد في فيلادلفيا. من المفترض أن مندوب ولاية كارولاينا الجنوبية في المؤتمر، تشارلز كوتسورث بينكني، هو من سجَّله؛ ففي خطاب إلى جون كوينسي آدامز بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٨١٨، ادَّعى بينكني أنه احتفظ بدفتر يوميات للمؤتمر. غير أن أول مرة رأت فيها نبوءة فرانكلين النور كانت في عام ١٩٣٤ في مقال (مجهول الكاتب) في صحيفة «ليبريشن». وكان رئيس تحرير الصحيفة، ويليام دودلي بيلي، أحد المعجبين بمستشار ألمانيا الجديد أدولف هتلر، ومؤسس «الفيلق الفضي»، وهو منظمة معادية للساميَّة كان أعضاؤها يرتدون زيًّا فضيًّا شبيهًا بالزي النازي. وكان في معظم الولايات الأمريكية أفرع من منظمة الفيلق الفضي، وترشح بيلي للرئاسة عن الحزب المسيحي عام ١٩٣٦.

وفقًا لبيلي، كان خطاب فرانكلين مسجَّلًا في مفكرة بينكني التي كانت مطبوعة في السر. وقال إن نسخة منها كانت محفوظة في معهد فرانكلين في فيلادلفيا. غير أن مدير معهد فرانكلين في ذلك الوقت، هنري باتلر آلين، (١٩٣٨: ١-٢)، ذكر أن «المؤرخين وأمناء المكتبة لم يستطيعوا العثور على [المفكرة] أو أي ثبت يُشير إلى أنها كانت موجودة.»

منذ عام ١٩٣٤، ظهرت نبوءة فرانكلين مرات كثيرة في صحف معادية للساميَّة، ويمكن العثور عليها الآن على الإنترنت. كما أشار إليها أسامة بن لادن في «خطاب إلى الشعب الأمريكي» في أكتوبر ٢٠٠٢:

> أنتم أمة تبيح الربا الذي حرَّمته كل الأديان. لكنكم بنيتم اقتصادكم واستثماراتكم على الربا. ونتيجة لهذا، بكل أشكاله ومظاهره المختلفة، استحوذ اليهود على اقتصادكم، ومنه سيطروا على إعلامكم، والآن يتحكمون في جوانب حياتكم كافة، مستعبدينكم ومحققين أهدافهم على حسابكم؛ وهو عين ما حذركم بنجامين فرانكلين منه.

لكن خطاب فرانكلين زائف؛ فقد نشرت رابطة مكافحة التشهير (١٩٥٤) مقالًا مبكرًا يفضح تزييفه. تضمَّن المقال هذا التعليق من المؤرخ الشهير تشارلز إيه بيرد:

> لا أستطيع العثور على مصدرٍ أصلي واحد يُقدِّم أدنى مبرر للاعتقاد بأن النبوءة هي أكثر من مجرد تزييف سافر. لم أجد ولو كلمة واحدة في خطابات فرانكلين وأوراقه تعبِّر عن مثل تلك المشاعر المعادية لليهود كما نسبها إليه النازيون — الأمريكان والألمان. الواقع أن تحرُّره المعروف في مسائل الآراء الدينية يجعل من المستحيل أن يكون نطق بالألفاظ التي نسبها إليه هذا التزييف الواضح ... في كتاباته عن الهجرة، لم يأتِ فرانكلين على ذكر أي تمييز ضد اليهود.

أشار بيرد أيضًا إلى أن نبوءة فرانكلين تحتوي على عبارات مختلفة عن لغة بنجامين فرانكلين، ولكنها أقرب إلى لغة المناقشات السياسية في القرن العشرين. على سبيل المثال، لم يتحدث أحد في زمن فرانكلين عن «وطن» لليهود؛ فقد ظهرت هذه اللفظة بعد مدة طويلة في مناقشات تتعلق بالصهيونية وضرورة العثور على ملجأ من معاداة أوروبا للساميَّة (انظر بيرد، ١٩٣٥).

والمثير أن السطر الأول من نبوءة فرانكلين يحاول منح الخطاب مزيدًا من السلطة بجعل فرانكلين «يتفق تمامًا» مع جورج واشنطن.

في حقيقة الأمر، كان كلٌّ من فرانكلين وواشنطن على علاقة طيبة بيهود أمريكا، ولم يُظهرا في خطاباتهما أو كتاباتهما أي معاداة للساميَّة. وعندما سعت الجماعة العبرية في فيلادلفيا إلى بناء أول معبد دائم لها، وقَّع فرانكلين على الالتماس الذي ناشد مساهمات من «مواطني كل طائفة دينية»، وتبرَّع هو نفسه بخمسة جنيهات.

وحينما زار واشنطن، وهو رئيس، مدينة نيوبورت بولاية رود آيلاند عام ١٧٩٠، واستقبلته الجماعة العبرية هناك بحفاوة، ردَّ على ذلك بكتابة خطاب لهم اختتمه بهذه الكلمات:

> أتمنى لكم يا نسل إبراهيم يا من تسكنون في هذه الأرض أن تظلوا جديرين باستحسان جيرانكم ومتنعمين به؛ ولعل كلًّا منكم يجلس في ظل كَرْمَتِه وشجرة تينه، ولا شيء يخيفه. (هيرشفلد ٢٠٠٥: ١٥)

المراجع

Allen, H.B. (1938) Franklin and the Jews. *The Franklin Institute News* 3 (4) August, 1–2.

Anti–Defamation League (1954) "The Franklin Prophecy": Modern Anti–Semitic Myth Making. *Facts,* April–May.

Beard, C. (1935) Exposing the anti–Semitic forgery about Franklin, *Jewish Frontier,* March, 1–13.

bin Laden, O. (2002) Letter to the American People, *The Observer,* November 24, www.theguardian.com/world/2002/nov/24/theobserver (accessed January 7, 2014).

Hirschfeld, F. (2005) *George Washington and the Jews*, University of Delaware Press, Newark DE.

Liberation (1934) Did Benjamin Franklin Say This about the Hebrews? *Liberation* 5 (24) February 3.

Pinckney, P. (1818) Letter to John Quincy Adams, December 30, www.consource.org/document/charles–pinckney–to–john–quincy–adams–1818–12–30 (accessed January 10, 2014).

(٨) بروتوكولات حكماء صهيون: مؤامرة زعماء اليهود للهيمنة العالمية

> وسواء أستنزفَتِ الدول نفسها في اضطراباتها الداخلية، أم أخضعها النزاع الداخلي لسلطان أعداء خارجيين — يمكن على أي حال اعتبار أنها ضاعت بلا عودة: «إنها في قبضتنا». ستمد سيطرة رأس المال الذي هو بأيدينا تمامًا قشة لن تجدَ الدولة مفرًّا من التعلُّق بها. (البروتوكول الأول، الجزء الثامن)

مثال حديث آخر للافتراء المعادي للساميَّة، قدَّمته الحكومة الروسية تحت العنوان الأخاذ «بروتوكولات حكماء صهيون». ألَّفت هذه البروتوكولات نحو عام ١٩٠٠ الأوكرانا الروسية — الشرطة السرية للإمبراطورية الروسية القيصرية — التي ادَّعت أن هذه البروتوكولات

هي مَحاضر اجتماع لحكماء صهيون المتآمرين من أجل تدمير أعراف المجتمع، والتحكم في اقتصادات العالم، والسيطرة على العالم في النهاية.

حرر سيرجي نيلوس، وهو أحد المسئولين القيصريين في موسكو، بضع نسخ من «بروتوكولات حكماء صهيون». وفي طبعات مختلفة، روى قصصًا مختلفة عن الكيفية التي وقعت بها الوثيقة في يديه؛ ففي طبعة عام ١٩١١، ذكر أنه حصل عليها من شخص كان قد سرقها من منظمة صهيونية في فرنسا. وفي طبعة عام ١٩١٧ نسب الوثيقة إلى تيودور هرتزل (١٨٦٠–١٩٠٤) مؤسِّس الصهيونية الحديثة. وبحلول عام ١٩٣٣، كانت هناك ٣٣ طبعة منشورة من البروتوكولات. وفيما جرى تداول البروتوكولات على نطاق أوسع، اختلق «محررون» مختلفون المزيد من التفاصيل عن أصولها. قال بعضهم إنها قُدِّمت في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، بسويسرا عام ١٨٩٧.

ولا تزال «البروتوكولات» متداولة على نطاق واسع عبر العالم من قِبَل الجماعات الدينية المعادية للساميَّة في الغالب. على سبيل المثال، تنشرها مجموعة تُعرف باسم «بايبل بليفرز» على موقعها www.biblebelievers.org.au، بل وتضيف تعليقات من وجهة نظرها تربط بين اليهود والروم الكاثوليكيين. تدَّعي البرتوكولات أن ستة أساقفة على الأقل كانوا يهودًا، منهم البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢–١٩٣٩). وتضيف جماعة «بايبل بليفرز» أن إجناتيوس لويولا، مؤسِّس الرهبنة اليسوعية، كان يهوديًّا. بعد فقرة تزعم فيها البروتوكولات أن «الكنيسة الرومانية الكاثوليكية — أساس المسيحية وناشرتها — كانت مجرد واجهة لأجندة سرية تديرها يد خفية من خلف الستار»، ومن ثَمَّ «كانت المسيحية من حيث الأساس طريقًا نحو التهويد الأكبر للعالم»، تضيف جماعة «بايبل بليفرز» هذا التعليق: «من أسف، ليس مؤلفنا رجلًا روحيًّا، ويخفق في إدراك أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لم تكن قطُّ سوى نقيض المسيحية.»

إن مقدمة الترجمة الإنجليزية القياسية للبروتوكولات تشرح عنوان الوثيقة:

> تشير لفظة «برتوكول» إلى خلاصة ملصقة على مقدمة وثيقة، ومسوَّدة وثيقة، ومحضر أعمال. بهذا المعنى، تعني لفظة «برتوكول» محاضر اجتماعات حكماء صهيون. تقدِّم هذه البرتوكولات خلاصة الخطابات المقدمة إلى الدائرة العميقة لحكام صهيون. وتكشف خطة العمل المتحولة للأمة اليهودية التي تطورت عبر العصور، ونقحها الحكماء أنفسهم بما يواكب العصر. وكانت تُنشر أجزاء وملخصات للخطة من حين إلى آخر عبر القرون إذ كانت أسرار الحكماء تتسرب.

هناك ٢٤ برتوكولًا:

(١) المذهب الأساسي.
(٢) الحروب الاقتصادية.
(٣) أساليب الغزو.
(٤) المادية تحل محل الدين.
(٥) الاستبداد والتقدم الحديث.
(٦) أسلوب السيطرة.
(٧) الحروب العالمية.
(٨) الحكومات الانتقالية.
(٩) إعادة التعليم.
(١٠) الاستعداد للسيطرة.
(١١) الدولة الشمولية.
(١٢) السيطرة على الصحافة.
(١٣) وسائل الترفيه.
(١٤) مهاجمة الدين.
(١٥) القمع الوحشي.
(١٦) غسل الأدمغة.
(١٧) سوء استعمال السلطة.
(١٨) اعتقال الخصوم.
(١٩) الحكام والشعب.
(٢٠) البرنامج المالي.
(٢١) القروض والائتمان.
(٢٢) قوة الذهب.
(٢٣) غرس الخنوع.
(٢٤) صفات الحاكم.

بعد سيطرة الشيوعيين على روسيا، ارتبط كثير من الهجمات على اليهود بالشيوعيين. وفي عام ١٩١٩، وزع الروس المعادون للشيوعية نسخًا من «البروتوكولات» على القضاة الأمريكيين وأعضاء ديوان الرئاسة.

اكتسبت «البروتوكولات» صدقية كبيرة في الولايات المتحدة عندما نشر هنري فورد — مؤسِّس شركة فورد لتصنيع السيارات — عام ١٩٢٠، نسخة مؤمركة في صورة سلسلة مقالات صحفية أولًا، ثم في صورة كتاب بعنوان «اليهودي العالمي: المشكلة العالمية الأولى، إعادة طبع لسلسلة المقالات التي نُشرت في صحيفة «ديربورن إندبندنت» من ٢٢ مايو ١٩٢٠ [حتى ١٤ يناير ١٩٢٢]».

لقيت نظرية هنري فورد حول مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم أصداءً لدى كثير من الناس في الولايات المتحدة وأوروبا، منهم أدولف هتلر. في ديسمبر ١٩٢٢، أفادت صحيفة «نيويورك تايمز» أن مكتب هتلر كان مزينًا بصورة كبيرة لفورد، واحتوى على طاولة كبيرة تغطيها الكتب، «جميعها تقريبًا ترجمة كتاب كتبه ونشره هنري فورد».

وفي محاكمات نورمبرج عقب الحرب العالمية الثانية، ذكر القيادي النازي بالدور فون شيراخ، لدى محاكمته على إرسال ٦٦ ألف يهودي من البندقية إلى معسكرات الاعتقال النازية، أن مجموعة منشورات هنري فورد بعنوان «اليهودي العالمي» كانت مصدر إلهامه إبان شبابه. «كان هنري فورد لنا نموذجًا يُحتذى في النجاح، ونصير السياسة الاجتماعية التقدمية أيضًا. في ألمانيا المضروبة بالفقر والبؤس حينها، كان الشباب يتطلَّعون إلى أمريكا، وبصرف النظر عن الرئيس الخيِّر هربرت هوفر، كان هنري فورد هو من يمثل أمريكا في أعيننا» (وقائع محاكمات نورمبرج، ١٩٤٦).

غير أنه في عام ١٩٢١، نشر فيليب جريفز سلسلة من المقالات في صحيفة «ذي تايمز» في لندن، كشفت أن «البروتوكولات» كانت زائفة بما لا يدَع مجالًا للشك. وأثبت أن أجزاءً من الوثيقة كانت مأخوذة من كتابات سابقة لم يكن لها أدنى علاقة باليهود. وذكر جريفز أنه كان هناك مصدران أساسيان؛ أحدهما «حوار بين مكيافيلِّي ومونتسكيو في الجحيم» في هجاء لموريس جولي في عام ١٨٦٤ عن الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث. جاء كثير من الأفكار المتعلقة بالسيطرة على العالم مباشرة من خطابات لمكيافيلِّي في هذا الكتاب، بعضها مأخوذ حرفيًّا كلمة بكلمة. والمصدر الآخر هو «بياريتز»، وهي رواية صدرت عام ١٨٦٨ من تأليف هرمان جودشي الذي يُعتقد أن فكرة أن اليهود خططوا للسيطرة على العالم هي من بنات أفكاره. في كتاب جودشي يجتمع أمراء قبائل إسرائيل الاثنا عشر في مقبرة يهودية لتقديم تقرير عن التقدم الذي أحرزوه في خططهم للسيطرة على العالم.

بعدما فضح جريفز زيف «البروتوكولات»، قام آخرون بالمزيد من البحث للإضافة إلى أدلته. وعدَل بعض مروجي «البروتوكولات» السابقين عن آرائهم، ومنهم هنري فورد

الذي اعتذر على الملأ في عام ١٩٢٧ عن نشره الوثيقة، قائلًا إن مساعديه خدعوه. ومع ذلك، يتوالى نشر الوثيقة، ومن أسف أنها تؤثر في قرائها الجاهلين.

المراجع

Ford, H. (1920–1922) *The International Jew. The World's Foremost Problem. Being a Reprint of a Series of Articles Appearing in The Dearborn Independent from May 22, 1920 [to January 14, 1922]*, Dearborn Publishing Co., Dearborn, Michigan.

Graves, P. (1921) "Jewish World Plot." An Exposure. The Source of the Protocols. Truth at Last, *The Times of London,* 16–18 August.

New York Times (1922) Berlin hears Ford is backing Hitler, December 20, page 2, column 8.

Nuremberg Trial Proceedings, Vol. 14, 137, May 23, 1946.

قراءات إضافية

Cohn, N. (1996) *Warrant for Genocide*, 2nd edition, Serif, London.

Segel, B. (1996) *A Lie and a Libel: The History of the Protocols of the Elders of Zion*, translated and edited by Richard Levy, University of Nebraska Pres,. Lincoln, NE.

(٩) يمثل عيد الأنوار لليهود ما يمثله عيد الميلاد للمسيحيين

عيد أنوار سعيد عيد ميلاد سعيد.

لا شك أن المتسوقين إبان العطلات لحظوا أن بطاقات التهنئة بعيد الأنوار («الهانوكا») وزينته تُباعان إلى جانب بطاقات التهنئة بعيد الميلاد وزينته في أمريكا الشمالية. تُظهر إحدى بطاقات المعايدة رَجُلَي جليد متصلين، أحدهما يرتدي قلنسوة يهودية ويُمسك

بشمعدان، والآخر يرتدي قبعة حمراء على شكل جورب ويمسك بشجرة صغيرة دائمة الاخضرار. وتقول الأمنية المدوَّنة على البطاقة: «عيد أنوار سعيد عيد ميلاد سعيد». ومن الكلمات المدمجة الأخرى التي تُكتب على البطاقات «هانوكريسماس» و«كريسموكا». ويبيع بعض المتاجر مجموعة هجينة من زينة عيد الأنوار وعيد الميلاد، تحتوي على شمعدان (يُستخدَم في الاحتفال بعيد الأنوار) وشجرة عيد ميلاد معًا. وتتوافر أيضًا زينات ذات رموز يهودية لأشجار عيد الميلاد، مثل «شجرة عيد ميلاد بقمة ترمز لعيد الأنوار» (نجمة داود مثبتة في سلك حلزوني ليتسنَّى تركيبها في قمة شجرة عيد الميلاد)، وجوارب عيد ميلاد عليها نجمة داود، ونماذج شمعدانات صغيرة مصنوعة لتزيين شجرة عيد الميلاد.

تمنح هذه الأمور انطباعًا بأن الاحتفالين متكافئان بطريقة ما، كما لو أن عيد الأنوار هو عيد الميلاد اليهودي وعيد الميلاد هو عيد الأنوار المسيحي. على كل حال، كلاهما يأتي في الإطار الزمني نفسه تقريبًا. يحتفل اليهود بعيد الأنوار ثمانية أيام بدءًا من الخامس والعشرين من شهر كيسليف بحسب التقويم اليهودي. ويحتفل المسيحيون بعيد الميلاد في الخامس والعشرين من ديسمبر. وفي بعض السنوات، مثلما حدث في عام ٢٠٠٥، تزامن هذان التاريخان. وعلى غرار الاحتفالات الدينية الأخرى التي تأتي في أكثر أجزاء السنة ظلامًا، ينطوي هذان الاحتفالان على الضوء. يُسمَّى الهانوكا عيد الأنوار، وفي كل أمسية من الأمسيات الثماني، تُوقَد الشموع في الشمعدان. يوقد المسيحيون الشموع أيضًا، ويضعون الأنوار على شجرة عيد الميلاد. عيد الأنوار وعيد الميلاد هما أيضًا احتفالان اجتماعيان للغاية، تُصنع فيهما أطعمة معينة وتُنشَد أغانٍ خاصة بهما. يتبادل اليهود في أمريكا الشمالية الهدايا، مثلما يفعل المسيحيون في كل أنحاء العالم. ويهتم اليهود والمسيحيون بتقديم الهدايا إلى الأطفال.

غير أن انصهار عيد الميلاد مع الاحتفال اليهودي بعيد الأنوار هو ظاهرة حديثة وتحدث في أمريكا الشمالية في المقام الأول. وفقًا لجوناثان سارنا، أستاذ التاريخ اليهودي الأمريكي بجامعة براندايز، اعتاد اليهود تبادل الهدايا في عيد المساخر («البوريم») فقط، لكن في أواخر القرن التاسع عشر، حينما أصبح عيد الميلاد عيدًا قوميًّا في الولايات المتحدة، تحول منح الهدايا من عيد المساخر إلى عيد الأنوار. في أمريكا القرن العشرين، ولا سيما في أعقاب الهولوكوست، نزع اليهود إلى الاحتفال بعيد الأنوار على غرار عيد الميلاد. لم تحدث هذه التغيرات في أي بلد، ومنها إسرائيل، بأي درجة تداني ما نشهده في أمريكا الشمالية (روزنستوك، ٢٠١٠).

تقول ديان أشتون، مديرة قسم الدراسات الأمريكية بجامعة روان، مؤلفة كتاب «عيد الأنوار في أمريكا: لمحة تاريخية» (٢٠١٣) إن عادة تبادل الهدايا في عيد الأنوار نمت فعليًّا في خمسينيات القرن العشرين، استجابة لـ «حسد عيد الميلاد» عند الأطفال اليهود. فبدأ علماء نفس الأطفال اليهود والحاخامات في الترويج لتبادل الهدايا لجعل الأطفال اليهود سعداء بكونهم يهودًا، لا محزونين لأنهم لا يتلقَّون هدايا عيد الميلاد. وتظن أشتون أنه كان هناك حاخامان مؤثران بوجه خاص من مدينة سينسيناتي، كانا يكتبان في الصحف اليهودية القومية. «قال [أحد] الحاخامات إن الأطفال اليهود سوف ينعمون بعيد أنوار عظيمٍ ومجيد، احتفال بروعة أي عيد ميلاد، فيه أغانٍ ومسرحيات وإيقاد شموع، ومثلجاتٍ وحلوى. وبدَّل هذا عيدَ الأنوار بالفعل من مراعاة من جانب البالغين للشعائر اليهودية في المقام الأول إلى احتفال يُعتبر مهمًّا خصوصًا للأطفال اليهود، في مسعًى للحفاظ على اهتمامهم باليهودية» (صحيفة «روان توداي»، ٢٠٠٩).

قد يكون الميل إلى دمج عيد الأنوار وعيد الميلاد جديرًا بالثناء من حيث العلاقات الاجتماعية، ولا سيما على خلفية الإرث القبيح لمعاداة الساميَّة وتطاول عهدها. على أن هذا الانصهار قد يُخفي فروقًا مهمة بين التقليدين تستحق مراعاتها، كلٌّ في حد ذاته. بخلاف أوجه التشابه الظاهرية بين عيد الأنوار وعيد الميلاد؛ فإن الاحتفالَيْن مختلفان تمامًا في ثلاثة مظاهر على الأقل.

أولًا: عيد الميلاد هو الاحتفال بميلاد يسوع، الذي يؤمن المسيحيون بأنه الله؛ وبهذا الوصف، فهو واحد من أهم يومين في التقويم المسيحي، واليوم الآخر هو يوم عيد الفصح. أما عيد الأنوار فهو عيد يهودي صغير، وليس أحد الأعياد الكتابية السبعة التي أوصى بها الله شعب إسرائيل عن طريق موسى، وهي المسجلة في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر اللاويين. يحيي عيد الأنوار ذكرى انتصار المكابيين، المحاربين اليهود، على إمبراطورية أنطيوخوس الرابع اليونانية-السورية المستبدة عام ١٦٧ قبل الميلاد، وإعادة تدشين الهيكل في أورشليم بعد تحقيق ذلك النصر.

ثانيًا: ميلاد يسوع مُسجَّل في الكتاب المقدس المسيحي، لكن ثورة المكابيين وإعادة تدشين الهيكل ليسا مسجلَين في الكتاب المقدس العبري، الذي كُتِب قبل قرنين من الأحداث التي يحيي ذكراها عيد الأنوار.

ثالثًا: وهو الأهم أنه يوجد صدام أيديولوجي بين كُنْهَي عيد الميلاد وعيد الأنوار. يحتفل عيد الميلاد بمؤسس تقليد ديني بدأ يهوديًّا، لكن حينما أصبح هذا التقليد هو

الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، اضطهد اليهود. أما عيد الأنوار فيحيي ذكرى رفض اليهود في القرن الثاني قبل الميلاد الانصهار في الإمبراطورية اليونانية-السورية التي جاءت قبل الإمبراطورية الرومانية، حتى ولو كان الثمن هو حيواتهم. تُمثِّل الشموع على الشمعدان الأيام الثمانية التي ظل المصباح مضاءً خلالها إبان إعادة تدشين الهيكل بعد استعادته من القوات اليونانية-السورية التي كانت قد دنَّسته وقتلت اليهود لرفضهم عبادة الآلهة اليونانية. مِن ثَمَّ يمثل عيد الأنوار كفاح اليهود للبقاء مخلصين لإلههم وتقاليدهم، بدلًا من ممارسة عبادة أخرى. ومِن ثَمَّ، فخلط الاحتفال بعيد الأنوار مع الاحتفال بدين آخر لا معنى له تقريبًا. طرحت هذه المشكلةَ على الملأ في عام ٢٠١١، جوردانا هورن في مجلة «كفيلر»، وهي مجلة للآباء اليهود. وكانت حجتها الرئيسية هي:

> كان المكابيون يؤثِرون الموت على أن يمارسوا أي دين آخر غير دينهم؛ فلقد أدركوا أنهم لن يكونوا ولن يمكنهم أن يكونوا غير ما كانوا؛ أي يهودًا. وهذا التصميم على أن نكون مَن نحن، لا أحدًا آخر، هو ما نحتفل به عندما نحتفل بعيد الأنوار. عيد الأنوار ليس الهدايا، ولا الأغاني اليهودية التي لا تنفد على يوتيوب، وليس «روح العيد». ما نحتفل به، في رأيي، هو الشجاعة والتحدي في سبيل حماية يهوديتنا وهويتنا الحقيقية. «تلك» هي المعجزة الحقيقية. المعجزات هي أنوار هذه الهويات اليهودية للناس؛ إذ يكافحون ضد ظلام بقية العالم الذي يهدد بإفنائهم.
>
> عندما نضيء شمعدان عيد الأنوار، نضيئه في نوافذنا لنُظهر للعالم أننا فخورون بكوننا يهودًا «لا شيئًا آخر». نحتفل بمن نحن. نحتفل بأنه على الرغم من آلاف السنوات من الاضطهاد والكراهية، فإننا لا نزال هنا. سوف نعلِّم أولادنا من نحن، وهم بدورهم سيعلِّمون ذلك لأولادهم. نحن وارثو ميراث تاريخي لا يُقدَّر بثمن.

المراجع

Ashton, D. (2013) *Hanukkah in America: A History*, New York University Press, New York.

Horn, J. (2011) Actually, You Can't Celebrate Hanukkah AND Christmas, *Kveller,* December 14, www.kveller.com/blog/parenting/actually-

you-cant-celebratehanukkah-and-christmas (accessed January 7, 2014).

Rosenstock (2010) Chanuka Gift-giving, *San Diego Jewish Journal, December.* http://sdjewishjournal.com/site/1448/chanukah-gift-giving (accessed January 7, 2013).

Rowan Today (2009) Spin that dreidel: For American children, Hanukkah has become a festival of fun, December 9, www.rowan.edu/today/news/index/PR/2592 (accessed January 10, 2014).

قراءات إضافية

Olitzky, K. and Judson, D. (2006) *Jewish Holidays: A Brief Introduction for Christians*, Jewish Lights Publishing, Woodstock, VT.

الفصل الرابع

خرافات عن المسيحية، والمسيحيين، والكتاب المقدس المسيحي

(١) الأناجيل الأربعة هي روايات شهود عيان لحياة يسوع.
(٢) يقول الكتاب المقدس إنه حينما نموت تذهب أرواحنا إلى الجنة أو الجحيم.
(٣) وُلد يسوع يوم ٢٥ ديسمبر في حظيرة في بيت لحم.
(٤) كان يسوع مسيحيًّا.
(٥) كان يسوع يبشر بقيم الأسرة.
(٦) طالما كانت صورة يسوع المصلوب مقدسة عند المسيحيين.
(٧) قمعت الكنيسة العلم في العصور الوسطى.
(٨) الكاثوليك ليسوا مسيحيين.
(٩) أُسِّست الولايات المتحدة بوصفها دولة مسيحية.

مقدمة

يتفق معظم المفاهيم المغلوطة المطروحة في هذا الفصل، من قبيل تاريخ ميلاد يسوع ومكانه، مع وصف الخرافة بأنها سوء فهم للأحداث التاريخية. أوضح البحث العلمي المتأني حقيقة الكثير من مثل هذه المفاهيم الخاطئة دون التأثير جوهريًّا في المعتقدات الأساسية. من جهة أخرى، بعض المفاهيم الخاطئة مثل الادعاءات بأن يسوع كان يبشر بين الناس بالقيم الأسرية، وأن الولايات المتحدة أُسِّست بصفتها دولة مسيحية، لها انعكاسات مهمة على الحياة اليومية. أما الزعم بأن المسيحية قمعت العلم فهو مثال

للادعاءات التي استُخدمت لمناهضة المسيحية. على غرار بقية الخرافات المذكورة في هذا الكتاب، جميعها يثبت القوة الدائمة للقصص الجيدة.

(١) الأناجيل الأربعة هي روايات شهود عيان لحياة يسوع

متَّى، مرقس، لوقا، يوحنا
احرسوا فراشي الذي أستلقي فوقه:
أنتم أركان فراشي الأربعة
أنتم الملائكة الأربعة الذين يحيطون برأسي،
واحد يحرس وآخر يصلي
واثنان يحملان روحي بعيدًا.

(ترنيمة لأطفال الروضة في القرون الوسطى
فهرس رود للترانيم الشعبية، رقم ١٧٠٤)

يعكس نشيد رياض الأطفال هذا التبجيل العام للأناجيل الأربعة في الكتاب المقدس المسيحي، العهد الجديد. إن التسليم بالأناجيل «الكنسية» الأربعة — تلك المنسوبة إلى متَّى ومرقس ولوقا ويوحنا — شائع لدرجة أن عالِم الدراسات الدينية ستيفن بروذرو عبَّر عن صدمته من أن نصف البالغين الأمريكيين فقط كان بإمكانهم ذكر اسم «مجرد إنجيل واحد من الأناجيل الأربعة»، في كتابه الشهير «محو الأمية الدينية: ما يحتاج أن يعرفه كل أمريكي — ولا يعرفه» (٢٠٠٨). والحق أنه كانت هناك أناجيل أخرى كثيرة متداولة بين المسيحيين على مر القرون العديدة الأولى للمسيحية، وقد نجا الكثير منها حتى اليوم. وحدث في القرن الرابع فقط أن المرجعيات المسيحية الرومانية قصَرت الأناجيل رسميًّا على أربعة فقط، ومنعت بقية الأناجيل الأخرى. واكتُشف كثير من الأناجيل المحظورة مطمورة في جِرار مُحكمة الغلق في نجع حمادي بمصر عام ١٩٤٥. احتوت المجموعة على عدد من النصوص التي تُدعى الأناجيل الغنوصية، وهي قصص عن حياة يسوع وتعاليمه مسرودة من منظور أقلُّ ما يُقال عنه إنه يبدو غريبًا اليوم (انظر باجلز، ١٩٧٩).

حتى إن كان الناس لا يعرفون أسماء الأناجيل الكنسية الأربعة، فهناك مع ذلك اعتقاد شائع بأنها تنقل حكايات واقعية للأحداث في حياة يسوع على لسان أناس شهدوها. أكَّد هذا الفهم للأناجيل في السنوات الأخيرة، على سبيل المثال، عالِم العهد الجديد بجامعة

كمبريدج، ريتشارد بوكهام في كتابه «يسوع وشهود العيان: الأناجيل بوصفها شهادات شهود العيان» (٢٠٠٦). غير أن أغلبية علماء الكتاب المقدس يختلفون معه.

في القرنين الأول والثاني، ساعدت الأناجيل في انتشار الحركة الجديدة التي ستُصبح فيما بعد المسيحية. لفظة «إنجيل» مشتقة من الكلمة الإنجليزية القديمة التي تعني «البشارة». يبدأ إنجيل مرقس بآية: «بدء بشارة يسوع المسيح، ابن الله». وفقًا للأناجيل، يسوع هو «المسيَّا»، وهو مصطلح يُشير إلى ملك سوف يحرِّر شعب إسرائيل من مضطهديهم، واللفظة اليونانية لها هي «كريستوس»، بمعنى «الممسوح»، ومنها جاءت كلمة «كريست» (المسيح). ومع أن الرسائل الأساسية التي تنقلها الأناجيل الأربعة متشابهة، فهي تختلف اختلافًا كبيرًا في التفاصيل.

بالنظر إلى نُسَخ الأناجيل الأربعة لقصة النساء اللواتي زرن القبر الفارغ بعد موت يسوع. يخبرنا إنجيل مرقس أن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب، وسالومة ذهبن ليدهنَّ جسد يسوع. وفيما كن يقُلن فيما بينهن مَن يدحرج لنا الحجر عن باب القبر، تطلَّعن ووجدن الحجر قد دُحرج بالفعل. «وَلَمَّا دَخَلْنَ الْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ الْيَمِينِ لَابِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ.» طمأنهنَّ الشاب أن يسوع قام، وأخبرهنَّ قائلًا: «اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلَامِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ» (مرقس ١٦: ٥–٧). ويقول إنجيل متَّى إنه كانت هناك امرأتان في الصباح، لا ثلاث نساء، وعندما وصلتا القبر، إذا بزلزلة قد حدثت، وجاء ملاك، ودحرج الحجر عن الباب ليفتح القبر (متَّى ٢٨: ١–٤٠). وفي إنجيل لوقا، يزيد عدد النساء إلى خمسٍ على الأقل: «مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ، وَيُوَنَّا، وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ، وَالْبَاقِيَاتُ مَعَهُنَّ» (لوقا ٢٤: ١٠). ثم يتضاعف عدد الرجال/الملائكة: «إِذَا رَجُلَانِ وَقَفَا بِهِنَّ بِثِيَابٍ بَرَّاقَةٍ» (لوقا ٢٤: ٤). ولا يوجد ذكر للجليل في هاتين النسختين من القصة. ويقول إنجيل يوحنا إن مريم المجدلية ذهبت وحدها إلى القبر، وحينما رأت الحجر مرفوعًا عن القبر، لم تدخل، ولكنها ركضت إلى سمعان بطرس ويوحنا وأخبرتهما: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ» (يوحنا ٢٠: ١–٢). وركض سمعان بطرس ويوحنا إلى القبر، وهناك وجدا الأكفان الكتانية التي كان ملفوفًا بها جسد المسيح. ثم عادوا إلى البيت ومكثت مريم وأجهشت بالبكاء. عندئذٍ رأت ملاكين وشخصًا ظنت أنه البستاني الذي سألها عن سبب بكائها. وعندما نطق البستاني باسمها، أدركت أنه كان يسوع بالفعل الذي قام من الأموات (يوحنا ٢٠: ١٠–١٦).

ما تعليل الاختلافات بين هذه القصص؟ أوضح إجابة هي أن الإنجيليِّين (مؤلِّفي الأناجيل المفترَضين) لم يكونوا شهودَ عيانٍ للقصص التي كانوا يصفونها.

غالبًا ما يُعتقَد أن الأناجيل الكنسية الأربعة تبدو روايات شهود عيان؛ فهي تصف يسوع عن قرب بوصفه شخصًا حقيقيًّا يمشي بين جميع أنواع الناس، يأكل ويشرب معهم، ويعظ، ويشفي المرضى. وبالفعل، يُعرِّف الجزء الأخير من إنجيل يوحنا كاتب السفر بأنه «التِّلْمِيذ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ ... الَّذِي اتَّكَأَ عَلَى صَدْرِهِ وَقْتَ الْعَشَاءِ [الأخير] ... هَذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهَذَا وَكَتَبَ هَذَا» (يوحنا ٢١: ٢٠، ٢٤). ومِن ثَمَّ لم يكن غريبًا أن الناس نزعوا على مرِّ القرون إلى اعتبار أن الأناجيل الأربعة كتبها أصدقاء يسوع. بالمثل يظن كثيرون اليوم أن متَّى ومرقس ولوقا ويوحنا رسله، الرجال الاثنا عشر الأقرب إلى يسوع، أو على الأقل تلاميذه [أتباعه]. غير أننا لم نسمع عن أحد من الرسل أو التلاميذ اسمه مرقس أو لوقا. وفيما كان اثنان من الرسل يُسمَّيان متَّى ويوحنا، يتفق العلماء عمومًا على أن هذين الرجلين لم يكتبا إنجيلَي متَّى ويوحنا. علاوة على ذلك، وفي ضوء التضاربات الموجودة في التفاصيل، يتفق العلماء عمومًا على أنه ما من أحد من مؤلفي الأناجيل الأربعة المفترضين كان شاهد عيان حقًّا على الأحداث التي سجلها، أو حتى كان يعرف يسوع معرفة شخصية.

يعتقد العلماء في الواقع أن جميع الأناجيل كُتِبت بعد رحيل يسوع بعقود. ظهر إنجيل مرقس نحو عام ٧٠، وإنجيلا متَّى ولوقا في الثمانينيات على الأغلب، وإنجيل يوحنا بين عامي ٩٠ و١٠٠. وطُوِّرت القصص الواردة في الأناجيل على مرِّ عقود. ويحدد العلماء ثلاث مراحل لهذه العملية. كانت المرحلة الأولى هي المرحلة الشفهية: كان الناس يتناقلون بالمشافهة قصصًا عما قاله يسوع أو عمله. اشتملت هذه على روايات لعظاته، ومعجزاته، وصَلْبه، وقيامته. في المرحلة الثانية، دوَّن الناس قصصًا عن أقوال يسوع وأعماله. في المرحلة الثالثة، انتقى كُتَّاب الأناجيل مواد من القصص المكتوبة والمنطوقة، وصاغوها في البشارات. يتفق العلماء أيضًا على أن إنجيل مرقس كان أول ما كُتب من الأناجيل الأربعة. ويشيرون إلى أن إنجيلَي لوقا ومتَّى يقتبسان منه بكثافة؛ فمن إجمالي ٦٦١ آية في إنجيل مرقس، تظهر ٣٦٠ آية في إنجيل لوقا، و٦٠٦ آيات في إنجيل متَّى (هيلمز ١٩٨٨: ٣٥، ١٤٢). وهوية مرقس هذا مجهولة، وإن كان العلماء يتفقون على أنه لم يكن شاهد عيان للأحداث التي وصفها. يقول أحد التقاليد القديمة إن شخصًا يُدعى يوحنا مرقس (مذكور في سفر أعمال الرسل ١٢: ١٢ و١٥: ٣٧) ألَّف هذا الإنجيل حينما كان في روما يسجل عظات بطرس. يوحي بعضٌ من اختيارات المؤلف للألفاظ بأن الجمهور المقصود كان جمهورًا غير يهودي يعيش في إيطاليا.

وفقًا لتقليد مسيحي مبكر، كان مؤلف إنجيل لوقا طبيبًا، غير يهودي تحوَّل إلى المسيحية، وصديقًا لبولس، المؤلف الشهير للخطابات (الرسائل) الموجهة إلى المجتمعات المسيحية المتنوعة حول البحر المتوسط (انظر كولوسي ٤: ١٤، وتيموثاوس الثانية ٤: ١١، وفيلمون ٢٤). (إذا كان هذا صحيحًا، فربما تلقَّى مؤلف إنجيل لوقا معلومات من بولس، لكن بولس، مثله مثل لوقا، لم يلتَقِ يسوع قطُّ.) وكلاهما انضم إلى الحركة الجديدة بعد موت يسوع بسنوات؛ مِن ثَمَّ يعتقد العلماء أن أيًّا منهما لم يشهد الأحداث التي يصفانها.

يقول العلماء إن إنجيل متَّى كُتب على الأرجح في مجتمع يهودي-مسيحي في سوريا بين عامي ٨٠ و٩٠. وهم يعتقدون أن مؤلفه، على غرار مؤلف إنجيل لوقا، اقتبس مواد من مجموعة من أقوال يسوع مفقودة الآن. يطلق العلماء على هذه المجموعة «كيو» اختصارًا لكلمة «كويلا» الألمانية التي تعني «مصدر». وكما الحال مع لوقا، من المستبعد أن يكون شخص لازَم يسوع في تنقلاته واستمع إلى عظاته في حاجة إلى الاعتماد على مصدر ثانوي مثل «كيو».

لكن ماذا عن إنجيل يوحنا، ذلك الإنجيل الذي يُشير إلى أن مؤلفه هو القديس يوحنا الرسول؟ على مدار معظم التاريخ، سلَّم المسيحيون بذلك الادعاء. لكن هل كان بإمكان يوحنا الرسول حقًّا كتابة هذا الإنجيل؟ يختلف إنجيل يوحنا تمام الاختلاف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى التي يُطلَق عليها الأناجيل «السينوبتية» (أي المتشابهة) من الكلمتين اليونانيتين اللتين تعنيان «معًا» و«مظهر»، نتيجة للتشابهات الشديدة بينها. أحيانًا ما تضم الكتب التي تتناول العهد الجديد ثلاثة أعمدة متوازية لعرض المثل نفسه أو العظة أو الخبر عن يسوع كما يظهر في أناجيل متَّى ومرقس ولوقا. تتفق هذه الأناجيل عمومًا على ترتيب الأحداث في خدمة يسوع العامة أيضًا. إلا أن إنجيل يوحنا، على عكس الأناجيل المتشابهة، ينفرد دون سواه بتسعين في المائة من محتواه. وبينما تحتوي الأناجيل الأخرى على الكثير من الأمثال، لا يحتوي إنجيل يوحنا على أيٍّ منها. ويختلف تأريخ أحداث خدمة يسوع في إنجيل يوحنا أيضًا عن ذلك الوارد في تلك الأناجيل. يكتب يوحنا عن كثير من أعياد الفصح اليهودي، على نحوٍ يجعل خدمة يسوع تبدو ثلاث سنوات، بينما تتحدث الأناجيل المتشابهة عن عيد فصحٍ يهودي واحد فقط، مغطية سنة واحدة فقط من خدمة يسوع. ويحكي يوحنا عن قصة يسوع وهو يطرد الصيارفة من الهيكل (في إصحاح ٢: ١٣–١٦) في بداية خدمة يسوع. أما مرقس ومتَّى ولوقا، فكلهم يقولون إن هذا الحدث وقع في الأسبوع الأخير من حياة يسوع (مرقس ١١: ١٥–١٧؛ متَّى ٢١: ١٢–١٣؛ لوقا ١٩: ٤٥–٤٦).

ولعل الأمر الأهم في إنجيل يوحنا هو أن تصوير يسوع يختلف اختلافًا عميقًا عما هو موجود في الأناجيل الثلاثة الأخرى؛ فالأناجيل الثلاثة تشير إلى يسوع بوصفه ابن الله، لكنها تذكر أنه وُلد بشرًا. في إنجيل يوحنا، يسوع مكتمل الألوهية، ومِن ثَمَّ هو موجود منذ الأزل. يسوع هو «لوجوس»، بمعنى «الكلمة»، وهو مفهوم من الفلسفة الإغريقية مشابه لـ «أشكال أفلاطون» — المخططات الذهنية التي يستخدمها الخالق ديميرج لصنع الأشياء في العالم:

> فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ الله. هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. (يوحنا ١: ١–٣)

في ضوء هذا الوصف الفريد ليسوع، يستنتج العلماء الحدثاء أن إنجيل يوحنا يقدِّم «كريستولوجيا» (فهم طبيعة يسوع المسيح) متأثرة بالفلسفة اليونانية التي انبثقت بعد موت يسوع، وفي بيئة شديدة الاختلاف عن البيئة التي عاش فيها رفاق يسوع المقربون.

بيد أن الزعم بأن الأناجيل لم يكتبها شهود على الأحداث التي وصفوها، لا ينبغي أن يثير قلق المؤمنين، لأن ذلك ليس غرضها. «لا تزعم [الأناجيل] أنها روايات شهود عيان» لحياة يسوع، كما يقول عالم العهد الجديد بكلية اللاهوت بجامعة هارفارد، آلين دي كالاهان (١٩٩٨). إنما غرضها هو نقل رسائل عن تعاليم يسوع بطرق تُلهم مستمعيها وتقنعهم وتشجعهم. لكن جماهير الإنجيليين كانوا يختلفون أحدهم عن الآخر، وبدا أن المؤلفين كانوا يتعاملون مع الظروف الخاصة لكلٍّ من هذه المجتمعات المتنوعة. على سبيل المثال، كان إنجيل متَّى موجهًا إلى اليهود في المقام الأول؛ ولذا يصف يسوعَ باعتباره متمم نبوات العهد القديم، مثل النبوءة القائلة إن المسيَّا سوف ينحدر من نسل داود الملك. كان موطن داود هو بيت لحم؛ ولذا في هذا الإنجيل يُولد يسوع في بيت لحم. ويقول هذا الإنجيل أيضًا إن مريم كانت عذراء، «كَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: «هُوَ ذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اللهُ مَعَنَا)» (متَّى ١: ٢٢–٢٥). وفي خدمة يسوع بين الناس كما ورد في هذا الإنجيل، تدعوه الجموع «رابي»، وهي الكلمة العبرية لكلمة معلم. وعلى النقيض، كان إنجيل لوقا موجَّهًا في المقام الأول إلى غير اليهود، الناطقين باليونانية، الذين لم يكونوا على دراية بالكتاب المقدس العبري ونبوءاته. ولذا يضم هذا الإنجيل اقتباسات قليلة من الكتاب المقدس العبري، وقلَّما يذكر أن يسوع يحقق

نبوءات. وبدلًا من أن تنادي الجموعُ يسوع بكلمة «رابي»، يذكر مؤلف إنجيل لوقا أنهم كانوا ينادونه بالكلمة اليونانية المقابلة لكلمة «السيد».

مرة أخرى، لا تقلل الاختلافات في تفاصيل قصص يسوع التي تحويها الأناجيل الكنسية الأربعة، ولا الأسئلة التي يثيرها العلماء حول هوية مؤلفيها من صحة رسائل هذه الروايات. من وجهة نظر العلماء الحدثاء، هي تشير ببساطة إلى أن هذه الحكايات لم يكن مقصودًا بها أن تكون تسجيلًا حرفيًّا للتاريخ. ولولا ذلك، لما كان من المحتمل أن تختار المرجعيات الكنسية التي انتقت هذه الروايات الأربع من بين الروايات الكثيرة التي كانت متاحة أربع نسخ مختلفة؛ فالحقائق التي تنقلها تسمو على تفاصيل من قبيل الزمان والمكان المحددين لميلاد يسوع، وعدد النساء عند القبر.

المراجع

Bauckham, R. (2006) *Jesus and the Eyewitnesses: The Gospels as Eyewitness Testimony*, Wm. B. Eerdmans, Grand Rapids, MI.

Callahan, A.D. (1998) What Are the Gospels? *PBS Frontline,* www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/religion/story/gospels.html (accessed January 8, 2014).

Helms, R. (1988) *Gospel Fictions*, Prometheus Books, Amherst NY.

Pagels, E. (1979) *The Gnostic Gospels*, Vintage Books, New York.

Prothero, S. (2008) *Religious Literacy: What Every American Needs to Know–And Doesn't*, HarperOne, New York.

(٢) يقول الكتاب المقدس إنه عندما نموت تذهب أرواحنا إلى الجنة أو الجحيم

الآن أضطجع لأنام.
أدعو الله أن يحفظ نفسي.

وإن كان لي أن أموت قبل الاستيقاظ.
فلتسكن روحي عند الرب.

(صلاة للأطفال)

حينما يموت أحد أفراد العائلة، ويتساءل طفل صغير عما حدث، من الشائع قول شيء من قبيل: «لقد صعدت الجدة إلى السماء.» وإن كان الطفل مرتبكًا في البيت الجنائزي حيث جسد الجدة في داخل الصندوق، فقد نضيف شيئًا من قبيل:

ذلك «جسد» الجدة الذي في الصندوق. «روحها» هي التي صعدت إلى السماء.
مات جسدها، لكن روحها لا يمكن أن تموت. ستحيا روحها إلى الأبد مع الله.

بيلي جراهام (ميتشام، ٢٠٠٦)، أنجحُ إنجيليٍّ في العصر الحديث، هو مثال جيد لفهم الموت من هذا المنطلق؛ ففي حوار له مع مجلة «نيوزويك»، قال: «أنا لا أخشى الموت. قد يساورني قليل من الخوف من العملية، لكن ليس الموت نفسه، لأنني أومن أنه في اللحظة التي تفارق فيها روحي جسدي، سأكون في محضر الرب.»

كثيرًا ما تردد على مسامع الكثير من الناس هذا الوصف للموت بأنه صعود الروح إلى السماء، لدرجة أنهم يفترضون أنه مذكور في الكتاب المقدس. ليس مذكورًا. ما من كاتب في العهد القديم أو الجديد يذكر حتى كلمة الروح في وصف الموت. ولم يعتبر أيٌّ منهم الروح خالدة بطبيعتها؛ أي لا يمكن أن تموت.

كما رأينا في الخرافة الثانية في الفصل الثاني، الكلمات الكتابية التي تُتَرجم إلى «روح» — «روَح» و«نِفِش» في اللغة العبرية، و«سبيري» و«نِوْما» في اللغة اليونانية — هي الكلمات «هواء» و«ريح» و«نَفَس». ينطبق هذا على كلمة «روح» في معظم اللغات. واليوم، في الغالب، نفكر في «النفس» أو «الروح» على أنها شيء غير مادي، لكن كُتَّاب الكتاب المقدس لم يفعلوا ذلك. في الكتاب المقدس، الروح هي صنف رقيق وخفيف جدًّا من المادة، مثل ما نطلق عليه الآن غازًا. روح الإنسان أو نفسه هي ما تجعله حيًّا. وكما الحال في ثقافات أخرى قديمة، أغلب الظن أن العبرانيين فكروا بهذه الطريقة؛ لأنهم لحظوا أن الفرق بين الحي والميت هو أن الحي يتنفس. مِن ثَمَّ فالنَّفَس، أو الروح، أو النفْس هو ما يجعلك حيًّا. والنَّفَس ليس خالدًا بالطبع؛ فهو يفنى عند الموت مثلما يفنى أي شيء آخر

يخص الشخص. بحسب وصف الموتى في العهدين القديم والجديد، هم لا يذهبون إلى أي مكان، وبالطبع ليس إلى السماء ليكونوا بمعية الله. بدلًا من ذلك، كما يعبر بعض كُتاب الكتاب المقدس بأسلوب ملطف: «هم يرقدون في التراب.» كان كاتب سفر الجامعة (٩: ٢–٦) أكثر فظاظة:

> الْكُلُّ عَلَى مَا لِلْكُلِّ. حَادِثَةٌ وَاحِدَةٌ لِلصِّدِّيقِ وَلِلشِّرِّيرِ لِلصَّالِحِ وَلِلطَّاهِرِ وَلِلنَّجِسِ ... هَذَا أَشَرُّ كُلِّ مَا عُمِلَ تَحْتَ الشَّمْسِ: أَنَّ حَادِثَةً وَاحِدَةً لِلْجَمِيعِ ... لِكُلِّ الأَحْيَاءِ يُوجَدُ رَجَاءٌ فَإِنَّ الْكَلْبَ الْحَيَّ خَيْرٌ مِنَ الأَسَدِ الْمَيِّتِ. لأَنَّ الأَحْيَاءَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ سَيَمُوتُونَ أَمَّا الْمَوْتَى فَلَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ بَعْدُ لأَنَّ ذِكْرَهُمْ نُسِيَ. وَمَحَبَّتُهُمْ وَبُغْضَتُهُمْ وَحَسَدُهُمْ هَلَكَتْ مُنْذُ زَمَانٍ وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ فِي كُلِّ مَا عُمِلَ تَحْتَ الشَّمْسِ.

يرى أيضًا سفرا المزامير وأيوب، ومعظم أسفار الكتاب المقدس العبري الأخرى الموت على أنه فناء دائم للإنسان. لا يذكر الله نفسه شيئًا عن الحياة بعد الموت في الكتاب المقدس. بل على العكس، يقول لآدم: «لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (سفر التكوين ٣: ١٩).

وحدث فقط لاحقًا في الكتاب المقدس العبري أن رؤيتين نبويتين قدَّمتا رجاءً بأن يكون ممكنًا إبطال فناء الموت. واحدة في سفر أشعياء (٢٦: ١٤–١٥)، حيث تشير الآية الأولى على ما يبدو إلى الشعب الذي كان يقمع الإسرائيليين:

> هُمْ أَمْوَاتٌ لَا يَحْيَونَ. أَخْيِلَةٌ لَا تَقُومُ. لِذَلِكَ عَاقَبْتَ وَأَهْلَكْتَهُمْ وَأَبَدْتَ كُلَّ ذِكْرِهِمْ.

ثم بعدها ببضعة أسطر في الآية ١٩، توجد نبوءة تُبشر بشيء أفضل للإسرائيليين:

> تَحْيَا أَمْوَاتُكَ. تَقُومُ الْجُثَثُ.
> اسْتَيْقِظُوا. تَرَنَّمُوا يَا سُكَّانَ التُّرَابِ.
> لأَنَّ طَلَّكَ طَلُّ أَعْشَابٍ،
> وَالأَرْضُ تُسْقِطُ الأَخْيِلَةَ.

توجد الفقرة الأخرى حول القيامة المستقبلية — لبعض الإسرائيليين — في بداية الإصحاح الثاني عشر من سفر دانيال، في رؤية حول نهاية العالم:

> وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَقُومُ مِيخَائِيلُ [أحد الملائكة] الرَّئِيسُ الْعَظِيمُ الْقَائِمُ لِبَنِي شَعْبِكَ وَيَكُونُ زَمَانُ ضِيقٍ لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يُنَجَّى شَعْبُكَ كُلُّ مَنْ يُوجَدُ مَكْتُوبًا فِي السِّفْرِ. وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ.

في القرن الأول الذي عاش فيه يسوع، كان هناك جدل كبير بين اليهود حول ما إذا كانت هذه الرؤى النبوية تبرر اعتقاد قيامة الأموات. تمسكت إحدى الجماعات، وهي جماعة الصدوقيين، بوجهة النظر التقليدية القائلة إن الموت هو فناء أبدي. اعتنقت جماعة أخرى، وهي جماعة الفريسيين، وجهة نظر أكثر تفاؤلًا بأنه في نهاية العالم سوف يبعث الله الموتى، ويحاسبهم، ويكافئهم أو يعاقبهم. نادى يسوع بهذه الفكرة نفسها عن القيامة والدينونة الأخيرة، متبوعة بثواب وعقاب. ومع ذلك، في جميع إشاراته إلى القيامة، لا يقول يسوع أبدًا إن الأرواح هي ما سوف يكون في السماء أو الجحيم. كان تعليمه يقول إن الأشخاص سوف يُقامون من الموت، ويُدانون، ويُكافَئون أو يعاقَبون. من وجهة نظر يسوع، كما من وجهة نظر يهود آخرين عاشوا في القرن الأول، الإنسان وحدة متكاملة، جسد تحركه قوة حياة، روح. ولا يقول أبدًا إن الروح يمكن أن توجد بمعزل عن الجسد، أو إن الروح خالدة بطبعها، أو حتى إن بإمكان روح أن تسافر إلى السماء حيث تمثل كينونة الإنسان في السماء — كل هذه الأمور التي اعتاد على زعمها المسيحيون الذين أتوا فيما بعدُ.

إذا لم تكن فكرة ذهاب الأرواح الخالدة إلى السماء نابعة من الكتاب المقدس العبري أو من العهد الجديد، فكيف صارت مقبولة من المسيحيين فيما بعدُ؟ الإجابة أنها تسلَّلت إلى المسيحية مع اكتساب الحركة الجديدة مزيدًا من الأعضاء الذين كانوا متأثرين بالفلاسفة اليونانيين، ولا سيما أفلاطون. كما رأينا، كان أفلاطون يعتقد أن البشر يتألفون من جزأين، أحدهما أساسي والآخر غير أساسي. يُعرَف هذا بالثنائية. أما الجزء الأساسي فهو الروح أو العقل، الخالد بالطبيعة — وهو في حد ذاته يحيا إلى الأبد. وأما الجزء غير الأساسي، وهو الجسد، فيفنى بالموت. لكن الإنسان يواصل الحياة لأن الروح تواصل الحياة. وفيما يخص ما يحدث للروح حين الموت، كان لدى اليونانيين تخمينات عدة. كما الحال في الفكر الهندي، قال كثيرون إنها تتجسد مرة أخرى في جسد جديد على الأرض.

خلال القرون الأربعة الأولى بعد الميلاد، تحوَّل المفكرون المسيحيون بالتدريج من الأفكار الكتابية عن الحياة بعد الموت إلى الأفكار الثنائية، الأفلاطونية. وكان أعظمهم تأثيرًا أوغسطينوس، أسقف هيبو (٣٥٤–٤٣٠)، الذي ذكر أمورًا لو سمعها يسوع لأدهشته، مثل أن الإنسان هو «روح عقلانية تستخدم جسدًا فانيًا ودنيويًّا.» وبحلول العصور الوسطى، كان المسيحيون يتحدثون عن الأرواح الخالدة التي تذهب إلى السماء حين الموت. وكان نحو ١٠٠٠ مسيحي تقريبًا يحتفلون بـ «عيد جميع الأرواح» في الثاني من نوفمبر، كي يعقب «عيد جميع القديسين» الذي يُحتفل به في الأول من نوفمبر. ينطوي كلا العيدين المقدَّسين على التفكير في الأرواح كما لو كانت مكافئة للأشخاص. ويتضمن كلاهما أيضًا فكرة أنه قبلما يقيم الله الأموات؛ فإن الأموات يكونون بطريقة ما أحياءً في السماء والمَطْهر [وفقًا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، المَطْهَر هو مكان للعقاب، حيث قد تكفِّر أرواح أولئك الذين ماتوا وهم في نعمة المسيح عن خطايا ماضيهم، ومِن ثَمَّ تتقدس من أجل السماء]. لو سمع كُتَّاب الكتاب المقدس العبري والعهد الجديد هذه الأفكار لأدهشتهم؛ فهم اعتبروا أن الموتى «يرقدون في التراب» وليسوا أرواحًا ترحل إلى السماء أو الجحيم.

المراجع

Meacham, J. (2006) Pilgrim's Progress, *Newsweek,* August 13.

قراءات إضافية

Cullman, O. (1965) *Immortality and Resurrection: Death in the Western World: Two Conflicting Currents of Thought*, Macmillan, London.

(٣) وُلد يسوع يوم ٢٥ ديسمبر في حظيرة في بيت لحم

في المِذْوَد نام يسوع الحبيب. ونجوم السماء المتلألئة تتطلع إلى حيث يرقد،
الطفل يسوع نائمًا في مِذْوَده. (إحدى أغاني عيد الميلاد من القرن التاسع عشر)

في نهاية شهر ديسمبر تقيم آلاف الكنائس وملايين العائلات المذاود — نماذج مجسمة لحظيرة تعتني فيها مريم ويوسف بالطفل يسوع في مذود. ويحيط بهم حيوانات المزرعة،

بالإضافة إلى حكماء المجوس الثلاثة الذين أرشدهم نجم إلى مكان الحظيرة. هذه صورة خلابة، لكن علماء الدين والمسيحيين المتبصرين، سواء من الليبراليين أو المحافظين، يقولون إن هذه الصورة مليئة بتفاصيل تخيلية لا توجد في الكتاب المقدس.

يدرك معظم الناس أن يسوع لا يعرف شيئًا عن أشجار عيد الميلاد، ونبات الهدال، وبابا نويل. وعدد أقل بكثير من الناس هم من يفطنون إلى أن يسوع لم يعرف قصة الميلاد المقدمة من خلال المذود أيضًا. بدأت قصص الميلاد مع إنجيلَي لوقا ومتَّى، اللذين كُتِبا بعد ٨٠ عامًا على الأقل من ميلاد يسوع. لم يُقابل كاتبا كلٍّ من إنجيلَي لوقا ومتَّى يسوع قطُّ، ومِن ثَمَّ لم يتلقيا معلوماتهما منه، لكن كلًّا منهما يقدم قصصه باعتبارها تأريخًا مباشرًا، وتلك هي الكيفية التي لا يزال كثير من المسيحيين اليوم يفهمونها بها.

ومع ذلك، فلو حاولنا قراءة إنجيلَي متَّى ولوقا على اعتبارهما تاريخًا، فسنواجه مشكلات. إحداها طريقة اقتفائهما سلسلة نسب يسوع وصولًا إلى الملك داود. يُدرِج إنجيل متَّى ٢٨ جيلًا بين داود ويسوع، لكن إنجيل لوقا به ٤١ جيلًا في فترة الأعوام الألف ذاتها. ويستهل كل إنجيل سلسلة النسب فيه بيوسف باعتباره والد يسوع، لكن إنجيل متَّى يدَّعي أن والد يوسف هو يعقوب، بينما يقول إنجيل لوقا إن والد يوسف هو هالي. ويُواصل إنجيل متَّى من يعقوب سلسلة نسبه بمتان، وأليعازر، وأليود، وأخيم، وصادوق، وعازور، وألياقيم، وأبيهود، وهكذا. أما إنجيل لوقا فيواصل سلسلة نسبه من هالي بمتثات، ولاوي، وملكي، وينا، ويوسف، ومتاثيا، وعاموص، وناحوم، وهكذا. في الطرف الآخر من سلسلة النسب، يُدرِج متَّى الملك داود، ثم سليمان، ورحبعام، وأبيًّا، وآسا، ويهوشافاط، وهكذا. وللأجيال نفسها يدرج إنجيل لوقا الملك داود، ثم ناثان، ومتاثا، ومينان، وموليا، وألياقيم، وهكذا.

مع هذه التناقضات الهائلة، لا يمكن أن تكون سلالتا النسب صحيحتين معًا، وإن كان من الممكن بالطبع أن تكونا خاطئتين معًا. ولَمَّا كنا لا نملك سببًا وجيهًا لنؤثِر إحداهما على الأخرى، فليس لدينا سبب وجيه لنقبل أيًّا منهما بوصفها تأريخًا. لماذا إذًا يُفترض بنا التسليم بأن التفاصيل الأخرى الخاصة بميلاد يسوع في إنجيلَي متَّى ولوقا تأريخ؟

يعود أقدم تأريخ للاحتفال بميلاد يسوع في ٢٥ ديسمبر إلى عام ٣٣٦ تقريبًا؛ إذ بدأ المسيحيون يكتسبون القوة في الإمبراطورية الرومانية. بدأ أولئك الموجودون في روما الاحتفال بعيد ميلاد المسيح في ٢٥ ديسمبر. يقول لنا المؤرخون إن الرومان كانوا يحتفلون بأعياد دينية أخرى في أواخر ديسمبر، مِن ثَمَّ كان هذا توقيتًا جيدًا لوضع عيد مسيحي في التقويم.

لحظ علماء المسيحية منذ القرن الثامن عشر التشابهات بين المهرجانات الرومانية وبين عيد الميلاد. قال السير إسحاق نيوتن (المتوفَّى عام ١٧٢٧) إن المسيحيين الأوائل اختاروا الخامس والعشرين من ديسمبر ليتزامن مع الانقلاب الشتوي، وهو أقصر نهار في السنة، ترتفع بعده الشمس شيئًا فشيئًا في السماء ويزداد النهار طولًا. وفي عام ١٧٤٣، أشار بول إرنست جابلونسكي إلى أن المسيحيين جعلوا عيدهم يواكب «عيد ميلاد إله الشمس الذي لا يُقهر» الروماني. وزاد عالم الخرافات جيمس فريزر (2005: xxxvii) في هذا الشرح في مطلع القرن العشرين، معلقًا: «هكذا، يبدو أن الكنيسة المسيحية اختارت الاحتفال بعيد ميلاد مؤسسها في الخامس والعشرين كي تحوِّل عبادة الوثنيين من الشمس إلى المسيح الذي كان يُسمَّى شمس البِر.»

كان عيد ميلاد «إله الشمس الذي لا يُقهر» في الخامس والعشرين من ديسمبر يصادف عيدًا مخصصًا للإله ميثرا الذي كان يُعبَد في الهند بدءًا من عام ٦٠٠ تقريبًا قبل الميلاد. انتقلت عبادة ميثرا إلى بلاد فارس، ثم جنوب غرب آسيا (تركيا حاليًّا). وفي عام ٢٠٠ بعد الميلاد، كانت الديانة الميثرانية شائعة بين الجنود الرومانيين في الأراضي الجرمانية الذين كانوا يُستقدَمون من جنوب غرب آسيا. في بعض الأحيان كان ميثرا يُمثَّل بشجرة دائمة الخضرة، وربما تعود أصول الشجرة التي نتخذها لعيد الميلاد وكان منشؤها ألمانيا إلى شجرة ميثرا (فيرماسيرن، ١٩٦٣: ٧٥).

في الأسبوع الذي يسبق يوم ٢٥ ديسمبر، كان الرومانيون يحتفلون بعيد ثالث، ألا وهو الساتورناليا، المخصَّص للإله ساتورن. وصف الشاعر الروماني كاتولوس الساتورناليا بأنه أفضل وقت في العام، فيه تُقام الولائم، ويتزاور الأصدقاء، وتُقدَّم الهدايا؛ ولذا، فالمزاج المبهج الذي نربطه بعيد الميلاد له مثيل روماني قديم. شجب المسيحيون الذين كانوا يعارضون هذه الروح، مثل البيوريتانيين، الاحتفالَ بعيد الميلاد. كتب القس إنكريز ميذر من بوسطن (١٦٨٧: ٣٥) أن «المسيحيين الأوائل الذين كانوا أول من احتفل بعيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر، لم يفعلوا ذلك، ظنًّا منهم أن المسيح قد وُلد في هذا الشهر، وإنما لأن عيد الوثنيين، ساتورناليا، كان يُقام في هذا الوقت في روما، وقد أرادوا أن يحيلوا تلك الأعياد الوثنية أعيادًا مسيحية.» (انظر نيسنباوم، ١٩٩٧: ٤). وبسبب أصول الكريسماس الوثنية، حرمه البيوريتانيون، وقد كان الاحتفال به غير مشروع في ولاية ماساتشوستس من عام ١٦٥٩ حتى عام ١٦٨١.

بينما يتناسب الاحتفال بعيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر جيدًا مع التقويم الروماني؛ فإنه لا يتفق مع ما جاء في إنجيل لوقا (٢: ٨)، الذي يقول إنه عندما وُلد يسوع «كَانَ فِي

تِلْكَ الْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ.» والرعاة لا يعيشون في الحقول ويرعون غنمهم في الشتاء، لأن العشب والخضرة تكون جفت بحلول هذا الوقت. وإنما يعتمدون بدلًا من ذلك على التبن المقصوص في وقت مبكر من الموسم.

علاوة على ذلك، لم يأتِ أيٌّ من الأناجيل الكنسية التي تتناول قصة ميلاد يسوع على ذكر كلمة حظيرة، وإن كان إنجيل لوقا (٢: ٧) يقول إن أمه «قَمَّطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي الْمِذْوَدِ.» يُحتمل أن يكون هذا المذود في حظيرة، وإن كان في كثير من اللوحات المسيحية في كهف. بنى الإمبراطور قسطنطين كنيسة المهد في بيت لحم عام ٣٣٠، بالضبط فوق البقعة التي يُعتقد أن يسوع وُلد فيها. وهذه البقعة موجودة بكهف تحت الكنيسة.

ولعل الأمر الأهم من ذلك أن العلماء يتشككون في الزعم بأن يسوع وُلد في بيت لحم، تلك البلدة التي تبعد ستة أميال جنوب أورشليم. ورد هذا في إنجيلَي متَّى ولوقا. على أن الإنجيلين لا يتفقان على ما كان يفعله مريم ويوسف في بيت لحم. يذكر متَّى أن الملك هيرودس أراد قتل يسوع الرضيع، وأمر بذبح جميع الأطفال الذين يبلغون أقل من عامين حول بيت لحم. ولَمَّا حذر ملاكٌ يوسف في حلم، فر بالصبي ومريم إلى مصر. وبعد موت هيرودس، أوحى حلم آخر ليوسف بالرجوع (متَّى ٢: ٦–٢٣). لكن لوقا يقول إن يوسف ومريم كانا في الواقع من الناصرة التي تبعد ٩٠ ميلًا شمالًا. ويقول إنهما فقط ذهبا إلى بيت لحم بناءً على أوامر من الإمبراطور الروماني أوغسطس، الذي أراد إجراء إحصاء للسكان في بلدان أجدادهم. لا توجد سجلات تاريخية تشير إلى إجراء إحصاء للسكان في أنحاء الإمبراطورية الرومانية تحت حكم القيصر أوغسطس. ولا توجد أدلة تاريخية تشير إلى أن الرومان أجروا إحصاءً للسكان بالطريقة التي يصفها لوقا — بجعل الناس يسافرون إلى مَواطن أجدادهم للتسجيل. الغرض من الإحصاء السكاني هو حساب تعداد السكان حيثما يعيشون ويعملون حتى يمكن فرض الضرائب عليهم.

ومما يطعن في صحة الزعم بأن يسوع وُلد في بيت لحم في «يهودا» أيضًا العمل الأثري هناك الذي أظهر قدرًا لا بأس به من المواد التي تعود إلى الفترة ما بين عامي ١٢٠٠ و٥٥٠ قبل الميلاد، ومن القرن السادس الميلادي، لكنها لم تُظهر شيئًا من القرن الأول قبل الميلاد أو القرن الأول الميلادي. بحَث أفيرام أوشري (٢٠٠٥)، كبير الأثريين مع هيئة الآثار الإسرائيلية، موقع مدينة بيت لحم لما يزيد على عشر سنوات، وأورد أنها لم تكن مدينة فعالة طوال قرون قبل ميلاد يسوع وبعده. كتب أوشري في دورية «أركيولوجي»، التي تصدر عن معهد الآثار الأمريكي: «ثمة غياب تام للمعلومات عن آثار من الفترة

الهيرودية؛ أي من الحقبة التي وُلد فيها يسوع تقريبًا» (أوشري، ٢٠٠٥: ٤٢). على أنه من المهم بصورة واضحة للإنجيليين الذين كتبوا الأناجيل أن يكون يسوع قد وُلد في بيت لحم، أيًّا ما كانت البلدة التي ينتمي إليها أبواه، لأن بيت لحم كانت مَوْطن داود الملك. ووفقًا لمتَّى ولوقا، كان يسوع هو المسيَّا، وكان متوقعًا أن يأتي المسيَّا من نسل داود الملكي. أضاف متَّى نبوءة من سفر ميخا (٥: ٢): «وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ» (متَّى ٢: ٦). وعليه يخبرنا لوقا أيضًا:

> فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ. لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى (لوقا ٢: ١–٥).

من المستبعد أن يؤثر مثل هذا الجدل المثار حول التفاصيل التاريخية في التقليد الثمين للاحتفال بميلاد يسوع في حظيرة في الشتاء في بيت لحم. الأمر المهم للمسيحيين هو أنه وُلد من أجل مهمة مقدسة، وذلك ما يضرب مثالًا مكتملًا لمفهوم الخرافة العلمي — الإيمان بشيء مشكوك في دقته التاريخية لكنه ينقل حقيقة راسخة.

المراجع

Frazer, J. (2005) *The Golden Bough: A Study in Magic and Religion*, Cosimo, New York.

Mather, I. (1687) *A Testimony against Several Prophane and Superstitious Customs, Now Practiced by Some in New England*, London.

Nissenbaum, S. (1997) *The Battle for Christmas: A Cultural History of America's Most Cherished Holiday*, Vintage Books, New York.

Oshri, A. (2005) Where was Jesus Born? Archaeology 58 (6), 42–45.

Vermaseren, M.J. (1963) *Mithras the Secret God*, Barnes & Noble, New York.

قراءات إضافية

Crossan, J.D. (2004) *Jesus: A Revolutionary Biography*, HarperSanFrancisco, San Francisco.

(٤) كان يسوع مسيحيًّا

> وُلد يسوع المسيح نحو عام ٦ قبل الميلاد في بيت لحم. وقلَّما نعرف عن حياته المبكرة، لكنه في شبابه أسس المسيحية، إحدى أكثر ديانات العالم انتشارًا. (biography.com (على الإنترنت))

منذ بضع سنوات، نشر رئيس الأساقفة الأنجليكاني ديزموند توتو حائز جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٨٤، كتابًا عنوانه «الله ليس مسيحيًّا» (٢٠١١). وكان من الممكن أن يضيف إلى هذا الكتاب فصلًا بعنوان «يسوع ليس مسيحيًّا هو أيضًا». يَعتبر كثير من المسيحيين أن يسوع مؤسِّس ديانة جديدة تُدعى «المسيحية». لكنه لم يستخدم قطُّ لفظتي «المسيحية» أو «مسيحي»، لأنهما لم يكن لهما وجود إلا بعد رحيله.

كلمة «المسيح» مستمدة من الكلمة اليونانية كريستوس، التي تعني «الممسوح». وهي ترجمة الكلمة العبرية «مسيًّا»، التي تعني الملك الآتي من نسل داود الملك الذي قالت عنه النبوءات إنه يخلِّص شعب إسرائيل من أعدائه. تسمية يسوع «المسيح» تعني أنه هو «المسيًّا».

في العهد الجديد، تتكرر لفظة «مسيحي» ثلاث مرات فقط، في روايات لأحداث وقعت بعد رحيل يسوع. يقول سفر أعمال الرسل (١١: ٢٦): «وَدُعِيَ التَّلَامِيذُ «مَسِيحِيِّينَ» فِي أَنْطَاكِيَةَ [سوريا] أَوَّلًا». ثم في سفر أعمال الرسل (٢٦: ٢٨–٣١)، عندما كان الملك اليهودي أغريباس يستجوب بولس، فقال له: «بِقَلِيلٍ تُقْنِعُنِي أَنْ أَصِيرَ مَسِيحِيًّا؟». ويأتي ثالث استخدام لها في الكتاب المقدس في رسالة بطرس الأولى (٤: ١٦): «وَلَكِنْ إِنْ تَأَلَّمَ أَحَدُكُمْ لأَنَّهُ «مَسِيحِيٌّ»، فَعَلَيْهِ أَلَّا يَخْجَلَ، بَلْ أَنْ يُمَجِّدَ اللهَ لأَجْلِ هذا الاسْم.»

كان هناك اسم آخر يُطلق على أتباع يسوع ألا وهو «الناصريون» — على اسم موطن يسوع، مدينة الناصرة؛ ففي سفر أعمال الرسل (٢٤: ٥)، عندما كان بولس يُحاكَم أمام

الوالي الروماني، يقول المدعي تَرْتُلُّسُ: «فَإِنَّنَا إِذْ وَجَدْنَا هَذَا الرَّجُلَ مُفْسِدًا وَمُهَيِّجَ فِتْنَةٍ بَيْنَ جَمِيعِ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي الْمَسْكُونَةِ وَمِقْدَامَ شِيعَةِ النَّاصِرِيِّينَ.»

توضح الطريقة التي تكلم بها تَرْتُلُّسُ عن بولس أنه ظنَّ أن بولس ليس جزءًا من دينٍ جديد، وإنما جزء من طائفة يهودية. وهكذا رأى بولس نفسه، كما يتضح في كلامه حينما دافع عنه نفسه ضد التهم التي وجهها إليه تَرْتُلُّسُ:

> أَنْتَ قَادِرٌ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي أَكْثَرُ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا مُنْذُ صَعِدْتُ لأَسْجُدَ فِي أُورُشَلِيمَ. وَلَمْ يَجِدُونِي فِي الْهَيْكَلِ أُحَاجُّ أَحَدًا أَوْ أَصْنَعُ تَجَمُّعًا مِنَ الشَّعْبِ وَلَا فِي الْمَجَامِعِ وَلَا فِي الْمَدِينَةِ ... وَلَكِنَّنِي أُقِرُّ لَكَ بِهَذَا: أَنَّنِي حَسَبَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَقُولُونَ لَهُ «شِيعَةٌ» هَكَذَا أَعْبُدُ إِلَهَ آبَائِي مُؤْمِنًا بِكُلِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ. (سفر أعمال الرسل ٢٤: ١١–١٤)

كان بولس قبل أن يبدأ في اتباع يسوع، وبعد ذلك، يتعبد في الهيكل في أورشليم، ويداوم على زيارة المعابد، ويؤمن بالشريعة الموسوية والأنبياء. وعندما كان يدافع عن نفسه أمام الملك أغريباس، أشار إلى أنه كان يهوديًّا على الدوام، وأنه قبل أن يبدأ في اتباع يسوع كان «حَسْبَ مَذْهَبِ عِبَادَتِنَا الأَضْيَقِ عِشْتُ فَرِّيسِيًّا» (سفر أعمال الرسل ٢٦: ٥). لو كان جزءًا من دينٍ آخر، لما تعبَّد في الهيكل، وما اتبع العادات اليهودية، ولاتَّهمته المرجعيات اليهودية بالهرطقة أو الردَّة. لكن الملك أغريباس والقيادات الأخرى التي استجوبته «انْصَرَفُوا وَهُمْ يُكَلِّمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: «إِنَّ هَذَا الإِنْسَانَ لَيْسَ يَفْعَلُ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ أَوِ الْقُيُودَ»» (سفر أعمال الرسل ٢٦: ٣١).

وكما كانت الحال مع بولس، بل أكثر، من الواضح أن يسوع وُلد وعاش ومات يهوديًّا. كانت أمه وعائلته يهودًا، وكذلك كان تلاميذه الاثنا عشر. تعبَّد وعلَّم في الهيكل، وكثيرًا ما كان يناقش شريعة موسى وأجزاءً أخرى من الكتاب المقدس العبري. وعلى غرار الفريسيين الذين كان يتحدث معهم باستمرار، كان يؤمن بقيامة الأموات والدينونة الأخيرة في نهاية العالم. وقال عن مهمته: «مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ» الناموس والأنبياء — أي الديانة اليهودية التي نشأ فيها. وقال تابعوه إنه كان المسيَّا، ولكي يُثبتوا أنه كان الملك اليهودي الذي تنبَّأت به الكتب المقدسة، تتبَّع إنجيلا متَّى ولوقا نَسب يسوع وصولًا إلى الملك داود. في إنجيل متَّى (١٥: ٢٣–٢٤)، حينما تطلب المرأة الكنعانية العون

في شفاء ابنتها المضطربة، قال يسوع في البداية: «لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ.» وقالت الأناجيل الأربعة كلها إنه عندما صُلب، كان مكتوبًا فوق رأسه «هذا هو ملك اليهود».

وبعد رحيل يسوع، استمر أتباعه في التعبد بوصفهم يهودًا في الهيكل. يقول سفر أعمال الرسل إن بولس وبطرس ويوحنا بشروا في الهيكل والمعابد، وكانوا يخاطبون الناس هناك بوصفهم «رجال إسرائيل». كان هناك مدارس فكرية مختلفة بين اليهود في ذلك الوقت. عُرف بعضها بأسماء الفريسيين، والصدوقيين، والغيورين. كان يسوع وأتباعه يتفقون مع بعضٍ من هذه الجماعات ويختلفون مع البعض الآخر؛ فقد آمنوا مع الفريسيين بالقيامة والحياة بعد الموت، على سبيل المثال، وهو ما لم يؤمن به الصدوقيون. وقد كانوا مسالمين أيضًا، ومِن ثَمَّ رفضوا رغبة الغيورين في الإطاحة بالحكم الروماني باستخدام العنف. كان أكبر اختلاف بين أتباع يسوع وبين الجماعات اليهودية الأخرى اعتقادهم بأن يسوع هو المسيَّا؛ لكن الاعتقاد بالمسيَّا كان في نهاية الأمر اعتقادًا يهوديًّا وظل هكذا. لم يجعل أي من هذه الخلافات بين اليهود أتباعَ يسوع أو أي جماعة يهودية أخرى في دين جديد.

علاوة على ذلك، لو أن يسوع كان يرغب في بدء دين جديد، لكان من المنطقي أن يكتب، أو يطلب من أحد ما كتابة تعليمات توضح كيف ينبغي تنظيم هذا الدين والحفاظ على بقائه. لكن، على حدِّ علمنا، لم يكتب يسوع أي شيء، ولم يطلب من أحد كتابة أي شيء. ولم تُكتب الأناجيل إلا بعد رحيله بفترة تتراوح ما بين ٤٠ و٧٠ سنة بأيدي أفراد لم يَلقَوه قط، لكنها لم تضم سوى تعليماتٍ مبهمة لتنظيم الجماعة.

إذا كان يسوع يهوديًّا، وأتباعه الأوائل يهودًا، كيف حدث إذًا أن ظهر دين جديد يُدعى «المسيحية»؟ كما أشار الكثير من العلماء، كانت هذه عملية تحدث رويدًا رويدًا في النصف الثاني من القرن الأول، وربما بعده. وكان مما تسبب فيها عمل بولس التبشيري فيما وراء فلسطين في بقاع مثل جنوب غرب آسيا (تركيا الآن) واليونان. هناك وعَظ بولس كلًّا من اليهود والأمميين (غير اليهود). وفي تحويل الأمميين، لم يُلزم رجالهم بأن يصيروا يهودًا بختانهم أولًا. وبمرور الوقت، ومع انضمام المزيد والمزيد من الأمميين إلى الجماعة، صارت الحركة أقل يهودية شيئًا فشيئًا.

كان سبب آخر للانقسام بين أتباع يسوع واليهود الآخرين هو هدم الهيكل في أورشليم في عام ٧٠. مات يسوع عام ٣٠ تقريبًا. في ذلك الوقت، كره يهود كثيرون أن يحكمهم الرومان. وكان يحكمهم قبل ذلك اليونانيون، وقبلهم الفرس، رجوعًا ستة قرون. أراد بعض اليهود، وعلى رأسهم الغيورون، أن يحاربوا من أجل التحرر من السيطرة الأجنبية. تفاقم كره الرومان إلى أن حدث تمرد صريح في عام ٦٦. وردَّ الرومان بتدمير الهيكل في أورشليم وكثير من بقية المدينة. بعدها، لم تعد مزاولة اليهودية تقوم على تقديم الذبائح أو التعبد في الهيكل؛ إذ لم يعد هناك هيكل. ومِن ثَمَّ تطورت طرق جديدة لمزاولة اليهودية. أما الفريسيون، فاشتملت هذه الطرق من وجهة نظرهم على رفع الصلوات ودراسة الناموس وتطبيقاته في الحياة اليومية. وتطور هذا التقليد شيئًا فشيئًا إلى اليهودية التي يقودها الحاخامات (المعلمون) التي تُعرف ببساطة اليوم باليهودية. وأما أتباع يسوع، الذين كان الناموس أقل أهمية لديهم، فتطوروا بطرق مختلفة آلت في نهاية المطاف إلى التقاليد التي تُدعى المسيحية. وأما الجماعتان اليهوديتان الرئيسيتان الأخريان، الغيورون والصدوقيون، فقد اختفتا بعد هدم الهيكل.

لم تُكتب الأناجيل الأربعة إلَّا بعد هدم الهيكل، وفيها نقرأ عن التوتر بين يسوع والشعب الذي يُدعى «اليهود». لم يكن يسوع ليميز نفسه من «اليهود» على الأرجح؛ لأنه كان واحدًا منهم، لكن كُتَّاب الأناجيل من عقود السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات في القرن الأول انشقُّوا جزئيًّا أو كليًّا عن اليهود، ومِن ثَمَّ أمكنهم أن يصوِّروهم بطريقة مناوئة. يُظهر إنجيل يوحنا، وهو آخر إنجيل كُتب، أكبر عداوة لليهود.

كثيرًا ما كانت السجلات التاريخية التقليدية تزعم أنه بعد هدم الهيكل عام ٧٠، «انبثقت» المسيحية من اليهودية، لكن كثيرًا من العلماء يقولون اليوم إن كلًّا من المسيحية «و» اليهودية الحاخامية قد نشأتا مما كان يفعله اليهود قبل عام ٧٠. هكذا يشرح كلٌّ من روبرت وماري كوت الأمور في كتابهما «القوة والسياسة وصنع الكتاب المقدس» (١٩٩٠). يقول ألان سيجال (١٩٨٦: ١) إن كلًّا من اليهودية الحاخامية والمسيحية قد وُلدتا معًا: «يمكننا الحديث عن «ولادة توأمين» ليهوديتين جديدتين، كلتاهما مختلفتان بوضوح عن الأنظمة الدينية التي سبقتهما.»

أيًّا ما تكن طريقة تفكيرنا في الأحداث فيما بعدُ هدم الهيكل عام ٧٠، فمن الواضح أنه قبل ذلك بأربعة عقود، كان يسوع وعائلته وأصدقاؤه يهودًا، لا مسيحيين.

المراجع

biography.com (online) Jesus Christ Biography, www.biography.com/people/jesus-christ-9354382 (accessed January 8, 2014).

Coote, R. and Coote, M. (1990) *Power, Politics and the Making of the Bible*, Fortress Press, Minneapolis.

Segal, A.F. (1986) *Rebecca's Children: Judaism and Christianity in the Roman World*, Harvard University Press, Cambridge MA.

Tutu, D. (2011) *God Is Not a Christian*, Harper Collins, New York.

قراءات إضافية

Crossan, J.D. (2010) *The Historical Jesus: The Life of a Mediterranean Jewish Peasant*, HarperCollins, New York.

Galambush, J. (2005) *The Reluctant Parting: How the New Testament's Jewish Writers Created a Christian Book*, HarperSanFrancisco, San Francisco.

Sheehan, T. (1986) *The First Coming: How the Kingdom of God Became Christianity*, Random House, New York.

(٥) كان يسوع يبشر بقيم الأسرة

خدمة مسيحية عالمية مكرسة لمساعدة العائلات على النجاح: نحن نقدم المساعدة والموارد للأزواج من أجل بناء زيجات سليمة تعبِّر عن الزواج كما صمَّمه الله، وللآباء لمساعدتهم في تربية أولادهم وفقًا للآداب والقيم القائمة على المبادئ الكتابية. (دكتور جيمس سي دوبسون (على الإنترنت)، مؤسِّس خدمة «فوكَس أون فاميلي»)

تُبَث حوارات «فوكَس أون فاميلي» الإذاعية التي بدأت عام ١٩٧٧ من ٢٠٠٠ محطة إذاعية. ويروِّج موقع christian-life-advisor.com «قيم الأسرة المسيحية. نبضات قلب

العائلة المسيحية!» ويمكننا أن نجد برامج مشابهة مصحوبة بترانيم مسيحية على شبكة فاميلي لايف الإذاعية. إن فكرة أن «قيم الأسرة» هي رسالة يسوع المحورية — الأمر الذي يتناقض على نحو صارخ مع التركيز على الصلب الأليم ليسوع — هي ظاهرة حديثة نوعًا ما.

أُسِّست جمعية الأسرة الأمريكية أيضًا عام ١٩٧٧، على يد دونالد إيه وايلدمون، راعي أول كنيسة ميثودية متحدة بمدينة ساوثهيفن، في ولاية مسيسيبي. تملك جمعية الأسرة الأمريكية — التي كانت تُدعى في الأساس الاتحاد الوطني للتهذيب — نحو ٢٠٠ محطة إذاعية وتشغلها تحت شعار «راديو الأسرة الأمريكية». وبرنامجها الإخباري onenewsnow.com يُبَث بالتزامن في أنحاء العالم. وهي تحشد من خلال مواقع مثل onemillionmoms.com وonemilliondads.com داعميها المليونين على الإنترنت لتقديم الشكوى لرعاة البرامج التليفزيونية التي تجدها غير لائقة:

> تعتقد جمعية الأسرة الأمريكية أن الثقافة المؤسَّسة على الحقيقة الكتابية هي أفضل ما يخدم رفاهة أمتنا وعائلاتنا، بما يتفق مع رؤية نصوصنا التأسيسية؛ وأن التحول الشخصي من خلال بشارة يسوع المسيح هو أعظم عنصر للتغيير الكتابي في أي ثقافة ... إن ما ترنو إليه جمعية الأسرة الأمريكية هو أن تكون رائدة في الفعالية المسيحية. إن كنت مرتاعًا من الفجور والانحلال المتزايدين اللذين يقتحمان أمتنا، وسئمت لعن الظلام، ومستعدًا لإضاءة شمعة، فتفضل بالانضمام إلينا. افعل هذا من أجل أولادك وأحفادك. (جمعية الأسرة الأمريكية، على الإنترنت)

سرعان ما أصبحت فعالية «قيم الأسرة» مرتبطة بمسائل مناهضة السحاق واللواط والثنائية الجنسية وتغيير الجنس. بعدما دعمت شركة هوم ديبوت، أكبر سلسلة لتحسين المنازل في الولايات المتحدة، العديد من مسيرات حقوق اللواطيين، نظمت جمعية الأسرة الأمريكية مقاطعة لمتاجرها. وعندما طُرِدت موظفة مسيحية من سلسلة متاجر ماسيز لرفضها أن تدع رجلًا يرتدي ملابس امرأة يستخدم غرفة تغيير ملابس النساء، نظَّمت جمعية الأسرة الأمريكية مقاطعة لمتاجر ماسيز. وكان العنوان الرئيس الذي تصدَّر موقعها الإلكتروني trustchristorgotohell.org هو «قاطعوا ماسيز اللواطية! طَردت امرأة مسيحية لرفضها السماح لشاذ يرتدي ملابس امرأة بدخول غرف تغيير ملابس خاصة بالنساء.»

مجلس أبحاث الأسرة هو حركة مسيحية ناشطة أخرى. يُطلق على نفسه «الصوت الرائد من أجل العائلة في أروقة السلطة بأمتنا»، وهو يقول إنه «منذ عام ١٩٨٣، ارتقى مجلس أبحاث الأسرة بالإيمان والأسرة والحرية في السياسة العامة والرأي العام.»

وإذ يستخدم هؤلاء المسيحيون مصطلحَ «قيم الأسرة»، فإنه عادة ما ينطوي على معارضة، ليس فقط للمثلية الجنسية، ولكن أيضًا لتعدد الزيجات، وممارسة الجنس قبل الزواج، والإجهاض. ومن وجهة نظرهم، هذه القيم متأصلة في تعاليم يسوع ومثاله. وما يخفقون في وضعه في حسبانهم هو أن يسوع نادرًا ما تحدث عن أيٍّ من هذه القضايا — أو عن الأسرة النووية في واقع الأمر، التي تشير إليها كلمة «الأسرة» في عبارة «قيم الأسرة».

كانت الحياة في فلسطين القديمة مختلفة للغاية عن الحياة اليوم في المجتمعات الصناعية الغربية. الأسرة النووية — المكونة من أب وأم وطفل واحد أو أكثر — هي مؤسسة حديثة. في الكتاب المقدس، لم يكن لدى الكثير من الأبطال والقادة الدينيين زوجات عدة وحسب، ولكن أيضًا «سراري» — مصطلح عام يُشير إلى الزوجات الأخريات والعشيقات والجواري اللاتي يمكن إقامة علاقة جنسية معهن. تزوج إبراهيم، أبو التقليد التوحيدي من سارة؛ لكن عندما لم تكن قادرة على الإنجاب، اتخذ جاريتها هاجر سُرِّيَّة له، وولدت له إسماعيل. وأنجب الملك داود أحد عشر طفلًا من سبع زوجات (سفر أخبار الأيام الأول ٣). وخلفه ابنه الأصغر سليمان ملكًا، وبنى الهيكل في أورشليم. يخبرنا الكتاب المقدس أن سليمان الملك اتخذ ٧٠٠ زوجة و٣٠٠ سُرِّيَّة (سفر الملوك الأول ١١: ١–٣). ومن قبل عام ١٠٠٠ قبل الميلاد إلى ما بعد زمن يسوع بوقت طويل — أي على مدار جميع القرون التي كُتب خلالها العهدان القديم والجديد — كان تعدد الزوجات مشروعًا بين شعب إسرائيل، وإن لم يكن منتشرًا بين الطبقات الدنيا، لأن قليلين هم من كان لديهم ما يكفي من المال لإعالة أسر متعددة.

إذا راعينا الطريقة التي عاش بها يسوع وما قاله أيضًا، يمكننا أن نرى أنه لم يُقدِّر الأسرة النووية. في فلسطين خلال القرن الأول، كان نسل المرء وأسلافه هم من يحددون هويته، مِن ثَمَّ كان من المتوقع من كل بالغ أن يتزوج وينجب. ونادرًا ما وُجد رجل غير متزوج في سن الثلاثين. غير أن يسوع لم يتزوج أو ينجب، حسبما ورد في السجلات التاريخية.

كانت الطريقة المثلى للحياة التي نادى بها يسوع كذلك مختلفة للغاية عن الأسرة النووية الحديثة. اليوم، يعمل أحد الأبوين أو كلاهما في وظيفة بدوام كامل، لكن ما

من مؤشر إلى أن يسوع عمل في أي وظيفة على الإطلاق. الحياة الأسرية التي يقدرها المسيحيون اليوم هي الحياة في منزل مستقر، وحبذا لو كانوا يمتلكونه. لكن الأناجيل لا تشير إلى أن يسوع وهو بالغ كان لديه منزل مطلقًا.

علاوة على ذلك، لا تصف الأناجيل افتقار يسوع لوظيفة أو منزل على أنه مجرد اختياره الشخصي لأسلوب حياته. وتقول إنه دعا أتباعه إلى العيش في الفاقة هم أيضًا. وعندما وعظ يسوع قائلًا: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ» (لوقا ٦: ٢٠)، لم تكن الكلمة التي استخدمها هي الكلمة اليونانية التي تعني فقراء الفلاحين، وإنما كانت الكلمة المستخدمة للإشارة إلى الشحاذين المُعدِمين. وهذا يتناسب مع الآية التي تليها: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْجِيَاعُ الآنَ لأَنَّكُمْ تُشْبَعُونَ» (لوقا ٦: ٢١). يتجاهل كثير من المسيحيين هاتين الآيتين المذكورتين في إنجيل لوقا، ويركزون بدلًا من ذلك على إنجيل متَّى (٥: ٣): «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ»، التي عادة ما تُفسَّر على أنها مدح للتواضع، لا الفاقة. لكن، كما تقول «نسخة أكسفورد الجديدة من الكتاب المقدس المشروح» (كوجان وآخرون، ٢٠١٠: ١٨٤٠) عما جاء في إنجيل لوقا (٦: ٢٠)، «التركيز هنا على الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وليس على الحالات الروحية.»

لم يحدث في أي وقت أن دعا يسوع إلى الحصول على وظيفة، أو كسب العيش، أو الادخار من أجل إعالة أسرة. الواقع أن يسوع ليس فقط لم يدعُ إلى حياة أسرية مستقرة، ولكن يبدو أنه كان يُعارضها:

> لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلَامًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلَامًا بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي. (متَّى ١٠: ٣٤–٣٧ النسخة القياسية المنقحة الجديدة)

والأكثر صراحة وَعْظة يسوع في إنجيل لوقا (١٤: ٢٦): «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلَا يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلَادَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ حَتَّى نَفْسَهُ (حياته نفسها) أَيْضًا فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا» (النسخة القياسية المنقحة الجديدة). وفي إنجيل لوقا (٩: ٥٩–٦٢)،

حينما يأمر رجلين أن يتبعاه، ينتظر منهما أن ينفصلا في الحال عن عائلتيهما، حتى بلا وداع:

> وَقَالَ لِآخَرَ: «اتْبَعْنِي.» فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ ائْذَنْ لِي أَنْ أَمْضِيَ أَوَّلًا وَأَدْفِنَ أَبِي.» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «دَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ وَأَمَّا أَنْتَ فَاذْهَبْ وَنَادِ بِمَلَكُوتِ اللهِ.» وَقَالَ آخَرُ أَيْضًا: «أَتْبَعُكَ يَا سَيِّدُ وَلَكِنِ ائْذَنْ لِي أَوَّلًا أَنْ أُوَدِّعَ الَّذِينَ فِي بَيْتِي.» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ.» (النسخة القياسية المنقحة الجديدة)

كانت حياة يسوع ودعوته، إذًا، يُظهران ما يدعوه جون دومينيك كروسان (١٩٩٤: ٥٨) «هجومًا وحشيًّا تقريبًا على قيم الأسرة، ويتكرر هذا كثيرًا جدًّا.» لكن إن لم يكن يسوع يبشر بـ «الأسرة» في قيم الأسرة، فماذا عن الجزء الخاص بـ «القيم»؟ إن كانت طريقة الحياة التي دعا إليها هي عكس الأسرة النووية للمسيحيين الإنجيليين اليوم تمامًا، فهل كان من شأنه ألَّا يتفق على الأقل مع أحكامهم الأخلاقية بشأن أمور مثل المثلية الجنسية، وممارسة الجنس قبل الزواج، والإجهاض؟

في مسألة المثلية الجنسية لم يقل يسوع أي شيء. يستند كثير من المسيحيين إلى تعاليم الكتاب المقدس العبري، ولا سيما في سفر اللاويين (٢٠: ١٣): «وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ فَقَدْ فَعَلا كِلاهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلانِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا» (النسخة القياسية المنقحة الجديدة). لكن يسوع تحدى الكثير من التعاليم الواردة في الكتاب المقدس العبري. تخبرنا الأناجيل كيف كان يُنتَقد بسبب شفائه الناس في يوم السبت (مرقس ٣: ١–٥)، على سبيل المثال، ولقطف السنابل لتناولها في السبت (مرقس ٢: ٢٣–٢٨). لم تكن هذه بالمسائل الهينة في ذلك الحين، فقد كانت عقوبتها الموت (سفر الخروج ٣١: ١٤، ٣٥: ٢؛ سفر العدد ١٥: ٣٢–٣٦). لكن ردَّ يسوع على هذا كان: «السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ لَا الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ» (بشارة مرقس ٢: ٢٧ النسخة القياسية المنقحة الجديدة). ونظرًا إلى الافتقار إلى أي أقوال من يسوع عن المثلية الجنسية، فما من طريقة للتأكد من أنه ما كان سيرفض التجريم الوارد في سفر اللاويين وعقوباته الصارمة بالمثل.

جدير بالملاحظة أيضًا أن سفر اللاويين يُحرِّم تناول لحم الخنزير والأسماك الصدفية، على سبيل المثال، لكن معظم المسيحيين لا يلتزمون بتلك القواعد. ولا يُنزلون عقوبة الموت

بأولئك الذين يعملون في السبت كما يأمر سفر الخروج (٣٥: ٢). لماذا إذًا يُعتبر تحريم أفعال المثلية الجنسية مُلْزِمًا؟ والأهم من ذلك أنه، في زمن يسوع، لم يكن اللواطيون والسحاقيات يحظون بقبول واسع النطاق في المجتمع اليهودي، لكن لم يكن كذلك أيضًا السامريون، ولا المبروصون، ولا الجنود الرومانيون، ولا النساء المستقلات. اختلط يسوع بحرِّية بأفراد من كل هذه الجماعات، وفعل كل ما بوسعه لمساعدتهم. وقد انتقدته المرجعيات الدينية على فعله ذلك. إذا كان يسوع يُعامل كل شخص، كما تشير الأناجيل الأربعة، على أنه قيِّم في حد ذاته ومستحِق للحب، فلا يوجد سبب وجيه يدعو إلى الاعتقاد بأن يسوع كان من شأنه أن يدعم حركة «قيم الأسرة» في إدانتها الناس بناءً على هويتهم الجنسية.

المراجع

AFA (online) *Who Is AFA?* www.afa.net/Detail.aspx?id=31 (accessed January 8, 2014).

Coogan, M.D., Brettler, M.Z., Newsom, C.A. and Perkins, P. (eds) (2010) *The New Oxford Annotated Bible with Apocrypha: New Revised Standard Version*. Oxford University Press, Oxford.

Crossan, J.D. (1994). *Jesus: A Revolutionary Biography,* HarperSanFrancisco, San Francisco.

Dobson, J.C. (online) Focus on the Family, www.focusonthefamily.com/about_us.aspx (accessed January 8, 2014).

(٦) طالما كانت صورة يسوع المصلوب مقدسة عند المسيحيين

أيا رأس المسيح المقدس،
توَّجوك بالأشواك الثاقبة!
أيا رأس المسيح النازف،
جرحوك بقوة!
شتموك واستهزءوا بك!

شوَّهت خطايانا بهاء وجهك الأقدس،
الذي تعشقه حشود الملائكة،
وترتعد أمامه.

(ترنيمة من كلمات هنري ويليامز بيكر (١٨٢١–١٨٧٧)،
مستلهَمة من برنارد رئيس دير كليرفو (١٠٩١–١١٥٣)
وبول جرهارد (١٦٠٧–١٦٧٦))

أكثر رموز المسيحية الغربية عالميةً هو الصليب. في كل أنحاء الغرب، تُميِّز الصلبان الكنائس والمباني المسيحية الأخرى. ومنذ العصور الوسطى، تتخذ الرسوم الهندسية لمعظم الكنائس شكل صلبان. ويُسمَّى معظم الكنائس الرومانية الكاثوليكية باسم «الصليب المقدس»، وتتضمن أسماء الكثير من الكنائس البروتستانتية كلمتي «الصليب» و«المسيح المصلوب». والعلامة القياسية لقبرٍ مسيحيٍّ ما هي الصليب. وثمة آلاف الأعمال الفنية التي تصوِّر صلب يسوع — دق المسمار في جسد يسوع على الصليب. ويُدخل الكثير من الرتب الدينية المسيحية الصليب في تصميم ملابسهم، ويرتدي مئات الملايين من المسيحيين الصلبان في سلاسل وحلي أخرى.

تعلَّم المسيحيون الغربيون أنه بموت يسوع على الصليب، أنقذ الجنس البشري من العقاب الأبدي. من أجل هذا وُلد وعاش على الأرض كما اعتاد كثيرون أن يقولوا. ويضيف كثيرون أنه بموته على الصليب دفع عنا الدَّين الذي ندين به لله مقابل خطايا البشرية، وبذا فتح الطريق أمام الناس للذهاب إلى السماء بعد الموت. كانت هذه الميتة التكفيرية هي أهم حدث في التاريخ، من وجهة نظر المؤمنين؛ ولذا، من اللائق أن يرمز الصليب للمسيحية الغربية.

في الربيع، يحتفل المسيحيون بموسم الصيام الكبير، وهو وقت مكرَّس للتوبة والتأمل في صلب يسوع. يكرس الآلاميون — رتبة كنسية لكهنة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية — حياتهم للوعظ عن الطريقة التي صُلب بها يسوع. إذ يُلقون العظات التي توضح أن المسامير لم تُدق في راحتَي يديه — فلو أن المسامير كانت قد دُقَّت في راحتَي يديه، لكان ثقل وزنه جعل المسامير تمزق لحم يديه، ولسقط من على الصليب. بدلًا من ذلك، دُقَّت المسامير بين العظام في رُسغيه، حتى يبقى في ألم الصَّلب على الصليب. صنع

الممثل/المخرج ميل جيبسون فيلم «آلام المسيح» في عام ٢٠٠٤، حتى يصور على نحوٍ درامي كم عانى يسوع في صَلْبه.

لكن التركيز على صلب يسوع باعتباره الجانب المحوري في مهمة يسوع على الأرض هو تطوُّر متأخر نوعًا ما كما أثبتت العالمتان ريتا ناكاشيما بروك وريبكا آن باركر. تفترض المؤلفتان في كتابهما «إنقاذ الفردوس: كيف قايضت المسيحية حب هذا العالم بالصلب والإمبراطورية» (xi :2008)، أن الأعمال الفنية المسيحية التي تصوِّر الصلب، المُعَدَّة للعرض العام في الكنائس، لم تظهر إلا بعد القرن التاسع؛ فقد زارتا الكنائس والأديرة والمدافن والأضرحة والمتاحف في إيطاليا وتركيا وبقاع أخرى عاش فيها المسيحيون الأوائل، حيث عثرتا على عشرات من صور يسوع التي تعود إلى ما قبل القرن العاشر، لكنه لم يكن مصلوبًا على الصليب في أيٍّ منها.

خلافًا لذلك، تُظهره الصور التي تعود إلى النصف الأول من التاريخ المسيحي معافًى وسعيدًا — في هيئة راعٍ، أو شافٍ، أو صانع معجزات، أو معلِّم. ويظهر في كثير منها بلا لحية، وبشعر طويل. وغالبًا ما يكون واقفًا وسط منظر طبيعي خلاب به نباتات ملونة، أو أنهار متدفقة، أو يمام، أو بجع، أو غزلان. توجز بروك وباركر الموضوع كما يأتي:

> حالما نظرنا في أثاث كنيسة أخرى من الكنائس الأولى، رأينا بقدر أوضح كيف أن كلًّا منها صوَّرت أبعادًا من الفردوس. أتاحت المِساحات للمسيحيين بيئة بصرية وارفة: كونًا من النجوم في سموات منتصف الليل، وأشعة الشمس الذهبية، والمياه المتلألئة التي تعج بالأسماك، وحيوانات مملوءة حيوية، ومروجًا وارفة مليئة بالأزهار وأشجار الفاكهة ... كانت الفردوس، كما أدركنا، هي الصورة السائدة للأماكن المقدسة المسيحية الأولى. (بروك وباركر، xiv :2008)

لكن إذا كان المسيحيون قد بجَّلوا طيلة تسعة قرون يسوع قويًّا يعيش في فردوس، فكيف حدث أن المسيحيين الذين جاءوا بعدها عبدوا يسوع هزيلًا يُعذَّب حتى الموت؟ تقول بروك وباركر إننا لكي نفهم هذا التحول في الخيال المسيحي، يجب أن نعرف مَن صنع أول عمل فني لعملية الصَّلب للكنائس. إن أقدم عمل من هذه الأعمال لا يزال باقيًا هو صليب جيرو (سُمِّي تيمُّنًا برئيس الأساقفة الذي أمر بصنعه) بكاتدرائية كولونيا. وهو نحت للمسيح المصلوب بالحجم الطبيعي من خشب البلوط، صنعه الساكسونيون عام ٩٦٥ تقريبًا. والساكسونيون قبائل جرمانية أجبرتها على اعتناق المسيحية جيوش شارلمان،

ملك الفرنجة، بعد أن هزمهم في سلسلة من الحروب (٧٧٢–٨٠٤). فبعد انكسارهم، كان عليهم أن يختاروا بين العماد والموت. ولم يكتفِ شارلمان بشن الحرب على الساكسونيين أكثر من ثلاثين عامًا، ولكنه، بعد انتصاره، نفى عشرة آلاف منهم، ومنح أراضيهم للأبوترايت، وهي جماعة ساعدته في هزيمتهم. وكما تشرح بروك وباركر، يعكس صليب جيرو العنف الذي جرى من خلاله تحويل الساكسونيين إلى المسيحية. لقد فرضوا رؤيتهم المأساوية لمعاناتهم على دينهم الجديد، وبهذا حولوا يسوع إلى ضحية مثلهم. وفي القرون التالية، أصبحت الأعمال الفنية التي تتناول موضوع الصلب أكثر دموية، جاعلة التفاصيل المرعبة لمعاناة يسوع في صميم رؤية الرهبان الآلاميين وميل جيبسون.

تزامن عرض تماثيل يسوع الصليب في الكنائس الغربية مع حدوث تحوُّل مهمٍّ في اللاهوت المسيحي؛ فقد كانت هذه الفترة هي التي شهدت انتشار نظرية الكفَّارة — فكرة أن يسوع قد صُلب ليدفع دَيْن الخطيئة البشرية — في كتاب أَنْسِلم، أسقف كانتربري (تُوفي عام ١١٠٩)، بعنوان «لماذا تجسَّد الله؟». كان لدى الأجيال الأولى من المسيحيين تفسيرات مختلفة تمامًا لما أنجزه يسوع بحياته وموته. قال جميع اللاهوتيين المسيحيين تقريبًا إنه بوقوع آدم وحواء في الخطيئة، وقعا هما وجميع نسلهما تحت ولاية الشيطان، وإن موت يسوع على الصليب كان جزءًا من الصفقة التي أبرمها الله مع الشيطان كي يفديهم أو «يخلِّصهم». كان من بين هؤلاء المفكرين أوريجانوس، وإيرينيئوس، وجريجوريوس أسقف نيصص، وأمبروز، وأوغسطينوس، ويوحنا ذهبي الفم، وجريجوريوس الكبير. إلى كل هؤلاء المفكرين اللاهوتيين، وجَّه أنسلم سؤالًا بسيطًا: كيف أمكن للشيطان أن يحصل على الولاية على الجنس البشري من الله القدير غير المحدود؟ يستطيع الله أن يفعل ما يريد في الحال وبلا عناء؛ ومِن ثَمَّ، ففكرة أن الله اضطُر إلى إبرام صفقة مع الشيطان لاسترداد الجنس البشري لا يمكن أن تكون صحيحة.

بدلًا من كل نظريات الفداء التي كانت سائدة حينئذٍ، اقترح أنسلم نظريته — الكفَّارة. قال: إن الله، بصفته ملك الكون، تدين له خليقته بالطاعة الكاملة. وعليه، عندما عصا آدم وحواء الله في جنة عدن؛ فإنهما خاناه فيما يستحقه. وبوقوعهما في الخطيئة؛ فإنهما خلقا دَيْنًا، ولكي يغفر الله خطيئتهما، فلا بد من ردِّ دَيْنه. ما جعل الأمور أسوأ على الجنس البشري الذي ورث الخطيئة الأصلية من آدم، أن الإساءة في حق كائن غير محدود — الله — هي إساءة غير محدودة، وتستلزم لذلك دفع ثمن غير محدود. لم يكن

الجنس البشري يقدر على دفع ثمن غير محدود، بالطبع. لا يستطيع سوى كائن غير محدود — الله — فعل ذلك. وهكذا، ما كان مطلوبًا هو دفع ثمن غير محدود «إلى» الله، «من قِبَل» الله نيابةً عن البشرية. وهذا في رأي أنسلم، هو ما حققه موت الله الإنسان، يسوع. بكلمات أنسلم، لَمَّا كان الثمن «لا يستطيع أن يدفعه أحد سوى الله، ولا ينبغي أن يدفعه أحد سوى الإنسان، كان من الضروري إذًا أن يدفعه الله المتجسد في صورة إنسان» («لماذا تجسد الله؟» الفصل السادس). دفع يسوع هذا الثمن بموته على الصليب.

راجت نظرية الكفَّارة التي وضعها أنسلم بين المسيحيين الغربيين، ولكنها لم تلقَ رواجًا بين المسيحيين الشرقيين مثل الأرثوذكس اليونانيين، الذين سبق أن انشقوا رسميًّا عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في «الانشقاق الكبير» عام ١٠٥٤، بعد قرون من التباعد. ولأن المسيحيين الشرقيين لم يروا الصلب جوهر حياة يسوع، فلم يبجِّلوا المسيح المصلوب. وحتى في الغرب، لم ينجرف الجميع مع أنسلم. علَّق أحد النقاد القدامى، وهو بيتر أبيلار (تُوفي عام ١١٤٢)، قائلًا:

> كم يبدو قاسيًا وفاسدًا أن يطلب [الله] دم البريء ثمنًا لأي شيء، أو أن يرضيه بأي شكلٍ من الأشكال ذبح شخص بريء — ما بالك بأن ينظر الله إلى موت ابنه بمثل هذا القبول بأنه بموته تصالح مع العالم كله. («تعليق على رسالة إلى أهل رومية»، مقتبس في كتاب بروك وباركر، ٢٠٠٨: ٢٩٣)

لكن نظرية الكفارة راجت في المسيحية الغربية.

بعدها بأربعة قرون، عدَّل المصلحان مارتن لوثر (تُوفي عام ١٥٤٦) وجون كالفن (تُوفي عام ١٥٦٤) نظرية الكفارة عند أنسلم، ليركزا على الصلب باعتباره عقوبة على الخطيئة. يُطلَق على أفكارهما الآن نظرية البدلية العقابية للكفارة. وفقًا لتلك النظرية، على الرغم من أن يسوع كان بلا خطيئة؛ فإن الله وضع عليه ذنب خطايا الناس، وهو، بعد أن أخذ مكانهم، احتمل العقاب الذي كانوا يستحقونه. وكان موته على الصليب هو الثمن الكامل لجميع خطايا البشر، ومِن ثَمَّ أرضى كلًّا من غضب الله وبره. ومِن ثَمَّ أصبح الله حرًّا الآن كي يسامح الخطأة.

على الرغم من أن عملية صلب المسيح صارت محورية للمسيحيين خلال الأعوام التسعمائة الأخيرة؛ فإنها لم تكن كذلك على الدوام.

المراجع

Anselm of Canterbury (2013) *Cur Deus Homo: To Which Is Added a Selection of His Letters*, Hard Press Editions, Stockbridge, MA.

Brock, R.N. and Parker, R.A. (2008) *Saving Paradise: How Christianity Traded Love of This World for Crucifixion and Empire*. Beacon Press, Boston.

(٧) قمعت الكنيسة العلم في العصور الوسطى

> ضربت ظاهرة فقدان الذاكرة العلمية كل أنحاء أوروبا ... منذ عام ٣٠٠ حتى عام ١٣٠٠ على الأقل. خلال تلك القرون، قمع الإيمان والعقيدة الجامدة المسيحيان صورة العالم النافعة التي رسمها الجغرافيون القدماء بتمهُّل شديد ومعاناة كبيرة وبدقة متناهية. (دانييل بورستين (1983: x)، أمين مكتبة الكونجرس)

يعكس الاقتباس المذكور أعلاه سوء فهم شائعًا عن مصير البحث العلمي بين يدي المسيحية في العصور الوسطى. بالمثل، في كتاب «الكون» — الكتاب العلمي الأكثر مبيعًا دومًا باللغة الإنجليزية — يقدم الفلكي كارل ساجان (١٩٨٠: ٢٨٠) إطارًا زمنيًّا للأشخاص الذين اقترنوا بعلم الفلك، يبدأ من اليونان القديمة بطاليس الملطي (تُوفي نحو عام ٥٤٦ قبل الميلاد)، ثم ينتقل إلى هيباتيا السكندرية (تُوفيت عام ٤١٥ ميلاديًّا)، لكنه بعدئذٍ يقفز ألف عام ليستكمل الإطار الزمني بكريستوفر كولومبوس وليوناردو دافينشي. وتعليق ساجان على ما يسميه «العصور المظلمة» هو أن: «الفجوة الألفية في منتصف المخطط البياني تمثل فرصة ضائعة فادحة للنوع البشري.» وفي وقت أحدث، افترض تشارلز فريمان (٢٠٠٣) أن العلوم انحسرت بدرجة هائلة بعدما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية.

حتى أولئك الذين لم يقرءوا هذه الكتب، تناهى إلى مسامعهم أنه خلال «العصور المظلمة» ظنَّ المسيحيون الأوروبيون أن الأرض مسطحة. واحتاج الأمر أن يثبت كريستوفر كولومبوس ثم العلماء الحديثون، وفق القصة، أنها مستديرة.

سمع كثيرون منا بمثل تلك العبارات التي تصف الصراع بين العلوم والمسيحية مرارًا وتكرارًا لدرجة أننا قد نظن أنه صراع قديم. الواقع أن هذا الصراع بدأ منذ أقل من ١٥٠ عامًا. لم يبدأ الأشخاص الذين درسوا الطبيعة في تسمية عملهم «علمًا»، وأنفسهم «علماء» إلا بعد عام ١٨٠٠. قبل ذلك، كانوا يسمون ما يفعلونه «فلسفة طبيعية» أو «تاريخًا طبيعيًّا». وعلى مرِّ القرون، طالما ثارت مناقشات حول «المنطق» و«الإيمان»، لكن لم يكن هناك صراع مفترَض بين ما نسميه الآن «علمًا» وبين المسيحية. غير أنه في مطلع القرن التاسع عشر، بدأت الكتب تظهر وكلمة «علم» في عناوينها التي تناقش كيف كان العلم والمسيحية، أو لم يكونا، متعارضين. وبحلول عام ١٨٦٠ بدأت المدارس وكليات اللاهوت الأمريكية في تعيين أساتذة جامعيين كانت وظيفتهم إظهار توافق العلم والمسيحية (نمبرز، ٢٠٠٩: ٣).

في أواخر القرن التاسع عشر، أيدت شخصيتان أمريكيتان بارزتان فكرة أن الكنيسة الكاثوليكية خاصةً قمعت العلم: وهما جون ويليام درايبر، وهو عالم، وطبيب، ومؤرخ؛ وأندرو ديكسون وايت، وهو أحد مؤسِّسي جامعة كورنيل وأول من رأسها. وفقًا لما جاء عن درايبر (١٨٧٤: ٥٢)؛ فإن الكنيسة في أوائل العصور الوسطى:

> أكدت أن المعرفة كلها توجد في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة ... ومِن ثَمَّ نصَّبت الكنيسة نفسها باعتبارها مستودع المعرفة وفيصلها ... لقد سلكت مسارًا حدد مستقبلها الوظيفي بأكمله؛ فقد صارت حجر عثرة في سبيل تقدُّم أوروبا الفكري على مدى أكثر من ألف عام.

وقال درايبر أيضًا: «تُعتبر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والعلم، من جانب أنصار كلٍّ منهما، متعارضَين تعارضًا مطلقًا؛ ولا يمكن أن يجتمعا» (١٨٧٤: ٣٦٣).

أمعن في هذا الهجوم على الكاثوليكية أندرو ديكسون وايت في عمله المؤلَّف من مجلَّدين «تاريخ حرب العلم واللاهوت في العالم المسيحي» (١٨٩٦). تتضح فرضية وايت أن الكاثوليكية قمعت العلم في عناوين فصول مثل «من الخلق إلى التطور»، و«من التكوين إلى الجيولوجيا»، و«من السحر إلى الكيمياء والفيزياء»، و«من المعجزات إلى الطب»، و«من المس الشيطاني إلى الجنون».

على الرغم من رواج نموذج «الحرب» في العلاقة بين العلم والمسيحية — من درايبر ووايت إلى بورستين وساجان — فإن مؤرخي العلوم المعاصرين يقولون إنه خرافة إلى

حد كبير. نجد تصحيحًا نافعًا لهذه الخرافة في ٢٥ مقالة مجمَّعة في كتاب رونالد نمبرز «جاليليو يذهب إلى السجن وخرافات أخرى حول العلم والدين» (٢٠٠٩).

في فصل بعنوان «مسيحيو العصور الوسطى أولئك كانوا يُعلِّمون أن الأرض مسطحة» على سبيل المثال، تشير ليزلي كورماك إلى أن الإغريق سبق وأدركوا أن الأرض كروية. ذكر أرسطو أن المواضع المتغيرة للبروج في السماء إذ يتحرك أحدها عبر الأرض تُثبت أن الأرض لا بد أن تكون كروية. وقدَّر عالم الرياضيات إراتوستينس أن محيطها يبلغ ٢٥ ألف ميل تقريبًا؛ وتقول التقديرات الحديثة إنه يبلغ ٢٤٩٠٢ ميل. وكاد يتفق جميع المفكرين المسيحيين الأوائل الذين تناولوا موضوع شكل الأرض على أنها كانت كروية. وكان من هؤلاء أمبروز (تُوفي عام ٣٩٧)، وجيروم (تُوفي عام ٤٢٠)، وأوغسطينوس (تُوفي عام ٤٣٠). وكان مخالفهم الوحيد هو لاكتانتيوس (تُوفي عام ٣٢٠ تقريبًا)، لكنه رفض كل فلسفة اليونانيين وعلومهم. وكان هناك اتفاق مماثل بين كُتَّاب العصور الوسطى المسيحيين، باستثناء كوزماس إنديكوبليستس، وهو نسطوري مسيحي من مصر عاش في القرن السادس. وفي أوج العصور الوسطى، اقتبس كُتَّاب مسيحيون مثل توما الأكويني أدلة أرسطو على كروية شكل الأرض مع اتفاقهم معها.

يستشهد أولئك الذين يُحاجُّون لإثبات التعارض بين الكاثوليكية والعلم في أغلب الأحيان باللاهوتي المبكر ترتليان (تُوفي عام ٢٤٠ تقريبًا)، الذي سأل في كتابه «مذكرة ضد الهراطقة»، (٢٠١٢، الفصل السابع): «ما علاقة أثينا [الفلسفة اليونانية] حقًّا بأورشليم [الديانة المسيحية]؟» ثم يستنتج: لا شيء. وما الوفاق الذي يجمع بين أكاديمية [أفلاطون] والكنيسة؟ ويزعم: لا وفاق. من وجهة نظر ترتليان، تستند حياة المسيحي إلى الإيمان، لا إلى الفلسفة. لكن حتى هذا الخصم اللدود للمصادر غير المسيحية، استخدمها عندما وافقت أغراضه، كما يوضح ديفيد ليندبرج (نمبرز، ٢٠٠٩: ٨–١٨)؛ ففي كتابه «إلى الوثنيين» (٢٠١٠، الفصل الثالث)، وفي الفصل الثالث على سبيل المثال، عندما يريد ترتليان دحض فكرة أن الكون يمكن أن يكون إلهًا، يقول: «لا بد وأنه إما تكوَّن على يد كائن ما، وفقًا لرؤية أفلاطون المستنيرة، أو أنه لم يتكون بفعل أحد، وفقًا للرأي الجامد لإبيقور؛ وبما أن تكوينه كان له بداية، فلابد أن له نهاية أيضًا.» ويخلص ترتليان إلى أن الشيء الذي له بداية ونهاية لا يمكن أن يكون إلهًا. أظهر ترتليان في هذا الموضع

وفي مواضع أخرى معرفة كبيرة بالفلسفة الطبيعية والفلسفة عمومًا. ينطبق الشيء نفسه على نقاد مسيحيين آخرين أوائل للفلسفة اليونانية، مثل القديس باسيليوس القيساري (تُوفي عام ٣٧٩ تقريبًا). غير أن هؤلاء الأفراد لم يكونوا متحدثين باسم الكنيسة. لقد عاشوا قبل أن تصير المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية.

وحينما دُعيت المسيحية الأيديولوجية الرسمية للإمبراطورية، كان أكثر متحدثيها الرسميين تأثيرًا هو أوغسطينوس (تُوفي عام ٤٣٠). ويعتبره كثيرون حقًّا أبرز المفكرين المسيحيين في التاريخ. وقد كان يحبذ استخدام المنطق. يتلخص النهج العام لأوغسطينوس في شعاره «آمن كي تفهم، وافهم كي تؤمن» (الرسالة ١٢٠ في سبارو-سيمبسون، ٢٠١٢). قال أوغسطينوس إن ثمة أشياء كان على الله أن يعلنها، مثل طبيعة يسوع المسيح، لكن ثمة أشياء كثيرة أيضًا يمكن أن يعرفها الأشخاص من خلال التجربة والتفكير، مثل حركة النجوم وطبيعة النباتات والحيوانات. وقد رأى أن ما تعلَّمه الناس عن العالم الطبيعي لا يتعارض مع ما أعلنه الله، وإنما يؤيده في الواقع.

باستخدام المعنى الذي توصل إليه أرسطو لـ «العلوم» باعتبارها أنواعًا من المعرفة، كثيرًا ما كان يُطلق على اللاهوت في العصور الوسطى «سيد العلوم»، مع اعتبار «الفلسفة الطبيعية» واحدة من العلوم التي تخدم اللاهوت. ينطبق هذا النموذج في كتاب أوغسطينوس «المعنى الحرفي لسفر التكوين» (١٩٨٢). يستعين أوغسطينوس في شرحه كيف خلق الله العالم، بالكثير من الأفكار من العلم اليوناني والروماني عن الكواكب، والقمر، والضوء، والصوت، والطقس، والمواسم، والزمن، والمد والجزر، والعناصر الأربعة، والنباتات، والحيوانات. ولفهم المغزى الديني لخلق الله، يقول أوغسطينوس إننا لا بد أن نعرف شيئًا عن كنه الأشياء التي خلقها وكيفية أدائها. تأتي مثل هذه المعرفة من الفلسفة الطبيعية — أي العلم — التي يحث بقوة على اكتسابها، مِن ثَمَّ لا يُعرِض عن المسيحيين غيرُ المسيحيين الأكثرُ اطلاعًا:

> حتى غير المسيحي لديه فكرة عن الأرض والسموات وعناصر هذا العالم الأخرى، وعن حركة النجوم ومدارها، بل وحتى عن أحجامها ومواضعها النسبية، وعن كسوف الشمس وخسوف القمر القابلين للتنبؤ، وعن دورات السنوات والمواسم، وعن أنواع الحيوانات، والشجيرات، والأحجار وما إلى ذلك، وهو يعتبر هذه المعرفة مؤكدة استنادًا إلى المنطق والتجربة. عندئذٍ من الشائن بل والخطير أن يسمع الملحد مسيحيًّا ... وهو ينطق بالتفاهات عن هذه الموضوعات؛ وخليق بنا

أن نتخذ كل السبل لدرء وقوع مثل هذا الموقف الحرج. (أوغسطينوس أسقف هيبو، ١٩٨٢: ٤٢–٤٣)

أصبح تأكيد أوغسطينوس التوافق ما بين العلم واللاهوت هو سياسة الكنيسة في العصور الوسطى. والواقع أن مسئولي الكنيسة أيَّدوا إنشاء الجامعات الأوروبية، التي انبثق كثير منها من مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات. وبحلول عام ١٢٠٠، كان لدى كلٍّ من بولونيا وباريس وأكسفورد جامعات، وبحلول عام ١٥٠٠، كان هناك ٦٠ جامعة في أنحاء أوروبا. وكانت جامعة أكسفورد قد بدأت نحو عام ١١١٥ بمجموعة من الطلاب الذين تجمعوا حول كهنةٍ أوغسطينيِّين بدير سانت فرايدسوايد. ومنحها البابا إنوسنت الرابع عام ١٢٥٤ الحق في منح شهادات متقدمة. وأُنشئت جامعة كامبريدج نحو عام ١٢٠٩ واعترف بها البابا يوحنا الثاني والعشرون عام ١٣١٨.

تناول نحو ٣٠ في المائة من المناهج في جامعات العصور الوسطى العالم الطبيعي. بحلول عام ١٥٠٠، كان مئات الآلاف من الطلاب قد تلقَّوا تعليمًا في فروع العلوم مثل الهندسة، والبصريات، والفيزياء، والفلك، والمنطق، والبيولوجيا (جرانت، ١٩٨٤). كانت هذه الموضوعات جزءًا من المنهج الدراسي لطلاب الجامعة، وكانت تُدرَّس دون الرجوع إلى المذهب الكنسي. وكان اللاهوت يُدرَّس من قِبَل كلية منفصلة، عادة في مستوى الماجستير، ولم يتلقَّ معظم طلاب الجامعات أي تدريب لاهوتي (شانك، ٢٠٠٩). ومن بين الموضوعات التي كانت تُدرس في مستوى الماجستير، كان اللاهوت هو الأقل شعبية؛ إذ كان يأتي بعد القانون والطب.

حتى في كليات اللاهوت، كثيرًا ما كانت تُستخدَم حجج الفلسفة الطبيعية. وكانت أشهرها هي «الطرق الخمس» لإثبات وجود الله التي ناقشها توما الأكويني، القارئ النَّهم لأعمال أرسطو. تقول الطريقة الأولى المأخوذة من «فيزياء» أرسطو إن الحركة والتغيرات الأخرى في العالم تستلزم مُحرِّكًا ثابتًا. وتتحدث الطريقة الثانية، المأخوذة عن أرسطو أيضًا، عن «علة أولى» للأشياء في الكون. وتستخدم الطريقة الثالثة، «من الإمكانية والضرورة»، المبدأ البدهي أنه لو كان الكون فراغًا في أي وقت من الأوقات، لما خرج شيء من هذا الفراغ قطُّ. أخذ توما الطريقة الرابعة — لأن الله هو المطلق الكمال؛ فإنه يخلق الكمال في الأشياء الأخرى — من «كتاب العلل»، وهو كتاب نُسب إلى أرسطو لكنه مشتق في الواقع من عمل فيلسوف الأفلاطونية الجديدة بروقلس. وتشبه الطريقة الخامسة لتوما، المشتقة من نظام الطبيعة وتصميمها، كثيرًا حجة التصميم الذكي المعاصرة لإثبات

وجود الله. وتأتي من كثير من المصادر الفلسفية، المأخوذة في الأصل عن عمل أفلاطون «طيماوس».

هذه الحجج النابعة من الفلسفة الطبيعية، هي أشهر عمل لتوما الأكويني، وخلال خمسة عقود بعد وفاته أعلنه البابا يوحنا الثاني والعشرون قديسًا. وفي عام ١٥٦٧، أعلنه البابا بيوس الخامس طبيب الكنيسة (بمعنى أنه كان مرجعية محل ثقة)، وفي عام ١٨٧٩، أعلن البابا ليو الثالث عشر أن الفكر الأكويني هو البيان الشافي للمذهب الكاثوليكي، وأنه يجب تدريسه في كل الكليات والجامعات الكاثوليكية. ما كان من الممكن أن يعترف به أيٌّ من أولئك البابوات لو أن كنيسة العصور الوسطى كانت مناهضة للعلم.

يمكن تطبيق التعليق التالي بشأن الفلك، المقتبس من جون هيلبورن على العلوم عامة:

> قدمت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الدعم المالي والاجتماعي لدراسة الفلك لمدة تتجاوز ستة قرون، بدءًا من التعافي من التعلم القديم في أواخر العصور الوسطى ووصولًا إلى عصر التنوير، أكثر مما قدمته أي مؤسسة أخرى، وربما كل المؤسسات الأخرى. (هيلبورن، ١٩٩٩: ٣)

صحيح أن الاكتشافات العظيمة لجاليليو ونيوتن وعصر التنوير حدثت في وقت لاحق، لكن الأعمال العلمية التي دعمتها الكنيسة في العصور الوسطى مهَّدت الطريق. كما يقول لورنس برينسيب، أستاذ الكيمياء وتاريخ العلوم والتكنولوجيا بجامعة جونز هوبكنز:

> يدرك مؤرخو العلوم الآن أن التطورات المذهلة للفترة التي يُطلق عليها الثورة العلمية قامت إلى حد كبير على المساهمات والأسس الإيجابية التي تعود إلى فترة أوج العصور الوسطى ... قدمت الملاحظات والنظريات القروسطية في حقول البصريات، والحركة، والفلك، والمادة وغيرها، معلومات مهمة ونقاط انطلاق لتطورات القرنين السادس عشر والسابع عشر. إن تأسيس الجامعات في العصور الوسطى، وظهور ثقافة النقاش، والصرامة المنطقية للاهوت الأكاديمي، كلها ساعدت في توفير مناخ وثقافة ضروريين للثورة العلمية. (برينسيب، ٢٠٠٩: ١٠٥)

المراجع

Augustine of Hippo. (1982) The literal meaning of Genesis, translated by John Taylor, in *Ancient Christian Writers: The Works of the Fathers in Translation*, volumes 41–42 (eds Johannes Quaesten *et al.*), Newman, New York.

Boorstin, D. (1983) *The Discoverers: A History of Man's Search to Know His World and Himself*, Random House, New York.

Draper, J.W. (1874) *History of the Conflict between Religion and Science*, D. Appleton and Co, New York.

Freeman, C. (2003) *The Closing of the Western Mind: The Rise of Faith and the Fall of Reason*, Knopf, New York.

Grant, E. (1984) Science in the medieval university, in *Rebirth, Reform, and Resilience: Universities in Transition, 1300–1700* (eds J. Kittleson and P. Transue), pp. 68–102, Ohio State University Press, Columbus OH.

Heilbron, J. (1999) *The Sun in the Church: Cathedrals as Solar Observatories*, Harvard University Press, Cambridge MA.

Numbers, R.L. (ed) (2009) *Galileo Goes to Jail and Other Myths about Science and Religion*, Harvard University Press, Cambridge MA.

Lawrence Principe (2009) That Catholics did not contribute to the scientific revolution, in *Galileo Goes to Jail and Other Myths about Science and Religion* (ed R.L. Numbers), Harvard University Press, Cambridge MA.

Sagan, C. (1980) *Cosmos*, Ballantine, New York.

Shank, M. (2009) That the medieval Christian Church suppressed the growth of science, in *Galileo Goes to Jail and Other Myths about Science and Religion* (ed R.L. Numbers) pp. 19–27, Harvard University Press, Cambridge MA.

Sparrow–Simpson, W.J. (ed) (2012) *The Letters of St. Augustine*, Hard Press Editions, Stockbridge MA.

Tertullian (2010) *Ad Nationes Book II*, Kessinger, Whitefish MT.

Tertullian (2012) *On the Testimony of the Soul and on the "Prescription of Heretics"*, Hard Press Editions, Stockbridge MA.

White, A.D. (1896) *A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom*, D. Appleton and Co., New York.

(٨) الكاثوليك ليسوا مسيحيين

> احذر! «الكنيسة» الرومانية الكاثوليكية ليست مسيحية. تتنافى كل تعاليم الدين الروماني الكاثوليكي في التطبيق العملي مع الكتاب المقدس تكرارًا ... إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هي أكبر طائفة دينية في العالم ولن يجاهر معظم المبشِّرين بقول ذلك لأنها كبيرة للغاية. (jesus-is-lord.com (على الإنترنت))

وفقًا لموقعَي jesus-is-lord.com وjesus-is-savior.com ليس الكاثوليكيون مسيحيين. يقدم موقع faithdefenders.com عشرة أسباب لهذا الزعم؛ أولًا: حقيقة أن الكنيسة الكاثوليكية تعتبر أن مريم، أم يسوع، يمكنها أن تتشفع لدى الله نيابةً عن هؤلاء الذين يُصلُّون لها. ثانيًا: أن الكنيسة الكاثوليكية تُقدِّم تعليمًا مفاده أن مريم وُلدت دون أن ترث الخطيئة الأصلية، وأنها عندما ماتت، أُخِذت إلى السماء، جسدًا وروحًا. ثالثًا: تشرح الكنيسة الكاثوليكية أيضًا أن مريم كانت عذراء على الدوام. رابعًا: تفيد الكنيسة أن الناس سوف يذهبون إلى المَطْهَر، حيث يُطَهَّرون من وصمة الخطيئة قبل دخول السماء. خامسًا: تجيز الكنيسة صور المسيح ومريم العذراء والملائكة والقديسين. سادسًا، لعل الأمر الأبشع هو أن الكنيسة تُلزِم الناس بالاعتراف بخطاياهم للكهنة المُخولين بحلهم منها. سابعًا، تُلزم الناس بتلقي أسرار مقدسة أخرى (يصفها موقع فيث ديفندرز بأنها «أعمال») لتحقيق الخلاص. ثامنًا، تُعلِّم الكنيسة أيضًا أن البابوات هم خلفاء المفوَّض أو «الوكيل» الأصلي الذي خوَّله يسوع بأن يكون بمنزلة مرجعية عليا للمجتمع. تاسعًا، يُعمِّد الكاثوليكيون الرُّضَّعَ كي يزيلوا وصمة «الخطيئة الأصلية». وأخيرًا، تشترط الكنيسة عزوبة كهنتها. من أجل هذه الأسباب، تخلُص الحجة إلى أنه ينبغي أن يكون واضحًا

«أن المسيحية الكتابية والتعليم الكاثوليكي لا يتفقان ... لا يمكن أن يكون المرء مسيحيًّا مؤمنًا بالكتاب المقدس وكاثوليكيًّا ملتزمًا معًا» (faithdefenders.com على الإنترنت).

تعكس هذه النظرة المعاصرة الموقف التقليدي للمعمدانيين؛ فمن بين أقدم الوثائق الرسمية للمعمدانيين وثيقة «إقرار الإيمان المعمداني» التي ترجع إلى عام ١٦٨٩ (الكنيسة المعمدانية، على الإنترنت). لا تزال هذه العقيدة مهمة عند المعمدانيين؛ إذ اعتمدتها جمعية الكنائس المعمدانية بفيلادلفيا عام ١٧٤٢. وهي تتألف من ٣٢ فصلًا تتناول قضايا أساسية للمعتقَد المعمداني، منها تلك القضايا التي دعت إلى فصل الكنيسة المعمدانية عن المسيحية الأنجليكانية في المقام الأول. ومن بين المعتقدات الأساسية كثير من تلك المعتقدات التي كان يتشاركها معظم المسيحيين، مثل اعتقاد الله الثالوث (الله الواحد ذي «الأقانيم» الثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس)، والمنشأ الإلهي لكل ما يوجد، والخطيئة الأصلية، وتعهُّد الله بإنجاء أولئك الذين يفعلون مشيئته (العهد)، وبأن المسيح وسيط للخلاص البشري، والإرادة الحرة التي هي القدرة على الاختيار ما بين الاعتقاد بيسوع بوصفه المصدر الوحيد للخلاص أو الامتناع عن ذلك. يعني ذلك أن الناس لا يمكن أن يحصلوا على الخلاص من خلال القيام بأعمال صالحة؛ وإنما تُظهِر الأعمال الصالحة أن الناس قد حصلوا على النجاة بالفعل بأن اختاروا اعتقاد الخلاص من خلال يسوع والخضوع لمعمودية بالتغطيس الكامل.

يناقش الفصل السادس والعشرون من وثيقة «إقرار الإيمان المعمداني» أيضًا طبيعة الكنيسة المسيحية العامة أو (الكاثوليكية) (الكنيسة المعمدانية، على الإنترنت). تتألف الكنيسة من «العدد الكامل للمختارين» (أولئك الذين اختاروا إظهار اعتقادهم بالخلاص من خلال التعميد بالتغطيس الكامل)، وليس لها سوى قائد واحد، يسوع. «الرب يسوع المسيح هو رأس الكنيسة المُخوَّل من قِبَل الآب كل السلطان لدعوة الكنيسة وتأسيسها وتنظيمها وقيادتها على نحوٍ أسمى وسيادي.» يسترسل الفصل: «ولا يمكن أن يكون بابا روما بأي شكل من الأشكال هو رأس الكنيسة مِن ثَمَّ، وإنما هو عدو المسيح، وإنسان الخطيئة، وابن الهلاك، الذي يمجد نفسه في الكنيسة في مواجهة المسيح، وكل ذلك الذي يُدعى الله؛ الذي سوف يدمره الرب ببهاء مجيئه.» ولَمَّا كان البابا عدو المسيح فلا يمكن اعتباره مسيحيًّا. ويستطرد بأن أولئك الذين يخضعون للسلطان البابوي، مُسمِّين أنفسهم كاثوليكيين، لا يمكن اعتبارهم مسيحيين أيضًا.

لا شك أن الكاثوليكيين يعتبرون أنفسهم مسيحيين. ومن الناحية الاصطلاحية، المسيحي هو أي شخص يعتبر يسوع هو المسيح — «المسيَّا». قد يختلف المسيحيون فيما

بينهم، لكن بتعبير دارج، يظلون مسيحيين ما داموا اختاروا أن يُعرِّفوا أنفسهم بأنهم مسيحيون.

ومع ذلك، يمكن تفهُّم رفض المعمدانيين السلطة البابوية. تعود أصولهم التاريخية إلى المسيحية الإنجليزية، التي أعلنت استقلالها عن سلطة البابا في «مرسوم السيادة الأول» الصادر عام ١٥٣٤. أعلن الملك هنري الثامن نفسه وخلفاءه من بعده قادة كنيسة إنجلترا. وكلُّ من خالف ذلك كان عرضة للاتهام بالخيانة. خلَف هنري ابنُه البالغ من العمر تسع سنوات، إدوارد السادس الذي واصل الأوصياء عليه سياسات هنري الدينية ومددوها. وعندما لقي إدوارد نحبه في سن السادسة عشرة، خلفته أخته غير الشقيقة ماري التي فسخت مرسوم السيادة وأعادت تثبيت الكاثوليكية. وكلُّ من خالفها كان عرضة للاتهام بالهرطقة. حازت ماري لقب «ماري الدموية» بسبب إعدامها مئات المنشقين الدينيين. وذهبت مجموعة من رجال الدين الإنجليز إلى المنفى لتجنب الاضطهاد. وخلفت إليزابيث الأولى أختَها غير الشقيقة ماري، وفي عام ١٥٥٨، نصَّب «مرسوم السيادة الثاني» الملوكَ البريطانيين مرة أخرى رءوسًا للكنيسة. وردًّا على ذلك، في عام ١٥٧٠ أعلن البابا بيوس الخامس الحرمان الكنسي لأولئك الذي أعلنوا ولاءهم للملكة البريطانية إليزابيث الأولى، ناعتًا إياها بالمهرطقة. ومع ذلك ظل هناك خلاف وسخط بين رجال الدين على ما بدا إسرافًا في الدنيوية وإضفاء طابع سياسي على المسيحية. يردُّ المؤرخون أصل التعليم المعمداني إلى أحد هؤلاء الخدام المنشقين الذين عاشوا في مطلع القرن السابع عشر، وهو جون سميث.

أكد سميث وأتباعه نقاء التعليم المسيحي، محتكمين إلى الكتاب المقدس وحده، وليس المذاهب التي من صنع المرجعيات الكنسية. ومن التعاليم الكتابية فكرة «عدو المسيح» (المذكورة في رسائل يوحنا). تُفهم الإشارة بأنها تنبؤ بأنه حينما يعود يسوع في آخر الزمان، فسوف يتصدى لهذا الشخص الشديد الشر ويهزمه. على أن العبارات المستخدمة في «إقرار الإيمان» الصادر عام ١٦٨٩ — «إنسان الخطيئة»، و«ابن الهلاك» — ليست مأخوذة من رسائل يوحنا وإنما من رسالة منسوبة إلى بولس الرسول، رسالة تسالونيكي الثانية. تعترض هذه الرسالة على الرأي القائل إن يسوع كان قد عاد بالفعل إلى مجتمعه، وذكرت أن المجيء الثاني لن يحدث إلا بعد حدوث اضطرابات وأن «إنسان الخطيئة ... ابن الهلاك» سوف يُستعلَن (تسالونيكي الثانية ٢: ٣).

يشير استخدام مثل هذه المصطلحات الصريحة بوضوح إلى أن الكنيسة المعمدانية في هذا الوقت شعرت بأنها مهددَّة بشدة من قِبَل الكنيسة الرومانية. لعل هذا الإحساس

بالخطر انتهى، لكن فكرة أن الكنيسة الكاثوليكية ليست مسيحية ما زالت مستمرة، وليست محصورة بالمثقفين على الإنترنت. إن الاختلافات بين الكنيستين الكاثوليكية والمعمدانية كبيرة بالدرجة التي جعلت المرجعيات الدينية تتصدى لها في القرن الماضي.

أصدرت الجمعية المعمدانية الجنوبية بالولايات المتحدة قرارًا في يونيو ١٩٩٤ بعنوان «قرار بشأن المعمدانية الجنوبية والكاثوليكية الرومانية». أكدت هذه الوثيقة مرة أخرى الاختلافات بين الاثنتين:

> اختلف المعمدانيون تاريخيًّا عن الرومان الكاثوليكيين في مسائل مثل: طبيعة الخلاص وسبله، وشخصية الكنيسة ووظيفتها، ودور المعمودية وتفسيرها، والعشاء الرباني، وتقديس العذراء مريم، وتبجيل القديسين، وعصمة البابا، وهيكل القيادة الكنسية، والعلاقة بين الكتاب المقدس والتقليد باعتبارهما مصدرَي السلطة الروحية والتعليمية للإيمان والممارسة. (الجمعية المعمدانية الجنوبية، ١٩٩٤)

غير أن القرار سلَّم بأن الطائفتين اشتركتا في المخاوف بشأن قدسية حياة الإنسان وقيم الأسرة، ومعارضة الإباحية، «وكفالة حقوق كل الأفراد دون اعتبار للاختلاف في الدين والعرق والنوع والطبقة، والكثير من نطاقات الاهتمام الأخلاقي الأخرى.» وعليه، خليق بجميع «المنظمات المسيحية» التضافر من أجل مواجهة المخاوف المشتركة. ومع ذلك، خلصت الوثيقة إلى أنها ملتزمة «بالمذهب المعمداني التاريخي» للتبرير «بالنعمة وحدها من خلال الإيمان وحده بالمسيح وحده دون أي إضافة من الأعمال الصالحة أو الجهود البشرية؛ ونحن نؤكد أن التبرير بالإيمان وحده هو من أساسيات الرسالة المسيحية.» ومِن ثَمَّ فالجمعية المعمدانية الجنوبية «تؤكد التزامها بالتبشير والشهادة الإرسالية بين المجتمعات والأفراد غير المتَّسمين بالاعتقاد الأصيل بالمسيح وحده.» بعبارة أخرى، تؤكد الوثيقة أن الكاثوليكيين لا يزالون بحاجة إلى اعتناق المسيحية كي يصيروا «جزءًا من الجماعات التي تنادي بتعاليم الكتاب المقدس وتمجيد المسيح.»

وعلى الرغم من أن هذا البيان به شيء من التناقض، فربما يمكن فهمه على أنه يُشير إلى أن الكاثوليكيين لا يزالون بحاجة إلى التحوُّل كيما يصيروا مسيحيين. ومع ذلك أُحرز تقدُّم في الاتصالات ما بين الطائفتين. ظلت الحوارات الكاثوليكية-المعمدانية جارية منذ

ثمانينيات القرن العشرين. وفي عام ٢٠٠٧ عقد البابا بندكت السادس عشر سلسلة من النقاشات بين المعمدانيين والكاثوليك. وفور إعلان البابا بندكت استقالته عام ٢٠١٣، أعرب رئيس الجمعية العالمية المعمدانية، جون أبتون، عن تقديره للحفاوة الكريمة التي استقبلهم بها البابا، وعن احترامه «أفكار الجماعات المسيحية الأخرى وآراءها». وعلق الأمين العام للجمعية نيفيل كالام بأن البابا بندكت السادس عشر كان «قد أمدَّ المجتمع المسيحي بمستودع غني بالتأملات يستحق الدراسة المتمعنة»، وأن الحوارات قد عزَّزت «الشهود المسيحي» (تحالف المعمدانيين العالمي، ٢٠١٣).

المراجع

Baptist Church (online) *The Baptist Confession of Faith of 1689 with Scripture Proofs*, Center for Reformed Theology and Apologetics (CRTA), www.reformed.org/documents/index.html?mainframe=http://www.reformed.org/documents/baptist_1689.html (accessed January 8, 2014).

Baptist World Alliance (2013) *BWA Leaders Laud Pope Benedict XVI*, http://christianchurchestogether.org/baptist-world-alliance-leaders-laud-popebenedict-xvi (accessed January 8, 2014).

faithdefenders.com (online) *Ten Reasons Why Christians and Catholics Do Not Agree*, www.faithdefenders.com/articles/worldreligions/Ten_reasons_why_Christ_Catho.html (accessed January 8, 2014).

jesus-is-lord (online) *Alert! The Roman Catholic "Church" is Not Christian*, www.jesus-is-lord.com/cath.htm (accessed January 8, 2014).

Southern Baptist Convention (1994) *Resolution on Southern Baptists and Roman Catholics*, www.sbc.net/resolutions/amResolution.asp?ID=964 (accessed January 8, 2014).

قراءات إضافية

Freeman, C.W. (2009) Baptists and Catholics together? Making up is hard to do, *Commonweal,* January 16.

(٩) أُسست الولايات المتحدة بوصفها دولة مسيحية

أنشأ الدستور الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها أمة مسيحية. (عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، جون ماكين، المرشح الرئاسي في عام ٢٠٠٨ في حوار أجري عام ٢٠٠٧ مع موقع beliefnet.com (جيلجوف، ٢٠٠٧))

في الولايات المتحدة الأمريكية، تتشابك المسيحية والسياسة تمامًا. وترفع أبنية الكنائس الأعلام الأمريكية. ويعين مجلس الشيوخ الأمريكي ومجلس النواب رجال دين، جميعهم من المسيحيين، لافتتاح كل جلسة بتلاوة الصلوات. وكثيرًا ما يتضرَّع الساسة إلى الله في خطبهم؛ وبعضهم يقود صلوات مسيحية جماعية مثل حاكم ولاية تكساس، ريك بيري. في عام ٢٠٠٤، خاض الخادم المعمداني آل شاربتون حملة لنيل ترشيح الحزب الديمقراطي له لخوض الانتخابات الرئاسية. وفي عام ٢٠٠٨، حصل الخادم بالطائفة المعمدانية الجنوبية مايك هاكابي على المركز الثاني من حيث عدد أصوات المندوبين لتسميته من قِبَل الحزب الجمهوري. ومنذ عام ١٩٥٣، يُعقد سنويًّا إفطار الصلاة القومي في واشنطن في الخميس الأول من شهر فبراير. ويتولى استضافة الزوَّار في هذا اليوم أعضاء من الكونجرس، وتنظمه مؤسسة الزمالة، وهي جماعة مسيحية محافظة، وتشتمل فعالياته على سلسلة من الاجتماعات، ووجبات إفطار وغداء وعشاء، ويخلط الدين والسياسة والأعمال التجارية.

تظهر على العملات المعدنية والورقية الأمريكية كلمتا «بالله نثق»، وقَسَم الولاء هو «لأمة واحدة خاضعة لله». ويقول أحد مقاطع النشيد الوطني:

ولتكن إذًا أبدًا حين يقف الرجال الأحرار،
بين وطنهم المحبوب وخراب الحرب؛
مباركة بالنصر والسلام، عسى الأرض المنقَذة من السماء
أن تُشيد بالقوة التي حفظتنا وجعلتنا أمة!

إذًا علينا أن ننتصر، عندما تكون قضيتنا عادلة،
ويكون شعارنا بعدئذٍ «بالله نثق»
والراية الموشَّاة بالنجوم سترفرف بالنصر
على أرض الأحرار وموطن الشجعان!

كثيرًا ما استخدم الرئيس رونالد ريجان اللغة المسيحية في خطاباته؛ فلدى قبوله الترشح عن الحزب الجمهوري عام ١٩٨٤، تحدَّث عن أمريكا على أنها «مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَلٍ.» وهي عبارة مأخوذة من الموعظة على الجبل (متَّى ٥: ١٤) كان لها أصداء كبيرة لدى الأمريكيين منذ أن استخدمها البيوريتاني جون وينثروب أولًا في وعظةٍ عام ١٦٣٠. وفي خطاب وداعه عام ١٩٨٩، أشار إلى أمريكا على أنها «مدينة شاهقة مزهوة، ومبنية على الصخر، وأقوى من المحيطات وقوة الرياح العاتية، ومباركة هي من الله، تعج بناس من مختلف الأنواع يعيشون معًا في تناغم وسلام.»

وحينما يحتفل الأمريكيون بأحداث من تاريخهم، كثيرًا ما يربطونها بالمسيحية؛ فقد أصدرت هيئة خدمات جيري فالويل، احتفالًا بالذكرى المئوية الثانية لإنشاء البلاد، نسخة من الكتاب المقدس للذكرى المئوية الثانية، وعلى غلافها الأمامي صورة لناقوس الحرية وإلى جانبه عبارة «١٧٧٦–١٩٧٦»، فوق اقتباس من رسالة كورنثوس الثانية (٣: ١٧) يقول: «... وَحَيْثُ رُوحُ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ.»

بالنظر إلى كل هذا الخلط بين المسيحية والسياسة الأمريكية، فليس من المستغرب أن كثيرين يخالجهم الظن بأن أمريكا أسسها المسيحيون لتكون بلدًا مسيحيًّا. هذا الادعاء ادعاه عشرات الساسة والشخصيات الإعلامية، مثل عضو مجلس الشيوخ جون ماكين في الاقتباس المذكور في بداية هذا الجزء. غير أنه، في حقيقة الأمر، لا يذكر الدستور الأمريكي المسيحية، أو يسوع، أو الله، أو الكتاب المقدس. وإن كانت كلمة دين قد وردت في الدستور، فقد كان هذا فقط لتأكيد أنه «لا يجوز أبدًا اشتراط امتحان ديني بوصفه مؤهلًا لتبوء أي منصب رسمي أو مسئولية عامة في ظل الولايات المتحدة» (المادة ٥، الفقرة ٣). بل وتمادى التعديل الأول للدستور، مؤكدًا أن الدولة لن يكون لها أبدًا دين رسمي.

كان لمعظم المستعمرات الأمريكية، على غرار معظم البلدان الأوروبية في ذلك الوقت، ديانات رسمية تدعمها الحكومة، غير أن واضعي الدستور رفضوا فكرة وجود دين رسمي للأمة الجديدة. فدين قومي يمكن أن يصير ذريعة لمساندة الطغاة واضطهاد الأقلية، وكلاهما حدث بالفعل في أوروبا. ومِن ثَمَّ أصرَّ مؤسسو الولايات المتحدة على

إبعاد الدين عن السياسة. وكانت الواقعة السابقة لفصل الدين عن السياسة في الدستور، هي «إعلان فيرجينيا للحريات الدينية» الذي كتبه توماس جيفرسون عام ١٧٧٧، وتم تمريره بعد إدخال تنقيحات عليه في عام١٧٨٦. ووفقًا لجيمس ماديسون، صديق توماس جيفرسون، وخليفته رئيسًا، هذا الإعلان «أخمد إلى الأبد الأمل الطموح في سن قوانين لعقل الإنسان» (ماديسون، ١٧٨٦). يُذكر في الإعلان:

> تُقِر الجمعية العمومية أنه لا يجوز إجبار أي شخص على المواظبة على أي عبادة، أو مكان، أو هيئة دينية من أي نوع، أو تأييدها، أو أن يُجبَر أو يُقيَّد أو يؤذى أو يُشَق عليه في بدنه أو ممتلكاته، أو يعاني بطريقة أخرى بسبب آرائه الدينية أو معتقده؛ ولكن يتمتع كل الناس بحرِّية المجاهرة بآرائهم في الأمور الدينية وحمايتها بالنقاش والحُجة.

حقيقةُ أن الولايات المتحدة لم تؤسَّس بوصفها دولة مسيحية أُقِرت في اتفاقية كُتِبت في ظل رئاسة جورج واشنطن، ووُقعت في ظل رئاسة جون آدمز. في عام ١٧٩٦ تممت الأمة الجديدة معاهدة مع طرابلس (فيما يُعرَف بليبيا الحالية). تنص المادة الحادية عشرة أنه بالنظر إلى أنه لا شيء يربط الولايات المتحدة بالمسيحية، تتطلع الحكومة الأمريكية إلى بناء علاقات طيبة مع دولة طرابلس ذات الأغلبية المسلمة:

> حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ليست مؤسسة، بأي حال من الأحوال، على الدين المسيحي — حيث إنها لا تتسم بأي طابع عدائي ضد شرائع المسلمين أو دينهم أو سِلمهم — وحيث إن الولايات المذكورة لم تدخل قطُّ في أي حرب أو عمل من أعمال العدوان ضد أي أمة محمدية [مسلمة]، يعلن الطرفان أنه ما من ذريعة تنبع من الآراء الدينية ستتسبب أبدًا في إفساد الانسجام القائم بين البلدين. (مشروع أفالون، على الإنترنت)

إن حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تؤسَّس بوصفها أمة مسيحية لا تستبعد بالطبع إمكانية أن مؤسسيها كانوا مسيحيين. لكن نظرة متمعنة فيما قالوه وما كتبوه تبيِّن أن معظمهم لم يكونوا مسيحيين، وإنما كانوا ربوبيين. الربوبية هي نظرة إلى العالم نشأت في عصر التنوير في القرن الثامن عشر، وراجت بين العلماء والمفكرين. يؤمن الربوبيون أن الله خلق العالم، وأنه يتركه يدور وفقًا لقوانين الطبيعة، التي تُسمى في بعض الأحيان القوانين العلمية.

وعلى خلاف قوانين الإنسان، لا يمكن خرق قوانين الطبيعة. انظر إلى قوانين الجاذبية. إن كان شخص يقف مباشرة تحت صخرة هاوية، فستصيبه. ثمة اختلاف ها هنا بين الربوبيين والمسيحيين. يعتقد المسيحيون أن الله يجيب بعض الصلوات بالإخلال بقوانين الطبيعة. لو أن امرأً يمشي عبر وادٍ عميق ونظر إلى أعلى ليجد صخرة ساقطة وصلى إلى الله، فعندئذٍ قد يجعل الله الصخرة تغير مسارها أو حتى تختفي. لكن الربوبيين يقولون إن الله إذ أرسى قوانين الطبيعة، فلن يخرقها. ولأن الربوبيين يؤمنون بأن العالم تحكمه قوانين الطبيعة، فهم لا يؤمنون بالمعجزات أو بالصلوات التي تطلب من الله التدخل في النظام الطبيعي للأشياء.

علاوة على هذا، ولأن الربوبيين لا يؤمنون بأن الله يتدخل في الطبيعة؛ فإنهم يرفضون فكرة أن الله أوحى لبشر بالكتب المقدسة. من وجهة نظرهم، الكتب المقدسة هي مجموعة من الكتابات البشرية. وإن كان الله لا يتدخل في العالم، أيضًا، فهو لم يتجسد في صورة إنسان. يسوع ليس الله. ومِن ثَمَّ يرفض الربوبيون أيضًا مبدأ الثالوث.

وكعينة تمثيلية للآباء المؤسسين للولايات المتحدة، لنتأمل في بنجامين فرانكلين، وتوماس بين، وجورج واشنطن، وجون آدمز، وتوماس جيفرسون، وجيمس ماديسون. وفقًا لمعظم المؤرخين لم يكن أيٌّ منهم مسيحيًّا.

كان بنجامين فرانكلين (تُوفي عام ١٧٩٠) أكبر الآباء المؤسسين وأشهر أمريكي في عصره. ولَّما كان عالمًا وزعيمًا سياسيًّا وكاتبًا، فقد ساعد في تنظيم الثورة وكتابة «إعلان الاستقلال» والدستور. وفي المسائل الدينية، بدأ منشقًا — مسيحيًّا رفض كنيسة إنجلترا. لكن فرانكلين يصف حدثًا غيَّر مجرى حياته خلال سنوات مراهقته:

> وقع في يدي بعض الكتب التي تهاجم الربوبية ... وحدث أنها تركت فيَّ أثرًا معاكسًا لذلك الذي قُصد بها؛ حيث إن حجج الربوبية المقتبَسة بغية دحضها بدت لي أمتن كثيرًا من الدحض نفسه؛ باختصار، سرعان ما صرتُ ربوبيًّا بالكامل. (فرانكلين ١٩٩٦: ص٢٧)

لأن فرانكلين رأى الله بوصفه الخالقَ الذي يَدَع العالم يدور من تلقاء ذاته؛ فإنه لم يرَ الكنائس والعبادة مناسبتين. «لا يمكنني أن أدرك سوى أنه هو، الآب غير المحدود، لا ينتظر ولا يطلب عبادة أو ثناءً منا، ولكنه أسمى من ذلك قطعًا» (فرانكلين، ١٧٢٨).

أغلب الظن أن توماس بين (تُوفي عام ١٨٠٩) كانت له اليد الطولى في بدء الثورة الأمريكية عندما نشر في يناير ١٧٧٦ كتاب «الفطرة السليمة» (بين ٢٠٠٥). كان معظم

الأمريكيين في ذلك الوقت يتمنون أن خلافاتهم مع بريطانيا يمكن حلها بشكل سلمي، غير أن منشور بين التحريضي جادل بأن بريطانيا لن تعاملهم بنزاهة، أبدًا، ومِن ثَمَّ يجدر بهم أن يعلنوا استقلالهم. وفي الأمور الدينية، كان بين ثوريًّا بالقدر نفسه. قدَّم كتابه الأكثر مبيعًا «عصر العقل: تحقيق الثيولوجيا الحقيقية والخيالية» (١٧٩٤، ١٧٩٥، ١٨٠٧) الربوبية إلى جموع الأمريكيين، بالإضافة إلى نقد عقلاني للمسيحية وللأديان الطائفية الأخرى كافة.

ربوبية بين متمثلة في الفصل العاشر في الجزء الأول من كتاب «عصر العقل»:

> الفكرة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن يلصقها باسم الله هي فكرة أنه «العلة الأولى»، علة كل الأشياء ... كل شيء نراه يحمل في ذاته الأدلة الداخلية على أنه لم يصنع نفسه ... والاقتناع المنبثق من هذه الأدلة هو ما يحملنا، وكأنه بالضرورة، على الإيمان بعلَّة أولى موجودة إلى الأبد، من طبيعة مختلفة تمام الاختلاف عن أي وجود مادي سمعنا به، وبقوتها توجد الأشياء كلها؛ وهذه العلة الأولى يسميها الإنسان الله.

لو كان الزعماء الدينيون راضين بهذا الإيمان بالعلة الأولى، كما يقول بين، لصاغوا أعرافًا معقولة. لكنهم بدلًا من هذا صاغوا أفكارًا تتنافى مع الله الأبدي اللامحدود الكلي الصلاح:

> كلما قرأنا القصص السفيهة، والفسق الشهواني، والإعدامات القاسية الموجعة، والانتقام الحرون، التي يعج بها أكثر من نصف الكتاب المقدس، سيكون أكثر ملاءمة أن ندعوه كلمة الشيطان من أن ندعوه كلمة الله. إنه تاريخ للشر ساعد في إفساد البشرية وجعلها متوحشة. (بين، ١٧٩٤، ١٧٩٥، ١٨٠٧، الجزء الأول، القسم الرابع)

> ماذا يعلِّمنا العهد الجديد؟ يعلِّمنا أن نؤمن بأن «القدير» ارتكب الفجور مع امرأة مخطوبة لرجل لتتزوج منه؛ والاعتقاد بهذا الفجور يُدعى إيمانًا. (بين، ١٧٩٤، ١٧٩٥، ١٨٠٧، الجزء الثاني، القسم العشرون)

ربما كان جورج واشنطن (تُوفي عام ١٧٩٩) أكثر المؤسسين تبجيلًا، وأول رئيس للبلاد يرتاد اجتماعات الكنيسة الإنجيلية، ومع ذلك يقول عنه معظم المؤرخين إنه كان ربوبيًّا (بولر ١٩٦٣: ١٤–١٥). يُستند في هذا إلى زعم توماس جيفرسون «طالما أخبرني جوفرنور

موريس بأن الجنرال واشنطن لم يعد يؤمن بهذا النظام (المسيحية) أكثر مما آمن به هو» (توماس جيفرسون، ١٨٠٠). ومع أن واشنطن قلَّما كتب في الأمور الدينية؛ فإنه كان يُعبِّر من حين إلى آخر عن ازدرائه بشِقاق الدين:

> دائمًا ما تكون التناقضات الدينية منتِجة لمرارة ومشاعر كراهية مستعصية أكثر مما ينبع من أي سبب آخر. (جورج واشنطن، خطاب إلى إدوارد نوينهام، ٢٠ أكتوبر ١٧٩٢، في سيلدس، ١٩٨٣)

وعلى غرار واشنطن، كان لدى جون آدمز (تُوفي عام ١٨٢٦)، ثاني رئيس للولايات المتحدة، توجُّه سلبي تجاه الانقسامات الكثيرة داخل المسيحية، التي رأى أنها مؤسسة على المذاهب التي أنشأها قادة الكنيسة، لا الكتاب المقدس. وبالفعل، بدا أنه كان يرفض سلطة الكنيسة. وكتب في مذكراته: «في أي موضع من الإنجيل نجد وصية تأمرنا بمجامع كنسية، واجتماعات، ومجالس، ومراسيم، وعقائد، واعترافات، وأَيْمان، واشتراكات، وكمٍّ مهولٍ من التفاهات الأخرى التي نجد الدين رازحًا تحتها في هذه الأيام؟» وكان من ضمن هذه «التفاهات» ألوهية المسيح التي سمَّاها آدمز «غطاءً مناسبًا تتستر تحته السخافة» (آدمز، ١٨٥٠: ٤).

آمن توماس جيفرسون (تُوفي عام ١٨٢٦)، المؤلف الأساسي لإعلان الاستقلال، الرئيس الثالث، بالخالق، وبيسوع معلِّمًا أخلاقيًّا. لكنه رفض التعليم الذي يقول إن المسيح هو الله، مشيرًا إلى هذا المبدأ بأنه «خزعبلات تشبِّه الله بوحش سيربيروس آخر له جسم وثلاثة رءوس» (خطاب إلى جيمس سميث، ٨ ديسمبر ١٨٢٢؛ آدمز ولاستر، ١٩٨٣). وعلى غرار أول رئيسين، رأى جيفرسون أن انقسامات المسيحية إلى آلاف الطوائف كان خطأً. ذكر في كتابه «مذكرات عن فرجينيا»:

> منذ دخول المسيحية وملايين من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء يتعرضون للحرق والتعذيب والتغريم والسجن؛ ومع ذلك لم نتقدَّم قيد أُنملة نحو الاتساق. ماذا كان أثر الإكراه؟ أن جعل نصف العالم حمقى والنصف الآخر منافقين، أن عزز الغش والخطأ في كل أرجاء المسكونة. (بيدين، ١٩٥٤)

ولأن جيفرسون كان أكثر ثورية من آدمز؛ فإنه كان شديد الانتقاد للأناجيل: «نجد في الأناجيل أرضية لجهل بذيء، ولأمور مستحيلة، ولخرافات، ولتعصب وافتراءات»

(فورد، ١٩٠٤–١٩٠٥: ٣٢٥). ولكي يُبقي جيفرسون على ما رأى أنه تعاليم يسوع الأخلاقية الثمينة، نقَّح العهد الجديد بحذف الأجزاء الخارقة للطبيعة ثم لصق الأجزاء المتبقية معًا. واليوم يُطلق عليه «إنجيل جيفرسون»؛ أما هو فأطلق عليه «حياة يسوع الناصري وأخلاقه» (جيفرسون، ٢٠٠٩). يحذف هذا النص كل قصص المعجزات، وينتهي بفقرة من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل يوحنا: «وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ بُسْتَانٌ وَفِي الْبُسْتَانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ. فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ. وَوَضَعَا حَجَرًا كَبِيرًا عَلى بابِ القَبْر ورَحَلا.»

كان جيمس ماديسون (تُوفي عام ١٨٣٦) الذي كان يُلقَّب «أبا الدستور» أيضًا ناقدًا للكنائس المتعددة المنقسمة. في عام ١٧٨٥، حينما كانت ولاية فرجينيا تنظر في مشروع قانون لجبي الضرائب لمساندة تعاليم المسيحية، كتب ماديسون في القسم السابع من وثيقته «تذكار واحتجاج ضد التقويمات الدينية»:

> تشهد التجربة أن المؤسسات الكنسية، بدلًا من أن تحفظ نقاوة الدين وفاعليته، كانت لها عملية مناقضة؛ فعلى مدار خمسة عشر قرنًا تقريبًا كان التأسيس الشرعي للمسيحية محل اختبار. فماذا كانت ثماره؟ ساد في كل مكان بقدر أو آخر كبرياء وتكاسل بين رجال الدين، وجهل وخنوع بين العامة، وبين هذا وذاك خرافات وتعصب واضطهاد. (بوركيت، ٢٠١٣)

إذا كانت الولايات المتحدة لم تنشأ بوصفها أمة مسيحية، إذًا، فمتى وكيف بدأت الفكرة؟ في القرن التاسع عشر، شهد البلد الجديد موجات عديدة من التبشير المسيحي — التبشير بالإنجيل — بالإضافة إلى مولد ديانات جديدة مثل «كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة» (المورمونية) و«الأدفنتست السبتيين». أضاف كثير من المبشرين إلى تعاليم المسيحية التقليدية فكرة أن الأمة الجديدة كانت لها علاقة خاصة مع الله؛ وسمَّاها بعضهم «إسرائيل الجديدة». لكن هذا التوجه لم يعكس آراء مؤسسي الدولة. كانوا شديدي الانتقاد للمسيحية لدرجة أنه في إحدى الوعظات التي وردت في الصحف عام ١٨٣١، تأفف خادم أسقفي يُدعى دكتور بيرد ويلسون في مدينة ألباني بولاية نيويورك، من أن «مؤسسي أمتنا كانوا كلهم تقريبًا كفارًا»، ومن أن الرؤساء «الذين انتُخِبوا حتى الآن لم يعبِّر أيٌّ منهم عن اعتقادٍ للمسيحية» (ريمسبرج، ١٩٠٦: ١٢٠).

المراجع

Adams, C. (1850) *The Works of John Adams, Second President of the United States: With a Life of the Author, Notes, and Illustrations*, Volume 2, p. 4, Charles C. Little and James Brown, Boston.

Adams, D.W. and Lester, R.W. (eds) (1983) *Jefferson's Extracts from the Gospels: "The Philosophy of Jesus" and "The Life and Morals of Jesus"*, Princeton University Press, Princeton, 408–410.

Avalon Project (online) The Barbary Treaties 1786–1816: Treaty of Peace and Friendship, Signed at Tripoli November 4, 1796, http://avalon.law.yale.edu/18th_century/bar1796t.asp (accessed January 11, 2014).

Boller, P. (1963). *George Washington and Religion,* Southern Methodist University Press, Dallas.

Burkett, C. (ed) (2013) *50 Core American Documents*, Ashbrook Press, Ashland OH, p. 9.

Ford, P. (ed) (1904–1905) *Works of Thomas Jefferson*, Volume 4. New York: G. P. Putnam's Sons.

Franklin, B. (1728). *Articles of Belief and Acts of Religion.*

Franklin, B. (1996) *Autobiography of Benjamin Franklin*, Dover, New York.

Gilgoff, D. (2007) *John McCain: Constitution Establised a "Christian Nation"*, www.beliefnet.com/News/Politics/2007/06/John-Mccain-Constitution-Established-A-Christian-Nation.aspx (accessed January 8, 2014).

Jefferson, T. (1800) private journal, February, in *The Works*, Vol. 4 (Thomas Jefferson, 1904–1905), G.P. Putnam's Sons, New York, p. 572.

Jefferson, T. (2009) *The Jefferson Bible: The Life and Morals of Jesus of Nazareth*, Wilder Publications, Radford VA.

Madison, J. (1786) *Madison Letter to Jefferson on the Bill Concerning Religious Freedom*, January 22, www.churchstatelaw.com/historicalmaterials/8_7_7.asp (accessed January 11, 2014).

Paine, T. (1794, 1795, 1807) The Age of Reason: Being an Investigation of True and Fabulous Theology. *Common Sense and Other Writings* (T. Thomas, 2005), Barnes and Noble Classics, New York.

Paine, T. (2005) *Common Sense and Other Writings*, Barnes and Noble Classics, New York.

Peden, W. (ed) (1954) *Notes on the State of Virginia*, Chapel Hill: University of North Carolina Press for the Institute of Early American History and Culture, Williamsburg, Virginia, Query 17.

Remsberg, J. (1906) *Six Historic Americans*, The Truth Seeker, New York.

Seldes, G. (ed) (1983) *The Great Quotations*, Citadel Press, Secaucus, New Jersey, p. 726.

الفصل الخامس

خرافات عن الإسلام، والمسلمين، والقرآن

(١) معظم المسلمين عرب وكل العرب مسلمون.
(٢) يعبد المسلمون إلهًا مختلفًا.
(٣) يُدين القرآن اليهودية والمسيحية.
(٤) يعني «الجهاد» الحرب المقدسة.
(٥) يُشجع القرآن العنف.
(٦) يُبيح القرآن إساءة معاملة النساء.
(٧) يَعِد القرآن الانتحاريين باثنتين وسبعين حورية في الجنة.
(٨) يرفض المسلمون الديمقراطية.
(٩) يخفق المسلمون في إعلان إدانتهم للإرهاب.
(١٠) يرغب المسلمون الأمريكيون في فرض الشريعة الإسلامية على الولايات المتحدة.

مقدمة

ذكرنا في الفصل الأول صفات بشرية عدة تؤدي إلى صنع الخرافات. إحداها أننا حيوانات اجتماعية نزَّاعة لرهاب الأجانب؛ الخوف من الغرباء يؤدي في كثير من الأحيان إلى الكراهية. ورأينا في الفصل الثالث أمثلة لهذه النزعة في خرافات معاداة الساميَّة. في هذا الفصل نرى مثالًا آخر: الخوف من المسلمين وكراهيتهم. اليوم يُطلق عليه «الإسلاموفوبيا»، وهو مصطلح استُخدم أول ما استُخدم في سيرة لحياة نبي الإسلام محمد، كُتبت باللغة الفرنسية عام ١٩١٨، خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر — «حياة محمد، نبي الله» لألفونس إتيان دينيه وسليمان بن إبراهيم (١٩٣٧). للظاهرة جذور تمتد طويلًا حتى أول ظهور

للإسلام بوصفه تهديدًا للسيطرة الرومانية على الشرق الأوسط. لكنها أصبحت ظاهرة بارزة في الولايات المتحدة وأوروبا منذ الأعمال الوحشية التي ارتكبها إرهابيون باسم الإسلام طوال السنوات العشرين الماضية.

المراجع

Dinet, A.É. and ben Ibrahim, S. (1937) *La Vie de Mohammed, Prophète d'Allah*, G.-P. Maisonneuve, Paris.

(١) معظم المسلمين عرب وكل العرب مسلمون

> لا يا سيدتي، [باراك أوباما] رب عائلة مهذب، مواطن تصادف أن بيني وبينه اختلافات كبيرة حول المسائل الأساسية. (جون ماكين في أحد التجمعات الانتخابية في مدينة كولومبوس، بولاية أوهايو، في ١٠ أكتوبر، ٢٠٠٨، ردًّا على تعليق يقول إن السيد أوباما كان خطرًا لأنه كان عربيًّا. (شير، ٢٠٠٨))

تكشف الحادثة المُشار إليها أعلاه الخرافات السائدة حول المسلمين: أن كل المسلمين عرب، وأنهم يُخشَون. الواقع أن الأغلبية الساحقة من المسلمين ليسوا عربًا. الإسلام هو ثاني أكبر ديانة في العالم؛ حيث يبلغ عدد المسلمين حوالي ١,٦ بليون شخص، أو ما نسبته ٢٣ في المائة من سكان الكرة الأرضية. وهناك ٢٢ دولة ذات أغلبية ناطقة باللغة العربية: الجزائر، والبحرين، وجزر القمر، وجيبوتي، ومصر، والعراق، والأردن، والكويت، ولبنان، وليبيا، وفلسطين وموريتانيا، والمغرب، وعُمان، وقطر، والمملكة العربية السعودية، والصومال، والسودان، وسوريا، وتونس، والإمارات العربية المتحدة، واليمن — لكنها تشكل أقل من ٢٠ في المائة من المسلمين بالعالم. الأغلبية الساحقة من المسلمين ليسوا عربًا.

الدولة التي تحتوي على أكبر عدد من المسلمين هي إندونيسيا، التي تبعد ٤٠٠٠ ميل عن أقرب دولة عربية. إندونيسيا موطن أكثر من ٢٠٠ مليون مسلم؛ أي أكثر من ضعف عدد المسلمين بمصر، التي تعد أشهر بلد عربي. والبلدان التي تلي إندونيسيا من حيث أكبر تجمع سكاني من المسلمين هي باكستان، بنسبة ١١ في المائة من إجمالي

عدد المسلمين في العالم، الهند بنسبة ١٠,٩ في المائة، بنجلاديش بنسبة ٩,٢ في المائة. ليس أيٌّ منها بلدًا عربيًّا. من البلدان غير العربية الأخرى التي تضم أعدادًا كبيرة من السكان المسلمين نيجيريا التي يقطنها ٧٥,٧ مليون مسلم، أوزبكستان التي بها ٢٦,٨ مليون مسلم، الصين التي بها ٢٣,٣ مليون مسلم، وروسيا التي بها ١٦,٤ مليون مسلم. وعدد المسلمين بالصين أكبر من عددهم في سوريا، وتقريبًا مثل عددهم في المملكة العربية السعودية.

حتى في الشرق الأوسط، البلدان التي تحتوي على أكبر عدد من السكان المسلمين ليست عربية. ولا يوجد تعريف واحد لكلمة «عربي»، لكن الأغلب أن المصطلح يُشير إلى أولئك الناطقين الأصليين باللغة العربية. اللغة العربية هي لغة سامية مثل العبرية. والواقع أن اللغة العربية هي أوسع اللغات الساميَّة المنطوقة شيوعًا، تليها اللغة الأمهرية (يتحدث بها سكان إثيوبيا، وهي دولة أغلبيتها مسيحية في شرق أفريقيا)، تليهما العبرية (إحدى اللغتين الرسميتين بإسرائيل؛ العربية هي اللغة الأخرى). اللغة الآرامية — التي كان يتحدث بها يسوع — هي لغة سامية أيضًا، وما زال يتحدث بها بعض الناس في سوريا. يوجد أكبر تجمع سكاني من المسلمين في بلدان الشرق الأوسط في تركيا وإيران. تنتمي اللغة التركية إلى مجموعة لغوية مختلفة. التركية لها بنية ومفردات وكتابة مختلفة تمامًا عن العربية. لغة إيران هي الفارسية؛ الواقع أن إيران كانت تُسمى بلاد فارس حتى عام ١٩٣٥. الفارسية هي لغة هندية-أوروبية، ذات صلة بالإنجليزية والألمانية. وهي تستخدم كتابة عربية معدَّلة لكن مفرداتها وبنيتها مختلفتان أيضًا عما في العربية.

إضافة إلى هذا، ليس كل العرب مسلمين. فكل البلدان ذات الأغلبية العربية، باستثناء السعودية، تضم نسبة كبيرة من السكان غير المسلمين، المسيحيين في المقام الأول. عدد السكان المسيحيين بمصر هو الأكبر في الشرق الأوسط — تتراوح التقديرات ما بين ١٠ في المائة و١٨ في المائة من السكان — مع أن لبنان هي الكبرى من حيث نسبتهم التي تقترب من ٤٠ في المائة من سكانها. وعلى الرغم من أن معظم يهود الشرق الأوسط انتقلوا من البلدان العربية إلى إسرائيل عقب إنشائها عام ١٩٤٨، لا يزال هناك يهود فُرس، ويهود أتراك، ويهود عرب. سفيرة البحرين لدى الولايات المتحدة، هدى نونو، هي امرأة يهودية.

وفي الولايات المتحدة، أغلبية السكان الذين يُعرِّفون أنفسهم بأنهم «أمريكيون عرب» — نحو ثلثيهم — مسيحيون وليسوا مسلمين. من بين هؤلاء شخصيات سياسية مثل دارِل عيسى، وجون سنونو، وسبنسر أبراهام، ودونا شلالا، وجورج ميتشل، وكذلك

شخصيات رياضية مثل دوج فلوتي، وبوبي رحال، ومصمم الأزياء جوزيف عبود، وجراح القلب مايكل دبيكي، ورائدة الفضاء كريستا مكوليف، والفنانون، مثل الموسيقار فرانك زابا، والفنانة الموسيقية باولا عبدول، والممثلة ويندي مالك، والممثل توني شلهوب، والممثلة سلمى حايك.

كان للخلط ما بين العرب والمسلمين عواقب مأساوية في ساحة جرائم الكراهية. لا شك في أن مرتكبي الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانوا رجالًا عربًا. لا يعني هذا بالطبع أن كل الرجال العرب إرهابيون، لكن، كما هو متوقع، ارتفعت جرائم الكراهية ضد العرب بعد تلك الأحداث البشعة ارتفاعًا حادًّا. ومع ذلك، فقد سبق، مع الأسف، أن أعقبت جرائم الكراهية ضد الأمريكيين العرب والأمريكيين المسلمين أيضًا الهجوم الإرهابي عام ١٩٩٥ على المبنى الفيدرالي بمدينة أوكلاهوما سيتي بولاية أوكلاهوما، حيث أودت شاحنة محملة بالمتفجرات بحياة ١٦٨ شخصًا، وجرحت أكثر من ٥٠٠ شخص. أُدين في هذا التفجير تيموثي مك فاي وتيري نيكولاس، وكلاهما من المسيحيين البيض غير العرب. والأكثر من ذلك، أن أناسًا كثيرين ليسوا عربًا ولا مسلمين راحوا ضحية جرائم الكراهية الموجهة ضد العرب و/أو المسلمين. صار الرجال السيخ، وهم أتباع تقليد توحيدي من جنوب آسيا معروفون بارتداء عمامات مميزة، ضحايا مرارًا. فبعد أربعة أيام فقط من هجمات ١١ سبتمبر، اغتيل صاحب محطة بنزين بولاية أريزونا يُدعى بالبير سينغ سودهي، في عملية ثأر واضح من الهجمات. وفي نوفمبر ٢٠٠٩، حينما سأل كاهن من طائفة الروم الأرثوذكس رجلًا عن الاتجاهات، ضربه الرجل بقضيب الإطارات الحديدي، وثبَّته على الأرض، واتصل برقم ٩١١ (الطوارئ) مبلغًا أنه أمسك بإرهابي.

المراجع

Shear, M.D. (2008) McCain Moves to Soften the Tone at Rallies, if Not in Ads, *Washington Post,* October 11.

(٢) يعبد المسلمون إلهًا مختلفًا

العالم كله يمزقه الصراع الديني ... سواء أكان هُبَل، إله القمر في مكة، المعروف باسم «الله» هو الأسمى، أم كان «يهوه» اليهودي-المسيحي، الله المذكور في

الكتاب المقدس هو الأسمى. (بات روبرتسون، رئيس شبكة الإذاعة المسيحية، مؤسِّس جامعة ريجنت، وأحد المرشحين للرئاسة الأمريكية في عام ١٩٨٨، في خطاب بمدينة هرتسليا بإسرائيل، ديسمبر ٢٠٠٣ (روبرتسون، ٢٠٠٣))

كما يشير الاقتباس المذكور أعلاه، ثمة اعتقاد شائع بأن «الله»، الإله الذي يعبده المسلمون، يختلف عن «الله» الذي يعبده الموحِّدون الآخرون. ومن المبشرين المسيحيين الآخرين الذين يؤكدون أن المسلمين يعبدون إلهًا وثنيًّا، رود بارسلي، المبشر التليفزيوني، راعي كنيسة ورلد هارفست بمدينة كولومبوس، ولاية أوهايو. خلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠٨، خاض الحملة الانتخابية مع حملة جون ماكين. في كتابه «كفانا صمتًا: جلب الوضوح الأخلاقي لأمريكا ... بينما لا تزال الحرية تدق أجراسها» (٢٠٠٦)، يقدِّم بارسلي الإسلام على أنه «ديانة عدو المسيح» القائمة على «الخداع»؛ فالنبي محمد «تسلَّم النصوص المُوحَى بها من الشياطين لا من الله الحقيقي.» ويقول إن ««الله» هو في الحقيقة روح شريرة.»

وليس المبشرون المسيحيون الوحيدين الذين يقولون إن المسلمين يعبدون إلهًا مختلفًا. فالتدوينة المُعنونة بـ «لماذا «الله» Allah ليس الله God؟» على الموقع الإلكتروني الشهير «إسلام ووتش» تناقش أمرين؛ أولهما أن الله الإسلام لا يمكن أن يكون الله الكتاب المقدس؛ لأنه غير كامل أخلاقيًّا؛ إذ يحض على العنصرية، والشهوانية، والعبودية، وذبح غير المؤمنين. ثانيًا: أن محمدًا اخترع «الله» ليسوِّغ سلوكه الداعر.

ستكشف أي دراسة متأنية للقرآن وحياة محمد لأي شخص موضوعي الرأي أن محمدًا لم يتحدث قطُّ إلى إله خارق للطبيعة أو يتسلَّم الوحي من مثل هذا الكائن. اخترع محمد «الله» وحوَّله إلى إله مجرم ليمنح نفسه قوة سياسية، ويستغل تعاليمه الملفقة التي يزعم أنه تسلمها من «الله» مُتخيَّل، بوصفها تبريرًا دينيًّا وشرعيًّا لإجرامه. ولا يوجد «الله» إلَّا في خيال محمد. محمد و«الله» واحد — اثنان في واحد. بمباركة «الله»، مارَس محمد الخديعة والتعذيب والقتل والاغتيال والذبح والإبادة والسلب والاستعباد والاغتصاب بوصفها أفعالًا حلالًا (شرعية)، جزاؤها الجنة طالما أنها تُرتكب ضد كفار. وصارت هذه التعاليم الشريرة اللاأخلاقية شريعة «الله» الأبدية («إسلام ووتش»، على الإنترنت).

على الرغم من هذه الادعاءات؛ فإن لفظة «الله» ليست إلا الترجمة العربية لكلمة «الإله (الواحد)». وهي الكلمة التي يستخدمها المسيحيون واليهود العرب للإشارة إلى الله. استخدم المبشرون المسيحيون الذين ترجموا الكتاب المقدس إلى اللغة العربية لفظة «الله»

للإشارة إلى الله، وهو شيء ما كانوا ليفعلوه لو أنهم اعتقدوا أن كلمة «الله» تعني إلهًا وثنيًّا. وفي وصف خلق العالم في الصفحة الأولى من سفر التكوين نجد لفظة «الله» أكثر من اثنتي عشرة مرة. وفي الترجمة العربية للأناجيل الأربعة، يُسمى يسوع «ابن الله».

توضح اللغات القريبة من العربية أيضًا تساوي كلمتَي God و«الله»؛ ففي اللغة الآرامية، التي كان يسوع ينطق بها، تشير كلمة «اللها» Allaha إلى الله. وفي اللغة المالطية، التي تقوم على العربية ويتحدث بها الكاثوليكيون في المقام الأول، تشير كلمة «ألّلا» إلى الله.

إذًا، يشبه قول إن المسلمين لا يعبدون «الله» God لأنهم يعبدون الله Allah، قول إن الألمان لا يعبدون «الله» God لأنهم يعبدون Gott (لفظ الله في الألمانية)، وإن المتحدثين بالإسبانية لا يعبدون God لأنهم يعبدون Dios (الله بالإسبانية). وفقًا لهذا المنطق الملتوي، لا يأكل الألمان والإسبان «الخبز» bread لأنهم يأكلون الخبز brot والخبز pan.

نجد زعم بات روبرتسون بأن «الله» هو الإله هُبل الذي كان يوجد قبل الإسلام في كتاب روبرت موري (٢٠١١) «الغزو الإسلامي: التصدي لأسرع أديان العالم نموًّا». يزعم موري أن الصابئة كانت الثقافة السائدة في شبه الجزيرة العربية قبل مجيء محمد، وقد كان معتنقوها يعبدون إلهًا للقمر كانوا يسمونه «الله». ويبدو أنه استمد استنتاجه بأن محمدًا كان يعبد إله القمر من استخدام القرآن كلمة «الله» للإشارة إلى الله.

في الواقع، للفظ «الله» تراث يرجع إلى ما قبل الإسلام، لكن لا يشار به إلى أي إله معين؛ فهو يرتبط، بوصفه مصطلحًا عامًّا، بالكلمة العبرية «إيل»، وكان من الممكن استخدامه للإشارة إلى أي إله. تشير الأدلة التاريخية إلى أن عرب ما قبل الإسلام أدركوا وجود إله خالق قوي، يُشار إليه بلفظة «الله»، كان يوجد إلى جانب آلهة أخرى أقل قوة. ويشير القرآن بالفعل إلى ثلاثة آلهة بالقرب من مكة — مسقط رأس محمد — كبنات لله. ذُكر المصطلح نفسه في «ملحمة أتراخسيس» البابلية (العراق الحالية) القديمة (عام ١٧٠٠ قبل الميلاد تقريبًا)، بالإضافة إلى نقوش تعود إلى مملكة الأنباط (القرن الثاني قبل الميلاد في الأردن الحالية وأجزاء من شبه الجزيرة العربية). قبل الإسلام مباشرة، كانت الكعبة، وهي مكان مقدس في مكة، موقعًا يحج إليه أتباع مئات الآلهة القَبَلية. ويعتقد العلماء أيضًا أنها كانت مرتبطة بهذا الإله الخالق الأكثر قوة.

يتفق هذا مع المعتقد الإسلامي. وفقًا للقرآن، بنى الكعبة في الأساس الأب الجليل إبراهيم وابنه إسماعيل، وكرَّساها للإله الواحد، الله، لكن على مرِّ القرون، ضل الناس طريقهم وانصرفوا إلى عبادة الآلهة القبلية. وكانت مهمة محمد أن يُذكِّر الناس بالإله

الواحد الحقيقي، الله. وفي نهاية المطاف، طهَّر الكعبة من رفات الآلهة المزيفة وأعاد تكريسها لله.

يُعبر عن هذا التعهد في الشهادة الإسلامية «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.» كما يُعبَّر عنه في القرآن أيضًا:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. (سورة الأعراف: ٥٤)

يحرِّم الإسلام أيضًا عبادة القمر أو أي شيء إلا الله الواحد: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (سورة فُصِّلت: ٣٧).

ويقول القرآن لليهود والمسيحيين خصوصًا: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٦). والشيء المثير أن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش قَبِل هذا الزعم؛ ففي مقابلة في ٤ أكتوبر ٢٠٠٧ مع قناة العربية (برنامج «بصراحة»، ٢٠٠٧)، قال: «أومن بالله القدير، وأومن بأن العالم بأسره، سواء المسلمون أو المسيحيون أو أتباع أي ديانة أخرى، يصلي للإله نفسه.» وكرر في المقابلة نفسها: «أومن أن هناك إلهًا واحدًا لكل الكون. أومن أن الله الذي يصلي له المسلمون هو نفسه الله الذي أصلي له. فأولًا وأخيرًا، كلنا أولاد إبراهيم. أومن بهذه الشمولية.» إلا أنه في غضون أيام، هاج الإنترنت ووسائل الإعلام بالغضب على تصريحات جورج دبليو بوش، الرئيس في وقتها. وفي استطلاع لآراء القادة المسيحيين الإنجيليين، عارض ٧٩ في المائة آراءه. واقترح قساوسة عدة طرده من الكنيسة التي يؤمها. وفي مقال بعنوان «الإله نفسه؟» كتب كاتب العمود الذي يكتب في صحف عديدة، كال توماس:

> لا تتناقض مذاهب ما يُطلق عليه مسيحية تناقضًا صارخًا مع الإسلام فحسب، ولكنها تعلِّم شيئًا مخالفًا لما يقول الرئيس إنه يعتقده ... إن كنا كلنا نعبد الإله نفسه، فحينئذٍ يجدر بالرئيس أن يلبي دعوة الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد وأسامة بن لادن، ويعتنق الإسلام ولا يعود هدفًا لحنقهما. ما الفرق الذي سيحدث إن عبدنا كلنا الإله نفسه؟ (توماس، ٢٠٠٧)

على خلاف الخرافات التي تقوم على المعلومات المغلوطة البسيطة، هذا مثال لتعنت الخرافات التي تعود جذورها إلى كره الأجانب. على الرغم من أقوال القرآن والمسلمين والعلماء؛ فإن كثيرين ممن يعانون رهاب المسلمين يرفضون ببساطة قبول أن المسلمين هم موحِّدون عاديون.

المراجع

Bisahara, F. (2007) *Interview with George Bush*, Al Arabiya Television, October 4, www.alarabiya.net/articles/2007/10/05/39989.html (accessed January 10, 2014).

Islam Watch (online) *Why Allah Is Not God* , www.islam-watch.org/Larry/Why-Allah-is-not-God.htm (accessed January 10, 2014).

Morey, R. (2011) *The Islamic Invasion: Confronting the World's Fastest Growing Religion*, Xulon, Maitland FL.

Parsley, R. (2006) *Silent No More: Bringing Moral Clarity to America … While Freedom Still Rings*, Charisma House, Lake Mary, FL.

Robertson, P. (2003) *Why Evangelical Christians Support Israel*, www.patrobertson.com/Speeches/IsraelLauder.asp (accessed January 10, 2014)

Thomas, C. (2007) *The Same God?* October 8, www.calthomas.com/index.php?news=2062 (accessed January 8, 2014).

(٣) يُدين القرآن اليهودية والمسيحية

> الكتاب المقدس عند المسلمين ... يزعم أن الله مسخ اليهود العصاة ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (سورة البقرة: ٦٥، سورة الأعراف: ١٦٦) و﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ (سورة المائدة: ٦٠). (سبنسر ٢٠١٣)

كثيرًا ما يستخدم المبشرون والأكاديميون والشخصيات الإعلامية الذين يهاجمون الإسلام مصطلحات مثل «الفاشية الإسلامية»، ويقرنونه بـ «صراع الحضارات» لإظهار الإسلام

دينًا غريبًا أجنبيًّا معاديًّا لليهودية والمسيحية. وأحيانًا ما يُوصف محمد، نبي الإسلام، بأنه عدو «التقليد اليهودي-المسيحي». وفقًا لهذا الرأي، يكون القرآن، الكتاب المقدس الذي يعتقد المسلمون أنه موحًى به من الله من خلال محمد، بالنسبة إلى الكتاب المقدس بمنزلة عدو المسيح بالنسبة إلى المسيح.

في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠٨، كما ذكرنا في الخرافة السابقة، ظهر جون ماكين في لقاء تليفزيوني مع رود بارسلي، المبشر التليفزيوني وراعي كنيسة ورلد هارفست بمدينة كولومبوس، بولاية أوهايو. يفرد بارسلي في كتابه «كفانا صمتًا» (٢٠٠٦) فصلًا بعنوان «الإسلام: مخادعة الله»، يحذر من «الحرب بين الإسلام والحضارة المسيحية»:

> لا أعتقد أن بلادنا يمكنها أن تنجز حقًّا غرضها الإلهي حتى نفهم صراعنا التاريخي مع الإسلام ... الحقيقة هي أن أمريكا قد أُسِّست جزئيًّا بغرض رؤية هذا الدين الزائف مدمَّرًا، وأنا أعتقد أن ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كان دعوة جيلية إلى الأسلحة لا يمكننا تجاهلها بعدُ. (٢٠٠٦: ٩٠)

وفي صيف ٢٠١٠، أعلن القس تيري جونز، راعي «دوف ورلد أوتريتش سنتر» بمدينة جينزفيل، ولاية فلوريدا، أن ١١ سبتمبر ٢٠١٠ سوف يكون «اليوم العالمي لحرق القرآن»؛ فقد ذكر أن إتلاف نسخ من القرآن على الملأ سوف يُظهر احتقار المسيحيين السليم لـ «دين الشيطان». وبعد مناشدات من الرئيس باراك أوباما وكثير من القادة الدينيين، ألغى القس جونز الحدث. لكن بعدها بستة أشهر، عقد جونز محاكمة أطلق عليها «القاضي الدولي ويوم القرآن»، منصِّبًا نفسه قاضيًا، مرتديًا رداء القضاة. وكانت التهمة الموجهة للقرآن هي «إثارة العنف»، وبعد ست ساعات، وجدت هيئة المحلَّفين القرآن مذنبًا. ونفذ العقوبة — وهي التدمير حرقًا — القس وين ساب.

تعود هجمات من هذا النوع على القرآن ومحمد إلى زمن سحيق في التاريخ المسيحي؛ فبعد قرن واحد من وفاة محمد عام ٦٣٢، ندد يوحنا الدمشقي، آخر آباء الكنيسة اليونانيين، بمحمد باعتباره نبيًّا زائفًا ومهرطقًا. نشأ يوحنا في دمشق، في سوريا، في ظل حكم المسلمين. ويتناول الجزء الثاني من عمله البارز «ينبوع المعرفة»، بعنوان «بشأن الهرطقة» (تشيس، ١٩٥٨: ١٥٣–١٥٩) معظم الهرطقات في عجالة، إلا أنه يتوقف عند الإسلام فيُفرد له صفحات عديدة. وإذ يُشير إلى المسلمين بـ «الإسماعيليين»،

يُطلق يوحنا على الإسلام خرافة ونذيرًا بمَقْدِم أعداء المسيح. ويتتبع الجذور القديمة للمسلمين حتى إبراهيم وجاريته هاجر. لكن، بدلًا من أن ينظر إلى هذا النَّسب على أنه صلة تاريخية تؤكد أصالة التقليد، مثلما يفعل المسلمون، يقول يوحنا إنهم كانوا عبدة أصنام، وإن محمدًا كان نبيًّا زائفًا. وبعد وصفه القرآن بأنه مجموعة من «المؤلفات السخيفة»، يسخر يوحنا من إجازة القرآن تعدد الزوجات، والتسرِّي، والطلاق، إلى جانب بعض القصص الغريبة غير الموجودة فعليًّا في القرآن، كما يرفض السورة الثانية من القرآن بأكملها، مشيرًا إلى أنها تعج «بالأمور السخيفة والحمقاء» بقدر أكبر مما يستحق عناء سردها. ثم يُقدم يوحنا زعمًا زائفًا تمامًا بأن الشريعة الإسلامية تشترط ختان النساء، ثم يُعبر عن حنقه من أن المسلمين لا يتعمَّدون، أو يلتزمون بيوم راحة المسيحيين (تشيس، ١٩٥٨).

ومِن ثَمَّ يصف هذا المؤلَّف المسيحي الأصيل الأول عن الإسلام محمدًا بأنه مهرطق فاسق يقول «أمورًا سخيفة وحمقاء»، ورافض للمسيحية. تفاقمت المنافسة السياسية بين الإمبراطوريات المسيحية الأوروبية والإسلامية الشرق أوسطية، مفضية في آخر المطاف إلى سلسلة من الهجمات الأوروبية في الشرق الأوسط، بدءًا من عام ١٠٩٦ — الحروب الصليبية. في سياق هذه الحروب أظهر المسيحيون المسلمين بصورة شيطانية باعتبارهم وثنيين، وازدادت قصص رفض محمد للمسيحية شططًا. وفقًا لواحدة من القصص الشعبية، كان محمد كاردينالًا محبَطًا بشدة لأنه لم يُنتخَب بابا، حتى إنه بدأ حركة الإسلام الجديدة.

قد لا يكون هناك مثال للاقتناع بأن محمدًا كان عدوًّا للمسيحية أفضل على الإطلاق من مثال «الكوميديا الإلهية» لدانتي، التي يعتبرها بعض الناس واحدة من أعظم أعمال الأدب الغربي. يصف المجلد الأول، «الجحيم»، تسع دوائر من الجحيم للخطايا المتعاظمة. يجثم في الخندق التاسع من الدائرة الثامنة «زارعو الشقاق»؛ أي الأشخاص الذين يمزقون نسيج المجتمع. والمثل الرائد هنا هو محمد وابن عمه وصهره علي. ولما كان العقاب في «الجحيم» يناسب الجريمة، فعقوبة محمد وعلي هي أن يمزقهما شيطان بسيف مرارًا وتكرارًا إلى أبد الدهر.

> لا حتى برميل مكسور الغطاء أو الحواف يظل فارغًا كالمخلوق الذي رأيته مبقورًا من عنقه إلى مخرجه.
> بين ركبتيه تدلت أحشاؤه. وأيضًا رئته وكيس النتن الذي يحوي فضلات البشر.

وبينما أنا أمعن النظر مدَّ يديه فاتحًا بهما صدره وقال لي: انظر كيف أتمزق. انظر إلى مَآلِي أنا محمد! وهذا علي أمامي ينوح مفلوق الرأس من جبينه إلى ذقنه.
كل روح تلمحها هنا، عاشت ناشرة للرذيلة والتفرُّق لذا تراها هنا ممزقة الأجساد.
وخلفنا شيطان يزيننا بهذه الطريقة الوحشية، ويمررنا نحن وكل معذَّبي هذا الوادي تحت سيفه البتار إذا أكملنا دورتنا في درب هذه الآلام. ذاك لأن جراحنا كلما تندمل نعود ثانية نحوه.

(دانتي ٢٠٠٢، الأنشودة ٢٨، ٢٢–٤٢)

على مرِّ القرون، اتسعت الرقعة التي تضم أعداء محمد لتشمل إلى جانب المسيحيين اليهود أيضًا. ونتيجة لذلك انتشرت صور محمد وهو يتعذَّب في الجحيم. وأحد الأمثلة العشوائية المعاصرة لهذا:

ومَن أكبر زراع للشقاق في جحيم دانتي؟ ليس سوى محمد ... الذي كان، كما لحظت مرارًا، أكبر كاره ومولِّد للكراهية في التاريخ، «هتلر الناجح» الذي ظل يعلِّم المسلمين على مدار الألف والأربعمائة سنة الماضية أن غير المسلمين جميعهم هم أعداء لله فاسدون يستحقون القتل بجريمة إنكارهم الله ونبيه؛ الرجل الذي شن حرب المسلمين ضد كل البشرية من غير المسلمين التي لا يمكن أن تنتهي ما دام ظل الإسلام موجودًا. («فيو فروم ذي رايت»، على الإنترنت)

ومع هذا، فالواقع أن محمدًا لم ترفضه تعاليم المسيحية ولا اليهودية. كان هناك في القرن السابع في شبه الجزيرة العربية، حيث عاش محمد، تنوع ديني كبير. كان بعض الناس متعددي الآلهة، والبعض يهودًا، والبعض مسيحيين، والبعض صابئين (ديانة توحيدية قديمة)، والبعض كانوا موحدين غير طائفيين. عبد هؤلاء «الأحناف» إلهًا واحدًا — إله إبراهيم — لكنهم لم يُعرِّفوا أنفسهم على أنهم يهود أو مسيحيون أو صابئون. يذكر القرآن كل هذه الجماعات وأنبياءها، ويقدم محمدًا على أنه نبي يدعو الناس إلى تذكُّر تعاليم التوراة والإنجيل واتِّباعها. تعني كلمة «إسلام» «الخضوع»؛ ولله يدعو القرآن

كل شخص أن يخضع. وعلى عكس فكرة أن القرآن يرفض اليهود والمسيحيين؛ فإنه يحتضنهم باعتبارهم «أهل الكتاب» الذين تلقَّوا الوحي من الله الواحد الأحد.

يقدم القرآن محمدًا على أنه يواصل ويُنقِّي التقليد الذي بدأه الأب الجليل إبراهيم المذكور في الكتاب المقدس. وهذا هو السبب في تسمية اليهودية والمسيحية والإسلام تقاليد «إبراهيمية». ومثلما بدأ يسوع تبشيره بوصفه مصلحًا في نطاق التقليد الإبراهيمي الذي سُمِّي فيما بعدُ «اليهودية»، وبدأ دينًا إبراهيميًّا جديدًا سُمِّي فيما بعدُ «المسيحية»، هكذا لم يكن محمد يبدأ دينًا جديدًا منفصلًا عن التقاليد الإبراهيمية الأخرى. على النقيض، كان يسعى إلى جعل الناس يَحيَون وفقًا لهذه التقاليد. ما كان ينادي به هو الرسالة الأساسية للكتاب المقدس — لا إله إلا الله، وهو خلق البشر ليفعلوا مشيئته بإقامة مجتمعات عادلة. وفي القرآن، لم يؤمر المسلمون بحماية المساجد وحسب، ولكن أيضًا المعابد والكنائس لأنها يُذكر فيها اسم الله.

لَّما بدأ محمد دعوته في مكة، موطنه، رأى اليهود والمسيحيين حلفاء طبيعيين. وبعد انتقاله إلى المدينة عام ٦٢٢، وضع «دستور المدينة»، اتفاقًا بين الجماعات الموجودة هناك، ومنها كثير من القبائل اليهودية. كفل هذا الدستور حقوقًا متساوية؛ منها الحرية الدينية، ما دام الجميع يحترمون الدستور. وكانت ضمانات دستور المدينة للحرية الدينية تُستَخدم نموذجًا للحرية الدينية أينما طُبقت الشريعة الإسلامية.

وبينما يُعيد القرآن تأكيد أن التوراة والإنجيل وحي الله، فلديه اختلافات مع بعض التأويلات اليهودية والمسيحية لهذين الكتابين. يرفض القرآن الزعم بأن لليهود علاقة حصرية مع الله، مؤكدًا أن جميع الناس لديهم فرص متساوية للوصول إلى الله. كما يرفض أيضًا الاعتقاد بأن يسوع هو الله وأن الله هو ثالوث من ثلاثة أقانيم. من وجهة نظر القرآن، هذه الادعاءات تخرق فكرة التوحيد. يؤكد القرآن صحة الكتابين المقدَّسَين السابقَين له وأصالتهما، ويدعو الناس ببساطة إلى فهمهما على نحو صحيح والعيش وفقًا لتعاليمهما.

كل الأنبياء مقدَّمون في القرآن باحترام كبير، وخصوصًا عيسى الذي يصفه القرآن بأنه واحد من أعظم الأنبياء، وصانع معجزات، والمسيح. يقول القرآن إن عيسى وُلِد من عذراء، وشفى العُمْي والمرضى، وأحيا الموتى. بل ويذكر أيضًا معجزة لم ترد في الأناجيل — خَلْق طائر من الطين ثم نفْخ الحياة فيه (سورة آل عمران: ٣٩؛ سورة المائدة: ١١٠). وتوجد سورة في القرآن على اسم مريم، أُم يسوع. وهي المرأة الوحيدة المذكورة باسمها في القرآن، ويرد اسمها في القرآن أكثر مما يرد في الأناجيل.

يدعو القرآن الناس كلهم إلى معرفة الله الأحد وتنفيذ إرادة الله إقامةَ مجتمع عادل، ليُنشِئوا في المجتمع المساواة التي يتقاسمها جميع الناس في أعين خالقهم. وهو يزعم أن جميع المؤمنين، سواء اليهود، أو النصارى، أو الصابئون ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: ٦٢؛ سورة المائدة: ٦٩). إذًا، المهم من وجهة نظر القرآن ليس هوية المرء الدينية، ولكن ما إذا كان المرء يعتقد الحق ويتصرف بالعدل. يقول القرآن بالتحديد إنه ليس كل اليهود ولا النصارى سواءً؛ فالبعض منهم يعتقد ويسلك على نحو صحيح، والبعض الآخر لا يفعل هذا (سورة آل عمران: ١٠٩-١١٠). من ثم فالمسلمون مأمورون بألَّا يجادلوهم. ويستطرد قائلًا: وقولوا لهم: ﴿إِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٦).

ينتشر على نطاق واسع الاعتقاد بأن القرآن يُدين المسيحية واليهودية لدرجة أن بعض المسلمين يصدقونه. ربما يرجع هذا إلى قراءة نصوص معينة من القرآن خارج السياق. على سبيل المثال، جاءت لحظة في الأيام الأولى للإسلام كان المسيحيون واليهود يسخرون فيها من الإسلام. وعلى الرغم من ذلك، أراد بعض أفراد المجتمع الإسلامي إقامة تحالفات معهم. في هذا السياق نصح القرآن المسلمين بألا يتخذوا هؤلاء اليهود والنصارى أولياء (سورة المائدة: ٥١). هناك أيضًا نص عن بعض أفراد المجتمعات الذين سبق أن تلقَّوا الوحي في الماضي ولكن ارتدُّوا عنه، و«كعقاب»، و«عبرة» للآخرين، حوَّلهم الله إلى قِرَدَة (أو قِرَدة وخنازير في إحدى الإشارات) (سورة المائدة: ٥٩-٦٠، سورة البقرة: ٦٣-٦٥، سورة الأعراف: ١٦٦).

لكن آيات أخرى تبيِّن أن القرآن لا يُدين اليهود والمسيحيين كافة. في حقيقة الأمر، يؤكد القرآن أن اليهود والنصارى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. بعضهم صالحون؛ ولذا فليس هناك ما يمنع مُوادَّتهم (سورة آل عمران: ١١٣-١١٤، سورة آل عمران ١٩٩). إن القرآن شديد الوضوح في قبوله التنوع الديني. بل يخلص في الواقع إلى أن التنوع الديني جزء من التدبير الإلهي:

> ﴿لِكُلٍّ [المجتمعات الدينية] جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا [للممارسة] وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ [الكتب المقدسة الثلاثة] فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. (سورة المائدة: ٤٨؛ قارن بسورة هود: ١١٨)

المراجع

Chase, F.H. (ed) (1958) *The Fathers of the Church: St. John of Damascus, Writings*. Catholic University of America Press, Washington.

Dante (2002) *Inferno*, translated by Robert Hollander, and Jean Hollander, Anchor, New York.

Parsley, R. (2006) *Silent No More: Bringing Moral Clarity to America … While Freedom Still Rings*, Charisma House, Lake Mary, FL.

Spencer, R. (2013) *Does the Qur'an Teach Hate?* www.jihadwatch.org/2013/09/robert-spencer-in-frontpage-magazine-does-the-quran-teach-hate.html (accessed January 8, 2014).

View from the Right (online) *Muhammad in Hell*, www.amnation.com/vfr/archives/018507.html (accessed January 8, 2014).

قراءات إضافية

Reeves, M. (2003) *Muhammad in Europe: A Thousand Years of Western Myth-Making*, New York University Press, New York.

Sonn, T. (2010) *Islam: A Brief History*, second edition, John Wiley & Sons, Ltd, Chichester.

Tolan, J. (2002) *The Saracens: Islam in the Medieval European Imagination*, Columbia University Press, New York.

(٤) يعني «الجهاد» الحرب المقدسة

ماذا تعني اللفظة العربية «جهاد»؟ جاءت إحدى الإجابات الأسبوع المنصرم، حينما طلب صدام حسين من الزعماء الإسلاميين مناشدة المسلمين في كل أنحاء العالم للانضمام إلى جهاده كيما يتمكن من هزيمة «الأمريكيين الأشرار» إذا ما هاجموا العراق؛ ثم هدد هو نفسه الولايات المتحدة بالجهاد. كما يوحي هذا،

> الجهاد هو «حرب مقدسة». أو على نحو أدق: الجهاد هو المجهود الشرعي الإلزامي الجماعي لتوسيع الأقاليم التي يحكمها المسلمون على حساب الأقاليم التي يحكمها غير المسلمين. (دانييل بايبس (٢٠٠٢))

في ربيع ٢٠١٣، أطلقت باميلا جيلر — التي وصفتها صحيفة «ذي نيويورك تايمز» بأنها «المدير التنفيذي للجماعة المساندة لإسرائيل «المبادرة الأمريكية للدفاع عن الحرية»» (ياتشينو وتنج، ٢٠٠٧) ومدوِّنة نشطة (يمكن زيارة مدونتها «أطلس شرجز» على موقع http://atlasshrugs2000.typepad.com) — حملةً لتثقيف العامة حول المخاطر الحقيقية للجهاد. تضمنت الحملة نشر صور واقتباسات لإرهابيين يؤيدون قتل اليهود، وجاءت ردًّا على حملة كان يجريها مسلمون أمريكيون. شملت حملة المسلمين إعلانات في محاولة لمواجهة الصور النمطية السائدة عن المسلمين بأنهم إرهابيون (ياتشينو وتنج، ٢٠٠٧).

على الرغم من جهود غير المسلمين مثل جيلر، يظل المسلمون مقتنعين بأن فهمهم لمعنى كلمة جهاد صحيح. ومع ذلك، فالافتراض الواسع الانتشار هو أن لفظة «جهاد» تعني «الحرب» أو «الحرب المقدسة» أو «الحرب ضد الكفار»، لدرجة أن هذه هي التعريفات المنتشرة للمصطلح في القواميس الموجودة على الإنترنت.

في حقيقة الأمر، يُستخدَم مصطلح «الجهاد» من قِبَل المسلمين بالطريقة ذاتها التي يُستخدَم بها مصطلح «حملة صليبية» من قِبل المسيحيين. هو مصطلح عام، يُشير إلى الجهد أو الكفاح في مواجهة العقبات الكبيرة مثل الظلم، أو المرض، أو الفاقة. ومما يدعو إلى الأسف أن إساءة استخدامه من قِبَل الإرهابيين لتبرير أفعالهم أدَّت إلى حدوث تشويش حول معناه. لا تعني لفظة «جهاد» «حربًا مقدسة». معناها أوسع من هذا، ولا يمكن فهمه إلا في سياق التعاليم الإسلامية.

يعتبر الإسلام نفسه دينًا توحيديًّا تقليديًّا. وهو يتقاسم التاريخ والقيم مع اليهودية والمسيحية، شقيقتيه في التقليد الديني الذي بدأ بعهد بين الله وإبراهيم (لهذا سُمِّي التقليد الإبراهيمي). يُطلَق على اليهود والمسيحيين في الإسلام «أهل الكتاب»، لأنهم هم أيضًا تلقَّوا وحيًا حقيقيًّا من الأنبياء. وكثيرًا ما يشير القرآن في استحسان إلى التوراة والإنجيل، داعيًا الناس إلى تذكر تعاليمهما. وفقًا للتعاليم الإسلامية، كان الأنبياء كافة يدعون البشرية لفعل الشيء نفسه. لا بد من طاعة الأمر بأن يُحْيوا في المجتمع المساواة التي يتقاسمها الناس جميعًا في أعين الله. خلق الله جميع البشر متساوين — ليس في الثروة أو القوة أو

الموهبة، ولكن في المسئولية الأخلاقية، والحقوق الأساسية، والاعتماد على الله. يقول القرآن إن الله خلق البشر بحيث يكونون خلفاءه، ليحموا المساواة بين الناس ويصونوها، ويهتموا اهتمامًا خاصًّا بأضعف أعضاء المجتمع: الفقراء، واليتامى، والعبيد. وهو يقر بأن هذه مهمة صعبة؛ فالبشر ينزعون إلى الضعف، والعبيد. وهو يقر بأن وأحيانًا ما يفقدون شجاعتهم في مواجهة النوازل. إلا أن القرآن يعد بالهداية والصفح عندما نضل الطريق. الشيء المهم هو أن نستمر في بذل الجهد. يعد الله بأجر عظيم لأولئك الذين يواصلون الجهاد بإخلاص، وبعقاب قاسٍ لأولئك الذين لا يجاهدون. أساس الحساب هو جهادنا. لن يحاسبنا الله على أساس إنجازاتنا الكبيرة وإنما على أساس نوايانا. كل أولئك الذين يجاهدون في سبيل الله، كما يقول القرآن، أولئك الذين يؤمنون ويعملون الصالحات — سواء أكانوا يهودًا أم مسيحيين أم مسلمين أم غيرهم — لا يخشون شيئًا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (سورة الحج: ٧٧–٧٨). هذا النضال هو «الجهاد» باللغة العربية، لغة القرآن.

هناك مستويان للجهاد. كل الجهود المبذولة لكبح الغرائز الدنيا عند المرء — الجشع والكسل والأنانية — هي جانب من جوانب «الجهاد الأكبر». لكن تأتي أوقات يستدعي فيها الكفاحُ من أجل العدالة القتالَ. يقول القرآن إن المعاناة بصبر محبَّذة في بعض الحالات. في سورة النحل يُقال للمسلمين: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سورة النحل: ٤١–٤٢). لكن في حالات أخرى يُقال للذين عانوا من الاضطهاد ﴿ادْعُ [الظالمين] إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (سورة النحل ١٢٥–١٢٦). ويعلن القرآن: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (سورة الحج: ٤٠). بالمثل، كما أمر الله الإسرائيليين بمحاربة ظالميهم وقتلهم إذا لزم الأمر (سفر التثنية ٢٠: ١٠–١٤)، يقول القرآن: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٩٠). وتسترسل السورة:

> ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ

حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. (سورة البقرة ١٩١–١٩٣)

حينما يستدعي النضال من أجل العدالة القتالَ، يُسمى هذا «الجهاد الأصغر».

بالطبع، لا تستطيع الشريعة الإسلامية التحكم في «الجهاد الأكبر»، لَّما كان ينطوي على كل الجهود تقريبًا لـ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، بكلمات القرآن. على أنها تنص على تشريع موسع لتنظيم الجهاد العسكري. لا يمكن إعلان الجهاد العسكري إلا من خلال حكومة مشكَّلة بحسب الأصول، ولا بد أن يسبقه إنذار وجهود مناسبة للوصول إلى تسوية سلمية (الدعوة إلى الإسلام)، ولا بد من حماية المدنيين — ولا سيما النساء والأطفال والعجزة ورجال الدين — ولا يجوز تخريب الممتلكات دون داعٍ، ويجب احترام مطالب وقف إطلاق النيران.

تستبعد هذه الشروط الشرعية للجهاد الإرهاب بوضوح. لهذا السبب، شجبت المرجعيات الإسلامية في أنحاء العالم أحداث ١١ سبتمبر، وأيضًا الهجمات الإرهابية الأخرى، باعتبارها انتهاكات للشريعة الإسلامية. في حقيقة الأمر، هناك بند في الشريعة الإسلامية الكلاسيكية يشمل موضوع الإرهاب: ألا وهو «الحرابة». «الحرابة» مصطلح يشمل قطع الطرق والقرصنة وكل الهجمات التي لم يسبقها استفزاز، والتي يفقد فيها أناس أبرياء حياتهم. وهي الجريمة الوحيدة في الشريعة الإسلامية التي عقوبتها حكم الإعدام الإلزامي. تنص الشريعة الإسلامية الكلاسيكية على عقوبات مختلفة للسرقة، والزنا، والاتهام بالزنا زورًا، والرِّدَّة، والسُّكر، وكلها تتطلب قواعد إثبات صارمة وتراعي أخذ الظروف المخفِّفة. غير أن الحرابة تُعتبر جريمة شنيعة لأنها تنتهك عين هدف الإسلام. ترتبط لفظة «إسلام»، التي تعني «الخضوع لمشيئة الله»، بلفظة «السلام». المجتمع الإسلامي هو ذلك المجتمع الذي تُصان فيه الحقوق الأساسية للإنسان (الحياة، والدين، والأسرة، والملكية، والعقل/الكرامة)، وبذلك يعيش أعضاؤه كافة في سلام. ترتبط لفظة «حرابة» بلفظة «الحرب». لكنها ليست الحرب التي تجيزها الشريعة الإسلامية، المعروفة باسم «الجهاد الأصغر». الحرب هي قتال غير شرعي، وعلى الأرجح ترتبط بالمناطق المُعادية للإسلام التي لا تُصان فيها حقوق الإنسان وكرامته. ومِن ثَمَّ فالحرابة والإرهاب هما نقيضا الإسلام. وكما هي الحال في الأديان التوحيدية السائدة الأخرى، مع أنه قد تكون الحرب مبرَّرة في بعض الأحيان بوصفها ملاذًا أخيرًا، فلا قداسة للحرب في تعاليم الإسلام.

المراجع

Pipes, D. (2002) What is jihad? *New York Post,* December 31, 2002, www.danielpipes.org/990/what-is-jihad (accessed January 8, 2014).

Yaccino, S. and Teng, P.S (2013) Using billboards to stake claim over jihad. *International New York Times,* March 6, www.nytimes.com/2013/03/07/us/adcampaigns-fight-it-out-over-meaning-of-jihad.html?pagewanted=all&_r=0 (accessed January 8, 2014).

قراءات إضافية

Afsaruddin, A. (2013) *Striving in the Path of God: Jihad and Martyrdom in Islamic Thought*, Oxford University Press, New York.

Esposito, J. (2003) *Unholy War: Terror in the Name of Islam*, Oxford University Press, New York.

Lawrence, B. (1998) *Shattering the Myth: Islam Beyond Violence*, Princeton University Press, Princeton NJ.

(٥) يُشجع القرآن العنف

سؤال: «هل صحيح أن القرآن يحتوي على الكثير من الآيات التي تحض على العنف؟»

جواب موجز: يحتوي القرآن على ١٠٩ آيات تدعو المسلمين إلى محاربة الكفار من أجل الحكم الإسلامي. بعض هذه الآيات صريحة تمامًا، وبها أوامر بقطع الرءوس والأصابع وقتل الكفار أينما كانوا يختبئون. والمسلمون الذين لا يشتركون في القتال يُنعتون بـ «النفاق» ويُنذرون بأن الله سوف يرسلهم إلى الجحيم ما لم يشتركوا في الذبح. وعلى عكس كل الآيات تقريبًا التي تدعو إلى العنف في العهد القديم؛ فإن آيات العنف في القرآن مطلقة غالبًا، بمعنى أنها ليست مقيدة بالسياق التاريخي للنص المحيط. («ماذا يُعلِّم دين السلام عن العنف؟» [كما وردت] (TheReligionofPeace.com على الإنترنت))

بسبب الفظائع التي ارتكبها الإرهابيون باسم الإسلام، صار كثيرون مقتنعين بأن القرآن يعلِّم حقًّا أنه ينبغي على المسلمين المشاركة على الدوام في أعمال العنف لضمان أن يصبح جميع الناس مسلمين. ونظرًا لأن المسلمين يشكلون حاليًّا نحو ٢٣ في المائة من سكان العالم، فربما يكون هذا الادعاء كافيًا لإثارة خوف غير المسلمين. غير أنه من حسن الحظ أن قليلين جدًّا من المسلمين هم من يرون دينهم بالطريقة المصوَّر بها في الاقتباس المذكور أعلاه المأخوذ من موقع ويب مُسمًّى على نحوٍ ساخر باسم «دين السلام». الواقع أن الأغلبية الساحقة من المسلمين تحيا بموجب فهمها الإسلامَ على أنه دين السلام، وتؤمن بأن دعوات القرآن إلى العنف هي حقًّا مرتبطة بسياق تاريخي، تمامًا مثلما يأمر الكتاب المقدس العبري بقتل جميع الرجال والنساء والأطفال والحيوانات في أريحا وعاي (سفر يشوع ٦: ٢٠-٢١، ٨: ١–٢٩).

ذكرنا من قبلُ أن الإسلام يشجب الانتحار والإرهاب. ويفهم المسلمون الجهاد على أنه جهود قوية من أجل أن يصبحوا أناسًا صالحين ويفعلوا مشيئة الله. وعندما تنطوي تلك الجهود على صراع عسكري، فلا بدَّ من خوضه وفقًا لقواعد صارمة تستلزم إعلانه بوصفه ملاذًا أخيرًا وحسب، من قبل رئيس دولة مُعترف به على النحو الواجب، مع حماية غير المقاتلين. ولمَّا كانت الهجمات الإرهابية تنتهك كل هذه الشروط؛ فإنها مُستنكَرة؛ فبدلًا من اعتبار الإرهاب جهادًا؛ فإنه يُصنَّف وفقًا للشريعة الإسلامية على أنه «حرابة»؛ أي حرب غير مشروعة. كما يقول القرآن: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: ٣٢).

بيد أن ثمة آيات في القرآن تدعو إلى القتال. وهي تُعرَف منذ القدم باسم «آيات السيف» وتوجد في السورة التاسعة (سورة التوبة). تقول الآية الرئيسية:

> ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (سورة التوبة: ٥، «آية السيف»؛ قارن ذلك بالآية ٢٩ من السورة نفسها، يشير إليها بعض المفسرين على أنها آية سيف).

أولئك الذين لا يعلمون مجمل تعليم القرآن والتفسير السائد لهذه الآية قد يفهمون هذا على أنه أمر مطلق بقتل الناس الذين يعبدون أكثر من إله، شريطة ألا يحدث هذا إبان هدنة. فهكذا تبدأ الآية أولًا وأخيرًا. لكن هناك قضيتان ينبغي وضعهما في الحسبان لفهم الطريقة التي يفهم بها جمهور المسلمين هذه الآية.

أولًا: أن القرآن يُفهم في ضوء سياقه التاريخي، وهذا السياق تغير على مدار الفترة البالغة ٢٣ عامًا التي تلقَّاه خلالها مجتمع المؤمنين في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع. يصف القرآن نفسه بأنه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ فهو يشتمل على مبادئ أخلاقية عامة تُعتبر صالحة إلى الأبد، مثل أمر الناس بالتحلِّي بالأمانة والإخلاص والكرم مع المحتاجين، والصبر في أوقات المحن. كما يشتمل أيضًا على نصائح كانت مصمَّمة خصوصًا من أجل مواجهة التحديات المحدَّدة التي كان المجتمع يواجهها. وعندما كانت الظروف تتغير، كانت النصائح المحددة تتغير أحيانًا.

على سبيل المثال، حينما بدأ محمد دعوته عن العدالة الاجتماعية منتقدًا أولئك الذين كانوا يكدسون الثروات ويضطهدون الفقراء، انجذبت له قاعدة شعبية من الفقراء، وعاداه كثير من الأثرياء. بدأ أثرياء مكة في اضطهاد أتباع محمد، وأنزلوا بهم أشد المعاناة. شعر أتباع محمد بالضعف وقلة الحيلة، فطلبوا الإرشاد حول الطريقة التي يردون بها على هذا الاضطهاد. في هذا السياق نصحهم القرآن بتحمُّل معاناتهم بصبر، والبعد عن أعمال الثأر. يقول القرآن:

> ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ... * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. (سورة الشورى: ٤٠–٤٣)

وفي موضع آخر يقول القرآن: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة النحل: ١١٠).

في آخر المطاف، انتقل محمد وأتباعه من موطنهم في مكة إلى المدينة، شمال مكة، حيث رحبت بهم القبائل المحلية، واستطاعوا أن يؤسسوا مجتمعًا قويًّا ومزدهرًا، غير أن أهل مكة استمروا في مهاجمتهم؛ فسعوا إلى طلب النصح من محمد. وحدث أن الصراع مع أهل مكة بلغ أوجَهُ خلال فترة في التقويم كانت مخصصة تقليديًّا لتكون هدنة. ولم يكن هذا سوى مجتمع قبَلي يعيش في الصحراء على موارد شديدة الندرة. وكانت هناك منافسة ضارية على تلك الموارد، وكثيرًا ما كانت القبائل تشن الغارات بعضها على بعض. خُصِّصت «الأشهر الحرم» التقليدية بوصفها نوعًا من الهدنة يمكن فيها للأشخاص إتمام مراسم الحج ومزاولة التجارة دون خوف من التعرض لتهديدات. مِن ثَمَّ كان المجتمع

الإسلامي ممزقًا. وعلى عكس موقفهم في مكة، باتوا الآن يمتلكون القوة الكافية للدفاع عن أنفسهم، لكن النصيحة لم تكن هذه المرة مجرد إشادة بتحمل الشدة بصبر، فهم الآن يتعرضون للهجمات إبان الأشهر الحرم! ماذا عساهم أن يفعلوا؟

في هذا السياق المختلف، يجيز القرآن للمسلمين القتال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾. (سورة البقرة: ٢١٧؛ قارن ذلك بالآيات المذكورة في سورة الحج: ٣٩-٤٠)

كان هذا هو السياق الذي نزلت فيه آيات السيف.

كان هناك تحدٍّ آخر أمام المجتمع المسلم المُحَاصَر: بعض الناس الذين كانوا يهاجمونهم كانوا في الحقيقة أعضاءً من قبائلهم نفسها. هذه معضلة قديمة عند شعوب القبائل، معضلة تشكل عنصرًا أساسيًّا في الكتاب المقدس الهندوسي «البهاجافاد جيتا». في تلك القصة الملحمية، كانت هناك حرب بين القبائل، ولم يشأ البطل مقاتلة أقاربه. غير أن الرب كريشنا يوعز إليه بالقتال في جميع الأحوال لأن هذا واجبه. بالمثل، يقول القرآن إن الناس مترددون في القتال. مِن ثَمَّ يخبرهم بأنه يجب ألَّا يؤثِروا القبيلة والممتلكات التي خلَّفوها وراءهم في مكة على نجاة المجتمع المسلم (سورة التوبة: ٢٤). وإنما يجب عليهم القتال إلى أن يتوقف الاضطهاد ويكون المهاجمون راغبين في الاعتراف بسيادة المجتمع المسلم.

ومع ذلك، حتى مع إجازة القتال دفاعًا عن النفس، والأمر بالاقتتال عند التعرض للهجوم، فإن القرآن يذكِّر المسلمين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا هو النصف الآخر من آية السيف المقتبسة أعلاه (سورة التوبة: ٥). وتسترسل الآية التالية مباشرة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * ... فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة: ٦-٧). وفي نص شبيه يكرر القرآن دعوة المسلمين إلى مقاتلة أولئك الذين يهاجمونهم على ألا يكونوا هم المبادرين بها. ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ... * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ١٩١-١٩٢).

مِن ثَمَّ لا داعي لأن يخشى غير المسلمين من أن المسلمين سوف يتربصون بهم ويشنون حربًا مستمرة إلى أن يصيروا مسلمين؛ فمثلما لا يُؤخذ أمر الكتاب المقدس العبري بمقاتلة أولئك الذين «يرفضون مسالمتك»، و«اضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ» واغتنام النساء والأطفال والبهائم و«وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ» (سفر التثنية ٢٠: ١٠–١٤، الترجمة الدولية الجديدة)، على أنه أمر أبدي مطلق؛ فإن آيات السيف القرآنية لا تؤخذ أيضًا خارج السياق التاريخي. وبينما تخاطب آيات السيف ظروف الاقتتال المحددة؛ فإن آيات أخرى تقدِّم خطوطًا إرشادية أشمل، من أهمها: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (سورة البقرة: ١٩٠). علاوة على أنه، لدى انتهاء الأعمال العدائية، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الممتحنة: ٨).

المراجع

TheReligionofPeace.com (online) “What does the Religion of Peace Teach About Violence? www.thereligionofpeace.com/quran/023-violence.htm (accessed January 8, 2014).

قراءات إضافية

Afsaruddin, A. (2013) *Striving in the Path of God: Jihad and Martyrdom in Islamic Thought*, Oxford University Press, New York.

Esposito, J.L. (2003) *Unholy War: Terror in the Name of Islam*, Oxford University Press, New York.

Lawrence, B. (1998) *Shattering the Myth: Islam Beyond Violence*, Princeton University Press, Princeton NJ.

(٦) يبيح القرآن إساءة معاملة النساء

> يقر القرآن هذه العقوبات. يمنح أساسًا شرعيًّا للانتهاك، فلا يشعر الجناة بأدنى خجل، ولا بتأنيب من ضميرهم أو مجتمعهم. (آيان حرسي علي (٢٠١٣: ٣٠٧)، كافرة تناقش سوء معاملة النساء بين المسلمين)

في العقود العديدة الأخيرة، برزت قضايا إساءة معاملة النساء والفتيات في أنباء العالم، من مئات الأخبار عن الاغتصاب، وإجهاض الأجنة من الإناث، وحرمان الفتيات من الرعاية الصحية أو التعليم، و«جرائم القتل باسم الشرف»، و«حالات الوفيات المتعلقة بالمهر»، وتشويه الأعضاء الجنسية للإناث. تأتي هذه الأخبار من بلدان مختلفة عبر العالم، لكن تلك التي تأتي من المجتمعات الإسلامية تحظى باهتمام خاص؛ فهي تلك الأخبار التي يزيد فيها احتمال ذكر دين الجناة وربط إساءة المعاملة بالدين. يُلقي بعضٌ من البرامج الإخبارية وكثير من مواقع الويب المعادية للإسلام بلائمة الإساءة إلى النساء على الإسلام نفسه، قائلين إن كتابه المقدس، القرآن، يجيز للرجال إساءة معاملة النساء.

يُعد الاقتباس المذكور أعلاه حالةً دالَّة. تروي آيان حرسي علي المعاملة الشنيعة التي تعرضت لها وهي طفلة في الصومال على أيدي أناس اعتقدوا أن الدين يبرر انتهاكاتهم. كانت تجاربها مريرة للغاية لدرجة أنها دفعتها إلى أن تلفظ الإسلام وتصير ملحدة.

في مثال آخر لخرافة أن الإسلام يبيح العنف ضد المرأة، تعلن الصفحة الرئيسية لموقع يُسمى «إنفيدل تاسك فورس» (www.infideltaskforce.com): «إننا ضد الإسلام المتشدد والإرهاب الذي ينتجه.» يستعرض «إنفيدل تاسك فورس» في جوهره أعمال وفاء سلطان، وهي طبيبة نفسانية سورية المولد هاجرت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٩. كتابها «إله يكره: المرأة الشجاعة التي أججت العالم الإسلامي تفضح شرور الإسلام» (٢٠٠٩)، مؤسَّس على ذكرياتها المريرة لنشأتها في سوريا؛ حيث يطلق الإسلام، كما تقول، العِنان للرجال لمعاملة النساء معاملة أفضل قليلًا من الكلاب. وهي تصف أشكالًا متنوعة من الانتهاكات، منها قصة اغتصاب محارم قتل فيها الرجل المرأة حينما علم أنها حامل. بعد سنوات من التفكير في مثل هذه القضايا، تخلُص الدكتورة وفاء سلطان إلى أن الانتهاكات التي تتعرض لها النساء في البلدان المسلمة، بالإضافة إلى أشكال العنف الأخرى التي يقترفها الرجال المسلمون، تنبع من مصدر واحد — الإسلام. وتقول إن إله القرآن هو إله كره.

وفاء سلطان وآيان حرسي علي مثالان لمسلمتين سابقتين، تعرَّضتا لإساءة معاملة مريعة، وعَزَتا مصدرها إلى الإسلام. لكن مسلمات أخريات يرين إساءة معاملة النساء انتهاكًا للإسلام. على سبيل المثال، صرحت الفتاة المراهقة الباكستانية (البشتونية) مالالا يوسفزاي — التي سبق وأن تلقَّت أعيرة نارية في وجهها أثناء ركوبها في الحافلة المتجهة إلى المدرسة — في خطاب أمام الأمم المتحدة: «يسيء الإرهابيون استخدام اسم الإسلام ومجتمع البشتون من أجل مصالحهم الشخصية ... الإسلام دين السلام والإنسانية والأخوة» (يوسفزاي، ٢٠١٣).

وثمَّة كثير من العلماء المسلمين الذين يعترفون بأن إساءة معاملة النساء تحدث بالفعل في المجتمعات المسلمة، وبأن بعض المسلمين يعتقدون أن القرآن أباحه؛ مِن ثَمَّ يحشد هؤلاء العلماء طاقاتهم من أجل إثبات أن القرآن في واقع الأمر هو وثيقة، معاملة المرأة فيها ليست فقط أكثر شمولية مما في أي دين آخر، ولكنها مكرَّسة لحماية حقوق جميع الناس، ومنهم النساء.

ينفرد القرآن من بين الكتب المقدسة التوحيدية بمخاطبته صراحة كلًّا من الإناث والذكور؛ ففي آية فريدة يقول إن من يعمل عملًا صالحًا، من ذكر أو أنثى، سيدخل الجنة:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. (سورة الأحزاب: ٣٥)

كان في العالم الذي عاش فيه محمد تفاوت هائل بين الأغنياء والفقراء، وكان احتقار المرأة مستشريًا. وكان من الشائع بين الفقراء وأْد البنات الرضيعات، لأنهنَّ أقل إنتاجية اقتصاديًّا، ولأن العائلات لم تكن قادرة على إعالتهن. يُحرِّم القرآن هذه الممارسة بقوله إنه في يوم القيامة سوف تُسأل الموءودة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكوير: ٩). بل وينتقد القرآن أولئك الذين يبخسون من قيمة ولادة البنات. عندما يخجل مثل هذا الوالد لأن وليدته أنثى ويتساءل ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، يقول القرآن إن هذا شر محض (سورة النحل: ٥٩)، ويؤكد وجوب إرث البنات شأنهنَّ شأن البنين من الآباء. وهو

حق كانت النساء الأوروبيات محرومات منه حتى نهاية القرن السادس عشر (كوفسكي، ١٩٨٨: ٣١٧، ٣٤٢).

وبافتراض أن النساء سيتزوجن، وإلزام الأزواج بإعالة زوجاتهم وأولادهم؛ فإن القرآن ينص أن نصيبهن من الميراث نصف نصيب إخوتهن (إن كان لهن إخوة؛ سورة النساء: ٧–١٢). إلا أنه مسموح للنساء باكتساب ثروتهن والتحكم فيها. يقول القرآن: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ (سورة النساء: ٣٢). علاوة على ذلك، يُحرِّم القرآن «المهر» التقليدي، الذي بموجبه يقدم الزوج عطية إلى والِدَي العروس، مما يبدو ثمنًا لسلعة. يشترط القرآن أن المهر لا بد أن يُقدَّم إلى العروس نفسها لتفعل به ما يحلو لها (سورة النساء: ٤). بالمثل، يُحرم القرآن توريث النساء كما لو كنَّ مقتنيات، كما كان شائعًا قبل الإسلام (سورة النساء: ١٩).

يتدخل القرآن أيضًا في عدد من ممارسات الزواج التي كانت منتشرة قبيل الإسلام بطرق تحمي المرأة من إساءة المعاملة. في شبه الجزيرة العربية ما قبل الإسلام، كانت النساء يُعامَلن حقًّا على أنهنَّ من المقتنيات، وكان بمقدور الرجل التزوج من النساء عدد ما شاء بقدر ما يمكنه تحمُّل نفقاتهن، وتركهن متى شاء. يحد القرآن تعدد الزوجات. وعندما يتطرق إلى اليتيمات وحاجتهن إلى الحماية، يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (سورة النساء: ٣). بالمثل يصف القرآن الزواج بأنه علاقة مصونة ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (سورة الروم: ٢١). ويقول إن الأزواج ينبغي أن يكونوا مثل اللِّبَاس يقي بعضهم بعضًا (سورة البقرة: ١٨٧). كما يُحرم الطلاق المزاجي، مستلزمًا حدوث طلاقين مؤقتين، وتحكيم أعضاء موقرين من المجتمع. وإذا لم يستطع الزوجان بعد كل هذا التعايش معًا، يمكنهما الطلاق حينئذٍ (سورة الطلاق: ١-٢).

القرآن هو حقًّا وثيقة عصره. وكما لحظنا أعلاه، هو يقر بالعبودية؛ فكما الحال في تقاليد أخرى في هذا العصر، كانت العبودية جزءًا لا يتجزأ من النسيج الاقتصادي الاجتماعي. وفي اليهودية، كان الطفل الذي يُولد لعبد رجل، يتمتع بالحقوق ذاتها التي يتمتع بها أطفال الرجل من زوجاته. على أن القرآن يدعو إلى كرامة الإنسان ويشجع الناس على تحرير العبيد. اليوم، العبودية مُجرَّمة في كل البلدان، ومنها البلدان المسلمة. تتمحور مناقشة أكثر آية قرآنية إثارة للجدل على الأرجح حول هذه القضية: السياق التاريخي للكثير من الآيات.

توجد الآية المثيرة للجدل في سورة النساء (الآية ٣٤):

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ [غياب أزواجهن] بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ [بتعاليم الله] وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

ليست الآية مثيرة للجدل بسبب فكرة أن الرجل رأس العائلة. هذا شائع في التقاليد الدينية، ومنها المسيحية؛ إذ يقول بولس في رسالته إلى أهل أفسس: «أَيَّتُهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ ... وَلَكِنْ كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذَلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ» (أفسس: ٥: ٢٢–٢٤). قد يتجادل المسلمون المتحررون، على غرار المتحررين في الديانات الأخرى، حول هذا الرأي التقليدي، غير أن الآية الرابعة والثلاثين من سورة النساء مثيرة للجدل على نحوٍ خاصٍّ لسببين آخرين؛ أولًا: يبدو أن المقصود بالآية أن الرجال مسئولون عن النساء — بل، وكما في بعض الترجمات، «مكلَّفون» بالنساء — لأنهم يعولونهن. لكننا نعلم على سبيل المثال أن زوجة محمد الأولى، خديجة، كانت ميسورة الحال، وكانت تكبُره بخمسة عشر عامًا تقريبًا، وكان يعمل لديها. ولمَّا كان محمد نموذجًا قياسيًّا يقتدي به المسلمون، فمن الصعب القول إن القرآن يقصد أنه يجب على الرجل دائمًا أن يكون العائل، ومِن ثَمَّ صانع القرارات في العائلة. ومع هذا، فالأكثر إثارة للجدل في الآية هو لفظة «اضْرِبُوهُنَّ» التي عادة ما تُترجم في الإنجليزية إلى hit أو strike، وما زالت ترجمات كثيرة اليوم تستخدم هاتين اللفظتين مع إضافة التنبيه التقليدي الذي يُشير إلى وجوب أن تكون الضربة خفيفة ولا تُسدَّد أبدًا إلى الوجه.

مقابل هذا، يترجم عدد من التفاسير المعاصرة هذا الفعل على أنه يعني «ابتعدوا» أو «ارحلوا» عنهن؛ فللفعل معانٍ عدةٌ في اللغة العربية، ويمكن العثور على أمثلة لذلك خارج القرآن لإثبات أن الفعل كان له عدد من المعاني، ومنها المعاني المذكورة في الترجمات المختلفة (ربما بالطريقة ذاتها التي تعني بها لفظة strike في الإنجليزية hit بمعنى «يضرب» وفي الوقت نفسه بمعنى «يبدأ» أو «يحدث» أو «يدرك»). لكن الأهم هو أن الترجمة التي بمعنى «اضْرِبُوهُنَّ» تنتهك كلًّا من رسالة القرآن والنموذج المعياري الذي رسخه محمد. يُقال للرجال في موضع آخر من القرآن إنه يُحظَر عليكم أن ﴿تُضَارُّوهُنَّ﴾

أو ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ حتى أولئك الزوجات اللاتي لا يستطيعون التعايش معهن (سورة الطلاق: ٦).

لا ننكر أن كثيرًا من المسلمين لا يزالون يعتقدون أنه من المقبول للأزواج أن يؤدِّبوا زوجاتهم بدنيًّا. تمخض هذا عن انتشار الحركات الإصلاحية في الإسلام على مدار القرن ونصف القرن المنصرمين. منذ أواخر القرن التاسع عشر وهذه الحركات تدعو المسلمين إلى فهم كتابهم المقدس فهمًا صحيحًا كيما يرتقوا بشأن أعضاء المجتمع كافة، مع إيلاء اهتمام خاص للنساء. وعلى الرغم من هذا، لا يستطيع أحد أن ينكر أيضًا أن الأعراف الدينية كثيرًا ما تختلط مع الأعراف الثقافية. وحالة طالبان في أفغانستان وباكستان هي الأكثر وضوحًا. تعني لفظة «طالبان» الطلاب باللغة البشتونية، وهؤلاء «الطلاب» هم في الأساس من الاتحاد القبَلي البشتوني الهائل. البشتونيون لديهم ولاء عميق للشرف القَبَلي القديم الذي يقوم تقليديًّا على الكرم والشجاعة وعفة المرأة. ومجرد فكرة أن امرأة انخرطت في نشاط جنسي غير مشروع قد تكون تحريضًا كافيًا كي يقتلها أقاربها، علامةً على أن شرفهم القَبَلي لم يُمس. لهذا تُفصَل النساء عن الرجال، ويُلْزَمن بالبقاء في المنزل. أغلب الظن أن هذا هو سبب إطلاق أحد أفراد القبيلة النار على الفتاة الباكستانية في عمر المراهقة مالالا يوسفزاي — وهي فتاة بشتونية — عندما أصرت على قيادة الفتيات الأخريات إلى المدرسة. على أن مالالا تعلم أن الإسلام لا يُبيح مثل هذا السلوك، وإن كان مهاجموها قد يعتقدون غير ذلك؛ لهذا أعلنت في خطابها أمام الأمم المتحدة عقب خروجها من المستشفى في يوليو ٢٠١٣: «الإرهابيون يسيئون استخدام اسم الإسلام والمجتمع البشتوني ... فالبشتونيون لديهم الرغبة في تعليم بناتهم وأولادهم» (يوسفزاي، ٢٠١٣).

وعليه، مع أنه لا شك في أن هناك مسلمات عانَيْن معاناةً جسيمة على أيدي مسلمين يعتقدون أن إساءتهم إلى النساء مباحة دينيًّا؛ فإن مقولة إن الإسلام يبيح انتهاك المرأة هي مقولة مستحيلة في ضوء التعليم الكلي للقرآن والمثال الذي ضربه محمد.

المراجع

Ali, A.H. (2013) *Infidel*, Atria, New York.

Kofsky, A.S. (1988) Narrative analysis of women's property rights in Jewish and Anglo–American law, *Journal of Law and Religion* 6: 317, 342.

Sultan, W. (2009) *A God Who Hates: The Courageous Woman Who Inflamed the Muslim World Speaks Out Against the Evils of Islam*, St. Martin's, New York.

Yousafzai, M. (2013) Text of Speech at the United Nations, July 12, https://secure.aworldatschool.org/page/content/the-text-of-malala-yousafzais-speech-at-the-united-nations

قراءات إضافية

Ahmed, Leila. (1993). *Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate.:* Yale University Press. New Haven, CT.

Wadud, Amina. (1999). *Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective.:* Oxford University Press. New York.

(٧) يَعِد القرآن الانتحاريين باثنتين وسبعين حورية في الجنة

> لا تموتي عذراء. الإرهابيون في انتظارك في السماء. (لافتة في محطة بنزين بملووكي (هوسمان، ٢٠١٣))

استحوذت فكرة أن المسلمين سوف تستقبلهم في الجنة اثنتان وسبعون حورية على مخيلة الرأي العام الغربي؛ فنراها مقتبسة في عشرات الكتب ومواقع الويب، وصارت مادة غنية للكُتاب والممثلين الهزليين وكارهي الإسلام على السواء. على سبيل المثال، في ديسمبر ٢٠١١، نشرت شركة الإنتاج التي يملكها الممثل الكاتب الكوميدي دينيس ليري على موقع «هو سيي» (www.whosay.com/DnisLeary) محاكاة ساخرة عمرها ست سنوات لشخصية كارتونية هي تشارلي براون الذي يعتنق الإسلام ويصبح إرهابيًّا على أمل الحصول على ٧٢ حورية.

ينتشر هذا الزعم بين المسلمين أيضًا، ولا شك أن بعضهم يفهمه فهمًا حرفيًّا. تكبد موقع ويب المفكرة المحافظة باميلا جيلر (٢٠٠٩) عناء تسجيل مزاعم كثير من المسلمين بأن هذا المعتقد مؤسَّس على القرآن. بيد أن زعم الاثنتين والسبعين حورية أكثر ارتباطًا بالإرهابيين الذين يزعمون أن معاناتهم الأرضية سوف تعوضها مُتع الجنة.

ومع هذا، فالواقع أن الإسلام لا يعد بأي أجر للمنتحرين أو أولئك الذين يشتركون في أعمال الإرهاب؛ فكما ناقشنا أعلاه، كلٌّ من الانتحار والإرهاب — القتل العشوائي للأبرياء — يُعدَّان من الكبائر في الإسلام.

يُدين القرآن الانتحار خصوصًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۞ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ (سورة النساء: ٢٩-٣٠). ويتكرر منع الانتحار في مختلف التعاليم الإسلامية؛ إذ يعبِّر عن اليأس أو فقدان الأمل في الله. وهو محظور في الشريعة الإسلامية.

الإرهاب مذموم أيضًا في الشريعة الإسلامية. يتوافر مئات الاستنكارات للأعمال الإرهابية، أصدرتها المرجعيات الإسلامية على الإنترنت على موقع http://kurzman unc.edu/islamic-statements-againist-terrorism.. ويوضح كثير من البيانات الاستنكارية أن الأعمال الإرهابية لا يمكن اعتبارها جهادًا. مرة أخرى، كما أوضحنا أعلاه، يشير الجهاد إلى الكفاح من أجل تنفيذ مشيئة الله. يمكن أن يشتمل هذا الجهاد على كبح الذات (يُسمى تقليديًّا «الجهاد الأكبر») وأي نوع من أنواع الجهد المبذول من أجل تعزيز هدف الإسلام في تحقيق العدالة الاجتماعية. وعندما يتعين أن يتخذ الجهاد من أجل العدالة شكلًا عسكريًّا؛ فإنه يخضع لتشريعٍ موسع، يتضمن اشتراط إعلانه بوصفه ملاذًا أخيرًا من قبل رئيس دولة معترف به بشكل صحيح، وأن يكون غير المقاتلين محميين. لا تلبي الهجمات الإرهابية أيًّا من هذين الشرطين، ومِن ثم فهي مذمومة. وبدلًا من اعتبار الإرهاب جهادًا؛ فإن الشريعة الإسلامية تصنفه على أنه «حرابة»؛ أي حرب غير شرعية.

الحرابة محرمة لسببين رئيسين؛ أولًا: بسبب قتل الأبرياء؛ فالقرآن يقول ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: ٣٢). ثانيًا: يبث العنف العشوائي الخوف في نفوس الجميع، ويؤدي ذلك إلى تنافر اجتماعي، أي «فَسَاد في الأرض». وهذا النوع من الخوف هو عكس الإحساس بالسلم والأمان الذي جاء الإسلام من أجله. لفظة «سلام» هي جزء من التحية الرسمية للإسلام: «السلام عليكم». ولفظتا «سلام» و«إسلام» مشتقتان من الجذر نفسه في اللغة العربية. ونتيجة لبشاعة الأضرار الناجمة من الإرهاب؛ فإن الشريعة الإسلامية تفرض عقوبة الإعدام على جريمة الإرهاب.

لكن ماذا عن الصالحين الذين لهم ثواب أبدي في الجنة؟ هل يقول القرآن إنه سيكون في استقبالهم عشرات الحوريات في الجنة؟

على غرار الكتاب المقدس، يصف القرآن الحياة الآخرة بتفصيل حسي، مشبِّهًا المعاناة في الجحيم بالاحتراق في النار، ومتع الجنة ببستان مليء بالمباهج المادية. إذ سيجلس الناس على مقاعد وثيرة مصنوعة من أقمشة جميلة، وحيث ستكون وفرة من المياه والفواكه واللحوم، بل وأيضًا خمر لا يثمل شاربها ولا يسكر. ولكل شخص رفيقات عذارى ودائمات الشباب. وهذه «الرفيقات العذارى» أو «الزوجات» هي التي فسرها بعض المفسرين التقليديين على أنها إناث لم يمارسن الجنس أبدًا من قبلُ.

ورد ذكر لفظة «حور» في أربعة نصوص، مرتان منها للإشارة إلى زوجات أولئك الذين في الجنة (سورة الدخان: ٥٤، وسورة الطور: ٢٠)، ومرة باعتبارها جزاءً (سورة الواقعة: ٢٢–٢٤). غير أن الإشارات مختصرة وموجزة، واللفظة «حور» ليست مشتقة من جذر عربي، ومِن ثَمَّ فمعناها مسألة متروكة للتخمين. يفترض علماء اللغة أنها كانت تشير إلى لون أبيض ناصع، وبالفعل تستخدم أيضًا كلمة «لؤلؤ» في السياق نفسه. وتعدِّل الإشارات القرآنية كلمة «عَيْن»، من ثم تأتي العبارة بصيغة «عِين» أي «ذوات أعين بيضاء» أو «ذوات أعين ناصعة كاللؤلؤ». لكن إلامَ يمكن أن تشير عبارة رفيقات «بيضاوات الأعين» أو «لُؤلُئيات الأعين»؟

يرى مؤرخو الدين تشابهًا بين الإشارات القرآنية الموجزة إلى رفيقات ناصعات البياض وبين تعاليم الزرادشتية القديمة عن الكائنات الملائكية التي تقود أرواح الأبرار إلى السماء. تقول الزرادشتية، الديانة القديمة لإيران، إن الناس سوف يُحاسَبون في آخر الزمان؛ فمن كانوا أمناء ونزيهين فسيُكافَئون؛ ومن لم يكونوا فالعقاب في انتظارهم. وفي بعض الأوصاف، سيكون الحساب على شكل تحدٍّ. سيتعين على الناس اجتياز جسر ضيق معلق عاليًا فوق برك مشتعلة بالصخور المنصهرة. وعلى الجانب الآخر من الجسر يوجد الفردوس؛ حيث ستتوهج أرواح الأنقياء بنور ينعكس على الجانب الآخر، في هيئة كائن نقي (أو «عذراوي»)، نوع من التوأم أو شريك الروح الذي سوف يقود البارَّ بأمان عبر الهاوية إلى الفردوس حيث سيتحدان.

يوجد الاعتقاد بمثل تلك الكائنات المرشدة للأرواح في بعض الديانات الأفريقية بالإضافة إلى التقاليد الشعبية في اليهودية والمسيحية، حيث تأخذ هذه الكائنات في الغالب شكل ملائكة. يطلق العلماء على مثل هذه الكائنات «قائدات الأرواح بعد الممات»، ويفسر كثيرون الحور العين المذكورة في القرآن على أنها هذه الكائنات. ولا شك أن المفسرين القدماء الذين فسروها في ضوء الجنس كانوا على دراية بظاهرة «قائدات الأرواح بعد الممات». الأرجح أنهم كانوا يعلمون أن الرقم ٧٢ لم يرد في أي موضع في القرآن، لكن

في مصادفة مذهلة، الرقم ٧٢ هو رقم مميز في الزرادشتية، حيث يمثل الاثنين والسبعين فصلًا التي يتكوَّن منها الكتاب المقدس الزرادشتي. ويرتدي أتباع الديانة الزرادشتية حزامًا خاصًّا أثناء الصلوات مصنوعًا من ٧٢ خيطًا صوفيًّا ناصع البياض. ولعلها ليست مصادفة أن اسم هذا الحزام — الكوشتي (أو الكوستي) — يعني «الدليل» أو «مرشد الأرواح».

المراجع

Geller, P. (2009) 72 Virgins … Myth or Truth? Atlas Shrugs, January 19, http://atlasshrugs2000.typepad.com/atlas_shrugs/2009/01/72-virgins-myth-or-truth. html (accessed January 8, 2013).

Hausmann, J. (2013) "Don't Die a Virgin" Gas Station Sign Stops Traffic, www.heavy.com/news/2013/03/dont-die-a-virgin-gas-station-sign (accessed January 8, 2014).

(٨) يرفض المسلمون الديمقراطية

> علينا الالتزام بالإسلام، والإسلام وحده، لا غير. لا تخدعنَّكم أو تغرَّنَّكم القصة المراوغة الناقصة التي تُنادي بأن الطريق الوحيد للانخراط في السياسة هو العملية الديمقراطية العلمانية. هذه العملية ممنوعة وحرام. (زعيم الجماعة الإسلامية المحافظة، حزب التحرير، في حشد بولاية نيوساوث ويلز، بأستراليا، في ٤ يوليو ٢٠١٠ (منظمة آر إيه إيه إل، ٢٠١٠))

في ضوء تعليقات على شاكلة تلك التصريحات المقتبسة أعلاه من جماعة حزب التحرير الصريحة، قد لا يكون مدهشًا اعتقاد كثير من الناس أن المسلمين يرفضون الديمقراطية. بالفعل، أثنى كثير من العلماء غير المسلمين على هذا الرأي. وكان أشهرهم أستاذ العلوم السياسية الأمريكي صمويل هنتنجتون؛ فقد أجال النظر في البلدان التي أغلبية سكانها من المسلمين، ووجد أنها «غير ديمقراطية بدرجة هائلة: حكومات مَلَكية، أو أنظمة تعتمد على حكم الحزب الواحد، أو أنظمة عسكرية، أو ديكتاتوريات فردية، أو مزيج من هذه، وعادة ما تستند إلى قاعدة عائلية أو عشيرية أو قَبَلية محدودة، ومعتمدة في بعض الحالات

بدرجة كبيرة على الدعم الخارجي» (هنتنجتون ١٩٩٦: ١١٣). اكتسب هنتنجتون سوء السمعة بسبب تكهنه بـ «صراع حضارات» بين «الحضارة الإسلامية» والغرب الديمقراطي. وكان التصور بأن المسلمين كانوا راضين على الأقل في غياب الديمقراطية مستحكمًا حتى إن موجة الانتفاضات الديمقراطية التي بدأت في تونس عام ٢٠١٠ — «الربيع العربي» — صدمت كثيرًا من المراقبين. كما عبرت عن ذلك وزيرة الخارجية حينها، هيلاري كلينتون: «نحن بصدد انتفاضة عربية لم يمكن بوسع أحد أن يتخيلها، وقليلون هم من تنبئوا بها منذ بضع سنوات. وهي تمحو الكثير من المدركات السابقة السائدة القديمة» (مايرز، ٢٠١١). كان الإدراك السابق السائد الذي كانت تتحدث عنه هو أن المسلمين يرفضون الديمقراطية.

في الواقع، لا حزب التحرير ولا غيره ممن يرفضون الديمقراطية يتحدثون باسم أغلبية المسلمين؛ فقد أثبتت استطلاعات الرأي الحديثة أن المسلمين على مستوى العالم يؤثِرون الديمقراطية للغاية. نُشرت نتائج أول استطلاع رأي عالمي على الإطلاق لآراء المسلمين أجراه معهد جالوب في كتاب إسبوزيتو ومجاهد (٢٠٠٨). وجد استطلاع الرأي الذي غطى آراء ١,٣ مليار شخص في حوالي ٤٠ دولة من الدول ذات الأغلبية المسلمة، أنه «حينما سُئل المسلمون عن أكثر ما يستهويهم في الغرب، ذكروا على نحو متكرر الحرية السياسية، والتحرر، والأنظمة القضائية النزيهة، وحرية التعبير.» وحينما استقصى مستطلعو الرأي بمزيد من التعمق عن المقومات المحدَّدة للحكم الديمقراطي، وجدوا أن «أغلبيات عظمى في معظم البلدان التي خضعت لاستطلاع الرأي (٩٥٪ في بوركينا فاسو، و٩٤٪ في مصر، و٩٣٪ في إيران، و٩٠٪ في إندونيسيا) قالت إنها لو أتيحت لها فرصة صياغة دستور لبلد جديد، لتكفلت بحرِّية التعبير للجميع، التي يُعرِّفونها على أنها «السماح لجميع المواطنين بالتعبير عن آرائهم في القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الراهنة»» (إسبوزيتو ومجاهد ٢٠٠٨).

تبرهن البيانات المقدمة في استطلاعات جالوب بوضوح عن أن مسلمي القرن الحادي والعشرين هم في العموم مؤيدون للديمقراطية. وإجراء استطلاعات رأي ضخمة بين المجتمعات الإسلامية في أنحاء الكرة الأرضية هو ظاهرة حديثة، لكن لو كانت الأسئلة ذاتها طُرِحت في القرن العشرين، لربما جاءت الإجابات مختلفة. في حقيقة الأمر، كان هناك تردد واضح بين المصلحين السياسيين المسلمين في استخدام مصطلح «الديمقراطية». يرجع هذا إلى أن بعض المصلحين الأوائل رفضوا استخدامه، قائلين إنه غريب على الإسلام. وكان التبرير أن منح البشر حرية مطلقة من شأنه أن يتيح للناس منح مسوغ قانوني

لأفعال فاجرة، مثل البغاء والسرقة. نبعت هذه المخاوف من خبرة المسلمين في الفترة التي سيطرت فيها البلدان الأوروبية على معظم البلدان الإسلامية. لم يحصل كلٌّ من سوريا والمغرب والجزائر وتونس، على سبيل المثال، على استقلالها عن فرنسا إلا في أربعينيات القرن العشرين وستينياته. ونالت مصر والعراق استقلالهما عن بريطانيا في خمسينيات القرن العشرين، ونالت ليبيا استقلالها عن إيطاليا في الفترة ذاتها. وكانت البلدان الأوروبية جميعها تنعم بأنظمة ديمقراطية، لكنها سلكت سلوكًا فاجرًا للغاية في أعين المُستعمَرين.

وعلى الرغم من رفض هؤلاء المصلحين الأوائل مصطلح «الديمقراطية»؛ فإنهم كانوا يدعون إلى إقامة حكومات تمثيلية تشاورية، تتسم بتوازن القوة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، وحقوق الإنسان، ومنها الحرية الدينية. وفي أواخر القرن العشرين، تغلب جمهور المصلحين على نفورهم من كلمة «الديمقراطية» وبدءوا يستخدمونها على نطاقٍ واسع. على سبيل المثال، شرح زعيم حزب النهضة الإسلامي الذي فاز بأغلبية الأصوات في أول انتخابات ديمقراطية بتونس، راشد الغنوشي (١٩٩٤)، أن الحكم الإسلامي ديمقراطي في أساسه، وأنه لا منطق في رفض المصطلح إذا كان هذا لا يُسفِر إلا عن إرباك غير المسلمين. بالمثل، أكد محمد خاتمي، رئيس إيران المنتخب عام ١٩٩٧، أن أفضل أشكال الحكم للمسلمين في العالم الحديث هو الديمقراطية (١٩٩٧).

في عام ٢٠١٣، واجهت حكومتان من الحكومات التي اعتلت السلطة في الانتخابات التي طالبت بعقدها أنشطة الربيع العربي، معارضة؛ فقد جرى خلع الحكومة المصرية بقيادة الإخوان المسلمين في انقلاب عسكري بدعم شعبي، وما زالت الحكومة التونسية بقيادة حزب النهضة تواجه سخطًا شعبيًّا. لكن كما هو الحال في الأنظمة الديمقراطية الغربية، تختلف معارضة أشخاص جرى انتخابهم عبر الديمقراطية تمام الاختلاف عن معارضة الديمقراطية نفسها.

في أعقاب انتفاضات الربيع العربي، أجرى مركز بيو للأبحاث (٢٠١٢) استطلاع رأي في ستة من البلدان ذات الأغلبية المسلمة عن موقفهم من الديمقراطية؛ فكانت النتائج: «بعد مضي أكثر من عام على أول حراك للربيع العربي، تستمر الرغبة العارمة في إرساء الديمقراطية في الأمة العربية وغيرها من الأمم ذات الأغلبية المسلمة. تؤمن أغلبيات قوية في لبنان وتركيا ومصر وتونس والأردن بأن الديمقراطية هي أفضل شكل للحكومة، كما يؤمن بذلك كثير من الباكستانيين.» أما بشأن الجوانب الأكثر تحديدًا من الحكم الديمقراطي؛ فإن الأغلبيات الساحقة تؤيد الحقوق المتساوية للنساء، وإن كانت النساء

أكثر تعبيرًا عن هذه الرؤية من الرجال بالطبع. لا عجب أن بعض العرب عبَّروا عن خيبة أملهم في الديمقراطية بسبب الاضطرابات التي صاحبت التحول الديمقراطي؛ فقد انخفض تأييد المصريين للديمقراطية بنسبة ٤ نقاط في عام ٢٠١٢ من التأييد الذي بلغت نسبته ٧١ في المائة في عام ٢٠١١، على سبيل المثال. ومع ذلك، تكشف الأرقام عن التأييد المتواصل للديمقراطية والمبادئ الديمقراطية.

المراجع

Esposito J. and Mogahed, D. (2008). *Who Speaks for Islam? What A Billion Muslims Really Think,* Gallup Press, New York.

Ghannouchi, R. (1994) *Islam and Civil Society in Tunisia*. Presented at "Islam and Civil Society in South Africa: Prospects for Tolerance and Conflict Resolution" conference at University of South Africa, Johannesburg, August 6.

R.E.A.L. Organisation (2010) *Hizb ut-Tahrir Attacks Democracy, Freedom in Australia*, July 6, www.realcourage.org/2010/07/hizb-ut-tahrir-attacks-democracy-inaustralia (accessed January 10, 2014).

Huntington, S. (1996) *Clash of Civilizations*, Simon and Schuster, New York.

Khatami, M. (1997) *Hope and Challenge: The Iranian President Speaks*, Institute of Global Cultural Studies, Binghamton University, Binghamton, NY.

Myers, S.L. (2011) Tumult of Arab Spring Prompts Worries in Washington, *New York Times,* September 17.

Pew Research Center (2012) Most Muslims Want Democracy, Personal Freedoms and Islam in Political Life, July 10, www.pewglobal.org/2012/07/10/mostmuslims-want-democracy-personal-freedoms-and-islam-in-political-life (accessed January 9, 2014).

ut-Tahrir, H. (2010) *Hizb ut-Tahrir Attacks Democracy, Freedom in Australia.* http://www.realcourage.org/2010/07/hizb-ut-tahrir-attacks-democracy-in-australia/ (accessed January 10, 2014).

قراءات إضافية

Esposito J. and Voll, J. (2012) *Islam and Democracy*, Oxford University Press, New York.

(٩) يخفق المسلمون في إعلان إدانتهم للإرهاب

لماذا يخفق المسلمون في إعلان إدانتهم للإرهاب؟ (المذيع الدكتور ألفين أوجستوس جونز في حوار مع كامران باشا حول روايته «أم المؤمنين» (باشا، ٢٠٠٩))

أفاد المؤلف كامران باشا أنه سُئل السؤال المقتبس أعلاه بوصفه مثالًا لزعم دائم ولكنه زائف: «يُطرح عليَّ هذا السؤال كل يوم تقريبًا، ويتركني في ذهول شديد» (باشا، ٢٠٠٩). وله الحق؛ طالما كانت المرجعيات المسلمة تستنكر فعلًا وعلى نحو متكرر الإرهاب منذ أن ظهر الإرهاب أداةً سياسية بين المسلمين. أول بيان مشترك ضد الإرهاب، «الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب»، أصدرته جامعة الدول العربية عام ١٩٩٨.

اتساقًا مع المبادئ «الإنسانية» والشريعة الإسلامية، استبعدت الوثيقة أعمال الجماعات التي تكافح من أجل تحرير أراضيها من الاحتلال الأجنبي، وما خلا ذلك، استنكرت الهجمات على الأفراد، والتخريب، والتصنيع والبيع والحيازة لـ «الأسلحة أو الذخائر أو المتفجرات، أو غيرها من المواد التي قد تُستخدَم لارتكاب اعتداءات إرهابية.»

جاء بيان جامعة الدول العربية ردًّا على الإرهاب المرتكَب في البلدان العربية؛ ففي تسعينيات القرن العشرين، ارتكبت «الجماعة الإسلامية»، وهي جماعة راديكالية، كثيرًا من الهجمات الإرهابية في مساعيها لإسقاط الحكومة المصرية. وكانت أكثرها بشاعة هجمة نوفمبر ١٩٩٧ في مدينة الأقصر، التي أسفرت عن مقتل ٦٢ شخصًا، معظمهم من السائحين، لكن أغلب ضحايا الهجمات عمومًا كانوا مصريين. حينئذٍ، وكما هي الحال الآن، كان أغلب ضحايا الإرهاب المرتكب باسم الإسلام مسلمين بالفعل. في ديسمبر ٢٠٠٩، نشرت الأكاديمية العسكرية الأمريكية في وست بوينت تقريرًا حول ضحايا إرهاب تنظيم «القاعدة»، خلص إلى أن «الأغلبية الساحقة من ضحايا القاعدة مسلمون ... فمنذ ٢٠٠٤ حتى ٢٠٠٨، كانت نسبة الغربيين من إجمالي الضحايا البالغ عددهم ٣٠١٠ ضحايا هي

١٥ في المائة فقط» (هلفستاين وآخرون، ٢٠٠٩: ١). يشتمل التقرير على ضحايا تفجيرات مدريد ولندن. ومنذ عام ٢٠٠٤، تُصدر وزارة الخارجية الأمريكية تقارير سنوية حول الإرهاب على مستوى العالم، سواء المرتكَب باسم الإسلام أو غيره. وخلُص تقريرها عن عام ٢٠١٢ (المركز القومي لمكافحة الإرهاب، ٢٠١٢) إلى أن: «المسلمين استمروا في تحمل أوزار الإرهاب. ... ففي الحالات التي أمكن فيها تحديد الانتماء الديني لضحايا الإرهاب، عانى المسلمون بنسبة تتراوح بين ٨٢ و٩٧ في المائة من الوفيات المتصلة بالإرهاب على مدار السنوات الخمس الماضية.»

أيًّا ما كانت هوية الضحايا، تستنكر المرجعيات الإسلامية الإرهاب. وبينما لم يكن بمقدور كثير من المسلمين تصديق أن المسلمين يرتكبون مثل هذه الأعمال الوحشية حقًّا، أعلنت المرجعيات الإسلامية على مستوى العالم أنها تُدين هذه الأعمال إدانة قاطعة. بدأ هذا في يوم الهجمات؛ إذ قال رئيس تحالف المسلمين الأمريكيين، الدكتور أغا سعيد: «هذه الهجمات هي ضد كلٍّ من الشرائع الإلهية والبشرية، ونحن نُدينها بأشد اللهجات. ويضم المسلمون الأمريكيون صوتهم إلى صوت الأمة في المطالبة بالقبض السريع على الجناة وإنزال عقوبات مشددة بهم، ونحن نُعرب عن تعاطفنا مع الضحايا وعائلاتهم» (كورزمان، على الإنترنت). وفي ١٢ سبتمبر ٢٠٠١، أصدر الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، الهيئة الوحيدة التي تمثل جميع البلدان ذات الأغلبية المسلمة، هذا البيان:

> في أعقاب الهجمات الدموية على المباني والمنشآت الرئيسية في الولايات المتحدة بالأمس، الثلاثاء الموافق الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أعرب الدكتور عبد الواحد بلقزيز أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي المكونة من ٥٧ دولة، عن فجيعته وبالغ أساه لدى سماعه بتلك الهجمات التي أسفرت عن مقتل وإصابة عدد كبير للغاية من المواطنين الأمريكيين الأبرياء. وقد أعرب الدكتور بلقزيز عن شجبه وإدانته لتلك الأعمال الإجرامية والوحشية التي تتنافى مع كل المواثيق والقيم الإنسانية والأديان السماوية التي أبرزها الإسلام. (بيان صحفي، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٢ سبتمبر ٢٠٠١: كورزمان، على الإنترنت)

ربما يكون الشيخ يوسف القرضاوي أشهر علماء الدين السنة وأكثرهم احترامًا في العالم اليوم. يشاهد برنامجه التليفزيوني «الشريعة والحياة» الملايين أسبوعيًّا. ويذيع صيته

بسبب دفاعه الحار عن حقوق الفلسطينيين، ومنها حقهم في استخدام تكتيكات حرب العصابات ضد الإسرائيليين. لكن ردًّا على هجمات ١١ سبتمبر، أصدر البيان التالي:

> تدمى قلوبنا بسبب الهجمات التي استهدفت مركز التجارة العالمي ومؤسسات أخرى في الولايات المتحدة، على الرغم من معارضتنا الشديدة للسياسة الأمريكية المتحيزة لإسرائيل على الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية. إن الإسلام، دين التسامح، يُقدِّس روح الإنسان، ويعتبر الهجوم على بشر أبرياء من الكبائر؛ فقد قال الله تعالى في الآية القرآنية: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. (سورة المائدة: ٣٢) (بيان صحفي، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٢ سبتمبر ، ٢٠٠١: كورزمان، على الإنترنت)

أيضًا، كان من بين من اشتُهروا بتأييد الفلسطينيين وإدانة السياسة العسكرية الأمريكية، آية الله علي خامنئي، المرشد الأعلى لإيران. وقد أعلن في أعقاب ١١ سبتمبر:

> إن قتل الناس في أي مكان وباستخدام أي نوع من أنواع الأسلحة، ومنها القنابل النووية، أو القذائف الطويلة المدى، أو الأسلحة البيولوجية أو الكيميائية، أو باستخدام طائرات مسافرين أو طائرات حربية، وسواء أكان هذا بفعل منظمة أو بلد أو أفراد؛ هو عمل مرفوض ... ولا يوجد فرق إن وقع مثل هذه المذابح في هيروشيما أو ناجازاكي أو قانا أو صبرا أو شاتيلا أو دير ياسين أو البوسنة أو كوسوفو أو العراق أو نيويورك وواشنطن. (خامنئي، ٢٠٠١)

بالمثل، وفي بيان مشترك صادر في ١٤ سبتمبر ٢٠٠١، أعلن قادة جماعة الإخوان المسلمين بمصر، والجماعة الإسلامية في باكستان، والجماعة الإسلامية في بنجلاديش، وحركة المقاومة الإسلامية الفلسطينية (حماس)، وحزب النهضة الإسلامي التونسي، والحزب الإسلامي الماليزي، و٤٠ مرجعية إسلامية أخرى:

> روَّعت أحداث الثلاثاء الموافق الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، التي وقعت في الولايات المتحدة وأسفرت عن وفيات هائلة ودمار واسع النطاق وهجوم على الأرواح البريئة، قادةَ الحركات الإسلامية الموقعين أدناه. ونحن إذ نشجب بأشد اللهجات الأحداث التي تتعارض مع كل الأعراف الإنسانية والإسلامية، نُعرب

> عن تعاطفنا العميق وبالغ أسانا. وهذه الإدانة متأصلة في الشرائع الإسلامية الشريفة التي تُحرِّم كل أشكال الهجوم على الأبرياء. (كورزمان، على الإنترنت)

وإذ أدرك قادة البيان أن إرهابيي ١١ سبتمبر زعموا أنهم فعلوا هذا عقابًا للأمريكيين على تأييد حكومتهم الانتهاكات الإسرائيلية للحقوق الفلسطينية، يسترسل البيان قائلًا: يقول الله تعالى في القرآن الكريم: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» («إم إس إيه نيوز»، ٢٠٠١).

وفي أعقاب هجمات مدريد ولندن وبوسطن، صدرت بيانات شجب مماثلة. على سبيل المثال، أصدر المجلس الفقهي بأمريكا الشمالية فتوى صدَّق عليها كلٌّ من مجلس العلاقات الأمريكية-الإسلامية، والجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية، والجمعية الإسلامية الأمريكية، وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين، وجمعية العلماء والمهندسين المسلمين، والمجلس الإسلامي للشئون العامة، وكما جاء في الفتوى:

> ... وأكثر من ١٣٠ منظمة ومسجدًا وقيادة للمسلمين في الولايات المتحدة. لطالما شجبنا على الدوام الإرهاب والتطرف بكل أشكاله أيًّا ما كانت الظروف، ونحن نعيد تأكيد هذا الموقف الصريح. يُدين الإسلام بصرامة التطرف الديني واستخدام العنف ضد الأرواح البريئة. ليس هناك ما يبرر التطرف أو الإرهاب في الإسلام. إن استهداف حياة المدنيين وممتلكاتهم من خلال التفجيرات الانتحارية أو أي وسيلة هجوم أخرى هو حرام — ممنوع في الإسلام — وأولئك الذين يقترفون هذه الأعمال الوحشية هم مجرمون وليسوا «شهداء». (كورزمان، على الإنترنت)

لا تُدين المرجعيات الإسلامية الإرهاب وحسب، ولكنهم يُقرُّون أيضًا بأن المسلمين يتحملون مسئولية منع الإرهابيين من القيام بأعمالهم؛ فقد أصدرت المفوضية الإسلامية بإسبانيا فتوى في أعقاب تفجيرات مدريد، تقول: «لا يُحظَر على المسلمين فقط ارتكاب جرائم ضد الأبرياء، ولكنهم أيضًا مسئولون أمام الله عن منع أولئك الذين ينوون فعل ذلك» (١٠ مارس ٢٠٠٥؛ كورزمان، على الإنترنت). هذه التصريحات وعشرات البيانات المشابهة الصادرة عن مسلمين يشجبون الإرهاب جمعها البروفيسور تشارلز كورزمان بجامعة كارولينا الشمالية. ويمكن العثور عليها على الإنترنت على موقع «تصريحات إسلامية ضد الإرهاب» (http://kurzman.unc.edu/islamic-statements-against-terrorism). وبعد مرور شهر فقط على هجمات ١١ سبتمبر،

أصدر المجلس الفقهي بأمريكا الشمالية فتوى أخرى تؤكد لأفراد المؤسسة العسكرية الأمريكية المسلمين أن مسئوليتهم عن الدفاع عن بلدهم تسمو على الحظر التقليدي لقتل المسلمين. تنص الفتوى أنه «يجب على جميع المسلمين الاتحاد ضد أولئك الذين يُرهبون الأبرياء، وأولئك الذين يبيحون قتل الأبرياء بغير سبب مبرَّر.» ومِن ثَمَّ، «من المقبول أن يشارك أفراد المؤسسة العسكرية الأمريكية المسلمون في القتال في المعارك القادمة ضد أي طرف تُقرِّر دولتهم أنه ارتكب إرهابًا ضدهم» (القرضاوي وآخرون، ٢٠٠١).

مِن ثَمَّ، يعلن المسلمون موقفهم ضد الإرهاب. وجد استطلاع أجراه معهد جالوب عام ٢٠١١ لآراء المسلمين الأمريكيين أنه «على الأقل ٧ أمريكيين بالغين من كل ١٠ من كل الجماعات الدينية الرئيسية يتَّفقون على أن الهجمات [الإرهابية] غير مبررة مطلقًا، لكن مرة أخرى كان الأمريكيون المسلمون هم الأكثر معارضة، حيث رفض ٨٩٪ منهم مثل هذه الهجمات» (نوراث، ٢٠١١). ومع ذلك، تستمر خرافة أن المسلمين لا يعلنون موقفهم ضد الإرهاب. ثار التساؤل مرة أخرى في أعقاب تفجيرات ماراثون بوسطن في أبريل ٢٠١٣. ردًّا على هذا، نشر أحد المسلمين الغاضبين، وهو المؤلف قاسم رشيد، تدوينة لصحيفة «هفينجتون بوست» بعنوان «هل تسمعون المسلمين حقًّا حينما نُدين العنف؟» (رشيد، ٢٠١٣).

المراجع

al-Qaradawi, Y (2001) *Sheikh Yusuf Al-Qaradawi Condemns Attacks against Civilians: Forbidden in Islam*, Press Release, Jeddah, Saudi Arabia, September, 12.

al-Qaradawi, Y., al-Bishri, T., al-Awa, M.S., al-Khayyat, H., Houaydi, F. and al-Alwani, T. (2001) *Fatwa on Muslims in the Military*, September 27. Arabic original and authorized English translation posted at http://www.unc.edu/~kurzman/terror.htm (accessed January 11, 2014).

Arab League (1998) The Arab Convention on the Suppression of Terrorism, www.unodc.org/tldb/pdf/conv_arab_terrorism.en.pdf (accessed January 9, 2014).

Belkeziz, A. (2001) Secretary-General of Organization of the Islamic Conference, Press Release, Jeddah, Saudi Arabia, September 12, 2001.

Fiqh Council of North America (2005) *"Fatwa by U.S. Muslims against Religious Extremism."* Plainfield, Indiana, July 25.

Helfstein, S., Abdullah, N. and al-Obaidi, M. (2009) *Deadly Vanguards: A Study of al-Qa'ida's Violence against Muslims*, Combating Terrorism Center at West Point Occasional Papers Series, West Point, NY.

Islamic Council of Spain (2005) *"Fatwa against Osama bin Laden by the Islamic Council of Spain"*, March 10.

Khamene'i, A. (2001) *"Leader Condemns Massacre of Defenseless People"*. Islamic Republic News Agency, Jeddah, Saudi Arabia, September 16.

Kurzman, C. (online) *Islamic Statements against Terrorism,* http://kurzman.unc.edu/islamic-statements-against-terrorism (accessed January 10, 2014).

MSANews (2001) *"A Clear Criterion (Bayan) … Forty-six Leading Muslim Scholars and Intellectuals Condemn Attacks in New York and Washington"*. September 14.

National Counterterrorism Center (2012) Country reports on terrorism 2011, Report July 31, 2012, Annex of Statistical Information, www.state.gov/j/ct/rls/crt/2011/195555.htm (accessed January 10, 2014).

Naurath, N. (2001) *Most Muslim Americans See No Justification for Violence*, August 2, www.gallup.com/poll/148763/muslim-americans-no-justification-violence. aspx (accessed January 10, 2014).

Pasha, K. (2009) The big lie about Muslim silence on terrorism, *Huffington Post,* April 20, www.huffingtonpost.com/kamran-pasha/the-big-lie-about-muslim_b_188991.html (accessed January 9, 2014).

Rashid, Q. (2013) *Do You Even Hear Muslims When We Condemn Violence?* April 22, www.huffingtonpost.com/qasim-rashid/do-you-even-hear-muslims-when-we-condemn-violence_b_3125564.html (accessed January 10, 2014).

(١٠) يرغب المسلمون الأمريكيون في فرض الشريعة الإسلامية على الولايات المتحدة

> تتمسك الأغلبية العظمى من مسلمي العالم البالغ عددهم ١,٤ مليار نسمة برؤيةٍ من دينهم تتفق على الحاجة إلى فرض الشريعة، أو القانون الإسلامي، على العالم. (مايكل موكاسي، النائب العام في حكومة الرئيس جورج دبليو بوش، ١٦ مارس ٢٠١٣ (سايتز-والد، ٢٠١٣))

طرح موقع ويب بعنوان «الشريعة الزاحفة» (http://creepingsharia.wordpress.com) سؤالًا: «متى يملك العالم الشجاعة لهزيمة هذه البلية؟» ردًّا على تفجير كنيسة في مدينة بيشاور بباكستان في ٢٢ سبتمبر ٢٠١٣ أسفر عن مقتل ٧٥ فردًا على الأقل وفقًا للتقارير الأولية. يشرح فيديو منشور على الموقع بعنوان «حرب الإسلام العالمية على المسيحية» أن الإسلام طالما اضطهد المسيحيين والأقليات الأخرى على مدار قرون «بالأساليب ذاتها بحذافيرها». ومن وجهة نظر الموقع، قدمت فظائع بيشاور المزيد من الأدلة على أن المسلمين يسعون إلى السيطرة على أمريكا وإحلال الشريعة الإسلامية محل قوانينها. وكما تزعم صفحة التعريف بالموقع؛ فإن «الشريعة الزاحفة هي كارثة تحدث في أنحاء العالم الحر. سنُعرِّفها على أنها «التقدم البطيء والمتعمَّد والمنهجي للشريعة الإسلامية في البلدان غير المسلمة» ... ثمة مصطلح آخر مستخدم بكثرة هو «الجهاد المتسلل»» («الشريعة الزاحفة»، على الإنترنت).

يبدو أن كثيرًا من الأمريكيين يتشاطرون هذا الخوف من الشريعة الإسلامية؛ ففي يوليو ٢٠١٣، انضمت ولاية كارولينا الشمالية إلى ولايات أريزونا وكانساس ولويزيانا وأوكلاهوما وداكوتا الجنوبية وتينيسي، لتصبح سابع ولاية من الولايات المتحدة تحظر الشريعة الإسلامية. وقد أبطل قاضٍ فيدرالي حظرَ ولاية أوكلاهوما عام ٢٠١٠ للشريعة الإسلامية عندما وجد أنه أخلَّ بحظر التعديل الأول للدستور «تأسيسَ» أي ديانة رسمية. ولكي تتجنب الولايات الأخرى التي نجحت في حظر الشريعة انتهاك التعديل الأول، غيرت لغة قوانينها، مستبدلة بكلمة «الشريعة» كلمة قانون «أجنبي». واقترحت خمس عشرة ولاية أخرى قوانين مناهِضةً للشريعة في ٢٠١٢.

وفقًا لاستطلاع رأي أجراه معهد بحوث الدين العام ومؤسسة بروكينجز في أغسطس ٢٠١١، يؤمن ثلث الأمريكيين تقريبًا بأن المسلمين يسعون إلى إقامة الشريعة قانونًا للولايات المتحدة (مارابودي، ٢٠١١).

وخلال فترة الاستعدادات للانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠١٢، عزَّز مرشحان من المرشحين الجمهوريين الثلاثة الخوف في نفوس الأمريكيين من سيطرة الشريعة الإسلامية على النظام القضائي الأمريكي. وصف ريك سانتورم الشريعة بأنها «تهديدٌ وجوديٌّ» لأمريكا (إليوت، ٢٠١١). قال سانتورم: «نحتاج إلى تعريفها وأن نقول ما هي»، مضيفًا: «وهي شرٌّ. قانون الشريعة متعارض مع الفقه القانوني الأمريكي ودستورنا» (بينين، ٢٠١١). ودعا المرشح نيوت جينجريتش إلى سَنِّ قانون فيدرالي يمنع الشريعة. وفي حوار له مع معهد أمريكان إنتربرايز في واشنطن عام ٢٠١٠، قال: «أعتقد أن الشريعة تهديد قاتل لبقاء الحرية في الولايات المتحدة وفي العالم كما نعرفه.» وحذر من أن هناك جهاديين وحشيين مثل القاعدة، لكن هناك أيضًا «جهاديين مستترين» يستخدمون «أدوات سياسية وثقافية ومجتمعية ودينية وفكرية ... كلاهما منخرط في الجهاد، وكلاهما يسعى إلى فرض الوضع النهائي نفسه، وهو إحلال الفرض الراديكالي للشريعة محل الحضارة الغربية» (ماك موريس-سانتورو، ٢٠١٠).

تكشف المخاوف بشأن إحلال الشريعة الإسلامية محل القانون الأمريكي عن ثلاثة معتقدات خاطئة على الأقل عن الشريعة. تناول أول معتقدَين منها زعيم المركز الإسلامي بمدينة ناشفيل، الإمام محمد أحمد، خلال مناقشة مناهضة الشريعة بولاية تينيسي؛ أولًا: أوضح الإمام أن الإسلام يعلِّم بأن أتباعه يجب أن يطيعوا قوانين الأرض التي يعيشون فيها (سميتانا، ٢٠١١). هذا موقف راسخ في القانون الإسلامي. في الأيام الأولى للإسلام، حينما عاشت الأغلبية العظمى من المسلمين في ظل حكومات تحكمها الشريعة الإسلامية، كان حكم خضوع الأفراد لقانون الأرض أينما كانوا، يتعلق بالمسافرين في المقام الأول، مثل التجار والطلاب الذين كانوا في أرض أجنبية إلى حين فقط. لكن في العالم الحديث؛ إذ يعيش ربما ثلث مسلمي العالم بوصفهم أقليات دينية، مُدِّدت القاعدة لتشمل الجميع، المقيمين المؤقتين أو الدائمين في بلدان لا تحكمها الشريعة.

عززت الأحكامُ التي تنظم فكرة المواطنة الحديثة الحكمَ بوجوب التزام المسلمين بقانون الأرض التي يعيشون فيها. المواطنة بمنزلة عقد في الإسلام، يشمل الالتزام بقوانين الدولة التي يكون المرء أحد مواطنيها. في حقيقة الأمر، تطوَّر فرع كامل من الشريعة الإسلامية يُعرَف باسم «فقه الأقليات» في العالم الحديث. يتناول هذا الفرع الموقف التقليدي الذي يفترض رجوع المسلمين الذين يعيشون في بلدان أجنبية في أقرب وقت ممكن إلى مناطق تحكمها الشريعة الإسلامية. في الفقه الحديث، يعتبر هذا الحكم باليًا.

تدعو الشريعة الإسلامية اليوم المسلمين إلى المشاركة الكاملة والبناءة في العملية السياسة الديمقراطية. يأتي هذا الحكم من المجلس الفقهي بأمريكا الشمالية الذي يُطمئن المسلمين بأن «الولايات المتحدة هي بلد الحرية التي ترعى في المقام الأول حقوق جميع مواطنيها من جميع الأديان والأعراق، على الرغم من مشكلات التطبيق التي تتجلى من حين إلى آخر» (فيرسكين، ٢٠١٣: ١٣٧).

ثانيًا، يوضح الإمام أن الشريعة الإسلامية تقوم على قيم أخلاقية يتقاسمها معظم الأديان، مثل الحق والعدالة واحترام حقوق الملكية. يتساءل أحمد: «ماذا تقصد فعليًّا بقولك لا يمكنني الالتزام بالشريعة الإسلامية؟ يقول لي قانون الشريعة لا تسرق. أتريدني أن أسرق وأسطو على بنك؟» (سميتانا، ٢٠١١).

تشير القواسم المشتركة للقيم الإسلامية إلى المعتقد الخاطئ الثالث عن الشريعة: أنها تشمل مجموعة من القوانين الثابتة التي تتنافى تمامًا مع القيم التي تعتبرها المجتمعات الحديثة إنسانية. لا ريب أن هذا الإدراك ينبع جزئيًّا من مساواة الشريعة بممارسات الإرهابيين الذين يزعمون أن الإسلام يبررها. كما رأينا أعلاه، الإرهاب — ومنه الهجمات على مركز التجارة العالمي، والبنتاجون، وقطارات مدريد، ونظام النقل في لندن، وعدَّائي ماراثون بوسطن، وكنيسة بيشاور — هو انتهاك للشريعة الإسلامية. لا يمثل الإرهابيون الشريعة الإسلامية مهما كان عدد المرات التي صاحوا فيها «الله أكبر».

قد يعكس أيضًا سوء الفهم القائل إن الشريعة مضادة للقيم الغربية مساواة الشريعة ببعض العقوبات الجنائية التقليدية في الشريعة الإسلامية. من المهم أن نعرف أن مصطلح «شريعة» — الكلمة العربية لكلمة «درب» أو «مسار» — تشير على أوسع نطاق إلى مجمل قواعد السلوك الأخلاقية والدينية في الإسلام؛ فمن الناحية المثلى، تغطي الشريعة جميع أوجه الحياة، بدءًا من الأمور الخاصة مثل الصلاة والصوم، ووصولًا إلى الأمور العامة مثل الزواج والطلاق. ثمة تنوُّع هائل في الشريعة الإسلامية؛ حيث توجد أربع مدارس فقهية رئيسية، وجدل لا نهائي حول التفاصيل الدقيقة لتشريع معين، كما هي الحال في كل الأنظمة القانونية. لكن التشريع الإسلامي كله يسير في هدى أهداف الشريعة أو مقاصدها: حفظ النفس، والدين، والعقل، والمال، والنسل، والكرامة.

تحتوي الشريعة الإسلامية التقليدية على بعض العقوبات المعينة (يُطلق عليها عقوبات الحدود) التي تُعتبر مروِّعة مقارنة بالأعراف الحديثة، ومنها أعراف معظم البلدان ذات الأغلبية المسلمة. وبينما يؤيد بعض التقليديين الصرحاء إعادة تطبيق العقوبات التقليدية، فثمة جدل محتدم بين العلماء المسلمين حول وضعها. يقترح العالم الأوروبي المسلم

البارز طارق رمضان «تعليقًا مؤقتًا» لتنفيذ عقوبات الحدود (رمضان، ٢٠٠٥). وعلى غرار التهديد بالعقوبات الجسدية في بعض مجتمعات ما قبل العصر الحديث الأخرى — قبل إنشاء أنظمة السجون الحديثة — فإن هذه القوانين قُصد بها أن تكون روادع للجريمة. لكن في مجتمع اليوم، كما صرح العالم الأمريكي المسلم البارز علي مزروعي، لدينا قوانين عقوبات أكثر فاعلية (مزروعي، ١٩٩٧). ومن بين القوانين التقليدية الأكثر إثارة للجدل تحريم الارتداد عن الدين (حد الرِّدَّة). يقول رئيس المحكمة الباكستانية العليا السابق دكتور إس عبد الرحمن إن حظر الرِّدَّة تحت تهديد بعقوبة الإعدام ينتهك التأكيد الأساسي من جانب الإسلام للحرية الدينية وحرية الضمير (عبد الرحمن، ١٩٧٢). يرفض أيضًا علي جمعة، أعلى قيادة دينية في مصر سابقًا، عقوبة الموت بسبب الارتداد عن الدين، قائلًا إنه إذا كان الأمر يستوجب العقاب، فسوف يأتي في الحياة الآخرة (مقابلة شخصية مع تمارا صون، ٢٠١٢). ويُفسر المؤرخ التونسي محمد الطالبي أن القانون الذي يفرض عقوبة الإعدام على الرِّدَّة ناتج من خلط ما بين الرِّدَّة والخيانة (الطالبي، ٢٠٠٦).

على أي حال، حينما يشير المسلمون إلى الشريعة عمومًا؛ فإنهم يقصدون اتِّباع المبادئ الأخلاقية العامة للإسلام المُلخصة في الآية القرآنية الشهيرة:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. (سورة البقرة: ١٧٧)

لهذا ترى الأغلبية أنه لا تَعارُض ما بين الشريعة وقانون الولايات المتحدة. وكما يقول إمام نيويورك فيصل عبد الرءوف في مقاله «خمس خرافات عن المسلمين في أمريكا»:

> اتفق معظم العلماء المسلمين في أنحاء العالم طيلة قرون على أنه يجب على المسلمين اتباع قوانين الأرض التي يعيشون فيها. وهو مبدأ رسَّخه النبي محمد عام ٦١٤–٦١٥ بعد الميلاد؛ إذ أرسل بعض أتباعه إلى ملك الحبشة المسيحي ليتولى حمايتهم، حيث تعايشوا مع أهلها في سلام. ليس الأمر فقط أن المسلمين الأمريكيين ليس لديهم أسانيد قرآنية أو تاريخية أو سياسية لمعارضة دستور الولايات المتحدة، ولكن دستور الولايات المتحدة يتناغم مع مقاصد الشريعة

ومُثُلها أيضًا. يمارس المسلمون الشريعة بالفعل في الولايات المتحدة إذ يتعبَّدون بحرِّية ويلتزمون بقوانين الولايات المتحدة. (عبد الرءوف، ٢٠١١)

المراجع

Abdul Rauf, F. (2001) Five Myths about Muslims in America, *Washington Post Opinions,* April 1, www.washingtonpost.com/opinions/five-mythsabout-muslims-in-america/2011/03/30/AFePWOIC_story_1.html (accessed January 9, 2014).

Benen, S. (2011) *Political Animal*, March 15, www.washingtonmonthly.com/archives/individual/2011_03/028463.php (accessed January 10, 2014).

Creeping Sharia (online) *About Creeping Sharia*, http://creepingsharia.wordpress.com/about-2/ (accessed January 9, 2014).

Elliott, J. (2011) *Santorum Calls Sharia "Existential Threat" to US*, April 29, www.salon.com/2011/04/29/santorum_sharia_existential_threat (accessed January 10, 2014).

Marrapodi, E. (2011) *Poll: Many Americans Uncomfortable with Muslims*, September 8, http://religion.blogs.cnn.com/2011/09/06/poll-many-americans-uncomfortable-with-muslims/comment-page-1 (accessed January 10, 2014).

Mazrui, A.A. (1997) Islamic and Western Values, *Foreign Affairs,* September/October www.foreignaffairs.com/articles/53386/ali-a-mazrui/islamic-and-western-values (accessed January 15, 2014).

McMorris-Santoro, E. (2010) *Gingrich Calls for Federal Ban on Sharia Law in US*, September 18, http://talkingpointsmemo.com/dc/gingrich-calls-for-federalban-on-shariah-law-in-us (accessed January 10, 2014).

Sonn, T. (2012) Interview with Ali Gomaa, Cairo, January 9, 2012.

Rahman, S.A. (1972) *Punishment of Apostasy in Islam*, Institute of Islamic Culture, Lahore, Pakistan.

Ramadan, T (2005) *An International Call for Moratorium on Corporal Punishment, Stoning and the Death Penalty in the Islamic World,* http://tariqramadan.com/blog/2005/04/05/an-international-call-for-moratorium-on-corporal-punishmentstoning-and-the-death-penalty-in-the-islamic-world/ (accessed January 12, 2014).

Seitz-Wald, A. (2013) *Bush AG tells CPAC: "'The vast majority' of Muslims want to impose Sharia law,"* March 16, www.salon.com/2013/03/16/bush_ag_tells_cpac_the_vast_majority_of_muslims_want_to_impose_sharia_law (accessed January 10, 2014).

Smietana, B. (2011) Tennessee Bill Would Jail Sharia Followers, *USA Today,* February 23, http://religionnerd.com/2011/02/23/tennessee-bill-would-jailshariah-followers (accessed January 10, 2014).

Talbi, M. (2006) Religious liberty: a Muslim perspective, in *New Voices of Islam* (ed. Mehran Kamrava) I. B. Taurus & Co. Ltd., New York, p. 115.

Verskin, A. (2013) *Oppressed in the Land? Fatwas on Muslims Living under non-Muslim Rule from the Middle Ages to the Present*, Markus Wiener, Princeton.

الفصل السادس

خرافات عن تقاليد غربية أخرى

(١) يعبد الزرادشتيون النار.
(٢) الفودو سحر أسود.
(٣) يعبد السحرة الشيطان.
(٤) الراستافاريون متعاطون للماريجوانا.
(٥) قد يؤمن التوحيديون العالميون بما يحلو لهم.

مقدمة

عندما تخطر الديانات الغربية على بال معظمنا، فإننا نفكر في اليهودية والمسيحية وربما الإسلام. لكن هذه ليست الديانات الغربية الوحيدة. في هذا الفصل، سنلقي نظرة خاطفة على خمسة تقاليد أصغر مختلفة تمام الاختلاف، لكنها ذات تفاعلات مهمة مع الديانات الغربية السائدة. في تلك التفاعلات سنرى المزيد من الأمثلة لكراهية الأجانب وسرد القصص التخيلي.

(١) يعبد الزرادشتيون النار

> أبارك هذا القربان وهذا الابتهال، وهذه التقدمة الصالحة، التقدمة الكريمة، تقدمة المساعدة المقدمة لكِ أيتها النيران ابنة أهورا مازدا ... ليتك تُطعَمين بالحطب الجيد — ويفوح منك البخور الكريم — ليتك تحصلين على الطعام الجيد — والوقود الصالح! وانعمي بالاشتعال في هذا المعبد، وليَدُم اشتعالك ولا

ينقطع توهجك من هذا المعبد، ولتَسْتَعِرِي لعمر مديد، حتى الاسترداد العظيم للعالم، حتى زمن الاسترداد العظيم الصالح لهذا العالم ...

امنحيني أيتها النيران ابنة أهورا مازدا، رغم أني لا أستحق، الآن وإلى الأبد، مقعدًا في نعيم الآلهة الساطع والمبهج والمبارك. ليتني أنال ثوابًا عظيمًا، وصيتًا حسنًا، ولتمتلئ روحي بالابتهاج الدائم.

السلام عليك يا نيران أهورا مازدا، أيتها الروح الحامية الخيرة والعظيمة. («ابتهال للنيران»، صلاة للزرادشتيين (ترجمة دارمستيتر))

دون معرفة خلفيات أعمق، قد يتولَّد لدى من يقرأ هذه الصلوات انطباع بأن من يتلونها يعبدون النار. وقد يصل إليهم الانطباع نفسه من مشاهدة الشعائر الزرادشتية التي تمثل النار جزءًا مهمًّا منها. في حقيقة الأمر، تحول الزعم بأن الزرادشتيين يعبدون النار إلى اتهام بعبادة الأوثان، أسفر عن فترات من الاضطهاد على مدار التاريخ الزرادشتي.

مصطلح «زرادشتية» ليس مألوفًا كثيرًا لمعظم الناس في الغرب. لكن المسيحيين يألفون اسم كهنة الزرادشتية: المجوس. يقول إنجيل متَّى إن المجوس «جَاءُوا مِنَ الْمَشْرِقِ.» ليسجدوا ليسوع باعتباره «مَلِكِ الْيَهُودِ»، وقد أحضروا معهم هدايا ثمينة، ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا (متَّى ٢: ١–١١). لا يأتي أيٌّ من الأناجيل الأخرى على ذكر هذه الواقعة، لكنها أصبحت جزءًا أساسيًّا من قصص عيد الميلاد التقليدية، حتى إنه لا يكتمل مشهد من مشاهد عيد الميلاد بدونها. كما إن طلاب الموسيقى والأدب يألفون سماع اسم زرادشت النبي. ويستخدمه الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في عنوان رواية شهيرة، «هكذا تكلم زرادشت»، يناقش فيها موت الله، وكذلك المؤلف الموسيقي ريتشارد شتراوس في القصيدة السيمفونية التي استوحاها من عمل نيتشه. يُعتقد أن زرادشت، نبي الزرادشتية، عاش نحو عام ١١٠٠ قبل الميلاد.

والأقل شهرة هو أن الزرادشتية، كما يقال، هي أقدم ديانة توحيدية في العالم. تعود أصولها الفارسية إلى القرن السادس قبل الميلاد على الأقل. وفي عالَم كان العرف السائد فيه هو اعتقاد تعدد الآلهة، علَّمَ زرادشت (النطق اليوناني لاسمه «زورواستر» Zoroaster) أنه لا إله إلا الله، القدير، الذي يدعو الخليقة كلها لتفضيل الحق على الخداع، والخير على الشر، والنور على الظلمة. وسيحاسب الإله الذي يُعرَف باسم أهورا مازدا جميع البشر عند موتهم، وسوف يجازي أولئك الذين آثروا الاحتفاظ بأفكار طيبة، والتفوُّه بكلمات حسنة، وفعل الخير.

يتشابه كثير من عناصر التعاليم الزرادشتية مع التقاليد اللاحقة. تقول القصص القديمة إن أمه كانت عذراء وحبلت بالطفل من غير شريك جنسي. ويحكي التقليد أيضًا عن رحلة إعجازية إلى السماء يسمع فيها النبي أن له عدوًّا سوف يحاول استمالة الناس لاختيار الشر بدلًا من الخير. والاختيارات البشرية الأخلاقية ليست ضرورية فحسب من أجل الحصول على السعادة، ولكنها ستسفر أيضًا عن هزيمة هذا الكائن الشيطاني وسيُجزَى عنها. أما أولئك الذين يختارون إحباط هذا الانتصار الحتمي فسوف يقعون تحت طائلة العقاب عند موتهم، بينما مَن كانت اختياراتهم حيادية، فلا هي المساعِدة على انتصار الخير، ولا هي المعطِّلة لذلك، فأولئك سوف يعلقون بين الخير والشر. حتى بعد الموت، قد تحصل الأرواح المُعاقَبَة وتلك العالقة على مكافأة من خلال صلوات الأحياء. وفي آخر الزمان، حينما يبدو وكأن الشر انتصر وتُظلم السموات، سيولد مخلِّص من عذراء. وسوف يقيم الموتى إلى الدينونة الأخيرة. ويهزم الخير الشر، ويتجدد العالم، ويحيا الناس بعد أن يتطهروا من آثامهم في نعيمٍ أبدي.

بعضٌ من هذه العناصر مألوف لدرجة أن كثيرًا من العلماء يعتقدون أن الزرادشتية أثرت بالفعل في ظهور الفكر اليهودي والمسيحي والإسلامي. وبعض الممارسات مألوفة أيضًا، مثل وجوب اعتراف الناس بآثامهم للكهنة، وعقد العزم على التوبة، والصلوات الخمس اليومية (نماز بالفارسية) التي يسبقها غسل الوجه والذراعين والقدمين والفم. لكن بعض الممارسات الزرادشتية الأخرى تبقى فريدة من نوعها.

تُسمَّى دُور العبادة الزرادشتية معابد النار. وفيها تُشعل نار طقسية مقدسة تظل متقدة ليلًا ونهارًا. وإبقاء النيران المُطعمة بالحطب متقدة هو من مهمات كهنة المعبد. ترمز النار إلى التطهير، ومِن ثَمَّ إلى البر والعدالة، وأخيرًا إلى الألوهية. بالإضافة إلى هذا، يقيم الزرادشتيون احتفالين باستخدام النار. «السَّادِه» وهو عيد بداية الشتاء، ويُحتفل به قبل بدء العام الزرادشتي الجديد بخمسين يومًا في الاعتدال الربيعي. يرمز إشعال نيران ضخمة إلى انتصار النور والخير على الظلام والشر. و«جهار شنبه سوري»، هو عيد «القفز فوق النيران» الذي يحبه الأطفال والكبار على السواء، وهو الذي يعلن عن الاحتفال ببدء العام الجديد (النوروز). وفيه يرتدي الناس البذلات، ويشعلون أكوام النيران الصغيرة ويقفزون فوقها، ويطرق الأطفال الأبواب للحصول على هدايا خاصة من الجوز والتوت.

استخدام النار على نطاق واسع في العبادة والاحتفالات هو ما قاد إلى اعتقاد بعض الناس بأن الزرادشتيين يعبدون النار. كانت الزرادشتية هي الديانة الرسمية لبلاد فارس

(إيران الحالية) من القرن الثالث إلى القرن السابع، حينما هزمت قواتُ المسلمين الحديثة التشكيل أكاسرتَها. اعتبر كثير من المرجعيات المسلمة أن الزرادشتية واحدة من الأديان التوحيدية كاليهودية والمسيحية، ومِن ثَمَّ سمحت بممارستها في مقابل الولاء والجزية. غير أن بعض الحكام المسلمين كانوا متشددين. وتحت الاتهامات بالكفر، تعرَّض الزرادشتيون للتضييق، ومعابدهم ومكتباتهم للهدم. وفي بعض الحالات، اضطُهدوا. ومع الوقت، غادرت أغلبية الزرادشتيين بلاد فارس إلى الهند حيث يُعرَفون باسم البارسيين.

المراجع

The Sacred Fire, September 13, 2012, http://archive.is/hbR4 (accessed January 12, 2014).

قراءات إضافية

Boyce, M. (1975–1982) *A History of Zoroastrianism I and II*, Brill, Leiden/Küln.

(٢) الفودو سحر أسود

> لم تكد تمضي ١٨ ساعة بعد أن دمر زلزالٌ ولاية هايتي في ١٢ يناير، حتى قدَّم القس بات روبرتسون خطابًا متلفزًا عن تاريخ الأمة ولاهوتها ومصيرها. علَّل معاناة هايتي بأن عبيدها المتمردين «قطعوا عهدًا مع الشيطان» للإطاحة بالفرنسيين منذ قرنين من الزمن، ومنذ ذلك الحين «واللعنات لا تفارقهم». (صمويل جي فريدمان (٢٠١٠))

ليس القس روبرتسون وحيدًا في إدراكه للفودو. يناقش مقال فريدمان انتشار أوصاف «بالغة الإهانة والتحقير» للفودو، ويستشهد بليزلي جي ديسمانجلز، الأستاذ بكلية ترينيتي بهارتفورد، في ولاية كونيتيكت الذي يُرجع هذا إلى عنصرية القرن التاسع عشر، ولا سيما بذل الكنيسة الكاثوليكية بهايتي جهودًا لاجتثاث «الخرافة» — المتمثلة بالفودو — بدءًا من

ستينيات القرن التاسع عشر. وكان الهدف هو أن يحل محل «الشعوذة والرجس» الدين «الحق»: الكاثوليكية (فرناندز أولموس وبارافيسيني-جيبرت، ٢٠١١: ١١٩). استمرت هذه الحملات خلال أوائل أربعينيات القرن العشرين، واشتملت على تدمير معابد الفودو، وقتل المئات من ممارسيها.

لا يَعتبر ممارسو الفودو أنها خرافة أو شعوذة. الواقع أن الفودو إحدى الديانات الرسمية في هايتي، ويمارسها نحو ٨٠ في المائة من سكان الجزيرة إلى جانب الكاثوليكية الرومانية. يفيد فرناندز أولموس وبارافيسيني-جيبرت (٢٠١١: ١٢٠) بأن الفودو والكاثوليكية تنسابان «إحداهما إلى الأخرى حسب احتياجات الشعب الهايتي الروحية والاستشفائية. ومن وجهة نظر الممارسين، لا تَعارُض بين الفودو والكاثوليكية الرومانية.»

ترجع أصول الفودو إلى الفودون، وهو دين الشعوب الناطقة بلغة الجيبي من منطقة في غرب أفريقيا تمتد من غانا الحديثة إلى الشرق نحو توجو وبنين وأجزاء من نيجيريا، الذين أُخذوا عبيدًا إلى المستعمرة الفرنسية التي صارت هايتي فيما بعدُ. وفي ظل سياسات الفرنسيين الدينية المتعصبة الإقصائية، وبسبب طبيعة الفودون المتسامحة الاستيعابية، أدخل دين العبيد شيئًا فشيئًا عناصر من الكاثوليكية في نظامه المتعلق بالآلهة والأرواح. ونظرًا إلى ظروف معيشة مجتمعات العبيد، كان التواصل بينها ضعيفًا، وبالتدريج اكتسبت تقاليدهم صفات محلية متفردة؛ ولذا توجد في الوقت الحالي أشكال مختلفة من الفودون في بورتوريكو والبرازيل وكوبا وجمهورية الدومينيكان وسورينام. ويُعرَف هجين من فودو هايتي ومن التقاليد الشعبية باسم فودو لويزيانا (أو نيو أورليانز).

تَبرز عقيدة التوحيد في الفودو في الإيمان بإله واحد يُعرَف باسم «بوندِيي» (من كلمتَي «بون ديو» Bon Dieu الفرنسيتين) أو «الإله الطيب». وتقوم «اللُّو» أو «اللُّوَا» بدور الوسيط بين الإله والبشر، وهي مجموعة من الأرواح القوية التي تُعرف باسم «الغامضين» أو «الملائكة» أو «القديسين» أو «الأخفياء». ويرتبط كل لُوَا عمومًا بجانب معين من جوانب الحياة، مثل الخصوبة، أو الزراعة، أو الحماية. كما يرتبط كثير من هذه الأرواح بشخصيات معينة مُبجَّلة في المسيحية. على سبيل المثال، يرتبط الحارس الأعظم لمفترق الطرق الفاصل بين العالَمَين الأرضي والروحي، بابا لِجبا، المسئول عن التواصل، بالقديس بطرس، حارس أبواب السماء اللؤلئية في الأدب الشعبي المسيحي. وترتبط

اللُّوا إرزولي فريدا، لوا الحب والجمال التي تبقى حزينة في نهاية المطاف بسبب الرغبات غير المتبادلة بمريم المكلومة، أم يسوع. وترتبط آييزان، لوا السوق، بالقديسة كلير، شفيعة الصائغين.

وعادة ما تُصنَّف اللوا إلى «أمم»، ترتبط بالأعراق أو المناطق المفترضة للعبيد الذين جلبوها، مثل رادا، وبيتوو (أو بترو)، وإيبو (إيجبو)، ووانجول (أنجولا)، وسينيجا (السنغال)، وغينين (غينيا)، وكونجو. وربما تعكس هذه التصانيف أصول اللوا في تراث الأجداد القديم. وتبقى آثار هذه الصلات في الفودو؛ إذ تعتبر عائلاتٌ أن لوا معينة تخصهم في بعض الأحيان.

على كل حال، مثلما تشعر مجتمعات كاثوليكية بوجود صلات خاصة تربطهم ببعض القديسين الذين يسمُّون كنائسهم تيمنًا بهم، تقيم مجتمعات الفودو علاقات شخصية للغاية مع الشفعاء الذين يختارونهم؛ فهم على دراية بشخصياتهم وقدراتهم المختلفة وتفضيلاتهم المحددة للألوان والطعام والأشياء الأخرى التي يستخدمونها في الطقوس المتصلة بهم، ويراعون أغانيهم وإيقاعاتهم ورقصاتهم. ومِن ثَمَّ، تنطوي شعائر الفودو على استحضار اللوا وإرضائها بأشيائها المفضلة. وهكذا يسمِّي ممارسو الفودو أنفسهم «خُدام الأرواح» (السيفيتي).

ويمكن أداء شعائر الفودو في إطار عائلي في المنزل (الأونفو) أو في المعبد (هونفور)، مع إمام ذكر (أونجان) أو أنثى (مانبو أو مامبو). ويُعتقد أن لدى الأئمة الذكور أو الإناث، شأنهم شأن الكهنة، فهمًا روحيًّا لعالم ما وراء الطبيعة، مملكة اللوا، وأنهم يوجِّهون قوى اللوا. وعلى غرار الشخصيات الرعوية في كثير من الديانات، يقدمون أيضًا النصح والإرشاد للأفراد، بالإضافة إلى العقاقير العشبية من أجل الشفاء والحماية كما هو شائع.

وللمساعدة في إرضاء الأرواح وتوجيه مساعداتهم، يُدرِّب الأئمة الذكور والإناث خُدامَ المعبد (الأونسي). ويتولى خُدَّام المعبد طهو الطعام وإعداد الأشياء المفضلة لدى لوا الجماعة، ويقومون بدور مهم في التطبيل الهائل — «الصوت» الذي يستحضر اللوا — بالإضافة إلى الرقص والأغاني المستخدمة في مراسم الفودو. ومن الأدوار التي يقوم بها خُدام المعبد توجيه اللوا المستحضَر (وإن كان هذا النوع من التوجيه — الذي يُوصف في الغالب بأن اللوا «يركب» الخادم أو «يمتطيه» — لا يقتصر على الخُدام). وحالما يُعرَف اللوا من خلال علامات صوتية أو سلوكية معينة تظهر على الشخص «المركوب»، تُقدَّم إلى اللوا أشياؤه

المفضلة وتُطلَب منه الخدمات. بعبارة أخرى، كما يحدث في القداس الكاثوليكي، يُقدِّم أفراد الجمع العطايا ويصلون من أجل مقاصد معينة.

يحرص علماء الفودو على التمييز ما بين الفودو والمعتقدات والممارسات الشعبية التي كثيرًا ما تقترن بها. يُصنَّف مثل هذه الممارسات تحت فئة الشعوذة التي يُطلق عليها «السحر الأسود»، لا الدين، ولا تكون في نطاق اختصاص الأئمة الذكور أو الإناث (وإن كان بعضهم قد يمارسها). يتضمن هذا النوع من الشعوذة الذي يُعرَف بلغة غرب أفريقيا باسم «بو» و«جوجو» إلقاء التعويذات على الناس، وتحويل الأشخاص إلى زومبي على نحو أشهر. وفقًا لموسوعة «الموت ومعاناة الموت» يمكن خلق الزومبي باستخدام سم مستخرج من سمك الينفوخ، يؤدي إلى نوع من الغيبوبة التي تجعل الشخص يبدو ميتًا. عندئذٍ يمكن للممارس المحنك لهذا النوع من الخداع أن يعطي ترياقًا، يقلل من تأثيرات السم، ويترك الشخص مستيقظًا لكن «مجردًا من الإرادة، والذاكرة، والوعي». (أكرمان وجوتير، ١٩٩١: ٤٧٤). في هذه الحالة يبدو الشخص تحت سيطرة المشعوذ، وهو احتمال يبث الذعر في نفوس من يؤمنون بذلك، وهكذا يُمنَح المشعوذون نوعًا من الصدقية.

ومن المزاعم الأخرى الأقل مأساوية التي يدَّعيها مثل هؤلاء الممارسين القدرة على إلحاق الضرر بشخصٍ ما من خلال تشويه إحدى صوره. لكن مثل هذه الممارسات لا تدخل في نطاق طريقة الحياة الشمولية التي صنعها مصطلح الفودو؛ فمن وجهة نظر ممارسي فودو هايتي، الفودو هو أسلوب حياة يتميز بخدمة الأرواح التي يتمثل دورها بالحماية وجلب الصحة ورغد العيش. ويُنتظر من أولئك الذين تباركهم الأرواح أن يسلكوا سلوكًا كريمًا، ويُظهروا الولاء والسخاء للجماعة. ويُعتقد أن أولئك الذين حلَّت بهم المآسي أخفقوا في خدمة الأرواح. وحسبما جاء على لسان مامبو راسين سانس باوت، «لا تملي [اللوا] سلوكًا أخلاقيًّا. هي تمنح الحماية والقوة ... وأي مكروه هو دائمًا جريرة الفرد الذي يصيبه، على الأقل جزئيًّا، لأن هذا الفرد فشل في أن يحمي نفسه كما ينبغي» (جري، ٢٠٠٠). والاستجابة السليمة إذًا هي التعهد بخدمة اللوا، لا اللجوء إلى الشعوذة.

نتيجة لانتشار سوء الفهم عن الطبيعة الحقيقية للفودو، أسست مجموعة من العلماء بجامعة كاليفورنيا بسانتا باربارا منظمة باسم «كوزانبا» تضطلع بنشر الفهم الصحيح للفودو. وكان من أوائل جهودها الناجحة تقديم التماس إلى مكتبة الكونجرس لاستخدام كلمة Vodou بدلًا من كلمتي voodoo وvoodooism لتجنب المزيد من اللَّبس ما بين الفودو والممارسات الشعبية.

المراجع

Ackerman, H.W. and Gauthier, J. (1991) The ways and nature of the zombie, *Journal of American Folklore,* 104, 466–494.

Fernandez Olmos, M. and Paravisini-Gebert, L. (2011) *Creole Religions of the Caribbean: An Introduction from Vodou and Santeria to Obeah and Espiritismo*, 2nd ed, New York University Press, New York.

Freedman, S.G. (2010) Myths obscure Voodoo, source of comfort in Haiti, *International New York Times,* February 19, www.nytimes.com/2010/02/20/world/americas/20religion.html?_r=0 (accessed January 9, 2014).

Grey, K.S. (Mambo Racine Sans Bout) (2000) *Morality, Power, and the Vodou Tradition in Haiti* (December 3), available at www2.webster.edu/~corbetre/haiti/voodoo/morality.htm (accessed January 9, 2014).

KOSANBA A Scholarly Association for the Study of Haitian Voudou, http://www.research.ucsb.edu/cbs/projects/haiti/kosanba/ (accessed January 12, 2014).

(٣) يعبد السحرة الشيطان

> لدى السحرة سبب وجيه للابتهاج بسلسلة هاري بوتر. تمنح سلسلة الكتاب «الحرفة» دعمًا هائلًا. لا عجب إذًا أنه حينما أجرت صحيفة «يو إس إيه توداي» حوارًا مع أحد السحرة، عبَّر عن إعجابه بهاري بوتر، وكم كان متحمسًا للقبول الواسع الذي تلْقاه السلسلة بين العامة. («كل سحر شيطاني!» (jesus-is-savior.com))

الهاجس المعبَّر عنه في هذا الاقتباس هو أن سلاسل هاري بوتر، والساحرة المراهقة سابرينا، و«الشفق»، وجوانب أخرى من الثقافة الشعبية ليست ترفيهًا محضًا. هي وسائل خطرة يستخدمها الشيطان نفسه للسيطرة على الشباب اليوم. يشرح موقع الويب «يسوع هو المخلص» أنك ما لم تكن تتعامل مع «الروح القدس»، فأنت تتعامل

مع الشيطان. تتضمن الحيل الشيطانية «الأبراج، والتنجيم، وأوراق التاروت، والعِرافة، والشعوذة، والسحر، وجلسات تحضير الأرواح، وقراءة المستقبل، وقراءة الكف، والمندل، وقراءة الطالع، والنكرومانسية (الاتصال بالموتى)، واليوجا، وتأمُّل العصر الجديد، والقوة الميتافيزيقية (الكونية)، والأبراج الصينية، وإشعال الشموع، والتمائم، والرُّقَى، والجرعات السحرية، والتعويذات، والسبح، والأساور ذات الأيقونات، وما إلى ذلك.» والشيطان يستخدم مثل هذه الوسائل التي تبدو في ظاهرها بريئة لأنه «كذاب جميل»، كما سمعنا.

كانت مساواة السحر بعبادة الشيطان افتراضًا سائدًا في أوروبا في بدايات العصر الحديث. فمن الشيطان كانت تحصل الساحرات على قواهنَّ الخارقة كما ظن كثيرون. وبعد سلسلة من المحاكمات للساحرات في مقاطعة لانكشير بإنجلترا، في صيف عام ١٦١٢، أعلنت المنشورات: «الاكتشاف الرائع للساحرات في مقاطعة لانكاستر». وكان يعلو هذه الكلمات صورة أربع نساء دميمات يتراقصن حول ذكر أسود له قرون وأجنحة وذيل مدبب الأطراف، فيما كان يُحلِّق ثلاثة وحوش فوق رءوسهم (يوجد كثير من مثل تلك الصورة على موقع www.pendlewitches.co.uk). ومن إجمالي «الساحرات التسع عشرة السيئات السمعة» اللاتي وردت أسماؤهن في المنشور، أُدينت عشر ساحرات وحُكم عليهن بالإعدام شنقًا وفق الوصية الكتابية «لا تَدَعْ سَاحِرَةً تَعِيشُ» (خروج ٢٢: ١٨).

عبر الأطلنطي، في نيو إنجلاند، لاح الشيطان بقوة في محاكمات الساحرات التي جرت في عامَي ١٦٩٢–١٦٩٣ بولاية ماساتشوستس. ساد اعتقاد في تلك الثقافة البيوريتانية البروتستانتية بأن الساحرات أبرمن عقدًا مع الشيطان يمكن بموجبه للشيطان أن يدخل أجسادهن ويستخدم مظهرهن كي يؤذي الناس الآخرين. ومع أنه كثيرًا ما كان يُكتفى بالإشارة إلى هذه المحاكمات باسم «محاكمات السحرة في سالم»؛ فإن جلسات الاستماع لم تكن تُعقد في قرية سالم وبلدة سالم فقط، ولكن أيضًا في بلدتَي إيبسويتش وأندوفر. واتُّهم فيها أكثر من ٢٠٠ شخص، أغلبهم من النساء. بحسب معظم التقديرات البحثية لعدد الأشخاص الذين أُعدِموا بتهمة ممارسة السحر بين عامَي ١٤٠٠ و١٨٠٠، تراوح عددهم ما بين ٣٠ ألف شخص و٥٠ ألفًا (CatholicCulture.org).

استُخدم خمسة أنواع من الأدلة في هذه المحاكمات؛ أولًا: كان من الممكن أن يقدَّم إلى المتهمين تدريب ليؤدوه، مثل تلاوة الصلاة الربانية، فإذا ما رفضوه أو وقعوا في أخطاء، فقد يكون هذا دليلًا على أنهم سحرة. ثانيًا: العلامات البدنية مثل الشامات أو الوحمات التي كان يُعتقد أنها يمكن أن تكون أماكن لدخول الشيطان. ثالثًا: شهادة الجيران

الذين كانوا يُرجِعون بعض المشكلات إلى أن المتهمين ألقوا عليهم تعويذة. رابعًا: «الأدلة الطيفية»؛ أي ظهور روح أو شبح على شكل المتهم. لما كان البيوريتانيون يعتقدون أن الشيطان لا يمكن أن يتخذ شكل إنسان معين دون رضاه، اعتبروا مثل هذا الطيف دليلًا على أن الشخصية المنتحلة هي ساحر. خامسًا: اعتراف المتهمين.

الغريب أنه في محاكمات السحرة في سالم كان من مصلحة الشخص أن يعترف. فأولئك الذين كانوا يعترفون كانوا يُعاقَبون بالسَّجن، ويُطلب منهم أن يُدْلوا بأسماء سحرة آخرين؛ وقد لقي أربعة منهم حتفهم في السجن في انتظار المحاكمة، لكن لم يُعدَم أيٌّ منهم. أما المتهمون العشرون الذين أنكروا ممارستهم للسحر وأي علاقة بالشيطان، فأُدينوا كلهم وأُعدموا. أُعدم تسعة عشر منهم شنقًا، وواحد كبسًا — السحق تحت كومة من الأحجار. أُدين أيضًا في هذه المحاكمات كلبان وأُعدما.

خلال المحاكمات، استشار ثلاثة قضاة من القضاة الخمسة كوتون ميذر، وهو قس بيوريتاني، ابن رئيس جامعة هارفارد، إنكريز ميذر. وبعد تنفيذ أحكام الإعدام، كُلِّف بتأليف كتاب يسوِّغ فيه المحاكمات للسلطات العليا في مستعمرة خليج ماساتشوستس. في هذا الكتاب، «عجائب العالم الخفي»، يُدين ميذر كثيرين من أولئك الذين أُعدموا. كتب بشأن بريدجيت بيشوب: «على قلة المواقف التي يمكن إثبات وجود السحر فيها، فهو واضح للعيان وشائن.» ووصف سوزانا مارتن بأنها «واحدة من أكثر المخلوقات وقاحة وبذاءة وشرًّا في العالم» (ميذر، ١٦٩٣).

على الرغم من أن محاكمات السحرة في القرن السابع عشر هي الأكثر شهرة؛ فإن بداية المحاكمات كانت في أواخر القرن الخامس عشر. وكان المحرك الرئيس لها هو البابا إينوسنت الثامن الذي كلَّف الراهبَين الدومنيكيَّين، هاينريتش كرامر وجيمس شبرينجر، بالتحقق من الشائعات التي تقول إن عبدة الشيطان في ألمانيا يُلقون تعويذات تتسبب في إسقاط الأجنة، وتَلَف المحاصيل، وإلحاق أضرار أخرى. وفي عام ١٤٨٦، أَلَّف كرامر وشبرينجر وثيقة لم تكن مجرد تقرير عن السحرة وعبدة الشيطان، وإنما كانت بمنزلة دليل لضبط السحرة والتحقيق معهم وإدانتهم. وكان العنوان اللاتيني للوثيقة هو «ماليوس ميلفيكاروم» Malleus Maleficarum. «ماليوس» هي الكلمة اللاتينية التي تعني «مطرقة»، وأما «ميلفيكاروم» فتعني «الساحرات». يشير هذا العنوان ضمنًا إلى أن هذا الكتاب كان سلاحًا لمكافحة السحرة. وكان مدعاةً للإثارة الكبيرة أن يُنشر هذا الكتاب سريعًا باستخدام آلة الطباعة المخترَعة قبلها ببضعة عقود (كرامر وشبرينجر، ٢٠٠٧).

يتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء. يردُّ أولها على المشككين في تهديد السحرة؛ ففي القرن الخامس، قال القديس أوغسطينوس إن الله وحده هو من يستطيع أن يُعطِّل قوانين الطبيعة، مِن ثَمَّ لا يملك الشيطان ولا السحرة قوًى خارقة للطبيعة. ساد هذا الرأي خلال بداية العصور الوسطى. وفي القرن الثامن، أعلن القديس بونيفاس أن اعتقاد امتلاك السحرة قوة خارقة للطبيعة هو اعتقاد وثني وليس مسيحيًّا. وجعل إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة شارلمان حرق السحرة جريمة عقوبتها الإعدام. مِن ثَمَّ تعيَّن على كرامر وشبرينجر التغلب على مجموعة من الحجج. وقد نجحا في هذا من خلال وصف حالات أدَّت فيها الساحرات دور وكيلات الشيطان؛ حيث كن يُوقِعن الضرر باستخدام قوى الشيطان الخارقة للطبيعة. وذكرا أن قوة الشيطان تبلغ أَوْجَها في مسائل الجنس؛ ففي الغالب، تصبح النساء ساحرات بعد معاشرته. وصرح الراهبان بأن الرغبة الجنسية عند النساء أكبر منها عند الرجال، وأن «أعمال السحر كلها تنبع من شهوة جنسية، هي شرهة عند النساء.» يصف الجزء الثاني من الكتاب الساحرات وتعويذاتهن، وأساليب تجنيدهن، وسبل إفشالهن. أما الجزء الثالث فهو دليل لاستجواب الساحرات ومحاكمتهن.

يصب كتاب «ماليوس ميلفيكاروم» تركيزه على النساء في المقام الأول لأن النساء أيسر من الرجال خضوعًا لسلطان الشيطان، كما يزعم، لأن الإناث أكثر «شهوانية». حتى كلمة «ميلفيكاروم» تعني الساحرات. (لو أراد المؤلفان الإشارة إلى السحرة من الذكور والإناث في العنوان، لاستخدما كلمة «ميلفيكوروم» maleficorum).

على مدار قرنين لم تتخطَّ مبيعات أي كتاب آخر، عدا الكتاب المقدس، مبيعات كتاب «ماليوس ميلفيكاروم». أعيد طبعه ١٣ مرة، وصدرت منه ٢٠ طبعة خلال أربعة عقود فحسب. ولا ريب أن شعبيته تعود جزئيًّا إلى القيمة الترفيهية الموجودة في بعضٍ من حكاياته. على سبيل المثال:

> وماذا الذي يمكن أن نعتقده إذًا بشأن تلك الساحرات اللواتي يجمعن الأعضاء الذكورية أحيانًا بأعداد كبيرة، قد تصل إلى عشرين أو ثلاثين عضوًا معًا، ثم يضعنها في عش طائر أو يغلقن عليها صندوقًا، حيث تتحرك وكأنها أعضاء حية، وتأكل الشوفان والذرة، كما رآه كثيرون، ويشيع التحدث به؟ نرى أن كل هذا يحدث بعمل من الشيطان وخداعه، حيث إن حواس أولئك الذين رأوا ذلك ضُلِّلت بالطريقة التي أشرنا إليها. لأن رجلًا ما يحكي أنه عندما فقد عضوه،

لجأ إلى ساحرة معروفة ليطلب منها إعادته إليه. فأخبرت الرجل المكلوم أن يتسلق شجرة معينة، حيث يمكنه أن يأخذ أي عضو يروق له من العش الذي كان يوجد فيه الكثير من الأعضاء. وعندما حاول أن يأخذ عضوًا كبيرًا، قالت الساحرة: لا يمكن أن تأخذ هذا العضو، لأنه يخص كاهنًا أبرشيًّا. [«ماليوس ميلفيكاروم» الجزء الثاني، السؤال الأول، الفصل السابع]

تضمنت أساليب التحقيق المطروحة في الكتاب تجريد المتهمات من ملابسهن، وحلق كل شعر الجسم، والبحث عن شامات أو علامات أخرى تشير إلى وجود أي علاقة مع الأرواح الشريرة. إذا اتضح أن هذا الدليل غير مقنع، تُعذَّب الساحرات المشتبه بهنَّ على أمل الحصول على اعتراف منهن. يقترح «ماليوس ميلفيكاروم» إحضار المتهمات في يوم المحاكمة، وهنَّ يسرن إلى الخلف لتقليل فرصهن في إلقاء التعويذات على القضاة أنفسهم.

في القرون التي تلت نشر «ماليوس ميلفيكاروم»، أصبح هذا الكتاب هو المرجع البارز عن الساحرات وعلاقاتهن بالشيطان. غير أنه فيما درس العلماء تاريخ السحر في أوروبا، اكتشفوا أنه لم تكن هناك صلة قطُّ ما بين الساحرات الحقيقيات وعبادة الشيطان. وبين سحرة اليوم الذين يسمُّون أنفسهم أيضًا «الويكَّانيين»، تعتبر تهمة عبادة الشيطان مثيرة للسخرية. لا يؤمن الويكانيون بوجود الشيطان على الإطلاق؛ فهذا معتقَد مسيحي كما يقولون.

السحر أو «الويكَّا» تقليد ترجع جذوره إلى الأديان الطبيعية السابقة للمسيحية في أوروبا. والمعتقَد الأساس هو أن الإله طبيعي ومتأصل في الطبيعة، وليس خارقًا للطبيعة أو متجاوزًا لها؛ فالعالم المادي نابض بالقوى الإلهية التي يمكن الوصول إليها من خلال التعويذات والرقى. الآلهة الرئيسية هي الإلهة والإله ذو القرنين. ولعل قرنيه هما اللذان حملا المسيحيين على التفكير في الشيطان، لكن فكرة أن الشيطان له قرنان هي نفسها فكرة فلكلورية اخترعها مسيحيو القرون الوسطى؛ فالكتاب المقدس وكتب اللاهوت المسيحي لا تذكر أي أوصاف مادية للشياطين — لا قرون، ولا أرجل ماعز، ولا ذيول مدببة، ولا شوكات.

سحرة اليوم إناث وذكور، ويأتون من دروب الحياة كافة. وهم منظمون في جماعات محلية تُسمى «تجمعات السحرة»، عادة ما ترأسها امرأة. وتتفق الشعائر والاحتفالات مع المواسم والعمليات الطبيعية؛ ففي وقت الزرع الموافق الأول من مايو تقريبًا يحتفلون

بعيد «البيلتين»، وفي وقت الحصاد يحتفلون بعيد «السامهين»، الذي يتزامن مع العيد المسيحي «عيد جميع القديسين» — الهالوين.

وبينما يلقي السحرة التعاويذ ويأتون غير ذلك من أعمال السحر، فمن المفترض أن تكون هذه الأعمال من أجل الخير فقط، لا لإلحاق الأذى. من مبادئها الأساسية «قانون الأضعاف الثلاثة» — ما تفعله للآخرين سوف يُرد لك ثلاثة أضعاف.

وُصِف أحد الاجتماعات العادية للويكَّانيين ببلدة ريهوبوث بولاية ماساتشوستس بصحيفة «ذي نيويورك تايمز» في ٣١ أكتوبر ١٩٩٩:

> قبل مغيب الشمس بساعة، شكَّل ٤٠ بالغًا دائرة في فناءٍ منزلي صغير، وفوق رءوسهم أغصان شجرة جرداء. معظمهم يرتدون ملابس سوداء، وكثيرون منهم يرتدون عباءات. غير أن المناسبة — تجمُّعٌ للسحرة المحليين — هي مناسبة مثيرة وليست كئيبة. في وسطهم تُشهر امرأة شقراء سيفًا فوق رأسها يُشير إلى السماء، وتسير في اتجاه عقارب الساعة داخل الجماعة. وتقول شيريل سوليما-ماسون، رئيسة الكهنة في أحد التجمعات بهذه البلدة بالقرب من مدينة بروفيدنس عاصمة ولاية رود آيلاند: «أريدكم أن تركزوا على إيقاد دائرة من الطاقة من حولنا لدفع عجلة السَّنَة.» وبعد اكتمال الدائرة تضيف: «سوف نغير المستقبل من خلال التسامح والتعليم ومن خلال الحب.» فيجيب الجميع: «أقطع هذا العهد بصفتي ساحرًا.»

على عكس المسيحيين الذين عقدوا محاكمات للساحرات في الماضي، ليس لدى «الويكَّانيين» بِدَع يدانون عليها، ولا لاهوت يعترفون به. وليس لديهم كتب مقدسة منزَّهة عن الخطأ، أو مرجعيات دينية مركزية. وكثير من «الويكَّانيين» يسلمون بمعتقدات الديانات اليونانية والرومانية والكلتية القديمة ويمارسون شعائرها، لكن في ديانة «الويكَّا» لا ينطوي الإيمان على الدفاع باستماته عن المذهب. وإنما هي مسألة وجهات نظر وتفضيلات فردية.

على الرغم من أن «الويكَّانيين» يَعتبرون أنفسهم ورثة ديانة قديمة، فكثير من معتقداتهم وممارساتهم صاغها في خمسينيات القرن العشرين جيرالد جاردنر، أحد موظفي الخدمة الميدانية البريطانيين، الذي ابتدأ بتأليف كتب عن «الويكَّا» بوصفها أدبًا خياليًّا كي يتحاشى الاضطهاد في ظل القوانين البريطانية لمكافحة السحر. وفي العام الذي

أُبطلت فيه هذه القوانين، عام ١٩٥١، نشر جاردنر «السحر اليوم» (٢٠٠٤)، ثم «معنى السحر»، (٢٠٠٤). كانت اجتماعات السحرة التقليدية أبقت معتقداتها وممارساتها سرًّا، تحاشيًا للاضطهاد، غير أن اجتماع جاردنر أتاح له الكتابة عن بعض معتقداتهم وممارساتهم في ذلك الوقت؛ إذ لم تعد مجرَّمة.

تؤكد كتابات جاردنر وكتبه التي ألفها لاحقًا عن السحر أن عبادة الشيطان، بل وحتى الاعتقاد بوجود الشيطان، لا مكان لهما في ديانة السحر. صحيح أن «الويكانيين» يحتفون بالجنس، كما في «الشعيرة الكبرى»، حيث قد تمارس رئيسة الكهنة ورئيس الكهنة الجنس بالفعل، لكن لا يمارس أيٌّ من السحرة الجنس مع الشيطان.

المراجع

CatholicCulture.org., *Who Burned the Witches?* http://www.catholicculture.org/culture/library/view.cfm?recnum=4005 (accessed January 12, 2014).

Gardner, G. (2004) *The Meaning of Witchcraft*, Wheeler/Weiser, Boston.

Gardner, G. (2004) *Witchcraft Today*, Citadel, New York.

jesus-is-savior.com (online) *All Witchcraft is Satanic!* www.jesus-is-savior.com/False%20Religions/Wicca%20&%20Witchcraft/witchcraft_is_satanic.htm (accessed January 9, 2014).

Kramer, H. and Springer, J. (2007) *Malleus Maleficarum*, translated by Montague Summers. Cosimo Classics, New York, p. 121.

Mather, C. (1693) *The Wonders of the Invisible World. Observations as Well Historical as Theological, upon the Nature, the Number, and the Operations of the Devils.* Boston.

Niebuhr, G. (1999) "Witches Cast as the Neo-Pagans Next Door," *New York Times,* October 31.

قراءات إضافية

Howard, M. (2010) *Modern Wicca: A History from Gerald Gardner to the Present*, Llewellyn Publications, Woodbury MN.

(٤) الراستافاريون متعاطون للماريجوانا

أتباع الراستا لسنوب ليون: تدخين الحشيش لا يصنع راستا. (عنوان رئيس على «نيوزواير» (بيرنهاردت، ٢٠١٣))

اشتُهر مغنِّي الراب بمدينة لوس أنجلوس، كالفين برودس جي آر، في تسعينيات القرن العشرين حينما كان يُعرَف باسم سنوب دوج. ووفقًا لموقعه الإلكتروني يُطلِق على نفسه الآن سنوب ليون، وقد أنتج فيلمًا بعنوان «المخلوق من جديد». يعلن الوصف التسويقي للفيلم: «وسط سحابة من الدخان، يتتبع منتج مجلة «فايس»، آندي كابر، مغنيَ الراب، سنوب دوج، في رحلة حج إلى جاميكا، حيث يشهد تحولًا روحيًّا وتجاريًّا، ويعاود الظهور باسم سنوب ليون، فنان الريجي.» (نتفيلكس، ٢٠١٤) لكن، كما يشير الاقتباس الافتتاحي، بعض المراقبين متشككون في صحة هذا. اشتُهر سنوب بأنه يستمتع بالماريجوانا؛ ويبدو أن بعض المراقبين يعتقدون أن «خلقه من جديد» مجرد عذر لتدخين المزيد من الحشيش.

من المتشككين مجلس الألفية لاتحاد الشتات الإثيوبي الأفريقي (أو مجلس الألفية للراستا). وفقًا لما ورد في صحيفة «ذي جارديان»، هدَّد المجلس بمقاضاة سنوب ما لم يتوقف عن تسمية نفسه باسم ليون، قائلين إن «تدخين الحشيش والولع ببوب مارلي وموسيقى الريجي ليسا هما ما يحدِّد الثقافة الأصلية الراستافارية» (بيتريديس، ٢٠١٣).

لا ريب أن العلاقة بين تدخين الماريجوانا وموسيقى بوب مارلي والراستافارية لا تخفى على أحد. لكن الأقل شهرة هو ما يؤمن به أتباع الراستافارية فعلًا.

بادئ ذي بدء، لا يستخدم الراستافاريون مصطلح «الراستافارية»، إنما يشيرون إلى أنفسهم باسم «راستافاريين»، أتباع تافاري ماكونين. نشأ ماكونين — الذي وُلد في إثيوبيا عام ١٨٩٢ لعائلة ملكية يرجع نسبها إلى الملك سليمان وملكة سبأ — في التقليد المسيحي الأرثوذكسي الإثيوبي. عُيِّن في عمر الثامنة عشرة حاكمًا إقليميًّا، ومنحه هذا لقب «راس».

تُوِّج راستافاري إمبراطورًا لإثيوبيا عام ١٩٣٠، وحصل بموجب هذا المنصب على لقب «قوة الثالوث»، «هيلا سيلاسي» باللغة الأمهرية.

في تلك الآونة، في جاميكا، كان ماركوس جارفي قد بدأ يبزغ بوصفه ناشطًا مناهضًا للعنصرية. وقد أسس «الجمعية العالمية لتحسين وضع السود» عام ١٩١٤. نال هذا التنظيم شعبية واسعة في جاميكا، وجذب الانتباه العالمي. شرع جارفي في جولة خطابية في أنحاء الولايات المتحدة عام ١٩١٦، حيث اكتسب المزيد من الأتباع، وافتتح فرعًا للجمعية العالمية لتحسين وضع السود، وأنشأ صحيفة، هي «نيجرو ورلد». ولأن الجمعية كانت تؤيد التنمية الاجتماعية والاستقلال الاقتصادي، فقد اتسعت رقعة الأعضاء المنتمين إليها ودوَّى نجاحها. أطلقت الجمعية عددًا من المشروعات، منها خط شحن بلاك ستار. وتوالى ذيوع صيت جارفي، وفي عام ١٩٢٠ تمكَّن من عقد مؤتمر دولي للجمعية العالمية لتحسين وضع السود بنيويورك، فامتلأت حديقة ماديسون سكوير عن آخرها.

مكث جارفي في الولايات المتحدة على مدار السنوات السبع التالية. وتورط في عدد من النزاعات مع قادة سود آخرين، منهم دبليو إيه بي دو بويز، المؤسس الشريك للرابطة الوطنية لتحسين أوضاع المواطنين الملونين. كما واجه مشكلات قانونية. وأدين بتهمة استخدام البريد في الاحتيال، وقضى عامين في السجن، وعاد إلى جاميكا عام ١٩٢٧، حيث بدأ يترسخ تركيزه على الله وعلى وموطنه الأصلي أفريقيا.

لحظ شعب جاميكا عبارة متكررة بشكل خاص في خطب ماركوس جارفي الشعبية، تنبئ بالتتويج الوشيك لملك أفريقي. تسجل تقارير الراستافاريين قول جارفي: «هلمَّ انظروا إلى أفريقيا، حيث سيتم تتويج ملك أسود، لأن يوم الخلاص قريب.» (جالاجير وأشكرافت، 2006: I: 111). بدا أن تتويج راستافاري عام ١٩٣٠ في إثيوبيا حقق النبوءة. وبلغ ماركوس جارفي منزلة نبي. وعندما أخذ هيلا سيلاسي لقب «أسد سبط يهوذا» (ومِن ثَمَّ اسم سنوب الجديد، سنوب ليون)، لم يُنظر إليه باعتباره تحقيقًا لنبوءات جارفي فقط، ولكن لنبوءات الكتاب المقدس العبري: «لَا تَبْكِ. هُوَ ذَا قَدْ غَلَبَ الأَسَدُ الَّذِي مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا، أَصْلُ دَاوُدَ» (سفر الرؤيا ٥: ٥). الواقع أنه بدا المسيَّا المنتظَر. وبوصفه «قوة الثالوث»، بدا إلهًا.

كان هيلا سيلاسي مسيحيًّا أرثوذكسيًّا، وأنكر كونه المسيَّا المنتظَر أو إلهًا. لكن أتباعه المعروفين الآن بالراستافاريين كوَّنوا حركة تقوم على الإيمان به. وأنشئوا في البداية معتقَدًا أنه سوف يخلِّصهم من الشتات القسري، وأنهم سوف يتمكنون من العودة إلى الحياة

الكريمة في أفريقيا. لكن هيلا سيلاسي لم يَزُر جاميكا حتى عام ١٩٦٦. وبحلول ذلك الحين، كان أتباعه يركزون على العودة العاجلة إلى أفريقيا بقدر أقل من تركيزهم على نمط حياة مرتكز على العيش الطاهر والإيمان بوحدانية البشرية والله (ياه).

يتبع الراستافاريون نظامًا غذائيًّا نباتيًّا خاليًا من الأطعمة المصنعة والحليب والقهوة والكحوليات. هم يعتبرون الكحوليات وسيلة يستخدمها البِيض لإضعاف الأفريقيين واستعبادهم. يستخدم الراستافاريون «بابل» رمزًا لجشع الشعوب البيضاء واستخدامهم الخداع لتدمير الناس، تمامًا مثلما فعلت «بابل العظيمة» في سفر الرؤيا (الإصحاح ١٧)، حيث وُصفت بأنها «أُمُّ الزَّوَانِي وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ.» وعلى الطرف النقيض من قيم بابل، يؤمن الراستافاريون بوحدة البشرية جمعاء وإمكانية بلوغ الحياة الأبدية في الاتحاد بالله على الأرض. يُشرَح بعضٌ من هذه المعتقدات في «الهولي بايبي»، أو «الكتاب المقدس للسود»، الذي نُشر عام ١٩٢٤، ويؤمن الراستافاريون بأنه نسخة دقيقة من الكتاب المقدس المسيحي. ومع ذلك، فمن المثير أن تقليد الراستا القاضي بألَّا يحلقوا شعورهم مأخوذ من سفر العدد في الكتاب المقدس العبري: «كُل أَيَّامِ نَذْرِ افْتِرَازِهِ لا يَمُرُّ مُوسَى عَلى رَأْسِهِ. إِلى كَمَالِ الأَيَّامِ ... يَكُونُ مُقَدَّسًا وَيُرَبِّي خُصَل شَعْرِ رَأْسِهِ» (سفر العدد ٦: ٥، نسخة الملك جيمس). (سبب تسمية تصفيفة شعر الراستا المميزة «الضفائر المرعبة» مثار جدل. يعلل بعض الدارسين ذلك بأنها تعكس الخوف المتولد لدى البيض عند رؤية أشخاص مُصفَّفة شعورهم بهذه التصفيفة؛ ويظن بعضهم الآخر أنها تعكس خشية الراستا الحميدة لله.)

حينما وصل هيلا سيلاسي جاميكا عام ١٩٦٢، استُقبل بحفاوة على أنه المسيَّا، تَجَلٍّ لـ «ياه»، تمامًا مثلما كان يسوع. ويعتقد أتباع الراستا أن إعلان موته عقب انقلاب عسكري عام ١٩٧٤ هو خدعة، وأنه لا يزال حيًّا، وسوف يتجلَّى مرة أخرى يوم الدينونة.

يتمحور معظم الاحتفالات الراستافارية حول أحداث خاصة بحياة هيلا سيلاسي (منها عيد مولده، وتتويجه، وزيارته إلى جاميكا). ويُطلَق على التجمعات الراستافارية العادية «جلسات التعقل»، وهي تركز على النقاش. تبدأ جميع أحداث الراستا بتدخين الجانجا (الماريجوانا)، «العُشب المقدس» الذي يؤمن الراستا بأنه مذكور في الكتاب المقدس العبري (على سبيل المثال في سفر المزامير ١٠٤: ١٤: «جعل [الله] الْمُنْبِتُ عُشْبًا لِلْبَهَائِمِ وَخُضْرَةً لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ.» يمكن العثور على فهم الراستافاريين لهذا الأمر على موقع www.earthcultrueroots.com/rastafarism.htm). لكن الجانجا ليس موضع تركيز

الأحداث. وإنما ينصبُّ التركيز بدلًا من ذلك على أهمية العيش بطريقة تُعبر عن كرامة الإنسان. وكما عبَّر بوب مارلي عن ذلك في كلماته الشهيرة:

يخال معظم الناس
أن الله العظيم سيَنزل من السموات،
يُبعد الغمة،
ويجعل الجميع يشعرون بالانتشاء.
لكنك لو علمت قيمة الحياة،
فستبحث عن إلهك على الأرض.
والآن عرفت السبيل:
انهض لانتزاع حقوقك. بحق الإله!

(«أَفِق، انهض»)

لم يوضح سنوب ما إذا كان يقبل التحدي أم لا، لكن واضح أن الراستافاريين يَعتبرون الحرية وكرامة الإنسان ونمط الحياة الصحي في بؤرة تقليدهم. ورغم كل هذا تظل الماريجوانا غير قانونية بالفعل حتى في جاميكا. والمثير أن الراستافاريين لم ينالوا الحق القانوني في تعاطي الماريجوانا لأسباب دينية إلا في إيطاليا (بوفام، ٢٠٠٨).

المراجع

Bernhardt, A. (2013) Rastas to Snoop Lion: Smoking Weed Does Not a Rasta Make, *Newswire,* January 23, www.avclub.com/articles/rastas-to-snoop-lion-smoking-weed-does-not-a-rasta,91507 (accessed 9 January 2014).

Gallagher, E. and Ashcraft, W.M. (eds) (2006) *Introduction to New and Alternative Religions in America*, Greenwood Press, Westport, CN. http://dvd.netflix.com/Search?v1=Reincarnated&oq=reincarnated&ac_posn=1 (accessed January 12, 2014)

Petridis, A. (2013) Is Snoop Dogg Taking His Rastafarianism Seriously? *Guardian,* January 24, www.theguardian.com/lifeandstyle/lostinshowbiz/2013/jan/24/snoop-dogg-rastafarianism-seriously (accessed January 9, 2014.)

Popham, P. (2008) Rastas Can Use Cannabis, Italian Court Rules. *The Independent,* July 12, www.independent.co.uk/news/world/europe/rastas-can-use-cannabisitalian-court-rules-865829.html (accessed January 9, 2014).

قراءات إضافية

Barrett, L.E. (1997) *The Rastafarians: Twentieth Anniversary Edition*, Beacon Press, Boston.

Hausman, G. (2013) *Rastafarian Children of Solomon: The Legacy of the Kebrea Nagast and the Path to Peace and Understanding*, Bear & Company, Rochester, VT.

(٥) قد يؤمن التوحيديون العالميون بما يحلو لهم

> العالمية التوحيدية احتيال! كيف يمكن لأي منظمة أن تزعم أنها تتبع الله، وهي «لا» تملك منظومة معتقدات؟ هل الله مجهول؟ إن قول هذا هو رفض «كلمة الله» (التي تُعرِّف الله). أمر غاية الغرابة لأي ديانة أن تزعم أنها لا تعتقد أي شيء بوصفها جماعة. الشيء الوحيد المتفق عليه هو أن أي شيء مقبول. من المفجع أنه يمكنك أن تعتقد أي شيء تريده. («العالمية التوحيدية عارية!» (ستيوارت، على الإنترنت))

خرج معظم التقاليد الدينية التي تناولناها في هذا الفصل من رحم اليهودية والمسيحية والإسلام. لكن العالمية التوحيدية لها جذورها التوحيدية المتغلغلة في حركة «الإصلاح البروتستانتي» التي بزغت في القرن السادس عشر. ويُرجِع أعضاؤها عالميتهم — الاعتقاد

بأن الجميع سيُخَلَّصون — إلى لاهوتيين مسيحيين أوائل، مثل أوريجانوس وإكليمندس السكندري. في عام ١٩٦١، اندمج كلٌّ من الجمعية التوحيدية الأمريكية، التي أُسِّست عام ١٨٢٥، وكنيسة أمريكا العالمية، التي أُسِّست عام ١٨٦٦، لتصيرا العالمية التوحيدية. ولا يزال معظم أعضائها موجودين في الولايات المتحدة.

من الأشياء التي تميز العالميين التوحيديين عن الطوائف المسيحية رفضهم عقيدة التثليث — التعليم الذي يقول إن الله ثلاثة أقانيم. وكما يقولون، فربما كان يسوع مُعَلمًا رائعًا حظي بعلاقة خاصة بالله، لكنه لم يكن الله، ولم يوجد قبل ميلاده. وينزع العالميون التوحيديون الذين يؤمنون بالله إلى تأكيد وحدة الله، ومِن ثَم جاء مصطلح «توحيدي». نقول «الذين يؤمنون بالله» هنا لأن أكثر من نصف العالميين التوحيديين ملحدون أو لا أدريُّون — وهذا تمييز كبير آخر بين العالميين التوحيديين وتيار المسيحيين العام. يرفض العالميون التوحيديون أيضًا العقيدة المسيحية الأساس المتعلقة بالخطيئة الأصلية — التعليم الذي يقول إن الخطيئة الأولى التي وقع فيها كلٌّ من آدم وحواء، وعقوبة هذه الخطيئة، ورثهما جميع البشر.

وعلى الرغم من أن العالميين التوحيديين لا يَعتبرون يسوع إلهًا؛ فإن كثيرين منهم ينظرون إليه على أنه مُعلِّم ديني عظيم آتٍ برسالة إلهية. ومن أجل أولئك الذين يَعتبرون أنفسهم «مسيحيين» بالمعنى الواسع للكلمة، ثمة الزمالة المسيحية العالمية التوحيدية. ولأولئك الذين لا يؤمنون بالله الوارد في الكتاب المقدس، ثمة خيارات أخرى، مثل الجمعية العالمية التوحيدية الإنسانية، وعهد الوثنيين العالميين التوحيديين.

تكشف هذه الأمثلة للتنوع بين العالميين التوحيديين عن اختلاف آخر بينهم وبين تيار المسيحيين العام: أنهم لا يفرضون عقيدة لاهوتية من قبيل «قانون الإيمان الصادر عن مجمع نيقية»، أو «إقرار إيمان ويستمنستر». ومع ذلك، ينكر العالميون التوحيديون أنه ليس لديهم أي معتقدات، أو أن بإمكانهم الاعتقاد بما يحلو لهم. من وجهة نظرهم، ما يهم في الدين هو الخُلُق — كيف يتعامل الناس — لا اللاهوت. صاغت جمعية العالميين التوحيديين بكثيرٍ من العناية والجهد الفكري معتقداتها في «المبادئ السبعة» التالية:

- القيمة والكرامة المتأصلتين لكلِّ شخص.
- مراعاة العدالة والمساواة والرحمة في العلاقات الإنسانية.
- قبول بعضنا بعضًا والتحفيز على النمو الروحي بداخل جماعاتنا.
- البحث الحر والمسئول عن الحقيقة والمعنى.

- احترام حق الضمير واستخدام العملية الديمقراطية داخل جماعاتنا وفي المجتمع عمومًا.
- تعزيز إقامة مجتمع عالمي قوامه السلام والحرية والعدالة للجميع.
- احترام نسيج التكافل لكلِّ الوجود الذي نُشكِّل جزءًا منه.

يجد العالميون التوحيديون الإلهام في تقاليد دينية متنوعة، يهودية ومسيحية ومسلمة وهندوسية وبوذية وطاوية وكونفوشية، وغيرها من رؤى العالم. يقتبس موقع رابطة جماعات العالميين التوحيديين على الإنترنت (http://www.uua.org/beliefs/principles/index.shtml) عن الكاهنة كاثلين رولنز قولها: «تراقصنا على مرِّ التاريخ على إيقاعات الغموض والتعجب، والنبوة، والحكمة، وتعاليم المصادر القديمة والحديثة، والطبيعة نفسها.» يدرج الموقع البنود التالية باعتبارها مصادر «تقليدهم الحي»:

- الخبرة المباشرة بذلك الغموض والتعجب الساميين، المؤكَّدين في كل الثقافات، التي تحركنا إلى تجديد الروح والانفتاح على القوى التي تخلق الحياة وتدعمها.
- كلمات الرجال والنساء النبويين وأفعالهم التي تتحدانا كي نواجه قوى الشر وبنياته بالعدل والرحمة وقوة الحب التغييرية.
- الحِكَم المنبثقة من أديان العالم التي تُلهمنا في حياتنا الأخلاقية والروحية.
- التعاليم اليهودية والمسيحية التي تدعونا إلى التجاوب مع حب الله بحب جيراننا كما نحب أنفسنا.
- التعاليم الإنسانية التي تنصحنا بالإصغاء إلى توجيه المنطق ونتائج الأبحاث العلمية، وتحذرنا من تعصب العقل والروح.
- التعاليم الروحية للتقاليد المرتكزة على كوكب الأرض التي تمجد دورة الحياة المقدسة، وتوصينا بالعيش في تناغم مع إيقاعات الطبيعة.

هكذا، ليس صحيحًا مطلقًا أن العالميين التوحيديين يؤمنون بأي شيء يريدونه. الواقع أنهم يتفقون على قدر كبير من المبادئ الفكرية والأخلاقية، ولا يرحبون إلا بالأشخاص الذين يشاركونهم الإيمان بهذه المبادئ؛ فما كانوا ليقبلوا في صفوفهم شخصًا يؤمن بالعدمية — المبدأ القائل إن الأخلاق والأفكار التقليدية لا قيمة لها — ولا شخصًا يؤمن بأن هناك كنيسة حقيقية واحدة لا خلاص إلا بها، ولا بأبيض عنصري، أو نازي جديد، أو شخص يريد أن يحرم المرأة من حقها في التصويت. العالميون التوحيديون ليسوا عشوائيين في معتقداتهم، ولكنهم يملكون معايير سامية.

المراجع

Stewart, D.J. (online) *Unitarian Universalism EXPOSED!* www.jesus-is-savior.com/False%20Religions/Unitarianism/uu.htm (accessed January 9, 2014).

Rolenz, K. (online) *"Sources of Our Living Tradition",* http://www.uua.org/beliefs/principles/index.shtml (accessed January 16, 2014).

قراءات إضافية

Greenwood, A. and Harris, M.W. (2011) *An Introduction to the Unitarian and Universalist Traditions*, Cambridge University Press, Cambridge.

Morales, P. (2012) *The Unitarian Universalist Pocket Guide*, Skinner House Books, Boston.

الفصل السابع

خرافات عن التقاليد الشرقية

(١) الهندوسية تقليد ديني واحد.
(٢) تروج الهندوسية النظام الطبقي.
(٣) يعبد الهندوس الأصنام.
(٤) بوذا إله للبوذيين.
(٥) بوذا الضاحك (بوداي هو-تي) هو بوذا.

مقدمة

كما ذكرنا في الفصل الثاني، لا ينطبق مصطلح «دين» بحذافيره على كل الثقافات؛ فهو يوائم المسيحية الحديثة التي تُعرَّف على أنها (أ) مجموعة ممارسات ومعتقدات متماسكة، (ب) تتعلق بالجانب المقدس من الحياة، وهكذا يمكن تمييزها من الجوانب غير الدينية من الحياة. لا يتوافق أيٌّ من هاتين السمتين مع التقاليد الشرقية، لكن الأوروبيين، حينما حاولوا فهم تقاليد الهند والشرق الأقصى، اعتبروها بطبيعة الحال مشابهة لتقاليدهم. وأدى هذا إلى بعض الخرافات التي سننظر فيها في هذا الفصل. وتنتج خرافات أخرى من سوء فهم بسيط نتيجة الإخفاق في فهم هذه التقاليد كما يفهمها ممارسوها.

(١) الهندوسية تقليد ديني واحد

> «الهندوسية ليست ديانة. هي طريقة حياة.» يمكنك أن تسمع هذه الجملة اليوم في كل صالة استقبال أينما يجلس النشء لمناقشة الثقافة الهندوسية والتحدُّث عن الهند. («الهندوسية: ديانة أم طريقة حياة؟» (فيلانسوامي، ٢٠١٣))

مضى صاحب الاقتباس المذكور أعلاه ليصف الزعم بأن الهندوسية ليست ديانة بأنه «مقولة خاطئة.» واستطرد: «لا يمكن لأي امرئ مفكر أن يقبله أو يمنحه أي صدقية على الإطلاق. يا لها من حماقة منقطعة النظير متدثرة بمثل هذه الجملة الجذابة!» إن اعتبار شيءٍ ما دينًا أو غير ذلك هو أمر يمكن أن يكون له تداعيات خطيرة، والواقع أن هذا هو سياق رفض فيلانسوامي العنيف الزعمَ بأن الهندوسية ليست دينًا. لكن، بعيدًا عن العواقب، يفترض العلماء أن مصطلح «هندوسية» ينبغي استخدامه بحذر؛ فالهندوسية ليست دينًا بالمعنى الذي ينطبق به هذا المصطلح على المسيحية، على سبيل المثال؛ فهي ليست منظومة واحدة من المعتقدات والممارسات التي يقبلها كلٌّ من يُدعَى «هندوسيًّا»، ولا يمكن أن تقتصر بسلاسة على جانب من جوانب الحياة يمكن تعريفه بأنه الجانب «الديني»، متمايزًا من الحياة «الدنيوية».

يأتي مصطلح «هندوسية» من كلمة «هندو»، وهي كلمة فارسية وعربية تشير ببساطة إلى الأشخاص الذي يعيشون على الضفة الشرقية من نهر السند (الذي يجري مباشرة اليوم في قلب باكستان). وكانت كلمة «هندو» مقصورة بصرامة على المدلول الجغرافي، ولا علاقة لها بالهوية الدينية أو الأيديولوجية. وكان الفارسيون يطلقون على المكان الذي كان الهندوس يعيشون فيه «هندوستان»، أما العرب فكانوا يطلقون عليه «الهند». وحينما استخدم شعب الهند مصطلح «هندوسي»، كان الغرض الوحيد هو تمييز أنفسهم من المحتلين الأجانب. ومرة أخرى لم يكن للكلمة مدلول يعبر عن الهوية الدينية (أوكونيل، ١٩٧٣).

كان الأوروبيون هم من شرعوا في استخدام لفظة «هندو» للإشارة إلى الهنود الذين لم يكونوا مسيحيين، ولا مسلمين، ولا يهودًا، مانحين الكلمة هويتها الدينية. ولم تميِّز بين الهندوس وأتباع الديانة اليانية أو السيخية، وهما ديانتان هنديتان أصليتان أخريان. حينئذٍ سُكَّ مصطلح «الهندوسية» للدلالة على نظير ديني للمسيحية أو الإسلام أو اليهودية. وهي كلمة إنجليزية، ولم تبدأ في الانتشار إلا في القرن التاسع عشر.

تستبعد لفظة «هندوسي»، بحسب استعمالها الحالي، اليانيين والسيخ الذين يتبعون تقاليد هندية أصلية، لكنهم لا يعترفون بحجية كتب «الفيدا»، وهذا — القبول بحجية كتب «الفيدا» — هو ما أصبح محددًا لوصف الناس بأنهم «هندوس».

تتألف «الفيدا» من مجموعات من قصص الخلق، وقصص عن آلهة، وتراتيل تسبيح للآلهة، وصلوات، وتعليمات لشعائر مختلفة، وتأمل فلسفي. وهي منظومة في أربع

مجموعات رئيسة: «الريج فيدا»، و«الياجور فيدا»، و«السما فيدا»، و«الأتارفا فيدا». ويُعتقد أن «الفيدا» تلقَّاها في الماضي السحيق أناس كانوا منسجمين انسجامًا مع الحقائق الكونية، وبالطبع مع «براهمان»، الحقيقة المطلقة المجردة. ولذا يُنسَب إلى براهمان الفضل في أنه مصدر الكون، ومصدر كتب «الفيدا» المقدسة أيضًا.

آلهة الهندوسية كثيرة ومتنوعة. بعضها يُعَد تشخيصات للظواهر الطبيعية مثل النار والعواصف والسماء. والبعض الآخر وحيد الشخصية، بينما البعض الآخر متعدد الشخصيات. الإلهة شاكتي، على سبيل المثال، يمكن اعتبارها الطاقة بهذه الطريقة، أو طاقة آلهة مختلفة، أو إلهة هي نفسها. بل إن البعض يعتبرونها طاقة الخالق، ومِن ثَمَّ فهي نفسها الخالقة.

يصف كتاب «الريج فيدا» ٣٣ إلهًا، بعضها مألوف أكثر من غيره. ومن بينها الإله ديوس بيتا، الآب السماوي. ونظير ديوس بيتا في الميثولوجيا الإغريقية هو العظيم «زيوس باتر»، «الآب زيوس»، رب كل الآلهة. ويقابله في الميثولوجيا الرومانية الإله الروماني الأسمى جوبيتر.

آلهة الهندوسية كثيرة ومتنوعة. بعضها يُعتبر تشخيصات للظواهر الطبيعية مثل النار والعواصف والسماء. والبعض الآخر وحيد الشخصية، بينما البعض الآخر متعدد الشخصيات. على سبيل المثال، يمكن أن تستخدم كلمة «شاكتي» — التي تعني «القوة» — باعتبارها اسم إلهة مفردة تُدعى أيضًا «ديفي»، أو يمكن أن تشير إلى طاقة آلهةٍ ذكور مختلفين «لكلٍّ منهم شاكتيه». بل وفي أحد التقاليد الهندوسية تكون شاكتي أو ديفي هي الكائن الأسمى.

بعض الآلهة غير معروف إلا في مناطق معينة من الهند، بينما بعضها الآخر معروف على مستوى العالم. ومثال هذا جانيشا، الإله ذو رأس الفيل المعروف بأنه «مذلِّل العقبات». وهو شهير لدرجة أن أناسًا لا يعتبرون أنفسهم هندوسيين يعتمدون عليه في جلب الحظ السعيد. عدد آلهة الهندوسية وإلهاتها المتعارف عليه هو ٣٣٠ مليون إله وإلهة.

بعض آلهة الهندوسية يعتبر أعظم من البعض الآخر. من بين «الآلهة العظيمة» (الماهاديفا) فيشنو الحافظ، وشيفا الهادم الخالق من جديد. وكلٌّ منهما مقترن بإلهة يمكن أن تُدعى شاكتي الخاصة به. أما ساراسواتي، إلهة المعرفة، فهي تساعد الإله براهما؛ وتساعد لاكشمي، إلهة الرغَد، الإلهَ فيشنو. وقرينة الإله العظيم شيفا هي الإلهة ديفي التي تُدعى أيضًا شاكتي. وثمة تقليد قديم يعتقد أن براهما هو ثالث الآلهة

العظيمة، إله يخلق بالنيابة عن الآخرين — سواء شيفا أو فيشنو أو شكل من أشكال ديفي.

لكن الاعتقاد بإله أو آلهة ليس ضروريًّا ليكون المرء هندوسيًّا. هناك تقليد فلسفي عميق في الهندوسية، يستند إلى نص آخر، وهو «الأوبانيشاد». على غرار كتب «الفيدا»، يُعتَقد أن نصوص «الأوبانيشاد» تلقَّاها أو «سمعها» أفراد غير عاديين في الماضي السحيق، ولم يؤلفوها. ومن ثم يُعتقد أنها إلهية المنشأ؛ ولذا فهي تتمتع بحجية مثل «الفيدا». تُعلِّم نصوص «الأوبانيشاد» أن الآلهة جميعهم هم تجليات للحقيقة المطلقة، الخالدة، والحقيقية التي تستوعب الجميع، وهي: براهمان. كل الآلهة والإلهات لا تعدو في نهاية المطاف كونها تجليات لبراهمان، وكذلك كل كائن حي، ومن ذلك كل إنسان.

هذا التعليم متجذر لدرجة أن نصوص «الأوبانيشاد» تُعتبر خاتمة كتب «الفيدا»، أو هي «الفيدانتا»، ويمكن أن يحتاج فهمها إلى أعمار لا حصر لها حافلة بالتجارب والتأملات. وحينما يحقق المرء هذا الفهم، يتحرر من حدود الوجود المادي الفردي (يصل إلى «الموكشا»). ومتى تحرر الفرد من دورة الولادات المتكررة («السامسارا»)، يصبح ما كان عليه المرء دائمًا حقًّا: متحدًا بالحقيقي.

ثمة كثير من المدارس الفكرية التي تتناول الحكمة المطروحة في الأدب الفيدي وتفاسيره. وهي تقدِّم براهمان بطرق مختلفة — بوصفه إلهًا، أو أسمى من الألوهية، على سبيل المثال. وهذه «الحقيقة المطلقة» سامية للغاية، مع ذلك، لدرجة أن الكلمات وسائل قاصرة عن بلوغها. ويُوصى بأنواع متنوعة من الأفعال («اليوجا») عوضًا عنها. من هذه الأفعال المعيشة الأخلاقية، وضبط النفس، وأيضًا التأمل والتفكر والتنسك الخاشع.

لكن، مثلما تكون الحقيقة كلها واحدة في النهاية، تدرك الممارسات الهندوسية أن قوانين الكون ثابتة ودقيقة. بعبارة أخرى، تتجاوب الأفعال كلها في كل أنحاء الكون. ومِن ثَمَّ تكون للأفعال الصالحة — مثل الاضطلاع بالمسئوليات العائلية، وإظهار الاحترام للآلهة والإلهات، والدراسة، والتأمل — آثار إيجابية تشمل تقدُّم الفرد على درب التحرر من دورة الولادات المتكررة. وتكون للأفعال السيئة، مثل تلك الأفعال التي تحدث بدافع الجشع والجبن، الآثار المعاكسة. ولذلك، من واجب المرء أن يتصرف وفقًا لقانون الكون لدرجة أن مصطلح «دارما» نفسه يُستخدَم للإشارة إلى كلٍّ من «الواجب» و«قانون الكون». ويُعرَف مبدأ السببية باسم «كارما».

مثلما تتنوع التقاليد الهندية التي تُعرف جمعيًّا باسم الهندوسية؛ فإنها تتقاسم رؤية العالم التي تُوصف بمفاهيم «الحقيقة المطلقة»، و«الدارما»، و«الكارما»، بالإضافة

إلى احترام الكتب المقدسة التي تنقل هذه «الحكمة» أو «المعرفة» — معنى كلمة «فيدا» السنسكريتية. وهكذا، على الرغم من أنه لا يُشترط اعتناق عقائد معينة أو مزاولة ممارسات بعينها عند الهندوس، فالهندوسية كما نفهمها اليوم يجوز اعتبارها ديانة. وبتعبير سيمون ويتمان (١٩٩٨: ٢٦٤)، يؤكد تعريف الهندوسية لذاتها أن الهندوسية «كلٌّ دينيٌّ واحد، مهما تنوعت محتوياتها بغزارة.»

المراجع

Veylanswami, S.B. (2013) Hinduism: Religion or Way of Life? *Hinduism Today,* April–May, www.hinduismtoday.com/modules/smartsection/item.php?itemid=5359 (accessed January 9, 2014).

O'Conell, J. (1973) The word 'Hindu' in Gaudiya Vaisnava texts, *Journal of the American Oriental Society* 93(3) 340–344.

Weightman, S. (1998) Hinduism, in *A new handbook of living religions* (ed J.R. Hinnells), Penguin, New York, pp. 261–309.

قراءات إضافية

Flood, G. (2005) *The Blackwell Companion to Hinduism*, John Wiley & Sons, Ltd, Chichester.

(٢) تروج الهندوسية النظام الطبقي

النظام الطبقي، عمومًا، هو عملية لتصنيف الأشخاص في فئات مهنية. وقد تغلغل في كثير من جوانب المجتمع الهندي لقرون. ولأن النظام الطبقي مترسخ بعمق في الدين، ويقوم على تقسيم العمل، فهو يُملي، هو وأشياء أخرى، نوع المهن التي يمكن أن تسعى وراءها امرأة ما والتفاعلات الاجتماعية التي قد تحظى بها. الطبقات هي أحد أوجه الدين الهندوسي. لا تتبع الديانات الأخرى في الهند هذا النظام. («مزاولة الأعمال التجارية في الهند للمبتدئين» (مانيان، ٢٠٠٧))

يواصل تفسير النظام الطبقي في الهند المقتبس أعلاه وصف «الطبقات الرئيسة الأربع» في النظام الطبقي، مُشيرًا إلى أنها تُسمى أيضًا «الفارنا» (كلمة «طبقة» باللغة السنسكريتية). إن مساواة الطبقة بالفارنا هو سوء فهم شائع، وكذلك المسلَّمات ذات الصلة التي تقول إن الطبقات موصًى بها من الدين، ومقصورة على الهندوسية. الواقع أن الطبقات ليست هي نفسها الفارنا، والفارنا فقط هي المترسخة في الكتب المقدسة الهندوسية. أما النظام الطبقي فهو بنيان اجتماعي تكوَّن شيئًا فشيئًا على مرِّ القرون، وهو واسع الانتشار لدرجة أنه ظاهر على نحو ملحوظ حتى في بعض المجتمعات المسيحية والمسلمة في الهند.

الفارنات أربع فئات اجتماعية تحددها المساهمات التي يقدمها الناس إلى المجتمع. البراهمة هم الكهنة والعلماء، والكشاتريا هم المحاربون والحكام، والفيشيا هم الرعاة والمزارعون والحرفيون والتجار، والشودرا هم أولئك الذين يعملون لدى الآخرين. يصف بعض الباحثين السمات المحدِّدة ببساطة بأنها «كيفية كسب الناس قوتهم»، على أن هذا لا يعبِّر عن ثراء الأساس النصوصي للفارنا. كان اضطلاع المرء بمسئولياته، بوصفه عالمًا أو كاهنًا أو محاربًا أو حاكمًا أو راعيًا أو مزارعًا أو حرفيًّا أو تاجرًا أو عاملًا — المهن التي كانت تغطي دروب الحياة كلها في المجتمع التقليدي — واجبًا مقدسًا؛ فكل مهنة كانت ضرورية لإنجاح سير المجتمع، ومن ثم جميعها جديرة بالاحترام بالتساوي.

يظهر الإقرار الديني بالفارنات في واحدة من أشهر قصص الخلق في الهندوسية. يصف نص «الريج فيدا» الهندوسي المقدس كيف انبثق العالم وسكانه من «ذات» أو «إنسان» أوَّلي، «بوروشا». من فمه جاء العلماء الكهنة؛ ومن ذراعيه المحاربون؛ ومن فخديه الرعاة والمزارعون والحرفيون والتجار؛ ومن قدميه العمال. هذه هي الفارنات الأربع.

أما الطبقات الاجتماعية في المقابل فتُعَد بالآلاف. هي «الجاتِيات»، وليست مستمَدة من كتب «الفيدا» المقدسة. ويرجع إقرارها تقليديًّا إلى القواعد الواردة في قوانين مانو. يُرجع العلماء قوانين مانو إلى القرون الأولى الميلادية، وهي الفترة التي شهدت اضطرابات سياسية في الهند، وسادت فيها مخاوف مفهومة بشأن الترتيب الاجتماعي. يقدَّم النص نفسه على أنه من تأليف تلميذ أحد أبناء الإله براهما، وهي وسيلة تمنحه صدقية أكيدة، لكنه ينتمي في الفكر الهندوسي إلى صنف أدبي يُعرَف بأنه «تقليدي» («سمِريتي») وليس إلهي المنشأ («شروتي»).

تسترجع قوانين مانو إنشاء الفارنات، وتُسهب في وصف سماتها وواجباتها، ومستويات النقاوة، والقضايا الاجتماعية المتنوعة مثل وضع المرأة. وعلى مدار القرون،

ومن خلال الشروحات العديدة لقوانين مانو، كوَّن المجتمع الهندي التراتب الاجتماعي المعقد الذي بات معروفًا للعالم الحديث باسم «النظام الطبقي».

انطوى ذلك النظام على نظام صارم للتراتبية الاجتماعية يتداخل بلا شك مع الفارنات. يظل البراهمة مهيمنين، على الرغم من أنه توجد فروق لا حصر لها حتى داخل فارنا البراهمة، كما توجد في الفارنات الأخرى. وهناك أيضًا أناس خارج النظام بالكامل — «المنبوذون» — وهي ظاهرة لا توجد في الفارنات. يمثل المنبوذون، الذين يُشتهرون باسم «الداليت»، سدس سكان الهند. والمنبوذون مهمَّشون من المجتمع السائد، ومحرومون من الحق في الدراسة، أو العبادة، أو الأكل، أو الاختلاط مع الهنود الآخرين. هم حرفيًّا «لا يُلامَسون»، وهو مصطلح آخر مستخدم للإشارة إليهم.

ويمكن تتبُّع منشأ فكرة حظر ملامسة المنبوذين وصولًا إلى الأفكار القديمة عن الدنس والنقاء؛ ففي المجتمع التقليدي، يؤدي الاحتكاك بسوائل الجسد الحيوية أو الكائنات الميتة إلى النجاسة. وأي احتكاك من هذا القبيل لا بد من علاجه بطقوس التنقية التي تتضمن التطهر والصلوات. توجد هذه الظاهرة في مجتمعات في أنحاء العالم. حتى في اليهودية الأرثوذكسية والإسلام الحديثَيْن يُعَد الحيض والنفاس من مصادر النجاسة، ومِن ثَمَّ لا بدَّ أن تتطهر النساء وفقًا للشعائر قبل استئناف حياتهن الطبيعية. لكن وفقًا للنظام الطبقي، النجاسة حالة ملازمة لمن تجعلهم سبل رزقهم في اتصال منتظم مع مثل هذه المواد. يشمل ذلك من يعملون جزارين، ودابغي جلود، ومنظفي شوارع، وعمال مجارٍ، وخادمات، ومديري منازل.

ترتبط مكانة المنبوذين المتدنية أيضًا بأفكار الكارما؛ فكما رأينا أعلاه، تُعلِّم الكتب المقدسة الهندوسية أن لكل الأفعال تبعات كونية. الأفعال الصالحة سوف تقرب الفرد من التحرر من دورة الولادات المتكررة، وتملؤه ببهجة الوجود النقي، أما الأفعال السيئة فسيكون لها التأثير المضاد. هكذا، أولئك الذين وُلدوا في وضعٍ اجتماعيٍّ متدنٍّ، قد يُفتَرض أنهم فعلوا ما يستحقون به ذلك.

ومع ذلك، يرفض كثير من المصلحين في العالم الحديث فكرة أن النظام الطبقي مباح دينيًّا، ويولون اهتمامًا خاصًّا لمحنة «الداليت». والواقع أن الدستور الهندي يحظر التمييز على أساس الدين أو العرق أو الطبقة أو الجنس أو محل الميلاد، ويجعل التمييز المبني على أساس «حظر الملامسة» خاضعًا للعقاب بمقتضى القانون. ورفض زعيم كفاح الهند من أجل الاستقلال عن إنجلترا، المهاتما غاندي، حتى استخدام لفظ

«لا يُلامَس». ودعا المنبوذين «أولاد الله» («هاريجان»). حتى وسط أولئك الذين يعتقدون أن النظام الطبقي يمكن أن يرجع إلى أصول دينية يوجد نقاد لشكله الجديد. كتب المعلم البراهمي الموقر سوامي كريشناناندا (تُوفي عام ٢٠٠١) أن النظام كان يخدم في الأصل الاستقرار الاجتماعي، لكن بمرور الوقت «حلت محله الرجعية والتعصب من خلال انتشار الأنانية والجشع والكراهية، بما يتنافى وممارسة الدين الحقيقي بوصفها تعبيرًا اجتماعيًّا عن التطلع الروحاني الداخلي إلى ارتقاء تدريجي على مراحل إلى الله القدير» (http://www.swami-krishnananda.org/disc/disc_03.pdf الصفحة الثالثة (تاريخ التصفح ١٢ يناير ٢٠١٤)).

المراجع

Manian, R. (2007) India's Caste System, in *Doing Business in India For Dummies' John Wiley & Sons, Ltd, Chichester,* www.dummies.com/how-to/content/indias-caste-system.navid-815477.html?print=true (accessed 9 January, 2014).

قراءات إضافية

Dumont, L. (1981) *Homo Hierarchicus: The Caste System and Its Implications*, University of Chicago Press, Chicago.

Rao, A. (2009) *The Caste Question: Dalits and the Politics of Modern India*, University of California Press, Berkeley.

(٣) يعبد الهندوس الأصنام

[بيناريس] متحف أصنام هائل — وكلها غير متقنة الصنع، ومشوهة، وقبيحة. تتجمع خلال أحلام المرء ليلًا، كغوغاء وحشية من الكوابيس. (مارك توين (١٩٨٩: ٥٠٤)، لدى زيارة مدينة بيناريس (فاراناسي حاليًّا)، وهي من أقدس المدن للهندوسية، على ضفاف نهر الجانج)

كان ما وصفه توين بعبارة «غوغاء وحشية من الكوابيس» هو آلاف الصور لجمع آلهة الهند الغفير؛ فقد كان يزور فاراناسي، لكنه وجد صور الآلهة والإلهات في كل مكان في الهند: في المعابد، في البيوت، في المتاجر، في المكاتب، في سيارات الأجرة، على الحافلات، في المسارح، على المظلات، على الجدران.

كما رأينا أعلاه، عدد الآلهة في الهندوسية لا حصر له تقريبًا، وكذلك عدد صورهم. وكل إله له ملامح مميزة تُصوَّر — سواء في التماثيل أو الرسومات على أسطح مستوية — بتفصيلٍ شديدٍ وبألوان زاهية. سبق أن ذكرنا الإله جانيشا ذا رأس الفيل. عادة ما يُصوَّر بالألوان البرتقالي والوردي والبنفسجي والأزرق الوهاجة، بتاج ذهبي وجواهر كثيرة. أما الإلهة دورجا التي لا تُقهر، فعادةً ما تُصَّور باللون الذهبي اللامع. وتكون مرصَّعة بالمجوهرات حتى أكثر من جانيشا. ولها أربع أذرع على الأقل — كلٌّ منها تحمل شيئًا ذا معنًى، وتظهر في بعض الأحيان ممتطية نمرًا أو أسدًا، ولكنها دائمًا ما ترتسم على شفتيها ابتسامة عذبة. أما كالي، الذات الأخرى لدورجا، فتظهر في المقابل، باللون البنفسجي بالكامل، أو الأزرق، أو حتى الأسود. مجوهراتها مصنوعة من الجماجم البشرية؛ لسانها (أو ألسنتها) يتدلَّى للخارج في سخرية خبيثة، وأحيانًا ما تكشف عن أنيابها. وتقف على الجثث، وسط ألسنة اللهب أحيانًا.

بعض الصور أقل تفصيلًا. يمكن أن يُرى الرَّب شيفا، الإله العظيم لدورة الحفظ والدمار، في وضعية لطيفة على هيئة رجل ذي أربع أذرع عند تصويره في شخصيته «رب الرقص». ويُمثَّل في صورة أكثر رمزية بعمود حجري بسيط يُعرَف باسم «لينجام» (أو «لينج»)، وكثيرًا ما يظهر مع «يوني» (أو «بيتا») إناء قليل العمق على شكل وتد له مزراب، يرمز إلى «العبور» أو «الأصل» أو «محل الميلاد». قد يعبِّر اللينجام بوضوح عن قوة شيفا البارزة دائمًا. وبالنظر إلى أن اللينجام يظهر ملتحمًا بيوني — التي قد تُرى على أنها رمز للأعضاء الجنسية الأنثوية — فإنه قد يُعتبر رمزًا للعضو الذكري. وقد يمثِّلان معًا الطاقة الخلَّاقة.

تشتمل عبادة شيفا وشاكتي، اللذين يُرمَز إليهما باللينجام واليوني، على تقديم اللبن أو العسل أو السمن، والزهور، بالإضافة إلى أشياء أخرى، التي تُسكب على اللينجام أو يُدهن بها، ثم تسيل من خلال اليوني. وتُقدَّم أنواع مشابهة من «البوجا» للآلهة الأخرى. يُطلق على جانب آخر من جوانب العبادة «دارشان». وهو «أن ترى» الإله و«تكون مرئيًّا» له. يمكن حدوث «الدارشان» حينما يقدم الناس القرابين إلى صور الآلهة في المعابد، أو

أثناء رحلات الحج إلى أماكن توجد بها صور شهيرة لأحد الآلهة، أو حينما يحتفلون بيوم عيد إله ما بالانضمام إلى الحشود ليشهدوا صورة خاصة على امتداد طريق الاستعراض.

بالنظر من الخارج إلى المجموعة الهائلة من صور الآلهة، وتقديم العطايا للصور، والتكالب على الوجود في محضر هذه الصور، يمكن أن يشبه هذا بسهولة عبادة الأصنام؛ أي إنه يمكن أن يبدو وكأن الناس يعبدون «صورًا منحوتة» كما جاء في الكتاب المقدس العبري: «لا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا وَلا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ.» (سفر الخروج ٢٠: ٤). يرجع هذا التحريم في الكتاب المقدس إلى أن الناس كانوا يعبدون أشياء مثل «العجل الذهبي» — التماثيل التي كانوا يعتقدون على نحو أسطوري أن لها قوة إلهية. يرفض اليهود والمسلمون حتى يومنا هذا صنع لوحات أو تماثيل للشخصيات المقدسة، خشية الخلط ما بين الصورة والإله نفسه.

أهمية التواصل البصري مع الإله في الهندوسية متجلية في تمثيلات الأعين في الصور الهندوسية. كثير من الآلهة مرسوم بعين ثالثة؛ وحتى أكثر من ذلك لبعضها؛ وحتى حينما تتجلى عينان فقط، فغالبًا ما يُبالَغ في حجمهما أو لونهما. عبَّرت العالِمة المتخصصة في الديانة الهندوسية ديانا إيك (١٩٩٦: ٧) عن ذلك قائلة «تلتقي نظرة الأعين الضخمة في الصورة مع نظرة العابد، وهذا التبادل للنظرات هو في صميم العبادة الهندوسية.»

غير أن ادعاء عبادة الأصنام، في حالة الهندوسية، في غير محله. يؤمن العابدون أن الأشكال المنحوتة ليست سوى تجسيد للإله، وليست الإله نفسه. ومِن ثَمَّ فالإله هو الذي يُمجَّد، لا الصورة. ما يبدو على هيئة صورة أو «صنم» هو في الواقع تجلٍّ ملموس للإله من وجهة نظر الهندوس. ومع ذلك، وكما رأينا أعلاه، فما من تعددية للآلهة في الفكر الهندوسي إلا وهي تَجَلٍّ للحقيقة المطلقة، براهمان. ولا يمكن لأي عدد من الآلهة أو الصور أن يستوعب براهمان. فبراهمان لا شكل له، ولا سمات محدِّدة. لكن الحقيقة المطلقة التي لا شكل لها ولا حد تتجلى في التنويعة اللانهائية من الأشياء في العالم المرئي. يُعبَّر عن هذه الوحدة الكامنة في التعددية في النص الهندوسي المقدس «الأوبانيشاد»، في حوار بين تلميذ وأحد «الحكماء» («الريشي») الذي «استوعب» حكمة كتب «الفيدا». يبدأ بالتلميذ يسأل عن عدد الآلهة.

أجاب الحكيم: «ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة.»
قال التلميذ: «أجل، لكن ما عدد الآلهة بالضبط؟»

«ثلاثة وثلاثون.»
قال: «أجل، لكن ما عدد الآلهة بالضبط؟»
«ستة.»
قال: «أجل، لكن ما عدد الآلهة بالضبط؟»
«ثلاثة.»
قال: «أجل، لكن ما عدد الآلهة بالضبط؟»
«اثنان.»
قال: «أجل، لكن ما عدد الآلهة بالضبط؟»
«واحد ونصف.»
قال: «أجل، لكن ما عدد الآلهة بالضبط؟»
«واحد.»

(إيك، ١٩٩٦: ٢٧)

إن لم يستطع إله واحد أو تجسيد (صورة) لإله أن يستوعب الحقيقة المطلقة، فبمقدور كلٍّ منها أن يومئ بأحد جوانب الحقيقة المطلقة. لكن في الحياة العادية نادرًا ما نولي انتباهنا للمطلق. والاحتفاء بتجسد فريد لهذا المطلق يتيح لنا تلك الفرصة. وكما يشرح الكُتيب التقليدي لعبادة فيشنو:

> كيف يمكننا أن نتأمل في الله في غياب الهيئة؟ فإن كان بلا شكل، فأين سيثبت العقل نفسه؟ متى لا يجد العقل شيئًا يتشبث به، يَزِل عن التأمل أو ينزلق إلى حالة إغفاء. هكذا يتأمل العاقل في شكل ما، متذكرًا مع هذا أن الشكل هو فقط صورة مركَّبة وليس حقيقة. (إيك، ١٩٩٦: ص٤٥)

المراجع

Eck, D. (1996) *Darshan: Seeing the Divine Image in India*, Columbia University Press, New York.

Swami Krishnananda, *Religion and Spirituality,* http://www.swami-krishnananda.org/disc/disc_03.pdf, page 3 (accessed January 12, 2014).

Twain, M. (1989) *Following the Equator*, American Publishing Co., Hartford CN.

(٤) بوذا إله للبوذيين

> يزعم البوذيون — على غرار الرومانيين الكاثوليكيين المخدوعين — ويتعلمون أنهم لا يعبدون بوذا، قائلين إنهم فقط «يُصلُّون» لتمثاله. حقيقة الأمر (كما سترون في الصور العديدة على هذه الصفحة) أن البوذيين يركعون بالفعل في عبادة وتبجيل لبوذا. «عبادة بوذا الشيطانية» (ستيوارت، ٢٠١١)

كما رأينا في الفصل الأول، ينزع الأشخاص الذين لا يعرفون سوى الأديان التوحيدية الغربية إلى التفكير في أن قوام أي ديانة هو العبادة. وحينما يرى الناس تماثيل من قبيل «تيان تان بوذا» في بكين الذي يبلغ ارتفاعه ٣٤ مترًا (١١٢ قدمًا)، فقد يفترضون أن بوذا إله يُعبَد. يلحظ بعض المسيحيين، مع ذلك، أوجه تشابه بين بوذا ويسوع، ويسوع يُعبَد. كلاهما بشَّر بين مجموعة صغيرة من الأتباع في البداية، ثم بين جموع أكبر فأكبر. وبعد موتهما أصبح أتباعهما رسلًا ينشرون رسالتيهما في كل أصقاع الأرض. شيَّدوا الكنائس والمعابد التي تئوي تماثيل يسوع وبوذا، وصنعوا رتب الرهبان والراهبات. لكن هنا تنتهي أوجه التشابه. بينما يُعبَد يسوع بوصفه إلهًا، فلا يُعبَد البوذا. كان مُعلِّمًا حكيمًا ذا «روح عظيمة» — يرمز لها بضخامة بعض تماثيله — لكنه لم يكن سوى مُعلِّم، وما علَّمه كان علاجًا للقضاء على عذاب الحياة.

«بوذا» لقب، وليس اسمًا. ويعني «اليقظ» (أحيانا ما يُترجَم إلى «المستنير»). مُنِح لقب «بوذا» لرجل عاش في شمال الهند في القرن الخامس قبل الميلاد. كان اسمه سيدهارتا جوتاما، وشبَّ أميرًا. ووفق التقليد البوذي، ظهرت نبوءة قبل مولده تقول إنه سيصير ملكًا أو زعيمًا دينيًّا. وقد أراده أبوه الملك أن يتبع خطاه، ولذا، وقاه من مشكلات الحياة، لأنها غالبًا ما تقود الناس إلى الدين. تزوج سيدهارتا من ابنة عمه، وهي أميرة حسناء، وعاش في قصر أبيه، جاهلًا معاناة العالم بالخارج. غير أن سيدهارتا، وهو في أواخر العشرينيات من عمره، جال بعيدًا عن القصر ليستطلع شكل العالم. وخارج قصره المعزول، شاهد سيدهارتا أشخاصًا أحنى العمر ظهورهم، يعانون المرض، ونادبين ينوحون على موت

أحبائهم. مسَّت هذه التجارب شغاف قلب الشاب لدرجة أنه ترك عائلته ونعيم القصر، وشرع في استكشاف علاج للمعاناة.

أمضى سيدهارتا سنوات في الدراسة بمعية معلِّمين هندوس تقليديين، ينهل من حكمتهم ويتبع ممارساتهم، ومنها أقصى أشكال إنكار الذات. لكن لم يُقدِّم أيٌّ من الطرق التقليدية التحرُّر من المعاناة الذي كان يسعى إليه. في آخر المطاف، قرَّر أن يكف عن الانتقال من مُعلِّم إلى آخر، وأن يجلس ببساطة ويتأمل إلى أن توصَّل إليه. بعد وقت، خرج من تأمله «يقظًا»؛ اكتشف كلًّا من سبب المعاناة وعلاجها. وأصبح «البوذا». كما رأينا في الفصل الثاني، تتلخص تعاليمه في «الحقائق النبيلة الأربع»: أن الحياة تشوبها المعاناة، والمعاناة تسببها الرغبة (أو التعلق)، وأن المعاناة يمكن تحاشيها بالقضاء على الرغبة، وطريقة القضاء عليها هي اتباع الطريق الثُّماني:

الرؤى السليمة: بمعنى أن تفهم العالم فهمًا صحيحًا.
التطلعات السليمة: الالتزام بإنهاء الرغبة.
الكلام السليم: تجنُّب الكذب أو التحدُّث بغضب، وإنما التحدث برفق.
الفعل السليم: السلوك على نحو سلمي وأمين.
طريقة العيش السليمة: الامتناع عن إلحاق الضرر بأي كائن حي.
السعي السليم: المثابرة في السعي.
الانتباه السليم: إيلاء انتباهٍ تامٍّ لما يحدث وما يفعله المرء.
التركيز السليم: التمتع بالسلام في أي موقف من خلال التركيز عليه بعمق.

بعبارة أخرى، يمكن للمرء من خلال الكف عن الرغبة، والعيش ببساطة، والتحلي بالرأفة نحو كل الكائنات الحية، أن يقبل الحياة بما تحمله له، ويتجنب المعاناة، ويجد السلام. كان هذا التعليم هو لب الوعظة الأولى للبوذا. وعظها بين النُّساك الخمسة الذين كان يعيش معهم، وأصبحوا «السانغا» الأوائل — جماعة الرهبان البوذيين — وشرع في نشر الرسالة حتى يمكن للآخرين أن يتحرَّروا من المعاناة. وعلى عكس المبشرين المسيحيين، لم يعظ بوذا وأتباعه عن الله أو عن آلهة. وإنما انصب تركيزهم بالكامل على الشأن العملي المتعلق بالمعاناة البشرية وكيفية التغلب عليها.

وحالما انتشرت البوذية في أنحاء آسيا، حاولت مجتمعاتٌ البقاء ملتزمة بالتعليم الأصلي للبوذا. ويُطلق على تقاليدهم الموجودة اليوم في سريلانكا، وميانمار، وتايلاند، وكامبوديا،

ولاوس، بوذية «ثيرافادا» أو «هينايانا» (المَرْكبة الصغرى). لكن بعد مرور نحو خمسة قرون على موت البوذا، ومع دخول البوذية إلى الصين وكوريا واليابان، أضيفت أفكار وممارسات جديدة لإنشاء تقاليد تُسمَّى بوذية «ماهايانا» (المَرْكبة الكبرى). تحتوي تقاليد الماهايانا على شخصيات تقوم بدور المخلِّصين، ويصلي الناس لهم طالبين مساعدتهم، مع أنهم ليسوا آلهة ولكنهم بشر. ويُطلق على هؤلاء الشخصيات لقب «بوذيساتفا».

على غرار الهندوس، يؤمن البوذيون بأن الأشخاص يُولدون مرارًا وتكرارًا إلى أن يصبحوا «يقظين». حينئذٍ، يتوقفون عن تكرار التجسُّد، ويدخلون في حالة الوجود السعيدة التي تُعرف بالنيرفانا. والبوذيساتفا هو الشخص الذي بلغ «اليقظة» وأصبح قاب قوسين أو أدنى من دخول حالة النيرفانا، ولكن من باب الإشفاق على كل أولئك الذين لا يزالون يجاهدون في دورة المعاناة وتكرار الميلاد، يتنازل عن النيرفانا ليساعد الآخرين على بلوغ الاستنارة. واحد من أهم البوذيساتفا هو أفالوكيتسافارا، الذي يُدعى أحيانًا «بوذا الرحمة». يُقال إنه يعيش في مملكة سماوية خاصة، سيجلب إليها أولئك الذين يطلبون مساعدته. في اليابان، ثمة نسخة أنثوية من أفالوكيتسافارا تُسمى كانون. وعلى غرار البوذيساتفا الآخرين، هي ليست إلهة، مع أنها قد تبدو كذلك حينما يصلي البوذيون أمام تمثال كانون.

في أحد أنواع بوذية الماهايانا الذي يُدعى «الأرض النقية»، يُقال إن راهبًا يُدعى دارماكارا أقسم ذات مرة أنه إذا بلغ النيرفانا فسوف يخلق أرضًا نقية مباركة — شبيهة بالفكرة الغربية عن السماء — وسيدعو إليها الناس الذين تشفَّعوا باسمه التماسًا لمساعدته لحظة موتهم. يُطلق على هذه الشخصية «أميتابها» في اللغة السنسكريتية و«أميدا» في اليابانية. ودوره، بصفته مخلِّصًا لأولئك الذين يصلون له، أشبه بدور يسوع في المسيحية، لكنه، على عكس يسوع، ليس إلهًا.

ومن تقاليد الماهايانا التي تُثبت بوضوح أن البوذا ليس إلهًا بوذية الزن. سيرًا على خطى بوذا، يشدِّد معلمو طائفة الزن على التحرر من التعلق بوصفه وسيلة للتخلُّص من الرغبة. خليق بنا أن نتحرر من التعلق ليس فقط بالممتلكات والمراكز الاجتماعية، كما يقولون، ولكن بالمفاهيم وأنظمة التفكير أيضًا؛ ولذا، يحاولون تحرير التفكير المنطقي المعتاد من مساراته المألوفة بطرح ألغاز «كُوَان» على تلاميذهم — أسئلة مربكة من قبيل «ما الصوت الصادر عن التصفيق بيد واحدة؟» بالتحرر من مسارات التفكير المألوفة، يشجعون على نزع احترام النصوص البوذية المقدسة والبوذا نفسه. وفقًا لإحدى قصص

الزن، زار المعلم تانكا (تُوفي عام ٨٢٤) ديرًا في عزِّ الشتاء، وكان الجليد قد غطى مُؤَن الرهبان من الحطب. ولَّما كان تانكا يرتجف من البرد، اتجه إلى المذبح، وأنزل أحد تماثيل البوذا الخشبية، وحطمه إلى قطع، واستخدمها في إشعال النيران ليستدفئ. بل إن هناك حكمة في الزن تقول: «إذا قابلت البوذا، فاقتله.»

البوذا إذًا هو مؤسِّس تقليد ديني عظيم، لكنه ليس إلهًا. واليوم، ثمة آلاف من المعابد البوذية في أنحاء العالم، وأكثر منها تماثيل للبوذا. لكن تماثيل البوذا ليست جزءًا من العبادة. هي موجودة هناك لمساعدة الناس على تركيز انتباههم على تعاليم البوذا العملية للغاية فيما يخص طبيعة المعاناة، وإلهامهم في مساعيهم على طول الطريق الثُّماني.

المراجع

Stewart, D.J. (2011) *Buddha Devil Worship,* www.jesus-is-savior.com/False%20Religions/Buddhism/satanic.htm (accessed January 9, 2014).

قراءات إضافية

Keown, D. (2013) *Buddhism: A Very Short Introduction*, Oxford University Press, New York.

Dalai Lama (2002) *How to Practice: The Way to a Meaningful Life*, Simon and Schuster, New York.

(٥) بوذا الضاحك (بوداي هو-تي) هو بوذا

بوذا الأماني السعيدة يجلب السلام والسعادة لبيتك.

إذا أردت أن تجتذب المزيد من الثراء والعافية والفرح، فاحرص على دلك بطن بوذا الضاحك كل يوم، وتمنَّ أمنية لنفسك ولعائلتك. يُشتهر بوذا الضاحك بأنه أيضًا بوذا الذي يجلب الثراء والسعادة ... نحن نتخصص في صنع تماثيل بوذا عالية الجودة، ونراعي التفاصيل، ونعتني بالصنعة الرفيعة الجودة. جميع

تماثيل بوذا التي ننتجها «صناعة يدوية» وكل قطعة فريدة. (إعلان عن تماثيل بوذا الضاحك باعته شركة ويلث بوذا إنك بنيويورك وفانكوفر)

ترافق مع الشعبية الحالية التي يحظى بها التأمل، و«الفنج شوِي»، والظواهر الأخرى ذات الصلة بالبوذية، رواج كبير لصور البوذا، أو على الأقل الصور التي يسمِّيها الناس البوذا. المشكلة هي أن بعض هذه الصور ليست البوذا. واحدة من أشهر الصور هي لشخصية ذكر بدين أصلع عاري الصدر، يضحك من القلب، كثيرًا ما يُطلق عليه بوذا الضاحك. تعرِض مطاعم صينية كثيرة مثل هذه التماثيل، وقد يخبر العاملون الزبائن أن دلك بطنه يجلب الحظ السعيد والثراء والرغد. ومؤخرًا، عرض منشور هدايا شهير (http://acacialifestyle.com/six-littlebuddhas/p/51068) «ستة تماثيل بوذا صغيرة» في صندوق هدايا. قيل للعملاء إن «ستة تماثيل لبوذا الضاحك (رقم مبشِّر) ترمز إلى الصحة والسعادة والرغد والعمر المديد.» غير أن بوذا الضاحك المزعوم ليس البوذا في حقيقة الأمر.

ظهر بوذا الضاحك أول ما ظهر في الصين. واسم العَلَم الصيني له هو «بوداي»، بمعنى «المُحِب» أو «الودود». وفي فيتنام يُطلق عليه «بو داي»، أما في اليابان فيسمى «هوتي». وهو شفيع المطاعم والنوادل. وعندما يفرط أحدهم في تناول الطعام أو الشراب، قد يُرجع الأصدقاء ذلك، على سبيل المزاح، إلى تأثير «بوداي».

لفظة «بوداي» تعني «الكيس القماشي» إشارة إلى الكيس الذي يحمله هذا الشخص. يمتلئ الكيس بالأرز والطعام والحلوى من أجل الأطفال الذين كثيرًا ما يلتفُّون حوله. من طيبته أصبح شفيع الأطفال والضعفاء والفقراء.

يخبرنا المؤرخون أن بوداي قد نُحت محاكاة لراهب بوذي في مذهب تشان (زن) يُدعى تشيسي عاش في الصين في القرن العاشر — بعد البوذا بأكثر من ١٥٠٠ عام. ولطيبته وبشاشته، سئم عيشة الدير، وشرع يعيش متسولًا جائلًا. كان لطفه مع الناس الذين يلقاهم على قارعة الطريق سببًا في أن يصير شخصية أسطورية في نهاية المطاف، والتفَّت حوله جماعة من المعجبين.

في بعض التقاليد الآسيوية، جرت مماهاة بوداي بمايتريا بوذا، وهو مخلِّص يُعتَقد أنه سيأتي في المستقبل البعيد عندما يتدهور الجنس البشري. ويقال إن البوذا تنبأ بأنه بعد خمسة آلاف سنة، سوف ينسى الناس رسالته. وبعد أن ينغمسوا في الأنانية والحسد والكراهية، ستتدهور صحتهم وينخفض متوسط أعمارهم، وسوف يخوضون فترات

طويلة من المجاعات والأمراض والحروب. يقول الكتاب المقدس البوذي «كاكافاتي سوتا»، في مجموعة المحادثات (ديغا نيقايا) السادسة والعشرين:

> في ذلك الزمن، سوف يظهر في العالم يا إخوتي «شخص مبجل» يُدعى مايتريا، مكتمل اليقظة، ومملوء حكمة وألوهية، وسعيد، وملم بمعرفة العوالم، وقائد لا مثيل له للبشر المستعدين للانقياد، ومعلم الآلهة والبشر، مبجل، بوذا كما أنا الآن تمامًا. (ديفيدز وكاربنتر ١٩٩٥)

في «المايتريافيانكارنا»، «نبوة مجيء مايتريا» (كونز، ١٩٥٩: ٢٣٩)، يصف بوذا هذا المخلِّص بأنه شخصية ضخمة وسيمة مهيبة:

> سيكون له صوت سماوي يُسمع في أقاصي الأرض؛ ستكون لبشرته صبغة ذهبية، وسيشع من جسده رونق، وسيكون صدره عريضًا، وستكون أطرافه مكتملة النضج، وستكون عيناه مثل بتلات اللوتس. قدُّه ثمانون ذراعًا [١٢٠ قدمًا] طولًا، وعشرون ذراعًا [٣٠ قدمًا] عرضًا.

لعل ضخامة حجم مايتريا هي التي تفسر ذلك الالتباس بينه وبين بوذا الضاحك، لكن أيًّا منهما لا يُعتبر البوذا.

المراجع

Conze, E. (1959) *Buddhist Scriptures*, Penguin Books, New York.

T.W. Rhys Davids and J.E. Carpenter (1995) *Digha Nikaya*. Pali Text Society, Melksham, U.K.

الفصل الثامن

خرافات عن غير المؤمنين

(١) غير المؤمنين جاهلون بالدين.
(٢) لا يمتلك غير المؤمنين أساسًا للفضيلة.
(٣) الحياة الخالية من المعتقدات الدينية لا غاية لها.
(٤) الإلحاد هو مسألة إيمان مثلما هو الدين.

مقدمة

لماذا عسانا أن ندرج في كتاب عن الأديان فصلًا عن «غير» المتدينين، ولا سيما أولئك الذين يفتقرون إلى الإيمان بالله؟ الجواب هو أن «غير المؤمنين» يَبدون عادةً مصدر تهديد لبعض المؤمنين المتدينين، وخصوصًا المسيحيين والمسلمين. وكما هي الحال مع أي جماعة تُدرك أنها مهدَّدة، تنامت الخرافات عنهم، وكانت كلها خرافات معادية.

(١) غير المؤمنين جاهلون بالدين

الإلحاد كسمكة تُنكِر وجود الماء.

(تعليق أسفل صورة سمكة ذهبية في حوض سمك،
في مقال بعنوان «الإلحاد أحمق» (ساسيردوتس، ٢٠١٣))

غالبًا ما يفترض المتدينون أنهم يعرفون الكثير عن الأديان، بينما لا يعرف غير المؤمنين. لكن دراسات كثيرة تدحض كلا الافتراضين؛ فكما رأينا في الفصل الرابع، وفقًا لستيفن

بروذرو في كتابه «محو الأمية الدينية: ما يحتاج أن يعرفه كل أمريكي — ولا يعرفه» (٢٠٠٧)، ثمة أغلبية صادمة من المسيحيين لا تستطيع أن تذكر اسم أيٍّ من الأناجيل الأربعة. وفي اختبارات خضع لها طلبة السنة النهائية بالمدارس الثانوية الأمريكية، عرَّف نصفهم سدوم وعمورة على أنهما زوجان. أراد مقدم برنامج «تونايت شو» جاي لينو أن يختبر صحة مثل هذه الادعاءات، فسأل المئات من جمهوره في الاستوديو أن يذكروا اسم تلميذ واحد من تلاميذ المسيح الاثني عشر. لم يستطع أحد من الجمهور أن يجيب (هارديمان، ٢٠٠١).

الأمريكيون أكثر جهلًا بالديانات الأخرى غير ديانتهم. في واحدة من الدراسات التي أُجريت على طلبة المدارس الثانوية، عرَّف ٣٦ في المائة فقط رمضان بأنه الشهر المبارك الإسلامي؛ واختار ١٧ في المائة منهم الإجابة القائلة إنه «عيد الغفران اليهودي». يستنتج بروذرو أن «الأمريكيين يتصفون بالتدين العميق والجهل الشديد بالدين» (٢٠٠٧: ١).

أما في المملكة المتحدة، حيث يقل الانتماء الديني عما هو في الولايات المتحدة، فثمة مستوًى مماثل من «الأمية الدينية». في استطلاع موري لعام ٢٠٠٣، لم يتمكن سوى ٥٥ في المائة من البريطانيين من ذكر اسم إنجيل واحد من الأناجيل الأربعة. واستطاعت نسبة أكبر قليلًا ذكر اسم كتاب المسلمين المقدس، القرآن. وتوصلت إحدى الدراسات إلى أن «عامة الناس في بريطانيا، كبارًا وصغارًا، يكادون يجهلون تمامًا الحقائق الأساسية المحيطة بالمسيحيين والديانات العالمية الأخرى» (كرابتري، ٢٠٠٧). وسجَّل تقرير أوفستد لعام ٢٠٠٧ حول «التعليم الديني في المدارس البريطانية» مشكلات تتعلق بضآلة معرفة المدرِّسين بالدين في مستوى المدارس الابتدائية، وبتعيين المتخصصين في مستوى المدارس الثانوية.

ماذا عن غير المؤمنين؟ هل هم جاهلون بالحقائق الدينية مثل عامة السكان الذين استطلع بروذرو رأيهم؟ فيما يخص مقدار معرفة الناس عن الدين، ينبئ تقرير لمنتدى الدين والحياة العامة بمركز بيو للأبحاث (٢٠١٠) بالكثير. أورد التقرير أن «الملحدين واللاأدريين ... من بين الجماعات المحرزة لأعلى الدرجات في استبيان جديد عن المعرفة الدينية، متفوقين بذلك على البروتستانت الإنجيليين، وعموم البروتستانت، والكاثوليك، في أسئلة حول التعاليم الأساسية لديانات العالم الرئيسة وتاريخها وشخصياتها البارزة.» أحرز اليهود والمورمون أيضًا درجات أعلى مما حققه المسيحيون الإنجيليون وعموم المسيحيين (مثل اللوثريين، وأتباع الكنيسة الميثودية، والكنيسة الأسقفية).

اعتمد تقرير بيو على امتحان مكون من ٣٢ سؤالًا عن الدين. وكان المشارك المتوسط يحرز ١٦ إجابة صحيحة. إلا أن الملحدين واللاأدريين حققوا في المتوسط ٢٠,٩ إجابة صحيحة. وأحرز اليهود والمورمون النتائج نفسها تقريبًا بمتوسط قدره ٢٠,٥ و٢٠,٣ على التوالي. وكان متوسط الإجابات الصحيحة للبروتستانت ١٦ إجابة صحيحة، وللكاثوليك ١٤,٧ إجابة صحيحة. وهكذا كان الملحدون واللاأدريون يحرزون نتائج أعلى بنسبة ٤٢ في المائة مما أحرزه الكاثوليك في اختبار للمعرفة الدينية.

من وجهة نظر جريجوري سميث، أحد كبار الباحثين بمنتدى الدين والحياة العامة بمركز بيو للأبحاث، يوجد ارتباط بين الإلحاد والمعرفة الكبرى بالدين التي أبداها الملحدون. تنشأ الأغلبية الساحقة من الناس على نوع ما من التعليم الديني؛ ولذا، يقتضي كون المرء ملحدًا اختيارًا واعيًا؛ فبينما لا يزال أعضاء الطوائف الدينية الذين لا يراعون الشعائر أو لا يمارسونها يَعتبرون أنفسهم باستمرار «مؤمنين» نوعًا ما، يجب على الأفراد أن يختاروا عن قصد أن يصيروا ملحدين. وكما يقول سميث: «يفترض ذلك القرار ضمنًا أن شيئًا من التفكير مُنِح لهذه الأمور.» وهو الأمر الذي يرتبط بقوة بالمعرفة الدينية («سي إن إن»، ٢٠١٠).

إن أردت اختبار معرفتك بالدين، فمنتدى بيو عن الدين والحياة العامة يقدم امتحانًا مكونًا من ١٥ سؤالًا على الرابط الآتي: http://features.pewforum.org/quiz/us-religious-knowledge/?q=16.

المراجع

CNN Belief Blog, (2010) *Don't know much about religion? You're not alone, study finds*, September 28. http://religion.blogs.cnn.com/2010/09/28/dont-know-much-about-religion-youre-not-alone-study-finds/ (accessed January 12, 2014).

Crabtree, V. (2007) July 05, *Religion in the United Kingdom: Diversity, Trends and Decline,* section 5: Ignorance of Religion. http://www.stanwell.org/downloads/religious_education/religion_and_community/Religion%20in%20the%20United%20Kingdom.pdf (accessed January 12, 2014).

Hardiman, C. (2001) *Bible literacy slipping, experts say*, Newshouse News Service, March 28.

Ofsted (2007) *US Religious Knowledge Survey: Making Sense of Religion*, Ofsted, Manchester, UK, www.ofsted.gov.uk/resources/making-sense-of-religion-0 (accessed January 9, 2014).

Pew Research Center's Forum on Religion & Public Life (2010) *Who Knows What About Regligion?* www.pewforum.org/2010/09/28/us-religious-knowledge-survey-who-knows-what-about-religion (accessed January 9, 2014).

Prothero, S. (2007) *Religious Literacy: What Every American Needs to Know—And Doesn't*, HarperCollins, New York.

Sacerdotus (2013) *Atheism is Stupid*, January 23, www.sacerdotus.com/2013/01/atheism-is-stupid.html (accessed January 9, 2014).

(٢) لا يمتلك غير المؤمنين أساسًا للفضيلة

> فكر في الأمر، في الإلحاد، لا يوجد صواب وخطأ أخلاقيان. ليس هناك «ينبغي ولا ينبغي» أخلاقيان. لماذا؟ لأنه عندما تحذف الله من حياتك؛ فإنك تحذف المعيار الذي تقام به الحقيقة الأخلاقية الموضوعية. من منظور الإلحاد، الفضيلة في متناول الجميع. («فشل الإلحاد في تعليل الأخلاقية» (سليك، ٢٠٠٩))

لا يمكن إنكار أن الإلحاد موصوم بوصمة اجتماعية؛ فالافتقار إلى الإيمان بالله يختلف عن الافتقار إلى اعتقاد وجود أشباح أو أطباق طائرة. من وجهة نظر الأغلبية الساحقة من الأمريكيين، الإلحاد نظرية غير مقبولة بالمرة. أظهر استطلاع رأي مشترَك بين صحيفة «يو إس إي توداي» ومؤسسة جالوب عام ٢٠٠٧ مدى السلبية التي ينظر بها الأمريكيون إلى الملحدين. كانت أسئلة الاستبيان العشرة كلها مطروحة بالصيغة التالية:

> إذا رشح حزبك شخصًا ذا كفاءة عالية بصفة عامة لمنصب الرئيس، وحدث أن هذا الشخص _____، فهل ستصوت لذلك الشخص؟

عندما كانت في السؤال كلمة «كاثوليكي»، أجاب ٩٥ في المائة من الأمريكيين بنعم، وفيما يخص مرشحًا «يهوديًّا»، قال ٩٢ في المائة نعم. بل وحتى «المورمون» حصدوا ٧٢ في المائة من الإجابة بنعم. لكن عندما سأل الاستطلاع الناس عما إذا كان من الممكن أن ينتخبوا مرشحًا عالي الكفاءة اختاره حزبهم وتصادف أنه «ملحد»، أجاب ٤٥ في المائة فقط بنعم، وقال ٥٣ في المائة لا (جودناف، ٢٠١٢).

وإذا ما انتقلنا من الساسة إلى الجيران، نجد أن الأمريكيين يُلصقون وصمة أكبر بغير المؤمنين. في عام ٢٠١٠، لحظت جيسيكا آلكويست، الطالبة بالصف الأول بمدرسة كرانستون هاي سكول ويست بمدينة كرانستون بولاية رود آيلاند، وجود لافتة معلقة على جدار مسرح المدرسة بالقرب من المنصة، طولها ثمانية أقدام، عنوانها «صلاة المدرسة». كانت موجودة هناك منذ عام ١٩٦٣. تبدأ الصلاة بالكلمات: «أبانا الذي في السموات»، وتدعو الله أن «يمنحنا كل يوم» الرغبة في فعل كل ما بوسعنا، وأن نكون لطفاء، إلى آخره. لم تكن جيسيكا معترضة على المُثُل المُعبَّر عنها، وإنما كانت رافضة لصيغة الصلاة، لأنها ملحدة. علَّقت جيسيكا: «بدا الأمر وكأنها تقول كلما أراها: «أنتِ لا تنتمين إلى هنا.»» وعندما قدَّم أحد الآباء في المدرسة شكوى إلى الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية بشأن لافتة الصلاة، عقد مجلس المدرسة سلسلة من جلسات الاستماع العامة، وتحدثت جيسيكا فيها جميعها. كما أطلقت صفحة على فيسبوك تطالب فيها بإزالة اللافتة. وفي مارس ٢٠١١ صوَّت مجلس مدرسة كرانستون بأغلبية أربعة أصوات مقابل ثلاثة لإبقاء الصلاة على جدار المسرح. حينئذٍ، طلب الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية، فرع رود آيلاند، من جيسيكا أن تكون المدَّعي في القضية المرفوعة من أجل إزالة الصلاة. وافقت جيسيكا. وفي أوائل يناير ٢٠١٢، حكم أحد القضاة الفيدراليين بأن وجود اللافتة في مدرسة عامة مخالف للدستور؛ لأنه انتهك مبدأ حيادية الحكومة في الدين. وخلال أيام، وجَّه قاطنو المدينة اجتماعات مجلس المدرسة للمطالبة باستئناف الحكم. وتلقَّت جيسيكا تهديدات هائلة على الإنترنت، حتى إن الشرطة كُلِّفت بمرافقتها إلى المدرسة. وفي برنامج إذاعي شهير، وصف نائب الولاية بيتر بالومبو من مدينة كرانستون جيسيكا بأنها «شيء صغير شرير.» ورفضت ثلاثة متاجر لبيع الزهور أن توصل إليها وروداً مرسَلة إليها من الجماعة الإلحادية «مؤسسة التحرر من الدين». وقالت إحدى خريجات عام ٢٠٠٩ من المدرسة الثانوية عن جيسيكا إنها «حمقاء»، مشيرةً إلى أنه لا أحد مجبر على تلاوة الصلاة. قالت الفتاة: «إن كنت لا تؤمن بهذا [لافتة الصلاة]، فلتتخلص من جميع النقود بجيبك، لأن كل ورقة دولارية مكتوب عليها «بالله نثق»» (جودناف، ٢٠١٢).

يُرجَّح كثيرًا أن التحيز ضد غير المؤمنين ينبثق من الربط بين الفضيلة والدين؛ فمن الخصائص الأساسية للأديان أنها تقدِّم الإرشاد بشأن ما هو صواب وما هو خطأ. تقدِّم «بوصلة أخلاقية». تُعلِّم الديانات التوحيدية الغربية الثلاث — اليهودية والمسيحية والإسلام — أن الله قد أصدر أوامر وشرائع. وأشهر شرائع الله هي «الوصايا العشر» التي يتقاسمها كل الموحِّدين بأشكال متنوعة؛ فاليهود لديهم ٦١٣ «ميتسفوت»؛ أي قوانين أمر بها الله. أما المسلمون فليس لديهم عدد معين من القوانين، لكنهم يلتزمون بخمسة أركان أساسية: الشهادة بالله وبنبوة محمد، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاء، والصوم، والحج، هذا بالإضافة إلى تكاليف ومحظورات أخرى متضمنة في الشريعة. ومن الطبيعي إذًا استنتاج أن أولئك الذين لا يعترفون بأي سلطة إلهية، يعيشون بلا إرشادات أخلاقية. كتب جون كالفن، زعيم حركة الإصلاح الديني: «نعلم بوجود فساد في الطبيعة البشرية، حتى إن كل شخص يمكن أن يقتلع عينَي جاره ما لم يكن هناك رادع ينهاه» (كالفن، ١٨٨٥). وفي مطلع القرن الثامن عشر، كتب مؤلف المقالات جوزيف أديسون (١٩٦٥: ٤٦٠) عن الحاجة إلى حَمْل الناس على حضور الصلوات الجماعية بانتظام:

> أكيد أن أهل الريف من شأنهم أن ينغمسوا في نوع من الأعمال الوحشية والهمجية، ما لم تكن هناك فترات عودة إلى الذات متكررة محددة الأوقات، يجتمع فيها كل أفراد القرية معًا وهم في أفضل حالاتهم، وبأنقى عاداتهم، لكي ... تُشرَح لهم واجباتهم، ويشتركوا معًا في عبادة الكائن الأسمى.

وكما جاء على لسان ديمتري كارامازوف، إحدى شخصيات رواية «الإخوة كارامازوف» التي ألَّفها روائي القرن التاسع عشر الروسي فيودور دوستويفسكي، «لو لم يكن هناك الله ولا حياة بعد القبر، ألا يعني ذلك أنه سيكون مباحًا للإنسان أن يفعل ما يحلو له؟» (ديستويفسكي، ١٩٨٣).

على الرغم من انتشار فكرة أنه كي يكون المرء أخلاقيًّا فلا بد أن يكون متدينًا، فإن علماء كثيرين لا يتفقون مع هذا الرأي. يرى أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد ستيفن بينكر (٢٠٠٨) أن ثمة اتفاقًا عامًّا بشأن الفضيلة بين ثقافات العالم مستقلًّا عن الدين. ويقول إن ذلك الاتفاق يمكن تفسيره في ضوء التطور البشري. تتفق جميع الثقافات على أن الكذب والسرقة والقتل أمور سيئة، وأن الاعتناء بأفراد عائلتك أمر جيد. تعكس الثقافات جميعًا هذه القيم وتُدمجها في أنظمتها الأيديولوجية، سواء أكانت هذه

الأيديولوجيات تُعرَّف بأنها دينية أم لا. يقول بينكر إن هذا يعود إلى أن الجماعات البشرية الأولى التي كانت لديها هذه القيم كانت لديها فرصة أكبر للبقاء والازدهار، وأنجبت لذلك نسلًا أكثر. بمرور الوقت هيمنوا على الكوكب. لو كانت هناك جماعات بشرية لم تحث الناس على الاعتناء بأفراد عائلاتهم، ولم تثنِهم عن الكذب والسرقة والقتل، لصارت مختلة وظيفيًّا بشدة لدرجة أن تفنى في تنافسها مع الجماعات التي لديها فضيلة. ويطرح بينكر، بالاستناد إلى أبحاث عالِم نفس آخر هو جوناثان هايدت، خمسة مبادئ أخلاقية موجودة في الثقافات في أنحاء العالم:

- تجنَّب إيذاء الناس.
- عزِّز النزاهة — رُدَّ الجميل، وكافئ المحسنين، وعاقِب الغشاشين.
- كن مخلصًا للجماعة.
- احترم القادة.
- انشر النقاوة.

يشرح بينكر أن امتلاك مثل هذه القيم منَح ميزة تطورية للبشر الأوائل، وهكذا صارت جزءًا من طبيعتنا البشرية الموروثة.

علاوة على هذا، لو كان الملحدون لا أخلاقيين بطبيعتهم، فمن المفترض إذًا أن نجد أنهم ينتهكون القوانين الأخلاقية بنسب أعلى من المسيحيين والمؤمنين الآخرين. تشير الإحصائيات، خلافًا لذلك، إلى أن عدد الملحدين المُدانين بارتكاب جرائم هو أقل بكثير (لكل فرد) من المؤمنين المتدينين. ٠٫٢ في المائة فقط من مساجين الولايات المتحدة الأمريكية ملحدون. ويبلغ معدل جرائم القتل في الولاية الأمريكية التي تحظى بأعلى نسبة حضور في الكنائس، وهي لويزيانا، ضعف المعدل القومي لجرائم القتل، في حين أن الولايات ذات معدلات الحضور المنخفضة في الكنائس، مثل فيرمونت وأوريجون، تنخفض بها معدلات جرائم القتل. وتحظى اليابان — تلك الدولة التي يعلن أقل من ١٠ في المائة من سكانها عن يقينهم بوجود الله — بأقل معدل جرائم قتل بين البلدان الصناعية. تنخفض معدلات الجريمة في كلٍّ من النرويج وبريطانيا وألمانيا وهولندا بالمثل، على الرغم من أن أقل من ثلث سكانها يدَّعون الإيمان بوجود الله. في المقابل، تحظى الولايات المتحدة بأعلى معدلات الاعتقاد الديني بين البلدان الصناعية — وأعلى معدلات للجريمة (زوكرمان، ٢٠٠٩).

المراجع

Addison, J. (1965) *The Spectator*, 112, July 9, 1711 (ed, D. Bond), Clarendon Press, Oxford, 460.

Calvin, J. (1885) Sermons on Deuteronomy, Sermon 142, in *Corpus Reformatorum*, Vol. 56, C.A. Schwetschke & Sohn, Brunswick, CA, col. 211.

Dostoevsky, F. *Brothers Karamazov*, trans. Andrew R. MacAndrew (New York: Bantam Books, 1983), 788.

Goodnough, A. (2012) Student Faces Town's Wrath in Protest Against a Prayer. *New York Times,* January 26.

Pinker, S. (2008) The Moral Instinct. *New York Times,* January 13.

Slick, M. (2009) *The Failure of Atheism to Account for Morality*, Christian Apologetics and Research Ministry (CARM), June 18, http://carm.org/failure-of-atheism-to-account-for-morality (accessed January 9, 2013).

Zuckerman, P. (2009) Atheism, secularity, and well-being: How the findings of social science counter negative stereotypes and assumptions. *Sociology Compass,* 3 (6), 94–971.

قراءات إضافية

Epstein, G. (2009) *Good Without God: What a Billion Nonreligious People Do Believe*, William Morrow, New York.

Harris, S. (2010) *The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values*, Simon & Schuster, New York.

Zuckerman, P. (2008) *Society Without God: What the Least Religious Nations Can Tell Us About Contentment*, New York University Press, New York.

(٣) الحياة الخالية من المعتقدات الدينية لا غاية لها

خُلقتَ بيد الله ومن أجل الله، وإلى أن تعي ذلك، ستظل الحياة بلا غاية. (ريك وارين (٢٠٠٢) واعظ إنجيلي أمريكي وصاحب الكتاب الأكثر مبيعًا «الحياة المنطلقة نحو الهدف: لماذا أنا موجود؟»)

حقق كتاب الدكتور ريك وارين «الحياة المنطلقة نحو الهدف: لماذا أنا موجود؟» مبيعات تجاوزت ٣٠ مليون نسخة. في عام ٢٠٠٣، ووفقًا لمجلة «بابليشرز ويكلي»، كان أفضل الكتب مبيعًا — ليس فقط أفضل الكتب الدينية مبيعًا، ولكن أفضل الكتب مبيعًا من أي نوع في العالم. وارين هو راعٍ مؤسِّس لكنيسة سادلباك بمدينة ليك فورست بولاية كاليفورنيا، رابعة كبرى كنائس الولايات المتحدة؛ إذ يجذب ٢٢ ألف فرد أسبوعيًّا لخدماته. يوضح الاقتباس المذكور أعلاه فكرة وارين المحورية. يقول إن الغاية الأساس من حياة الإنسان هي تمجيد الله. على كل فرد أن يجد طريقه لفعل ذلك، وسيشكل ذلك هدف حياته ومصدر سعادته.

تبرهن مبيعات كتاب وارين وأعداد الحضور إلى الكنيسة، الافتتان الهائل بفكرة أنك «خُلقتَ لتعبد الله». حتى حينما يتخيل الكثير من المسيحيين أنفسهم في السماء بعد الموت؛ فإنهم يتصورون أنفسهم وهم يُنشِدون التراتيل والتسبيح لله إلى أبد الآبدين.

إن كان أحد لا يؤمن بالله، فلن يؤمن بالطبع بأن الله حدَّد لحياته غاية؛ ولذا، إن كانت الطريقة الوحيدة لتكون لحياة الإنسان غاية هي أن يضع الله لها غاية، فلن يعتقد الملحدون إذًا أن لحياتهم غاية. لكن أهذه هي الطريقة الوحيدة لتكون لحياة الإنسان غاية؟

تخيَّل عازفة تشيلُّو عمرها ثماني سنوات تعزف مقطوعة لباخ عزفًا منفردًا، وتشعر بالرضا عن أدائها حتى إنها تعزم على تكريس حياتها لتصبح أشهر عازفة تشيلُّو في العالم، لتكون يو يو ما القادمة. تخيَّل طالبًا جامعيًّا يتوصل في معمل البيولوجيا إلى اكتشاف مذهل بشأن تثبيط الخلايا السرطانية، ويقرر أن يُمضي حياته في العمل على علاجات السرطان. ألا يمكننا القول إن لدى هذين اليافعين غايتين لحياتيهما؟ على ما يبدو يمكننا الإقرار بهذا.

الآن، هب أنهما ملحدان. ألا يزال بمقدورنا أن نقول إن كلًّا منهما لديه غاية لحياته؟ أليس امتلاك غاية لحياتك هو أن يكون لديك هدف عام ينظم وقتك وجهودك؟ إن كان

كلٌّ من هذين اليافعين اختار هدفًا عامًّا، ونظَّم وقته وجهوده حول هذا الهدف، أفلا يكون لحياته غاية إذًا، سواء أكانا يؤمنان بالله أم لا؟

وفقًا لرأي ريك وارين، هذان اليافعان «لم» يجدا غاية لحياتيهما. يكتب:

> لطالما حيَّر البحث عن الغاية من الحياة الناس لآلاف السنين. وذلك لأننا عادة ما ننطلق من نقطة البداية الخاطئة: أنفسنا. نحن نطرح أسئلة متمحورة حول ذواتنا، مثل: «ماذا أريد أن أكون؟ ماذا ينبغي أن أفعل بحياتي؟ ما هي أهدافي، وطموحاتي، وأحلامي من أجل مستقبلي؟» لكن التركيز على أنفسنا لن يكشف أبدًا غاية حياتنا. (٢٠٠٢: ١٧)

يبدو هنا أن وارين يقيد عبارة «غاية حياتنا» بالغاية المحدَّدة من الله، وليست المُعطاة من الشخص الذي هذه حياته. لكن لماذا يجدر بنا أن نسلِّم بهذا التقييد؟ عادة، حينما نتحدث عن الغاية من أفعال شخص ما، فإننا نأخذ في الاعتبار احتمالية أنه اختار هذه الغاية. إن ذهبنا أنا وأنت للمشي، ولَحِظتَ أنني مع كل خطوة أرفع ثقلين حديديين وأخفضهما، فقد تسألني: «ما الغاية من فعل هذا؟» إن قلت لك: «كي أقوِّي عضلات ذراعَيَّ»، فلن تقول لي: «لا يمكن أن تكون هذه هي الغاية، لأنها شيء اخترتَه «أنت».» بالطبع يمكن أن تكون الغاية من أحد أفعالي غاية أختارها أنا. وينطبق الشيء نفسه على الغاية من حياتي. هكذا، بينما يكون وارين محقًّا في أن «إحدى» الطرق التي تكون بها للحياة غاية هي أن تكون لها غاية حددها الله؛ فإن هذه ليست الطريقة «الوحيدة» لتكون للحياة غاية، على الأقل إذا استخدمنا كلمة «غاية» بالمعنى العادي. ليس لزامًا أن تكون غاية حياة المرء محدَّدة من خارجه؛ يمكن أن تكون من اختيار الشخص صاحب هذه الحياة.

إذا فكرنا في هاتين الطريقتين لتكون لحياة الإنسان غاية، تظهر مشكلة أخرى: هل من الجيد بالضرورة أن تكون لديك غاية حددها شخص آخر لحياتك — حتى لو كان هذا الشخص هو الله؟ الغاية هدف أو وظيفة. انظر إلى مطرقة النجار؟ ما الغاية منها؟ تثبيت المسامير في الخشب. انظر إلى غسالة الأطباق أو آلة جز العشب — الغاية منهما واضحة من اسميهما.

دعونا الآن ننتقل إلى الكائنات الحية. ما الغاية من بقرة؟ إدرار اللبن، وولادة العجول، وفي آخر المطاف أن تصير شرائح ولحمًا مشويًّا ولحمًا مفرومًا. هل من الجيد للبقرة أن تُحَدد لحياتها هذه الغايات من مالكيها البشر؟

يمكننا أن نرتقي درجة أخرى إلى البشر الذين حدَّد لهم شخصٌ آخر غاية. ماذا لو أنني اتجهت إليك في حفل وسألتك: «ما الغاية من وجودك هنا؟» يعني السؤال افتراض أنك لست في الحفل لأنك أردت ذلك، وإنما لنقل مثلًا لأنك فرد من فريق الطباخين أو طاقم النظافة. إن كنت في حقيقة الأمر ضيفًا في الحفل، فأغلب الظن أنك سترد ردًّا سلبيًّا على السؤال «ما الغاية من وجودك هنا؟» فهو يشير ضمنًا إلى أنك إنما تؤدي وظيفة؛ أي إنك — على غرار غسالة الأطباق أو آلة تلميع البلاط — أداة، أو جزء من آلة.

قد يبدو غريبًا تشبيه الغاية من الإنسان بالغاية من الآلة، لكن هذا هو ما يفعله ريك وارين تمامًا في كتابه:

> أنت لم تخلق نفسك؛ ولذا يستحيل أن تستطيع أن تخبر نفسك بما خُلقتَ لأجله! لو أعطيتك اختراعًا لم تَره من قبلُ قطُّ، فلن تعرف الغاية منه، ولا الاختراع نفسه أيضًا يستطيع أن يخبرك. وحده الصانع أو دليل المالك هو من يستطيع أن يُفصح عن الغاية منه. (٢٠٠٢: ٢٢)

لنعد مرة أخرى إلى مَثَل الحفل. ربما لن تستاء وحسب من سؤالي: «ما الغاية من وجودك هنا الليلة؟» لكنك على الأرجح ستشعر بإهانة أكبر إذا سألتك ما الغاية التي حُدِّدت لحياتك كلها. ثمة كلمة تعبِّر عن الشخص الذي يحيا من أجل خدمة أهداف شخص آخر؛ هذه الكلمة هي «عبد». مثلما أمتلك جزازة عشبي، ومِن ثَم يمكنني استعمالها كيفما أشاء؛ فإن مُلاك الرقيق اعتبروا أنهم يمتلكون البشر، ويستطيعون مِن ثَمَّ استعمالهم كما يحلو لهم. في الولايات المتحدة الأمريكية قبل الحرب الأهلية، أجرى مُلاك الرقيق حسابات دقيقة عن المدة التي يمكن أن يعيشها العبيد في ظل ظروف متنوعة. في مناطق زراعة القطن مثل المسيسبي، حسب بعضهم أنه يمكنهم انتزاع عامين من العمل الشاق من العبيد قبل أن يموتوا إرهاقًا أو مرضًا. لو لم يكلفوهم بمثل هذا العمل الشاق، لعاشوا مدة أطول، لكنهم لم يكونوا ليحصدوا الكمية نفسها من القطن سنويًّا، وكان من شأنهم أن يستهلكوا المزيد من الطعام على مدار حياتهم. يبدو هذا النوع من تحليل الكلفة والمنفعة قاسيًا، لكنه كان جزءًا طبيعيًّا من العبودية التي كان قوامها امتلاك شخص واحد أشخاصًا آخرين وتحديد غايات حيواتهم.

قد يعترض هنا شخص مثل ريك وارين الذي يؤمن بأن الله يضع غاية لحيواتنا قائلًا إن الله ليس كمالك العبيد. لكن هناك أوجه تشابه؛ فعلى غرار مالك العبيد، يُقال إن الله يملك البشر؛ نحن مِلكه. هذا هو السبب التقليدي المسيحي لكون الانتحار خطأً: أن جسدك وحياتك ملكٌ لله، لا لك، ومِن ثَمَّ فموعد موتك متروك لله وليس لك. وإذا أنهيت حياتك بنفسك، فإنك بذا تنتهك حقوق ملكية الله، تمامًا مثلما تنتهك حقوق ملكية مالك العبيد إذا قتلت أحد عبيده.

لكن ألا يوجد اختلاف واحد كبير بين الله ومالك العبيد: بينما لم «يحب» العبيد أن يحدد مالكهم غاية حياتهم، «يحب» كثير من الناس فكرة أنهم يوجدون من أجل تسبيح الله؛ فهم يتطلعون إلى مراسم العبادة؛ وبالفعل، كما ذكرنا، هم يتصورون السماء مكانًا للتسبيح لله إلى أبد الآبدين. خليق بنا أن نشير ها هنا إلى أنه لم يكن كل العبيد يكرهون سادتهم. فعلى عكس «أقنان الحقول»، لم يكن «عبيد المنازل» مكلَّفين بعمل شاق يقصم الظهر في الشمس الحارقة. بعضهم قبلوا وضعهم بوصفهم ممتلكات، والوظائف الموكلة إليهم. بل وأحب بعضهم سادتهم، ولا سيما إذا لم يعامَلوا بقسوة.

لعلنا نتساءل عن أولئك العبيد الذين قبلوا الغايات التي أُسندت إليهم، وسلَّموا بفكرة أن شخصًا آخر يمتلكهم. هل كان سيئًا أن كانت لديهم غاية حددها لحياتهم شخص آخر؟ دأب مناوئو العبودية على توضيح أنه لأن أولئك الناس لم يعرفوا في حياتهم سوى هذا الوضع، ولأنهم حُرموا بشكل مُمنهَج من التفكير في قيمة الحرية الإنسانية، فقد غُسلت أدمغتهم للقبول بنظام غير مقبول أخلاقيًّا.

حتى لو برَّرنا نظامًا يحدِّد فيه غايةَ شخصٍ شخصٌ آخر، يبدو مع ذلك أن الشخص الذي حُدِّدت غايته — مثل العبد الراضي — يجب أن يرضى بهذه الغاية. ويصدق ذلك بالطبع على مسيحيين أمثال ريك وارين؛ فهم يختارون الغاية التي يعتقدون أن الله حددها لحياتهم. ومن وجهة نظرهم، أنها ليست فقط غاية الله لهم، ولكنها أيضًا غايتهم هم لأنفسهم.

أما إذا عدلوا عن رأيهم وقرروا أنهم يريدون أن يكرسوا حيواتهم من أجل غايات أخرى غير تمجيد الله — لنقُل، على سبيل المثال، علاج السرطان — ما الحال حينها؟ يقول اقتباسَا ريك وارين أعلاه إنه من الخطأ أن تحاول تحديد أهداف حياتك. غير أن كثيرًا من الناس يرون أن تحديد أهدافك هو جوهر الحرية البشرية. وهذا هو ما يقصده

«إعلان الاستقلال العالمي» في جملته الشهيرة عن حقوقنا الطبيعية التي حبانا بها الله «في الحياة، والحرية والسعي وراء السعادة».

في جميع الأحوال، الطريقة الوحيدة التي يبدو بها من الجيد أن يكون لحياتك غاية هي أن تقبل هذه الغاية. يعتنق ريك وارين غاية تمجيد الله. وبالطبع، لا يعتنق الملحدون تلك الغاية، إلَّا أن حياتهم لا يزال ممكنًا أن تكون لها غاية إذا اختاروا غاية لأنفسهم.

لا تتوافر إحصائيات تقيس إلى أي مدًى يعتقد الملحدون أن لحياتهم معنًى أو غاية. بيد أنه واضح أن الملحدين عمومًا لا يعتقدون أن حياتهم بلا معنًى. فكِّر في بعضٍ من أشهر الملحدين: شارلز داروين، وماري كوري، وألبرت أينشتاين — قدم كلٌّ منهم إسهامات هائلة للعلوم. كأي شخصٍ قضى ساعات لا حصر لها في الكدِّ في الأبحاث يمكن أن يُشهَد، لا يمكن الاضطلاع بمثل هذا الجهد لمجرد العمل في حد ذاته. وإنما كان عملهم بلا شك من أجل خدمة إخوانهم من البشر. تكشف قوائم «مشاهير الملحدين» عن عدد هائل من العلماء والباحثين والفنانين والترفيهيين ورجال الأعمال. والمثير أن هذه القوائم تضم اثنين فقط من المجرمين المشهورين: جافريلو برينسيب، الرجل الذي اغتال الأرشيدوق النمساوي فرديناند، فأدى إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وجاريد لي لوفنر، الذي أطلق النيران على نائبة ولاية أريزونا، جابرييل جيفوردز، وقتل ستة أشخاص آخرين. أقرَّ لوفنر المُصاب باضطرابات انفصام الشخصية بجرمه، وهو يقضي الآن عقوبة السجن المؤبد. لنفترض أن أيًّا من هذين الشخصين سيئَي السمعة، المنحطَّين كأفعالهما، لم يَعتبر حياته بلا معنًى.

يرى بعض العلماء أن التركيز المفرِط على الغاية الإلهية، ولا سيما عندما يكون منصبًّا على الثواب المتوقع في الآخرة، يمكن أن يكون له تأثير ضار على الحياة الهادفة. يفترض أستاذ الفلسفة بجامعة نيويورك صامويل شيفلر في كتابه الحديث «الموت والحياة الآخرة» (٢٠١٣) أن علينا أن نستمد غايتنا في الحياة من الاعتراف بأن حياتنا محدودة، لكن الآخرين مستمرون في الحياة بعدنا. يعترف شيفلر بأن كثيرًا من الناس يزعمون أن الاعتقاد بالحياة الآخرة هو ما يجعل حيواتهم الأرضية ذات معنًى. لكنه يقترح العكس تمامًا. إذا أقررنا بأن موتنا نهائي، لكن عائلاتنا وأصدقاءنا سيواصلون العيش من بعدنا، مثلما ستواصل عائلاتهم وأصدقاؤهم العيش بعدهم، فسيمكننا أن نجد الغاية في العمل لضمان أن العالم الذي يرثونه هو عالم صحي.

المراجع

Scheffler, S. (2013) *Death and the Afterlife*, Oxford University Press, New York.

Warren, R. (2002) *The Purpose-Driven Life: What on Earth Am I Here for?* Zondervan, Grand Rapids, MI.

قراءات إضافية

Frankl, V., Winsslade, W. and Kushner, H. (2006) *Man's Search for Meaning*, Beacon Press, Boston.

(٤) الإلحاد هو مسألة إيمان مثلما هو الدين

> الإلحاد التزام ديني كامل كالمسيحية نفسها. هو يُمثل أحدث نسخة لتطاول الإنسان على الله، نتيجة السخط لأننا لا نحكم العالم في الواقع، وأن الله يدعونا لنسلم حيواتنا له. هو شكل من الوثنية نعبد فيه أنفسنا. (رئيس أساقفة سيدني بأستراليا، بيتر جنسن، في وعظة «الجمعة العظيمة»، ٢ أبريل ٢٠١٠)

في المناقشات التي تدور حول الإلحاد، يقول كثير من الناس إنه بينما قد يتعذر إثبات وجود الله؛ فإنه يتعذر أيضًا إثبات أن الله «لا» يوجد. يعكس الاقتباس المذكور أعلاه استنتاجًا شائعًا: أن أولئك الذين يؤمنون بالله هم على قدم المساواة مع أولئك الذين لا يؤمنون بالله. كلاهما يسلم بشيء لا دليل عليه، وهذا هو كُنه الإيمان.

ويمد بعض المؤمنين هذا النهج الاستدلالي ليزعموا أن الإيمان بالله هو في الواقع أفضل من الإلحاد؛ لأنه من السهل أن تجد دليلًا على وجود الله — انظر وحسب إلى التصميم الكامن في العالم الطبيعي — بينما يصعب إثبات عدم وجود شيء، ولا سيما إلهًا لا يُرى.

على سبيل المثال، في كتاب بعنوان «ليس لديَّ إيمان كافٍ لأكون ملحدًا»، يقول نورمان جيسلر وفرانك توريك (٢٠٠٤: ٣٢):

> استنتاجات من قبيل «وجود الله» وأن «الكتاب المقدس حقيقي» هي مؤكدة بما لا يدَع مجالًا للشك. ومِن ثَمَّ، يستلزم أن تكون غير مسيحي إيمانًا أكثر بكثير مما يستلزمه أن تكون مسيحيًّا.

على غلاف كتاب جيسلر وتوريك، يقول فيليب جونسون: «يقتضي الإلحاد قدرًا هائلًا من الإيمان الأعمى بينما يؤدي درب المنطق والعقل مباشرة إلى بشارة يسوع المسيح.» ويسوق موقع الويب «لت اس ريزون مينيستريسز» (على الإنترنت) الحجج ذاتها:

> إن الإلحاد هو نظام اعتقاد، مهما اجتهد بعض الناس في محاولة نفي ذلك. يستلزم اعتناق فكرة أن الله غير موجود إيمانًا (اعتقادًا) يساوي، أو حتى يفوق، ما قد يحتاجه المسيحي للإيمان بوجود الله. صنع الإلحاد نظام اعتقاد علمانيًّا (دينًا/فلسفة) لئلا يكون لديهم إله، وعادة ما ينصبُّ تركيزهم على الطبيعة. حلَّ خلق الله محل مَن صَنَعه. وعلى الملحد افتراض أن الكائنات الحية المتمتعة بالشخصية، الفريدة، المعقدة انبثقت من فوضى ليست بذات شخصية، وبلا نظام. كان على شيء أن يخرج من لا شيء. ليس لديهم تفسير زمني أو كيفي لأي بداية. وما من غاية فيما نراه ونطلق عليه خليقة. يفترض الإلحاد أن المحتمَل يُنشئ الفعلي. وتبرهن الحقيقة على أن شيئًا ما جعل المحتمَل ذاته واقعيًّا. لكل المحتمَلات ما يجعلها واقعية. لا تتخذ الخردة الملقاة في مكب النفاية شكل طائرة أو مبنًى من تلقاء ذاتها دون شيء قادر على تصميمها. لكل التصميمات مُصَمِّم، وأثبت الكون أنه مصمَّم ببراعة. حتى أدق الكائنات هي أكثر تعقيدًا من مركبة فضائية ... يتعين على المرء كي يكون ملحدًا أن يكون عليمًا، يعرف كل شيء، لديه معرفة متقنة بالكون، كي يصرح بأنه يعلم يقينًا بأن الله غير موجود. وسيتعين على المرء كي يفعل ذلك أن يكون فتَّش شخصيًّا كل بقاع العالم المعروف حاليًّا وفي كل الأوقات، مستكشفًا في كل مكان العناصر المرئية وغير المرئية للمادة، أو الأشياء غير المنظورة.

مشكلة هذا الرأي أنه يخلط ما بين اللاجزم والجزم. بعض الملحدين يجعلون لَاعتقادهم جزمًا، كقول: «أومن (أو أعرف) أنه لا يوجد إله.» لكن معظم الملحدين لا يجعلون من

اللاعتقاد جزمًا. كل ما هنالك أنهم لا يؤمنون بالله. هذا شيء سلبي، وليس إيجابيًّا، وهذا هو كل ما يحتاجه المرء ليكون ملحدًا.

الفرق ما بين الادعاء بإيجابيةٍ أن الله لا يوجد، وعدم ادعاء الاعتقاد بالله مصوَّر بطريقة شائقة في رواية كارل ساجان (١٩٨٥: ١٦٨) «اتصال» حيث تقول الدكتورة إيلي أرُوِاي:

> السؤال [هل تؤمن بالله؟] غريب البنية. فإن أجبتُ بالنفي، فهل أقصد أنني مقتنع بأن الله غير موجود، أم أقصد أنني لست مقتنعًا بأنه موجود؟ هذان سؤالان مختلفان تمامًا.

تخيَّل قبيلة تعيش على إحدى جزر المحيط الهادي لم يتناهَ إلى مسامعها قطُّ أي آلهة، ومنها الله المذكور في الكتاب المقدس. هم لن يؤمنوا بآلهة أو بالله، لأن التفكير في الآلهة لا يرد حتى على ذهنهم. ومِن ثَمَّ لا يمكن أبدًا أن يقول الواحد منهم: «أومن بعدم وجود الله.» لكنهم سيُعتبرون ملحدين.

بالطبع سمع معظم البالغين في ثقافتنا عن الله وعن آلهة أخرى. ويؤمن ملايين الناس بالله الوارد في الكتب المقدسة، ويؤمن أكثر من مليار شخص بآلهة مثل شيفا وفيشنو، وبالإلهات، وبإله الويكَّا ذي القرنين، إلى آخره. لكن كثيرين لا يؤمنون بأي آلهة. وجد أحد استطلاعات الرأي أجرته «بي بي سي نيوز» (٢٠٠٤) أن نسبة الأفراد في المملكة المتحدة «الذين لا يؤمنون بالله» كانت ٣٩ في المائة. كي يكون الأشخاص ملحدين، لا يتعين عليهم أن يتخذوا موقفًا ويقيموا جزمًا إيجابيًّا. كل ما عليهم هو أن يفتقروا إلى الاعتقاد بالله. تربى بعض هؤلاء في كنف والدين غير متدينين، وعندما تعلموا في المدرسة عن الله الوارد في الكتاب المقدس، وآلهة الهند وغيرهم، لم يحفزهم شيء على الإيمان بأن أيًّا من هؤلاء الآلهة حقيقي. مثل هذا الافتقار للاعتقاد لا يشترط الإيمان، لأن الإيمان هو اعتقاد شيءٍ ما، والافتقار للاعتقاد ليس اعتقادًا بأي شيء.

هكذا لا يتعيَّن على الملحدين قول: ««أعلم» أنه لا توجد آلهة.» أو حتى ««أعتقد» أنه لا توجد آلهة.» كل ما يحتاجه الأمر هو شيء سلبي — ألا يؤمنوا بوجود آلهة أو «الله» الواحد. هذا الافتقار للاعتقاد شيء نُكنُّه كلنا للملايين الآلهة حرفيًّا. لقد ظهر على مرِّ التاريخ عشرات الآلاف من الأديان. تحصي «الموسوعة المسيحية العالمية» عشرة آلاف دين في العالم اليوم. تحوي ديانة واحدة منها — الهندوسية — ٣٣٠ مليون إله، كل الناس،

عدا الهندوس، ملحدون بها. في استخدام مبكر للفظة «ملحد»، عوقب مسيحيو القرن الثاني مثل بوليكاربوس من قِبل السلطات الرومانية لكونهم «ملحدين» لأنهم لم يؤمنوا بجوبيتر وجونو ومارس وغيرهم من آلهة الدولة. واليوم العالم بأكمله ملحد بآلهة روما.

لم يعُد أي أحد مؤمنًا بإله الميثولوجيا النوردية «ثور» أيضًا. كلنا «ملحدون بثور». لكن كم منا شعر من قبلُ قطُّ بأنه مضطر إلى تأكيد — فضلًا عن إثبات — أن ثور لا يوجد؟ من وجهة نظر شخص ملحد، قد يشبه انعدام الإيمان بوجود الله انعدام الإيمان الذي نتقاسمه جميعًا بوجود ثور — ليس هذا نوعًا من الإيمان، وإنما هو انعدام إيمان.

المراجع

BBC News (2004) *UK Among Most Secular Nations*, 26 February.

Anthony Fisher, A. (2010) *Atheists hit back at clergy criticism of non-belief*, April, 2. http://www.smh.com.au/national/atheists-hit-back-at-clergy-criticism-of-nonbelief-20100402-rjmr.html#ixzz2qCxgfxTh (accessed January 12, 2014).

Geisler, N. and Turek, F. (2004) *I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist*, Crossway, Wheaton, IL.

Let Us Reason Ministries (online) *There are No Atheists*, www.letusreason.org/Apolo7.htm (accessed January 9, 2014).

Sagan, C. (1985) *Contact*, Pocket Books, New York.

خرافات إضافية

(١) يقول الكتاب المقدس: «النظافة من الإيمان»، و«طرق عمل الله خفية»، و«اكره الخطيئة، وأَحبَّ الخاطئ»، و«يساعد الله من يساعدون أنفسهم»، و«المال أصل كل الشرور»، و«أدبوا أولادكم بقضيب من حديد»، و«كن صادقًا مع نفسك»، و«ستزول هذه أيضًا»، و«المعصية من شيم البشر، والغفران من شيم الله»، و«الأيدي العاطلة مشغل الشيطان.»

(٢) يحرم الكتاب المقدس أكل لحم الخنزير لأنه يسبب المرض.

(٣) الأبوكاليبس هو نهاية العالم التي تنبأ بها الكتاب المقدس.

(٤) يعذب الشيطان وأجناده الناس في الجحيم.

(٥) الكروبيم ملائكة حِسان كالأطفال.

(٦) عانى المسيحيون الاضطهاد المُمنهج على أيدي الرومان.

(٧) كانت هناك بابا أنثى تُدعى جون.

(٨) طرد القديس باتريك الثعابين من أيرلندا.

(١) يقول الكتاب المقدس: «النظافة من الإيمان»، و«طرق عمل الله خفية»، و«اكره الخطيئة، وأَحِبَّ الخاطئ»، و«يساعد الله من يساعدون أنفسهم»، و«المال أصل كل الشرور»، و«أدبوا أولادكم بقضيب من حديد»، و«كن صادقًا مع نفسك»، و«ستزول هذه أيضًا»، و«المعصية من شيم البشر، والغفران من شيم الله»، و«الأيدي العاطلة مشغل الشيطان.»

ثمة كثير من الأقوال المأثورة التي تبدو كتابية (أي واردة في الكتاب المقدس). وحالما يتكرر ذكرها كثيرًا على مسامع الناس، ولا سيما من قِبل مَن هم في السلطة، يسود الاعتقاد بأنها من الكتاب المقدس.

«النظافة من الإيمان.»

ورد أول ذكر لقول مشابه لهذه العبارة في اللغة الإنجليزية على لسان فرانسيس بيكون (١٥٦١–١٦٢٦) في عمله «إتقان المعرفة وتقدُّمها»: «لطالما كانت نظافة الجسد تُعَد من الخشوع لله» (بيكون، ٢٠٠١). ولا بد أن التعبير شاع في زمن جون ويسلي (١٧٠٣–١٧٩١)، أحد مؤسسي الحركة الميثودية، لأن ويسلي وضعه بين علامتي اقتباس: «ليست الرثاثة من الدين. «فالنظافة حقًّا من الإيمان»» (أوتلر، ١٩٨٦).

إذا فتَّشنا الكتاب المقدس بحثًا عن قول مشابه، فسنجد في سفر المزامير (١٩: ٩) في نسخة الملك جيمس الجديدة: «مخافة الرب نظيفة، ثابتة إلى الأبد.» الكلمة العبرية المترجمة هنا إلى «نظيفة» هي «طَهور» التي تعني غير دنس من حيث الطقوس والأخلاق.

«طرق عمل الله خفية.»

ورد هذا القول في ترنيمة من تأليف ويليام كوبر (١٧٣٤–١٨٠٠)، بعنوان «الله يتحرك بطريقة خفية». يقول المقطع الأول:

الله يتحرك بطريقة خفية،
يصنع العجائب؛
ويطأ البحار،
ويمتطي الرياح.

وفقًا للأسطورة، كانت هذه آخر ترنيمة كتبها كوبر، وقد اهتدى إلى كتابتها في أعقاب محاولته الانتحار؛ ففي إحدى الليالي، فيما كان مصابًا بنوبة اكتئاب، قرر كوبر أن يتخلص من حياته غرقًا في نهر التيمز. استدعى سيارة أجرة، وطلب من السائق أن يُقله إلى النهر، لكن الضباب الكثيف عسَّر سيرهما في شوارع لندن. ظل السائق يجوب الشوارع تائهًا ومحبطًا لوقت طويل إلى أن استسلم أخيرًا وتوقف لإنزال كوبر من السيارة. ودون أن يدري كلاهما، وجدا أنهما قد عادا إلى منزل كوبر. فكَّر كوبر في نفسه أن الضباب الكثيف كان طريقة الله الخفية لإنقاذ حياته.

«اكره الخطيئة، وأحِبَّ الخاطئ.»

يبدو هذا الشعار المتسامح وكأنه من أقوال يسوع أو بولس الرسول، ويتردد من حين إلى حين في العِظات المسيحية، لكنه في حقيقة الأمر ورد بعد زمن المسيح وبولس بتسعة عشر قرنًا. كتب موهانداس غاندي في سيرته الذاتية عام ١٩٢٩: «أَحِبَّ الخاطئ، لكن اكره الخطيئة.» وثمة قول مشابه لهذا الشعار كتبه القديس أوغسطينوس أسقف هيبو أيضًا؛ إذ يستخدم في رسالته رقم ٢١١ عبارة «مع خالص حبي للإنسان وكرهي للخطايا.»

«يساعد الله من يساعدون أنفسهم.»

هذا القول قديم لكنه لم يرد في الكتاب المقدس. وحقيقة الأمر أنه يتنافى مع الفكرة الكتابية التي مفادها أن الله يتدخل في العالم ليفعل من أجل الناس ما يعجزون عن فعله لأنفسهم. من المرات الأولى لظهور هذا القول ما جاء في خرافة إيسوب «هرقل وسائق العربة»، التي ورد فيها أيضًا تعبير Put your shoulder to the wheel بمعنى كدَّ في العمل:

> ذات مرة كان سائق عربة ينقل حمولة ثقيلة عبر طريق موحولة بشدة. وحدث أن غاصت عجلات العربة في منتصف الطريق، وكلما حاولت الأحصنة جرَّ العربة، كانت تغوص أكثر في الوحل. خر سائق العربة على ركبتيه وصلى لهرقل القوي قائلًا: «أيا هرقل، أغثني في محنتي.» إلا أن هرقل ظهر، وقال له: «لا تنبطح هكذا يا رجل، انهض وكدَّ في العمل. تساعد الآلهة من يساعدون أنفسهم.» (جاكوبز، غير مؤرخ)

بعدها بأكثر من ألفَي عام، في ١٧٣٦، ظهر القول باستخدام اللفظة المفردة «الله» في صحيفة بن فرانكلين السنوية «بور ريتشارد ألماناك». توافقت هذه الفكرة مع أفكار فرانكلين؛ لأنه كان ربوبيًّا وليس مسيحيًّا؛ فالربوبيون يؤمنون بأن الله خلق العالم والقوانين العلمية التي يعمل بها، لكنه بعدئذٍ تركه يعمل بذاته وفق هذه القوانين. ولأن الله لا يتدخل في العالم، بحسب فكر فرانكلين؛ فإن الصلوات المرفوعة إلى الله من أجل أن يمد يد الغوث عديمة الجدوى. وفي أوقات الصعاب، على الناس أن يُعوِّلوا على مهاراتهم وقدرتهم على الابتكار.

«المال أصل لكل الشرور.»

الأرجح أن هذا القول هو نسخة مُبالغ فيها من قولٍ ورد في الكتاب المقدس. يقول بولس في رسالته الأولى إلى تيموثاوس (٦: ١٠): «لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَالِ أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُورِ، الَّذِي إِذِ ابْتَغَاهُ قَوْمٌ ضَلُّوا عَنِ الإِيمَانِ، وَطَعَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَوْجَاعٍ كَثِيرَةٍ» (نسخة الملك جيمس). يشمل هذا بعض أنواع الشرور التي ليس سببها حب المال. لكن تتفق جميع الترجمات على أن المشكلة تكمن في «حب» المال، وليست في المال نفسه.

«أدبوا أولادكم بقضيب من حديد.»

كثيرًا ما يستشهد الأشخاص الذين يؤمنون بأهمية العقاب البدني للأطفال بهذا القول باعتباره من الكتاب المقدس. ومع أن هذا القول لم يرد في الكتاب المقدس؛ فإنه يشبه أربع فقرات وردت في سفر الأمثال:

مَنْ يَمْنَعُ عَصَاهُ يَمْقُتُ ابْنَهُ وَمَنْ أَحَبَّهُ يَطْلُبُ لَهُ التَّأْدِيبَ. (سفر الأمثال ١٣: ٢٤)

الْجَهَالَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِقَلْبِ الْوَلَدِ. عَصَا التَّأْدِيبِ تُبْعِدُهَا عَنْهُ. (سفر الأمثال ٢٢: ١٥)

لَا تَمْنَعِ التَّأْدِيبَ عَنِ الْوَلَدِ لأَنَّكَ إِنْ ضَرَبْتَهُ بِعَصًا لَا يَمُوتُ. تَضْرِبُهُ أَنْتَ بِعَصًا فَتُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَاوِيَةِ. (سفر الأمثال ٢٣: ١٣-١٤)

الْعَصَا وَالتَّوْبِيخُ يُعْطِيَانِ حِكْمَةً وَالصَّبِيُّ الْمُطْلَقُ إِلَى هَوَاهُ يُخْجِلُ أُمَّهُ. (سفر الأمثال ٢٩: ١٥)

وعليه، مع أن هذا القول غير مذكور مباشرة في الكتاب المقدس؛ فإن فكرة حاجة الأطفال إلى التأديب البدني موجودة فيه.

«كن صادقًا مع نفسك.»

إن النصح بالصدق مع النفس وتجنُّب الانغماس في خداع النفس هو نصح سليم أخلاقيًّا، ويتفق مع قيم الكتاب المقدس. علاوة على أن التقديم والتأخير في عبارة «نفسك فاصدقها» واستخدام كلمة thine (بمعنى نفسك) يجعلانه يبدو مثل اللغة الإنجليزية التي كانت سائدة منذ أربعة قرون، وهي اللغة التي كُتبت بها نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس. ذلك لأن هذا البيت ألفه ويليام شكسبير قريبًا من زمن كتابة نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس. وجاء في مسرحيته التراجيدية «هاملت»، في المشهد الثالث من الفصل الأول، حيث يقول بولونيوس ناصحًا ابنه لايرتس:

فوق كل شيء: نفسك فاصدقها،
احفظ هذا بحذافيره، كتعاقب الليل والنهار،
إن فعلت، فستكون صادقًا مع الجميع.

يقول بولونيوس قبل هذه الأبيات مباشرة بيتًا آخر أحيانًا ما يُظن أنه من الكتاب المقدس: «مدينًا أو دائنًا لا تكن.»

«ستزول هذه أيضًا.»

مهما يكن سوء تجربة، فإنها حتمًا ستنتهي، ومهما تكن جودة تجربة، فهذه أيضًا ستنتهي. في الشرق الأوسط أمثال شبيهة بمَثل «ستزول هذه أيضًا» في اللغات العبرية والفارسية والعربية والتركية. ينسبها البعض إلى شعراء الصوفية الفارسيين في العصور الوسطى. ويحفل الفولكلور اليهودي بقصص فيها يقول الملك سليمان الحكيم المَثَل. بل وهناك أيضًا قصة خرافية جاء فيها أن المثل منقوش على خاتم. ولأن من يرتدي هذا الخاتم يدرك أن كل شيء زائل، يصير التعساء سعداء، ولكن السعداء يصيرون تعساء بدورهم. انتشرت هذه القصة الخرافية والمَثَل في القرن التاسع عشر حينما استهوت الغربيين الأشياء القادمة من بلاد فارس والشرق. ظهرت نسخة أولية من المَثل في اللغة الإنجليزية في قصيدة ظهرت في القرن العاشر بعنوان «ديور»، وفيها ينتحب البطل ديور لفقدانه وظيفته شاعرًا للبلاط. يقارن ديور المحن التي يمر بها بتلك التي اجتازها كثير من أبطال

الفولكلور الإنجليزي القديم، حيث يختتم كل مقارنة بالبيت «زالت تلك، وستزول هذه أيضًا.»

«المعصية من شيم البشر، والغفران من شيم الله.»

في إنجيل متَّى، حينما يسأل بطرس يسوع هل ينبغي عليه أن يغفر لأخيه سبع مرات، يجيبه يسوع «بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّاتٍ» (متَّى ١٨: ٢٢). وفي الصلاة الربانية التي ألفها يسوع، يطلب من الله أن «يغْفِر لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا» (متَّى ٦: ٩–١٣، لوقا ١١: ٢–٤). وبالنظر إلى التركيز على الغفران في العهد الجديد، فمن الواضح أن الناس قد يظنون أن مقولة «المعصية من شيم البشر، والغفران من شيم الله» تأتي من شيء يشبه «الموعظة على الجبل» لكنها ليست كذلك، وإنما كتبها بعد يسوع بسبعة عشر قرنًا الشاعر والفنان البريطاني ألكسندر بوب (١٦٨٨–١٧٤٤)، في مقاله «أطروحة في النقد». يحتوي هذا المقال أيضًا على بيت شهير يساعدنا في تفسير كيف نُسِب بعض هذه الأقوال إلى الكتاب المقدس: «التعليم القليل أمر خطِر.»

«الأيدي العاطلة مشغل الشيطان.»

هذا المثل شهير في البلدان الأمريكية المتحدثة بالإنجليزية منذ أن جلب البيوريتانيون أخلاق العمل البروتستانتية إلى سواحل نيو إنجلاند. لطالما اعتبر المسيحيون الأمريكيون العمل الشاق فضيلة على قدم المساواة مع الإيمان والرجاء والإحسان. من هذا المنظور تعتبر البطالة واللعب — التوقف عن العمل — خطِرَين، إن لم يكونا من الرذائل. يعرض كتاب قواعد الإقامة في إحدى المدارس الداخلية الميثودية بولاية كونيتيكت هذا التوجُّه:

> يتعين على التلميذ الاستيقاظ في تمام الخامسة صباحًا صيفًا وشتاءً، مع دقات الناقوس ... سيكون التلميذ منغمسًا في لا شيء وهو ما يصفه العالم باللعب. فلتُرَاعَ هذه القاعدة بلا هوادة، لأن أولئك الذين يلعبون وهم صغار سيلعبون وهم كبار. («القيود المفروضة على الطلاب ١٧٩٦»؛ صحيفة «نورثويسترن كريستيان أدفوكيت»، ١٩١٦)

قبل كتابة هذه القاعدة بعقود، أدمج القس الإنجليزي، كاتب الترانيم، آيزاك واتس هذا البيت في واحدة من الترانيم التي يؤلفها للأطفال («التراتيل المقدسة للأطفال»، ١٧١٥): «حينما أنهمك في عمل أو حرفة أكون مشغولًا للغاية. وحينما أكون بلا عمل يوجِد لي الشيطان أعمالًا شريرة لأزاولها.» ظهرت نسخ متنوعة لهذا القول مثل «الأدمغة البطالة مَعامل الشيطان» في القرن الثامن عشر، وبيت في مسرحية «رجل الموسيقى» لميريديث ويلسون في القرن العشرين يقول: «يا أصدقائي، الدماغ البطال ملعب للشيطان.»

على الرغم من شعبية القول؛ فإنه لم يَرِد في الكتاب المقدس بأي شكل من الأشكال. والواقع أن كل تبجيل العمل الشاق ليس كتابيًّا بالمرة. لم يرد في الأناجيل الأربعة على الإطلاق أي ذكر لمزاولة يسوع عمل اليوم، في العهد القديم قواعد صارمة ضد العمل في يوم السبت، وهي قواعد ما زالت باقية حتى اليوم في اليهودية. يقول سفر الخروج (٣١: ١٥) «كُلُّ مَنْ صَنَعَ عَمَلًا فِي يَوْمِ السَّبْتِ يُقْتَلُ قَتْلا.»

ماذا تكشف لنا هذه الأمثلة عن السهولة التي ننسب بها الأقوال المأثورة إلى الكتاب المقدس؟

المراجع

Bacon, F. (2001) *The Proficience and Advancement of Learning*, ed. Stephen Jay Gould, Book 2 X, Random House, New York. p. 11.

Franklin, B. (1736) *Poor Richard's Almanac*, New Printing Office, Philadelphia.

Gandhi, M. (1929/2009) *An Autobiography: The Story of My Experiments with Truth*. The Floating Press, Auckland, New Zealand, p. 439.

Jacobs, J. (Undated) The Fables of Aesop, Selected, Told Anew, and Their History Traced. The Edward Publishing Co., New York, http://archive.org/stream/fablesaeso00aesouoft/fablesaeso00aesouoft_djvu.txt (accessed January 10, 2014).

Leinenweber, J. (1992) *Letters of St. Augustine*, ed. John Leinenweber. Baker Books, Ada, MI, Letter 211.

Northwestern Christian Advocate (1916) Volume 64. Available at: http://books.google.co.uk (accessed January 10, 2014).

Pope, A. (2008) *Essay on Criticism*, Forgotten Books, London, Part II, line 15.

Outler, A.C. (1986) Sermons 88 and 98, in *The Works of John Wesley*, III: Sermons iii ed. Albert C. Outler, Abingdon, Nashville TN, pp. 249, 392.

قراءات إضافية

Lang, S, (2003) *What the Good Book Didn't Say: Popular Myths and Misconceptions about the Bible*, Kensington, New York.

Watts, I. (1866) *Divine and Moral Songs for Children*. Hurd & Houghton, New York, Song 20, p. 65.

(٢) يحرِّم الكتاب المقدس أكل لحم الخنزير لأنه يسبب المرض

> يعرف الله ما هو الأفضل لنا، وفي زمن الكتاب المقدس كان الخنزير يُعتبر نجسًا ... أحد الأسباب الرئيسة لهذا هو أن الخنزير يأكل أي شيء؛ فالخنزير يأكل القمامة والنفاية ... الخنزير يأكل ابنه الميت! الخنزير يأكل الحيوانات الأخرى المريضة والمصابة. الخنازير زبَّالة. (جويل أوستين، راعي كنيسة ليك وود، بمدينة هيوستن ولاية تكساس. (أوستين، على الإنترنت))

يحتوي الكتاب المقدس العبري (العهد القديم المسيحي) على مئات من القواعد التي تحكم الحياة اليومية. من أشهرها تلك القواعد المتعلقة بالحيوانات «الطاهرة» و«النجسة» في سفرَي اللاويِّين والعدد. الحيوانات «الطاهرة»، كالبقر والغنم، مقبولة طعامًا. لكن الأنواع «النجسة» مثل الخنزير والكركند «رجسة» ولا يجوز تناولها البتة. ويطلق عليها «تريفا»، بمعنى أنها لم تُذبح وفقًا للشريعة، وهي محرَّمة بصفة عامة.

يقع القس أوستين، صاحب التعليق المذكور أعلاه على هذه التحريمات الكتابية لتناول أنواع معينة من الطعام، في الخطأ الشائع المتمثل بتقديم سبب منطقي حديث لوصية قديمة. فيشرح أن كلمة «نجس» تعني أنه «يعيش في القاذورات والقمامة»، وأن الله حرم تناول الحيوانات «النجسة» لأنها ستصيبنا بالأمراض. ويقول أوستين إن

الحيوانات «الطاهرة» مثل الماشية والغنم، على الطرف النقيض، لا تقتات على بقايا الطعام، وإنما تأكل الحشائش الطازجة. ثم يسأل الجمع ومشاهدي التليفزيون، «هل تؤثر أن تتناول لحم حيوان يتغذَّى على القمامة والقاذورات، أم حيوان يتغذى على الحشائش الطازجة والنظيفة؟» يقدِّم أوستين التعليل نفسه لوصف الله الكائنات البحرية مثل الكركند والجمبري بأنها «نجسة»، فيقول عنها إنها تعيش في أعماق المحيط حيث تتناول فضلات الكائنات الأخرى.

في الوقت الحالي، نربط الطعام غير النظيف بالجراثيم التي تسبب الأمراض، لكن الجراثيم لم تُكتشف حتى القرن السابع عشر، ولم يتضح ارتباطها بالأمراض إلا في القرن التاسع عشر. وحتى لو لم يكن كُتَّاب الكتاب المقدس على دراية بالجراثيم، فهل ظنوا أن الحيوانات «النجسة» هي الحيوانات التي تسبب الأمراض، من خلال حملها للطفيليات؟ لم يكن القس أوستين أول من يفترض هذا. تذكر عالمة الإنسانيات ماري دوجلاس (٢٠٠٢) مفسرًا مبكرًا لهذا الموقف. كتب إس إتش كيلوج في عمله الصادر عام ١٨٤١، «الكتاب المقدس للمفسِّر» (لندن):

> من المحتمل أن المبدأ الرئيس المحدِّد لنواميس هذا السِّفر [اللاويين] يقع في نطاق الصحة العامة والصحة الوقائية ... إن فكرة الأمراض الطفيلية والمعدية التي احتلت مكانة كبيرة في علم الأمراض الحديث، يبدو أنها استحوذت بشدة على فكر موسى وهيمنت على كل شرائعه الخاصة بالصحة العامة. (دوجلاس، ٢٠٠٢: ٣١)

بقدر ما تبدو نظرية الصحة الوقائية لشرائع الطعام الكتابية منطقية، تشير دوجلاس إلى أنها تنطوي على مغالطة تاريخية، وأنه يوجد في الواقع تفسير آخر معقول تمامًا في السياق الكتابي. أعلن سِفرا اللاويين والتثنية أن بعض الحيوانات «نجسة» و«رجسة» لأنها لا تُلبي المعايير الراسخة كتابيًّا للحيوانات من نوعها. تُصنَّف الحيوانات في هذين السفرين، كما في سفر التكوين أيضًا، إلى ثلاث مجموعات: حيوانات تعيش على اليابسة، وحيوانات تعيش في المياه، وحيوانات تحلق في الهواء.

أما حيوانات اليابسة، فثَمَّ معياران لقبولها: لا بد أن يكون لديها ظلف مشقوق، ولا بد أن تكون «مجترَّة» — تجترُّ طعامها لتمضغه مرة أخرى.

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «قُولا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: هَذِهِ هِيَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ: كُلُّ مَا شَقَّ ظِلْفًا وَقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ وَيَجْتَرُّ مِنَ الْبَهَائِمِ فَإِيَّاهُ تَأْكُلُونَ. إِلَّا هَذِهِ فَلا تَأْكُلُوهَا مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الْجَمَلَ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لَكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. وَالْوَبْرَ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لَكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفًا فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. وَالأَرْنَبَ لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لَكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفًا فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. وَالْخِنْزِيرَ لأَنَّهُ يَشُقُّ ظِلْفًا وَيَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ لَكِنَّهُ لا يَجْتَرُّ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ.» (سفر اللاويين ١١: ١–٧. وانظر سفر التثنية ١٤: ٣–٨)

وثمة قواعد مختلفة للحيوانات التي تعيش في الماء؛ فلكي تكون مقبولة فلا بد أن يكون لها زعانف وحراشف.

وَهَذَا تَأْكُلُونَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الْمِيَاهِ: كُلُّ مَا لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْمِيَاهِ فِي الْبِحَارِ وَفِي الأَنْهَارِ فَإِيَّاهُ تَأْكُلُونَ. لَكِنْ كُلُّ مَا لَيْسَ لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْبِحَارِ وَفِي الأَنْهَارِ مِنْ كُلِّ دَبِيبٍ فِي الْمِيَاهِ وَمِنْ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي الْمِيَاهِ فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ. (سفر اللاويين ١١: ٩–١٠. وانظر سفر التثنية ١٤: ٩–١٠)

وعليه، فالسَّلمون والتونة والأسماك الأخرى هي طعام مقبول، غير أن الجمبري والكركند والمحار، والكائنات البحرية الأخرى عديمة الزعانف والحراشف غير مقبولة.

إذًا، ما يَصِم بعض الأطعمة بأنها «نجسة» في الكتاب المقدس، ليس أنها تسبب الأمراض، وإنما أنها تنقصها بعض الخصائص التي تُعَد ضرورية لكونها حيوانات تعيش على اليابسة أو حيوانات تعيش في البحر؛ فقد صُنفت الخنازير بأنها «نجسة» للسبب نفسه الذي صُنفت لأجله الجِمال والأرانب بأنها «نجسة»: أنها ينطبق عليها أحد المعيارَين الكتابيَّين وليس كلاهما بشأن حيوانات اليابسة. وما يجعل سرطانات البحر تُصنَّف على أنها «نجسة» هو أنها تفتقر إلى صفتين ضروريتين من صفات الكائنات البحرية — ألا وهي الزعانف والحراشف.

لماذا يستخدم كُتَّاب الكتاب المقدس لفظة «نجسة» هكذا؟ توضح دوجلاس أنه عندما أعلن الله أن بعض الأنواع مقبولة طعامًا والبعض الآخر غير مقبول؛ فإنه يقول مكررًا: «فَتَكُونُونَ قِدِّيسِينَ لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ» (على سبيل المثال في سفر اللاويين ١١: ٤٥، ١٩: ١–٢).

> وبالنظر إلى أن كلًّا من الأوامر تُستهل بالأمر بالقداسة؛ فإنه لا بد من تفسيرها في ضوء هذا الأمر. لا بد أن يكون هناك تعارضٌ ما بين القداسة والرجاسة وهو ما يقدم مغزًى شاملًا لكل القيود المُفصلة. (دوجلاس، ٢٠٠٢: ٥١–٥٢)

ما القداسة وكيف يمكن تطبيقها على الحيوانات؟ تقول دوجلاس إن جذر لفظة «مقدس» هو «مفصول»؛ فالمقدس مميز ومفصول عن باقي الأشياء. ولكي يمكن فصل الشيء، فلا بد من أن يكون مكتملًا وصحيحًا: لا بد من أن يتمتع بكل الخصائص التي تميِّز نوعه. الله قدوس على نحوٍ مطلقٍ — لكونه كاملًا ومميزًا تمامًا من كل شيء آخر. قطعًا، لا يوجد مخلوق كامل ومميز تمامًا من سائر المخلوقات، لكن يمكن للمخلوقات أن تصير مقدسة بتمتعها بكل الصفات التي من المفترض أن تميز الأشياء من نوعها، وخلوها من الصفات التي تخص أنواعًا أخرى من المخلوقات.

نرى فكرة القداسة والكمال في سفر اللاويين، حيث يأمر الله بأن كل حيوان يُقدَّم تقرُّبًا إلى الله، وكل كاهن يتولى تقديم القربان، لا بد وأن يكونا كاملين لا تشوبهما شائبة.

> إِذَا كَانَ رَجُلٌ مِنْ نَسْلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ فِيهِ عَيْبٌ فَلا يَتَقَدَّمْ لِيُقَرِّبَ خُبْزَ إِلَهِهِ. لأَنَّ كُلَّ رَجُلٍ فِيهِ عَيْبٌ لا يَتَقَدَّم. لا رَجُلٌ أَعْمَى وَلا أَعْرَجُ وَلا أَفْطَسُ وَلا زَوَائِدِيٌّ وَلا رَجُلٌ فِيهِ كَسْرُ رِجْلٍ أَوْ كَسْرُ يَدٍ وَلا أَحْدَبُ وَلا أَكْثَمُ وَلا مَنْ فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ وَلا أَجْرَبُ وَلا أَكْلَفُ وَلا مَرْضُوضُ الْخُصَى. (سفر اللاويين ٢١: ١٧–٢٠)

أي شيء يجعل أحد المخلوقات أقل من نموذج كامل من نوعه، يجعله، بعبارة أخرى، أقل من المكتمل، ومِن ثَمَّ غير مقدس.

ومن الطرق الأخرى التي تجعل الأشياء غير مميزة التوليف بين أنواع مختلفة من الأشياء. فالخلائط غير نقية ومِن ثَمَّ غير مقدسة. وعليه يقول سفر اللاويين (٩: ١٩): «لا تُنَزِّ بَهَائِمَكَ جِنْسَيْنِ وَحَقْلَكَ لا تَزْرَعْ صِنْفَيْنِ، وَلا يَكُنْ عَلَيْكَ ثَوْبٌ مُصَنَّفٌ مِنْ صِنْفَيْنِ.» وحتى اليوم، في اليهودية الأرثوذكسية، هناك رجال وظيفتهم فرز الأثواب لضبط «الشاتنز» المُحرمة؛ أي خليط الألياف من قبيل الكتان والصوف.

كيف يمكن تطبيق كل هذا التشديد على التميز والكمال في الحيوانات التي يمكن تناولها وتلك التي لا يمكن تناولها؟ أولًا؛ إذا كان البشر يثابرون من أجل بلوغ القداسة،

فلا بدَّ إذًا من أن يكون الطعام الذي يتناولونه مقدسًا. خليق بهم ألا يتناولوا إلا الأطعمة الكاملة، بمعنى الأطعمة التي يُضرب بها المثل في الكمال من نوعها. كان الإسرائيليون رعاة في المقام الأول، مِن ثَمَّ، كانت نماذج حيوانات اليابسة من وجهة نظرهم هي الحيوانات التي كانوا يرعونها: من غنم وماعز وماشية. وما كان يميز هذه الأنواع من الكائنات الأخرى هو أنها كانت مشقوقة الظلف ومجترة. ومِن ثَمَّ صنف كُتَّاب الكتاب المقدس حيوانات اليابسة التي لديها هاتان الصفتان على أنها كاملة وصحيحة، ومِن ثَمَّ فهي مقدسة وطاهرة. أما الحيوانات التي افتقرت لكلتا الصفتين، مثل الخنازير، فكانت نجسة. وفي تصنيف كُتَّاب الكتاب المقدس للحيوانات المائية أيضًا، اتخذوا الحيوانات التي يعرفونها بقدر أكبر نماذج لهم، ألا وهي الأسماك. والسمة المميزة للأسماك عن سائر الكائنات البحرية هي الزعانف والحراشف. ومِن ثَمَّ، فهاتان هما الصفتان الأساسيتان المميزتان لكائنات مائية كاملة. لا يملك المحار زعانف ولا حراشف، ومِن ثَمَّ فهو حيوان بحري ناقص. وبحسب هذه المعايير يكون الكركند أكثر إزعاجًا، بالنظر إلى أنه لا يفتقر إلى كلتا الصفتين فحسب، ولكن لأنه أيضًا يتحرك بطريقة أشبه بحركة حيوانات اليابسة، أي المشي. وعليه، لا يكون الكركند ناقصًا فقط، ولكن تتداخل صفاته مع صفات حيوانات اليابسة. ومن ثم يزيد على الخنازير في كونه غير مميز، ولا يمتلك صفات قائمة بذاتها قابلة للفصل عن بقية الأنواع، ومِن ثَمَّ فهو نجس.

هكذا تخلُص دوجلاس إلى أن قواعد الكتاب المقدس لتحريم تناول لحم الخنازير والمحار لا تتعلق بتجنب الأمراض، بل تجنُّب النجاسة، تمامًا مثلما يقول الكتاب المقدس.

المراجع

Douglas, M. (2002) *Purity and Danger: An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo*, Taylor and Francis, London.

Osteen, J. (online) *Joel Osteen Teaches Christians Clean Unclean Foods! No Pork*, YouTube Video uploaded February 27, 2012, www.youtube.com/watch?v=7dYheb6OwVQ (accessed January 10, 2014).

(٣) الأبوكاليبس هو نهاية العالم التي تنبأ بها الكتاب المقدس

فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَخْضَرُ، وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ اسْمُهُ الْمَوْتُ، وَالْهَاوِيَةُ تَتْبَعُهُ، وَأُعْطِيَا سُلْطَانًا عَلَى رُبْعِ الأَرْضِ أَنْ يَقْتُلَا بِالسَّيْفِ وَالْجُوعِ وَالْمَوْتِ وَبِوُحُوشِ الأَرْضِ.
(وصف الفارس الرابع في سفر الرؤيا ٦: ٨، نسخة الملك جيمس الجديدة)

الاعتقاد بالنهاية القادمة للعالم كما نعرفها مشترك بين الأديان التوحيدية (الزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام والبهائية)، وكلها تقول إن نهاية العالم سوف تميزها أمارات معينة. على سبيل المثال، يخبرنا سفر دانيال من الكتاب المقدس العبري بمجيء أربعة وحوش عظيمة، سيكون آخرها بشعًا حقًّا؛ إذ سيكون له عشرة قرون، وسيسحق الأرض كلها برجليه ثم يأكلها. لكن يجب ألَّا يخشى المؤمنون ذلك، كما يقول دانيال، لأن كثيرين من الموتى سيعودون إلى الحياة. «وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ» (سفر دانيال ١٢: ٢).

تشير النصوص المقدسة المسيحية إلى سفر دانيال، وتكرر أن «نهاية الأزمنة» ستميِّزها «رِجْسَة الْخَرَابِ»، ومجيء «ضِيق عَظِيم لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ» (متَّى ٢٤: ١٥–٢٢، مرقس ١٣: ١٤–٢٠). ويقدِّم إنجيل لوقا مؤشرات أكثر تفصيلًا عن «أمارات آخر الأيام» حتى يتمكن القراء من الاستعداد: «وَتَكُونُ عَلَامَاتٌ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَعَلَى الأَرْضِ كَرْبُ أُمَمٍ بِحَيْرَةٍ. الْبَحْرُ وَالأَمْوَاجُ تَضِجُّ» (٢١: ٢–٣٣).
أوصاف القرآن لنهاية الأيام مذهلة بالمثل:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾. (سورة التكوير: ١–١٤)

لكن المسيحيين هم من يولون أكبر اهتمام للنهاية الوشيكة للعالم وأماراتها. الأمارات مذكورة بالتفصيل في السفر الأخير من الكتاب المقدس المسيحي (العهد الجديد)، وهو سفر

يُطلق عليه غالبًا سفر الرؤيا، إلا أنه معروف في الأصل باسم «أبوكاليبس يوحنا». وهو يخبرنا عن «السِّفر المختوم بسبعة أختام». وبفتح الختم الأول، يظهر أربعة فرسان، كلٌّ منهم يمتطي فرسًا؛ أبيض، وأحمر، وأسود، و«أخضر» — «أربعة فرسان الأبوكاليبس». وبفتح الختم الخامس تظهر رؤيا لأولئك الذين ذُبحوا «مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ». ويسبب فتح الختم السادس زلزلة عظيمة، «وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرٍ، وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ، وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الأَرْضِ ... وَالسَّمَاءُ انْفَلَقَتْ كَدَرْجٍ مُلْتَفٍّ، وَكُلُّ جَبَلٍ وَجَزِيرَةٍ تَزَحْزَحَا مِنْ مَوْضِعِهِمَا.» هذا هو ما يحدث في يوم يُوصف بأنه «يَوْمُ غَضَبِهِ الْعَظِيمُ» (سفر الرؤيا ٦). وبالنظر إلى الطبيعة المذهلة لهذه الأوصاف، صار يُقصد بلفظة «أبوكاليبس» أحداث كارثية تشير إلى نهاية العالم. وعادة ما تستخدم لفظة «أبوكاليبسي» لوصف سيناريوهات يوم القيامة، أما «الأدب الأبوكاليبسي» فهو ذاك الذي يتناول الأحداث المرتبطة بنهاية الأيام. وبالبحث على الإنترنت عن أسئلة متعلقة بالأبوكاليبس، نجد مئات المراجع التي تشير إلى نهاية العالم — أو إلى أفلام وألعاب تدور حول نهاية العالم (مثل: www.goodreads.com/quotes/tag/apocalypse وأيضًا www.brainyquote.com/quotes/keywords/apocalypse.html).

وإذ فهم كثير من الناس الأوصاف الواردة في الكتاب المقدس فهمًا حرفيًّا، فقد تنبئوا بنهاية الأيام بتفاصيل مذهلة، وإن كانت لحسن الحظ غير دقيقة. وكثر ما اقترنت هذه التنبؤات بالويلات السياسية، إلى حد مماهاة الطغاة وغيرهم من الأعداء المفترضين بكثير من شخصيات أبوكاليبس يوحنا، وتأويل الاضطرابات التي تسببوا فيها على أنها أمارات على أن النهاية وشيكة. ومن المفارقة أن مثل هذه التأويلات كانت تبعث الراحة في نفوس بعض الناس، لأنه من المفترض أن يتبع هذه الأحداث المرعبة في نهاية الأيام المجيء الثاني ليسوع، المسيَّا الذي يحارب عدو المسيح ويبشِّر بفترة من السلام والطمأنينة. على سبيل المثال، تنبأ هيلاري، أسقف بواتييه، الذي كان يحارب بدعة آريوس — وهي تأويل للمسيحية اعتبره مجمع القسطنطينية الذي عُقد عام ٣٨١ بدعة هرطقية — بأن نهاية العالم ستكون عام ٣٦٥ (www.religioustolerance.org). وأشار البابا إنوسنت الثالث إلى أن المسلمين هم سبب الهلاك، وتنبأ بأن العالم سوف ينتهي بعد ٦٦٦ عامًا من ظهور الإسلام؛ أي عام ١٢٨٤ (شوارتز، ١٩٩٦). لماذا رقم ٦٦٦ تحديدًا؟ لأن اسم أحد الوحوش الواردة في «أبوكاليبس يوحنا» — الوحش ذي الرءوس السبعة والقرون العشرة (رؤيا ١٣: ١–١٠) — له قيمة عددية (تُحدَّد بناءً على حسابات تستخدم مطابقة الأرقام والحروف)

تساوي ٦٦٦ (سفر الرؤيا ١٣: ١٨؛ ١٥: ٢). ومِن ثَمَّ يُطلَق على هذا العدد «أمارة الوحش». ورد في المذكرات اليومية للزعيم البيوريتاني كوتون ميذر (على الإنترنت)، أحد المؤمنين بـ «أبوكاليبس يوحنا»، أنه رأى عدو المسيح يعمل في البعثات التبشيرية الكاثوليكية في الهند، وتنبأ بأن نهاية الأيام ستكون عام ١٦٩٧، ثم في عام ١٧١٦، ثم ١٧٣٦ (تُوفي عام ١٧٢٨).

بيد أن لفظة «أبوكاليبس» في حقيقة الأمر لا تعني نهاية العالم أو أي شيء من هذا القبيل. وإنما تعني «رؤيا»، وهي مشتقة من كلمة «أبوكاليبسيس» اليونانية التي تعني الكشف أو إماطة اللثام عما كان مخفيًّا. علاوة على ذلك، يرى الباحثون عمومًا في «الأدب الأبوكاليبسي» انعكاسات للتوتر السائد وقت كتابته. يعتقد كثير من الباحثين أن الفقرات الأبوكاليبسية في سفرَي دانيال وأشعياء كُتبت أثناء تعرُّض اليهود للاضطهاد على أيدي اليونانيين. أما سفر الرؤيا (أبوكاليبس يوحنا) فقد كُتب بعد هجوم الرومان على أورشليم، وخراب الهيكل، وسبي اليهود (عام ٧٠). واليوم، يؤوِّل الباحثون بصفة عامة الأحداث الواردة في هذا السفر على أنها إشارات رمزية إلى أحداث معاصرة لها، وليست تكهنات مستقبلية. وكان من اللازم أن تكون الأوصاف رمزية لأنها كانت سلبية للغاية. كانت تحمل انتقادًا لاذعًا للسلطات الحاكمة؛ وكان من شأن تقديمها صراحة أن يستتبع عقابًا قاسيًا. على سبيل المثال، حدث أن الرقم الذي يدل على وحش البحر العظيم هو المكافئ العددي لنيرون، الإمبراطور الروماني الذي كان يمقته المسيحيون (كوري ٢٠٠٦: ٦١). يشرح كوري أن العدد ٦٦٦ محسوب بناءً على أرقام منسوبة إلى الحروف العبرية المستخدمة للترجمة الصوتية لاسم «نيرون». يذكر السفر نفسه أن «السَّبْعَة الرُّءُوس هِيَ سَبْعَةُ جِبَالٍ» (سفر الرؤيا ١٧: ٩). ويمكن أن تكون هذه إشارة أخرى إلى روما، تلك المدينة التي بُنيت على سبعة جبال، أو أنها أيضًا إشارة إلى أورشليم، التي بُنيت هي أيضًا على سبعة جبال. بالمثل «زانية بابل» — الموصوفة في الإصحاح السابع عشر بأنها يدمرها وحش البحر العظيم — غالبًا ما تُفهم على أنها تعني أولئك الذين عملوا في الحكومة الرومانية التي كانت تسيطر على أورشليم حينها.

هذا التأويل العلمي للإشارات الواردة في سفر الرؤيا منعكس بوضوح في التأويلات السائدة للمسيحية. على سبيل المثال، ترى الكنيسة الكاثوليكية أن سفر الرؤيا لم يُكتب من أجل التنبؤ بالمستقبل البعيد، وإنما لتشجيع المسيحيين الذين عاشوا في القرن الأول، الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم الروماني التعسفي. وباستخدام اللغة الرمزية، أشار

السفر إلى أن روما سرعان ما ستسقط، وسوف يُكافَئون مكافأة عظيمة من أجل إيمانهم وجلَدهم. وسينزل العقاب بمضطهديهم. على كل حال، يرفض أغلب علماء اللاهوت فكرة أن الناس يمكنهم التنبؤ بنهاية العالم، مؤكدين القول الوارد في إنجيل متَّى بأنه لا أحد يستطيع أن يعرف متى سيأتي يسوع مرة أخرى. ومع ذلك، واضح أن كثيرًا من الناس يستشعرون الراحة في فكرة أنه لا ينبغي أن يكون الاضطراب السياسي والكوارث الأخرى سببًا للقلق المفرط. بالعكس، هي تشير إلى أن مجازاة البِر تلوح في الأفق.

المراجع

Cory, C. (2006) *The Book of Revelation*. Liturgical Press, Collegeville, MN.

Mather, C. (online) *An American on Patmos,* www2.lib.virginia.edu/exhibits/brimstone/mather.html (accessed January 10, 2014).

Ontario Consultants on Religious Tolerance, (2011) *"46 failed end-of-the-world predictions that were to occur between 30 & 1920 CE, but didn't"* June 14 http://www.religioustolerance.org/end_wrl2.htm (accessed January 11, 2014).

Schwartz, H. *Century's End: An Orientation Manual Toward the Year 2000.* Doubleday, New York, p. 181.

قراءات إضافية

Browne, Silvia. (2008). *End of Days: Predictions and Prophecies about the End of the World.:* Dutton/Penguin. New York.

McIver, Tom. (1999). *The End of the World: An Annotated Bibliography.* McFarlane & Co. Jefferson NC.

Weber, Eugen. (1999). *Apocalypses.* Harvard University Press. Cambridge MA.

(٤) يعذب الشيطان وأجناده الناس في الجحيم

ظل الشيطان شخصية شهيرة في الأدب والفن والفلكلور على مدى ألف سنة. ويبدو في صورة شائعة بقرون، وأجنحة سوداء أو حمراء، وأرجل ماعز، وذيل مدبب. وكثيرًا ما يحمل رمحًا ذا ثلاث أسنان، سلاحًا ذا ثلاث شُعَب يُسمى أحيانًا شوكة. وفي جامعة ولاية أريزونا، يُطلق على الفرق الرياضية «صن ديفلز»، ويحمل فريق المشجعين المعروف باسم «سباركي ذي صن ديفل» رمحًا ثلاثيًّا.

ظهر كثير من صور الشيطان في المسيحية في العصور الوسطى، حينما قدم الرسَّامون والنحاتون مئات من التمثيلات للجحيم؛ حيث يتولى الشياطين تعذيب الناس. وقُدِّم كثير منها في صورة نقش غائر يعبر عن الدينونة الأخيرة فوق مداخل الكنائس. وحالما يمر الناس من تحت هذه البوابات، يرفعون أنظارهم إليها إمعانًا في الخوف من الجحيم. وفي عام ١٤١٦، صنع الإخوة ليمبرج — بول، وهيرمان، وجان — لوحة مصغرة للجحيم، أصبحت جزءًا من «كتاب الساعات»، وهو كتاب أجبية للدوق جان دو بيري، أخي الملك شارل الخامس ملك فرنسا. وفي اللوحة، يتوسط الشيطان المشهد، مستلقيًا على مجمرة ضخمة، يُشوَى الناس أسفلها. وعلى جانبَي المجمرة، يستخدم أتباعه من الشياطين أدوات نفخ كبيرة للحفاظ على ألسنة اللهب مشتعلة. ويعتصر الشيطان في كلتا يديه الجسدين المتلوِّيين لزوجين عاريين. ويلفظ من فمه الكبير حممًا مشتعلة، بها ما يزيد على اثنتي عشرة ضحية أكثر عريًا. وتسحق قدماه آخرين يُعذَّبون بالأفاعي أيضًا. وأمام المجمرة، شياطين آخرون يتولَّون تعذيب المزيد من الناس، بينما توجد في الخلفية جبال شاهقة مخروطية الشكل تُستخدم كغلايات لطهي المزيد من الضحايا.

تعد لوحة «الجحيم» لهيرونيموس بوش، التي رسمها نحو عام ١٥٠٠، نسخة أكبر للموضوع نفسه، حيث ينشغل الشياطين بأساليب تعذيب مبتكرة.

كل هذه الأعمال التخيلية هي موضوع جيد للوحات الخيالية في الرسومات الكاريكاتورية لمجلة «نيويوركر»، وأزياء الهالوين، إلا أنها ليست من الكتاب المقدس، وليست جزءًا من تعاليم الكنائس المسيحية.

ماذا يقول الكتاب المقدس «حقًّا» عن الشيطان؟ لا يكاد الكتاب المقدس العبري/العهد القديم يقول شيئًا إلا أنه كان «ابنًا لله» — أي إنه ملاك — يعني اسمه «المُشتكي»؛ ففي سفر أيوب، الشيطان وكيل لله يجوب الأرض ويُبلغه بما يفعل الناس.

أما العهد الجديد فيطرح صورة مختلفة تمامًا عن الشيطان؛ فهو ليس عميلًا ولكن عدو لله. ويتمثل الكثير من الشر الذي يفعله في غواية الناس للسقوط في الخطيئة؛ فوفقًا لما جاء في أناجيل متَّى، ومرقس، ولوقا، حاول الشيطان إغواء يسوع نفسه؛ فبعد معموديته، صام يسوع في البَرِّيَّة ٤٠ يومًا، ثم جرَّبه الشيطان ثلاث مرات (متَّى ٤: ١–١١؛ مرقس ١: ١٢–١٣؛ لوقا ٤: ١–١٣). ولم ينتهره يسوع قائلًا: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ!» إلا بعد التجربة الثالثة — بأن يسجد للشيطان في مقابل منحه كل ممالك العالم.

أما عن الفكرة الرائجة التي تقول إن الشيطان يقطن الجحيم، فلها مصدران في الكتاب المقدس. يقول يسوع في إنجيل متَّى (٢٥: ٤١)، إنه في الدينونة الأخيرة، سيفصل الملك الغنم عن الماعز — الأبرار عن الأشرار — ويقول للأشرار «اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ.»

أما المصدر الكتابي الآخر لفكرة أن الشيطان يقطن الجحيم فهو الإصحاح العشرون من سفر الرؤيا؛ إذ يقول إنه بعد تقييد الشيطان ألف عام؛ فإنه سيُطلَق سراحه ليُضلَّ أمم الأرض.

> وَرَأَيْتُ مَلاَكًا نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُ مِفْتَاحُ الْهَاوِيَةِ، وَسِلْسِلَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى يَدِهِ. فَقَبَضَ عَلَى التِّنِّينِ، الْحَيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّذِي هُوَ إِبْلِيسُ وَالشَّيْطَانُ، وَقَيَّدَهُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَطَرَحَهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ ... ثُمَّ مَتَى تَمَّتِ الأَلْفُ السَّنَةِ يُحَلُّ الشَّيْطَانُ مِنْ سِجْنِهِ، وَيَخْرُجُ لِيُضِلَّ الأُمَمَ الَّذِينَ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ ... فَنَزَلَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنَ السَّمَاءِ وَأَكَلَتْهُمْ. وَإِبْلِيسُ الَّذِي كَانَ يُضِلُّهُمْ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ وَالْكِبْرِيتِ، حَيْثُ الْوَحْشُ وَالنَّبِيُّ الْكَذَّابُ. وَسَيُعَذَّبُونَ نَهَارًا وَلَيْلًا إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. (سفر الرؤيا ٢٠: ١–٣، ٧–٨، ٩–١٠)

هكذا، ما يقوله العهد الجديد عن الشيطان وملائكته، أنهم أشرار يُغوون الناس للوقوع في الخطيئة، وأن الجحيم قد أُعِدَّت لتكون مكانًا لعقوبتهم الأبدية. ويقول إن الأشرار من البشر سوف يُعاقَبون في الجحيم أيضًا عند الدينونة الأخيرة. ما لا يقوله هو أن الشيطان وملائكته في الجحيم الآن، قبل الدينونة الأخيرة. ولا يقول إن الجحيم مملكتهم، أو إنهم في الجحيم يعذبون البشر.

والرؤيا التي تنبأت بالشيطان مُلقًى في البحيرة المتقدة بالنار الواردة في سفر الرؤيا هي حدث مستقبلي، سيحدث في نهاية العالم. يعني هذا أن الشيطان لم يُوضع في الجحيم

بعدُ. علاوة على أنه إن كان الشيطان في الجحيم فكيف يمكنه أن يجوب الأرض مغويًا الناس؟

بالتفكير في الخرافتين الثانيتين — اللتين تقولان إن الجحيم في قبضة الشيطان وجنوده، وإنهم يعذبون البشر هناك — يمكننا أن نرى أنهما فاسدتان من ثلاث طرق على الأقل.

المشكلة الأولى في فكرة أن الشيطان يعذب الأشرار من البشر هي أن البشر الأشرار هم من يفعلون ما يريد منهم فعله؛ فهم يوافقون على خططه ويفعلون ما يرضيه. لماذا إذًا قد يرغب في تعذيبهم إلى أبد الدهر؟ أليس حريًّا به أن يرغب في مكافأتهم على خدمتهم المخلصة؟ تصوَّر وصول هتلر وستالين إلى الجحيم؛ ألن يرحِّب بهم الشيطان بحفاوة، باعتبارهم زملاءه؟ كيف يمكنه أن يستمتع بعقاب بعض وكلائه؟

المشكلة الثانية في التصور الشائع بأن الشياطين يعذبون الناس في الجحيم هي أنها تجعل من الشياطين وكلاء الله؛ فالله، وليس الشيطان، هو الذي يريد إنزال العقاب بالناس على فعلهم الشر. فإن كان الشيطان وجنوده معارضين لله ويريدون إحباط مخططه، فلماذا يساعدونه — بل ويعملون لحسابه بمعاقبة الناس الأشرار أبد الدهر؟

ثالث مشكلة في الخرافة القائلة إن الشياطين يعذبون الناس في الجحيم هي الاعتقاد بأنهم يستمتعون بعملهم. وبالفعل يظهر الشياطين في الكثير من الأيقونات المسيحية وهم يتلذَّذون بتعذيب الناس باستخدام شوكات ثلاثية وقضبان ساخنة وهكذا. وتبدو ممارساتهم في الجحيم وكأنها متعة لهم. لكن أيمكن أن تكون الجحيم فعلًا مكانًا ينعم الشياطين فيه بوقت طيب؟ يقول الكتاب المقدس إن الجحيم أُعِدَّت لتكون مكانًا للعقاب وليست منتجعًا ترفيهيًّا للساديِّين. في إنجيل متَّى (٢٥: ٤١) يصفها المسيح بأنها «النَّار الأَبَدِيَّة الْمُعَدَّة لِإِبْلِيسَ وَمَلَائِكَتِهِ.» فإذا كان الشيطان وجنوده يمارسون عمليات تعذيب في الجحيم، ويحومون في كل الأرجاء يجربون أشكال التعذيب الجديدة على البشر، فلن تكون الجحيم عقابًا بالنسبة إليهم.

إذا كان مظهر الشيطان وجنوده وممارساتهم ليسا بحسب ما ورد في الكتاب المقدس، فمن أين جاءا إذًا؟ يخمن العلماء أن كليهما انبثق في العصور الوسطى من مصادر عدة. ولعل قرون الشيطان، ورجليه اللتين على شكل أرجل الماعز، وذيله، مأخوذة من الأوصاف الإغريقية للإله «بان» أو أوصاف ساتير الذي كان جزء منه ماعزًا وجزء منه إنسانًا. أما الأجنحة والذيل فلعلهما مأخوذان من أوصاف التنين في سفر الرؤيا

(في الجزء المُقتبس أعلاه)، المقترن بـ «الوحش» و«النبي الكذَّاب». وعن الرمح ثلاثي الأسنان أو الشوكة الثلاثية، أوضح علماء كثيرون أنها كانت تُستخدم من حيث الأساس لصيد الأسماك، ومِن ثَمَّ اقترنت بآلهة البحر مثل بوسيدون ونبتون، لكنها صارت تُستخدَم سلاحًا في الحرب والمعارك القتالية. وباجتماع كل صور الشر تلك، إضافة إلى الاعتقاد بأن الشيطان يعيش في الجحيم مع البشر، لم يكن هناك مناص من تخيُّل المرء للشيطان وهو يواصل حيله الشريرة فيعذب البشر هناك. أما الرمح ثلاثي الأسنَّة فلعلَّه أداة مُثلى لمزاولة مثل هذه الأعمال.

(٥) الكروبيم ملائكة حِسان كالأطفال

بلغت الشعبية التقليدية للملائكة أَوْجَها في الثقافات المسيحية في العقود الثلاثة الأخيرة. طُبع كثير من الطبعات من كتاب المبشِّر المسيحي بيلي جراهام الصادر عام ١٩٧٧ بعنوان «الملائكة: رُسل الله السرِّيون»، وبِيع منه ما يزيد على ثلاثة ملايين نسخة، مروجًا بذلك لبيع عشرات من الكتب التي تدور حول الملائكة منذ ذلك الحين. وصارت قصص الملائكة موضوعًا مهمًّا في التليفزيون الأمريكي، بدءًا من برنامج «هاي وِاي تو هيفين» عام ١٩٨٤. واستمر عرض سلسلة أخرى بعنوان «تاتشد باي آن أنجل» من عام ١٩٩٤ حتى عام ٢٠٠٣. وشاع ظهور الملائكة في الأفلام قبل ظهور كتاب القس بيلي جراهام بوقتٍ طويل. وكان فيلم عيد الميلاد «إتس أ وندر لايف» (١٩٤٦) يدور حول ملاك يثني الشخصية البطلة عن الانتحار. وحقق الفيلم رواجًا كبيرًا لدرجة أن مناقشات تدور الآن في هوليود حول إنتاج جزء جديد منه. وفي فيلم «ذي بيشوبس وايف» الذي أُنتج عام ١٩٤٦ أيضًا، من بطولة كاري جرانت ولوريتا ينج، يساعد أحد الملائكة في إنقاذ زواج بطل الفيلم من الفشل. وأُعيد إنتاج الفيلم مرة أخرى عام ١٩٩٦، هذه المرة من بطولة دنزل واشنطن ووِيتني هوستن. وفي فيلم «أنجلز إن ذي آوتفيلد» الذي أُنتج عام ١٩٥١، تساعد الملائكة أحد فرق البيسبول في كسر سلسلة متوالية من الهزائم. وأُعيد إنتاجه مرة أخرى عام ١٩٩٤. وفي فيلم «مايكل» عام ١٩٩٦، يؤدي جون ترافولتا دور رئيس ملائكة غير تقليدي. وفي فيلم «فولن» (٢٠٠٦)، يسعى مراهق نصفه ملاك ونصفه إنسان إلى إنقاذ الملائكة الساقطين وإعادتهم إلى السماء.

ومن الواضح أن النسخ الحديثة الشعبية من الملائكة هي من نتاج المخيلات الإبداعية. لكن الصور الإبداعية عن الملائكة ليست مجرد نتاج الصناعة الترفيهية الحديثة وحسب؛

ففي عصر النهضة، بدأ الفنانون يصورون الكروبيم على أنهم أطفال حِسان المنظر ممتلئو الأجساد لهم أجنحة — وما زلنا نرى هذا الشكل للكروبيم في احتفالات أعياد الميلاد وعيد الفالانتين، التي أثرت في فكرنا بأن الصفة «كروبيمي» صارت تعني «أن يكون للمرء البراءة الطفولية لملاك أو جاذبيته الممتلئة.»

بيد أننا لو أمعنَّا النظر فيما يقوله الكتاب المقدس عن الكروبيم، فسنُكوِّن صورة مختلفة تمامًا. ظهر الكروبيم أول ما ظهروا في سفر التكوين بعد اكتشاف الله أن آدم أكل من شجرة معرفة الخير والشر.

> وقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «هُوَ ذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ.» فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الإِنْسَانَ وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ. (سفر التكوين ٣: ٢٢–٢٤)

وتشير نسخة أكسفورد الجديدة من الكتاب المقدس المشروح (١٩٩٤) إلى أن:

> ملائكة الكروبيم هم حراس البقاع المقدسة (سفر ملوك الأول ٨: ٦–٧)، وقد أُشير إليهم على أنهم مخلوقات ذوات أجنحة (سفر حزقيال ٤١: ١٨–١٩)، مثل تمثال أبي الهول في مصر، ذلك المخلوق الأسطوري الذي هو نصف إنسان ونصف أسد. ووُضع سيف إلهي (قارن ذلك بالآية الواردة في سفر إرميا ٤٧: ٦) في متناول الكروبيم لحظر اقتراب البشر المطرودين من الحدود البشرية الموضوعة لهم. (قارن ذلك بالآيات الواردة في سفر حزقيال ٢٨: ١٣–١٦)

وتضيف الطبعة الرابعة من نسخة أكسفورد الجديدة للكتاب المقدس المشروح (٢٠١٠) أنه «جرى تصويرهم على أنهم حراس المقدسات مثل محراب أورشليم (سفر الملوك الأول ٦: ٢٣–٢٨، ٣٢، ٣٥).»

ويصف سفر المزامير (١٨: ٧–١٠) إلهًا مرعبًا يمتطي الكروبيم:

> فَارْتَجَّتِ الأَرْضُ وَارْتَعَشَتْ أُسُسُ الْجِبَالِ. ارْتَعَدَتْ وَارْتَجَّتْ لأَنَّهُ غَضِبَ. صَعِدَ دُخَانٌ مِنْ أَنْفِهِ وَنَارٌ مِنْ فَمِهِ أَكَلَتْ. جَمْرٌ اشْتَعَلَتْ مِنْهُ. طَأْطَأَ السَّمَوَاتِ وَنَزَلَ

وَضَبَابٌ تَحْتَ رِجْلَيْهِ. رَكِبَ عَلَى كَرُوبٍ وَطَارَ وَهَفَّ عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيَاحِ. (قارن ذلك بالآيات الورادة في سفر صموئيل ٢٢: ٨–١١)

وعندما بنى الملك سليمان هيكل أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد، استخدم منحوتات ضخمة للكروبيم مغطاة بالذهب من أجل المؤثرات البصرية:

وَعَمِلَ فِي الْمِحْرَابِ كَرُوبَيْنِ مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ، عُلُوُّ الْوَاحِدِ عَشْرُ أَذْرُعٍ. وَخَمْسُ أَذْرُعٍ جَنَاحُ الْكَرُوبِ الْوَاحِدُ، وَخَمْسُ أَذْرُعٍ جَنَاحُ الْكَرُوبِ الآخَرُ. عَشْرُ أَذْرُعٍ مِنْ طَرَفِ جَنَاحِهِ إِلَى طَرَفِ جَنَاحِهِ. (سفر الملوك الأول ٦: ٢٣-٢٤)

تساوي الذراع حوالي ١٨ بوصة، ومِن ثَمَّ كان يبلغ طول هذين الكروبين نحو ١٥ قدمًا حيث يبلغ عرض الجناحين ١٥ قدمًا. ونظرًا إلى امتداد الجناحين وحدهما من أحد جدران المحراب إلى الجدار المقابل، فكانا يخطفان الأبصار لاستحواذهما على المشهد.

وفضلًا عن الأجنحة، كيف بدا شكل بقية أجزاء الكروبيم؟ يصفها سفر حزقيال (١٠: ٢٠–٢٢) بقوله: «هَذَا هُوَ الْحَيَوَانُ ... لِكُلِّ وَاحِدٍ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ، وَشَبَهُ أَيْدِي إِنْسَانٍ تَحْتَ أَجْنِحَتِهَا. وَشَكْلُ وُجُوهِهَا هُوَ شَكْلُ الْوُجُوهِ الَّتِي رَأَيْتُهَا عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ.» وكان كاتب سفر حزقيال قد وصف تلك الوجوه من قبلُ على هذا النحو: «أَمَّا شِبْهُ وُجُوهِهَا فَوَجْهُ إِنْسَانٍ وَوَجْهُ أَسَدٍ لِلْيَمِينِ لأَرْبَعَتِهَا، وَوَجْهُ ثَوْرٍ مِنَ الشِّمَالِ لأَرْبَعَتِهَا، وَوَجْهُ نَسْرٍ لأَرْبَعَتِهَا» (سفر حزقيال ١: ١٠).

في العصور الوسطى، أَوْلى اللاهوتيون المسيحيون الكثير من الاهتمام للملائكة. أمعن توما الأكويني في دراسة الملائكة ومكانها ضمن خطة الله، حتى إنه اكتسب لقب «العالِم الملائكي». وقال إن هناك تسع رتب من الملائكة، مقسمة إلى ثلاث تدرجات. وترتيبها التنازلي من الأعلى إلى الأدنى كما يلي:

(١) السيرافيم، والكروبيم، والعروش.
(٢) القوات، والسيادات، والسلاطين.
(٣) الرياسات، ورؤساء الملائكة، والملائكة.

تقترب الكروبيم من القمة؛ إذ تلي السيرافيم مباشرة. وقال توما الأكويني إن الشيطان كان من الكروبيم، ثم سقط من نعمة الله، ويَعتبر معظم اللاهوتيين الشيطان أحد أعظم مخلوقات الله، إن لم يكن الأعظم على الإطلاق. وبالمقارنة، نجد الملائكة الصالحة المذكورة في الكتاب المقدس — رؤساء الملائكة ميخائيل وجبرائيل ورفائيل — ترتيبهم قبل الأخير ويقعون في أدنى تدرُّج.

هكذا نجد الكروبيم في الكتاب المقدس وفي التعليم المسيحي من بين أعظم مخلوقات الله جميعًا — حراسًا مرعبين جرى تصويرهم في هيكل سليمان على أن طول الواحد منهم يبلغ ١٥ قدمًا وعرض أجنحتهم ١٥ قدمًا؛ فمن أين إذًا جئنا بفكرة أن الكروبيم أطفال لطيفة ممتلئة الجسم لها أجنحة صغيرة؟ لا نعلم يقينًا، لكننا نعرف يقينًا أن التصور الحديث للكروبيم هو قطعًا لشخصية غير دينية معروفة باسم «بوتو»، (وجمعها «بوتِّي»)، كانت قد انتشرت على أيدي رسامي عصر النهضة. في لوحة «سيستين مادونا» للفنان رفائيل، على سبيل المثال، تقف مريم العذراء وسط السحب تحمل الطفل يسوع، وعن يَمْنَتهما ويَسْرَتهما كلٌّ من القديس سيكتوس والقديسة بربارة، وتحت أرجلهما ملاكان صغيران يتطلَّعان إلى المادونا. وعندما رسم فنانو عصر النهضة كيوبيد وغيره من الشخصيات التي ترمز إلى الحب، غالبًا ما كانوا يرسمونهم على شاكلة البوتِّي. واختار هانس بولدوج جرين (١٤٨٤–١٥٤٥) أن تكون اللوحة الرئيسية التي يرسمها لمذبح كاتدرائية فرايبورج هي «تتويج العذراء»، وفيها يظهر ما يزيد عن اثني عشر بوتِّيًا يعزفون على آلات العود والكمان والقيثارة والترومبون والكرامهورن. ورسم فينزل هولر البوهيمي (١٦٠٧–١٦٧٧) زمرة من الأطفال لهم أجنحة ويعزفون على الآلات الموسيقية، ووضع عنوان عمله «حفل البوتِّي الموسيقي فوق السحاب». إلا أن أوريليو لويني (١٥٣٠–١٥٩٣) رسم عملًا مشابهًا، وأطلق عليه «الملائكة الموسيقية». ومن الصعب الوقوف عند منشأ الخلط ما بين البوتِّي والملائكة، ما لم نُجر دراسة شاملة للوحات الشبيهة، ولكن لعل العنوان الذي وضعه لويني للوحته هو نقطة البداية.

المراجع

Graham, B. (1977) *Angels: God's Secret Agents*, Pocket Books, New York.

قراءات إضافية

New Catholic Encyclopedia (1967) Angels, McGraw-Hill, New York.

(٦) عانى المسيحيون الاضطهاد المُمنهج على أيدي الرومان

> حتى ونحن نتعرض لقطع رقابنا، وللصلب، ونُلقَى إلى الحيوانات المفترسة، ونُكبل بالأصفاد، ونُلقَى في النيران، ونتعرض لجميع أنواع العذابات الأخرى، فإننا لا نتخلى عن إيماننا. بل على العكس، كلما زاد التعرض لمثل هذه العذابات، زادت جموع الآخرين الذين يعتنقون الإيمان. (جاستن الشهيد، حوار مع تريفو ١١٠ (شاف، ١٨٨٥))

يصف جاستن الشهيد الذي عاش في القرن الثاني اضطهاد روما الوثنية للمسيحية وصفًا يُرعد الفرائص. هناك مئات من القديسين المسيحيين الذين يُلقَّبون بالشهداء، وكثير منهم يعودون إلى القرن الثالث. ويضع الكثير من الطوائف المسيحية الإمبراطور قسطنطين الذي عاش في القرن الرابع وجعل المسيحية ديانة رسمية وأنهى الاضطهاد، في مصافِّ القديسين. وقد استرعت انتباه كثير من العلماء أهمية المعاناة في الإيمان بالمسيحية. لا غرابة إذًا في اعتقاد الكثيرين أن روما الوثنية كانت تعذِّب المسيحيين على نحو منهجي في محاولة لاجتثاث الحركة الدينية البازغة. لكن الأدلة التاريخية التي تؤيد هذه المزاعم قليلة للغاية حقًّا. صحيح أنه كانت هناك فترات من الاضطهاد — أغلب الظن لأسباب سياسية — لكن كانت هناك أيضًا فترات طويلة نعم فيها المسيحيون بالأمن. يرى العلماء أن قصص الشهداء والمعجزات الشائعة التي تعود إلى القرن الرابع فصاعدًا تشوبها المبالغة بلا شك.

تشرح كانديدا موس في كتابها «خرافة الاضطهاد: كيف اخترع المسيحيون الأوائل قصة الشهادة» (٢٠١٣)، كيف يمكن تحويل ضحايا العنف المريع الموجه ضد أشخاص عابرين، من مجرد أناس سيئي الحظ إلى أيقونات مقدسة لمجموعة مضطهدة. تضرب موس مثالًا لذلك، الفتاة مريم فكري البالغة من العمر ٢٢ عامًا، التي كانت من بين الضحايا العشرين الذين قُتلوا في هجوم على كنيسة قبطية أثناء قداس منتصف الليل في عشية رأس السنة عام ٢٠١١ بالإسكندرية. لم يتم التعرف قطُّ على هوية مرتكبي

الحادث؛ وعليه تظل أسبابهم المحددة لاختيار هذه الكنيسة بعينها في هذا التوقيت لغزًا محيرًا. لكن مريم عُرِّفت بأنها شهيدة من قِبَل بقية أفراد عائلتها الباقين على قيد الحياة (فكثير منهم راحوا ضحية الحادث معها)، وأصدقائها، وحتى الرئيس المصري حينذاك حسني مبارك في النهاية.

ما الذي جعلها شهيدة؟ الشهيد هو شخص قُتل بسبب دينه. لم تقرر مريم المجاهَرة على الملأ بهويتها المسيحية؛ كل ما هنالك أنها كانت تشارك في تقليد مجتمعي. ووفقًا لصفحتها على فيسبوك، كانت تتطلع إلى سنة رائعة أخرى. علاوة على أنها لم تُستهدَف بصفتها مريم فكري؛ ففي نظر أولئك الذين فجروا كنيستها هي مجرد مسيحية عابرة. لكن وصفها بالشهيدة أضفى الطابع المقدَّس على موتها؛ فقد تحول الأمر من موت عشوائي؛ أي غير شخصي بالمرة، إلى أمر خاص وشخصي ومقدس. وكما ذكرت موس «هكذا تحوَّل الهجوم من مجرد عمل من أعمال العنف المروِّعة اقترفته جماعة إرهابية، ومن نتيجة مؤسفة للتوترات الدينية والسياسية والاجتماعية بالمنطقة، إلى هجوم مباشر وصريح على المسيحية كلها» (٢٠١٣: ٢). وصارت مريم رمزًا لكل أولئك الذين قُتلوا، لا لشيء إلا لأنهم مسيحيون. وصارت جزءًا من «معركة بين الخير والشر» (٢٠١٣: ٣). وأي تبجيل أكثر من هذا؟

تُعظِّم جميع الثقافات موتاها بدلًا من تعريض المبادئ التي تدافع الجماعة عنها للخطر. ولا يختلف المسيحيون في هذا الشأن؛ فقد ظهرت لغة الشهادة في باكر التاريخ المسيحي. ترى موس أن هذا نتج من محاولة أتباع يسوع التسليم بإعدامه على يد أحد القادة الرومان، الذي اعتقد هو نفسه أنه كان بريئًا، كما جاء في إنجيل يوحنا (١٩: ٤). وسواء أُفُسِّر موت يسوع على أنه اختيار أم تضحية — وكلاهما ممثَّل في الخطاب المسيحي — فقد أصبح أمرًا هادفًا. وكان بمنزلة القلب في رواية عن اضطهاد المسيحيين، ومِن ثَمَّ أصبح مثالًا يُحتذى. وتلحَظ موس أن العهد الجديد يصف موت أول مسيحي يتبع هذا النموذج، وهو إسطفانوس (سفر أعمال الرسل، الإصحاحان ٦-٧).

وبحلول القرن الثاني، أصبح تبجيل الشهداء جزءًا مهمًّا من التعليم المسيحي. صرح العلامة اللاهوتي ترتليانوس (تُوفي عام ٢٢٥) بأن «دم الشهداء هو بذرة الكنيسة» («أبولوجيتيكام»، على الإنترنت)، وسُمي القرنان الثالث والرابع «عصر الشهداء».

لا شك أنه كان أناس يتعرضون للقتل بسبب هويتهم الدينية. غير أن محل الجدل هنا الذي تشكك فيه موس هو انتشار قصص الشهداء؛ أي فكرة أن المسيحيين كانوا

دائمًا مُضطهدين، بسبب هويتهم الدينية ولمجرد كونهم مسيحيين. وبتتبُّع الأدلة من السجلات الأثرية والمصادر الرومانية والمسيحية، توضح موس (٢٠١٣) أن «التاريخ التقليدي للاستشهاد المسيحي يجانبه الصواب. لم يتعرض المسيحيون للاضطهاد على الدوام ... قلة قليلة جدًّا من المسيحيين لقيت حتفها، وحينما حدث ذلك؛ فإنهم على الأرجح أُعدموا لما نسميه في العالم الحديث سببًا سياسيًّا.» تُقر موس باحتمالية أن القوانين التي حُوكم بموجبها المسيحيون كانت جائرة، غير أن المقاضاة القانونية «تختلف كثيرًا عن الخرافة الرائجة عن الطريقة التي عومل بها المسيحيون من قِبل الرومان.» ولا تجد دليلًا في التاريخ الروماني على أن المسيحيين الذين حوكموا حتى في ظل أكثر الحكام صرامة، كانوا مستهدَفين بسبب هويتهم الدينية. كان الناس الذين لم يستطيعوا الإقرار بالآلهة التي ادعى الرومان أنهم كانوا يحكمون باسمها، موضع اشتباه من الناحية السياسية. لكن السجلات الرومانية تكشف أن استهداف المسيحيين لم يكن متكررًا. وتُبيِّن موس أن الأدلة التي تُثبت عكس ذلك موجودة في مصادر مسيحية مؤرَّخة بعد هذه الوقائع بسنين. بحلول ذلك الزمن كان أفراد المجتمع يتناقلونها شفاهةً، وبذلك كانت تتراكم التأويلات الدينية. «حرفيًّا، ثمة مئات من القصص التي تصف موت الآلاف من شهداء المسيحيين الأوائل، لكن تكاد تكون كل قصة من هذه القصص أسطورية ... وفي بعض هذه الحالات لا يكون الباحثون متأكدين حتى من أن الأشخاص المذكورين في القصص ... كانوا حتى موجودين، فما بالك بأنهم استُشهدوا» (٢٠١٣: ١٥–١٦).

تقتبس موس من البحث العلمي الذي أجرته مجموعة الباحثين بقيادة كاهن القرن السابع عشر، جون بولاند، لفرز آلاف القصص عن القديسين. واستمر المشروع البحثي على مدار ثلاثة قرون. وكانت النتيجة أنْ «قرر [الباحثون] أن عددًا قليلًا فقط من هذه القصص كان صادقًا تاريخيًّا» (٢٠١٣: ١٦).

لماذا إذًا غلبت المغالاة على القصص؟ نتجت هذه المبالغة عن أسباب عدة؛ على رأسها أن هذه القصص كانت بمنزلة إلهام للآخرين؛ فمن السهل على أهل السلطة أن يصيروا قدوة تُحتذى؛ فهم يتمتعون بمكانة رفيعة بين الناس، ويجتذبون المعجبين تلقائيًّا. لكن الشهداء كانوا عادة أناسًا بسطاء؛ وجعلتهم الشهادة أكثر جاذبية حتى من الحكام، ويمكن أن يصير أي شخص مثلهم. لطالما كانت المسيحية تقليدًا تبشيريًّا، يسعى إلى جذب أكبر عدد ممكن من الأتباع. وكانت قصص الشهداء المزودة بالجاذبية العاطفية للمأساوية العالية والعنف فعَّالة في استقطاب الناس للانضمام إلى المسيحية.

تحدِّد موس سببًا آخر لانتشار قصص الشهداء. عادة ما كان الشهداء يرتبطون بمناطق بعينها، وكان شائعًا بين المجتمعات أن تقيم أضرحة لأبطالها المحليين. وبالمثل، تتمسك الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بتقليد الشفاعة المنتشر بقوة، كما يتضح من التطويب الأخير لكلٍّ من البابا جون الثالث والعشرين والبابا جون بول الثاني. ووفقًا لهذا الاعتقاد، فالقديسون ليسوا فقط في السموات بمعية الله، ولكنهم قادرون أيضًا على التشفع لدى الله نيابة عن المتضرعين على الأرض. (وكان الشرط الأساسي للتطويب ورفع الشخص إلى مصافِّ القديسين هو أن يكون قد أجرى معجزتين؛ يُعتقد أن جون بول الثاني قد شفى راهبة فرنسية مصابة بداء باركنسون، وامراة من كوستاريكا لديها إصابة في الدماغ. أما البابا يوحنا الثالث والعشرون، فيُنسب إليه الفضل في شفاء راهبة مصابة بنزف داخلي، وكان هذا كافيًا من وجهة نظر البابا فرانسيس كي يرفعه إلى مصافِّ القديسين؛ وأُعفي البابا جون الثالث والعشرون من الحاجة إلى معجزة ثانية.) وأصبحت القرى والبلدات التي لولا ذلك لما وطِئها سوى باعة عشوائيين مزاراتٍ مقدسةً يحج إليها الناس. وكلما كانت قصة الشهيد مثيرة، زاد احتمال انتشارها — واجتذاب الزائرين الذين ينفقون الأموال على استئجار أماكن الإقامة المحلية وعلى الأطعمة. «ومن هنا حدث الانفجار الهائل في قصص الشهداء من القرن الرابع فصاعدًا» كما تستنتج موس.

المراجع

Apologeticum (online) Available at: www.tertullian.org/works/apologeticum.htm (accessed January 10, 2014).

Moss, C. (2013) The Myth of Persecution: How Early Christians Invented the Story of Martyrdom, HarperCollins, New York.

Schaff, P. (1885) *Ante-Nicene Fathers, Volume 1: The Apostolic Fathers with Justin Martyr and Irenaeus*, Christian Classic Ethereal Library, www.ccel.org/ccel/schaff/anf01.viii.iv.cx.html (accessed January 10, 2014).

قراءات إضافية

Boyarin, D. (1999) *Dying for God*, Stanford University Press, Palo Alto CA.

Castelli, E.A. (2004) *Martyrdom and Memory: Early Christian Culture Making*, Columbia University Press, New York.

Perkins, J. (1995). *The Suffering Self: Pain and narrative Representation in the Early Christian Era,* Routledge, New York.

Ricciotti, G. (2009) *The Age of the Martyrs: Christianity From Diocletian (284) to Constantine (337)*, TAN Books. Charlotte, NC.

(٧) كانت هناك بابا أنثى تُدعى جون

كما رأينا في المقدمة، أعطى كلٌّ من الطابع المأساوي الشديد، والعاطفة، والتصوير الصريح للجنس والعنف زخمًا مستمرًّا للخرافات، وقصة البابا جون الأنثى هي خير مثال لذلك. في هذه القصة تتصدى امرأة عزباء لقادة الكنيسة الرومانية القوية في العصور الوسطى.

توجد أكثر نسخ هذه القصة ذيوعًا في مخطوطات نُسِبت إلى مارتن بولونوس، كتبها في الجزء الأخير من القرن الثالث عشر، ثم أُعيد سردها في عشرات النسخ. وكتب أيضًا جيوفاني بوكاتشيو (تُوفي عام ١٣٧٥)، الذي اشتُهر بعمله البارز «ديكاميرون»، عملًا بعنوان «عن النساء الشهيرات» يُفرد فيه فصلًا كاملًا للبابا الأنثى. وبينما استخدم كلٌّ من مارتن وبوكاتشيو اسم «جون» باعتبار أنه اسم البابا الأنثى، يذكر بوكاتشيو (١٩٦٤: ٢٣١) أن «بعضهم كانوا يقولون إن اسمها جيلبيرتا.» استخدم كُتَّاب آخرون أسماء مثل «جوتة» و«جلانشيا». وسمَّاها المصلح يان هوس «أجنِس». غير أن الاسم الذي شاع في نهاية المطاف هو «جون» Joan الاسم المؤنث من «جون John». واشتُهرت «البابا جون» خصوصًا مع محاولة البروتستانت إظهار مدى فساد الكرسي البابوي في كتب مثل «البابا جون: حوار بين بروتستانتي وبابوي» الذي ألفه ألكسندر كوك (١٦١٠)، والكتاب المجهول المؤلِّف «تاريخ البابا جون وعاهرات روما» (١٦٨٧).

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ساد اعتقاد بأن البابا جون كانت شخصية تاريخية. بل شملتها مجموعة التماثيل النصفية المصنوعة من الطين الأحمر لعدد من

البابوات التي وُضعت في كاتدرائية سيينا، وكان مكتوبًا تحت تمثالها «يوانس الثامنة، امرأة من إنجلترا». ونحو عام ١٦٨٠، عرض المسرح الملكي بلندن مسرحية بعنوان: «الأسقف الأنثى: قصة حياة البابا جون ومماتها»، وهي مسرحية تراجيدية من تأليف إلكانه سِتِل. وأُعيد تقديم القصة مرة أخرى في رواية إيمانويل رودس عام ١٨٦٦ «البابا يوان». وفي زمننا هذا، أفرخت قصة البابا جون مسرحية، وفيلمين، وإحدى الروايات الأكثر مبيعًا، ومسلسلًا تليفزيونيًّا قصيرًا. وأدى دور البطولة في فيلم «البابا جون» عام ١٩٧٢ كلٌّ من ليف أولمان وماكسيمليليان شيل. وتظهر البابا جون في المشهد الافتتاحي لمسرحية كاريل تشرشل «بنات القمة» التي نُشرت عام ١٩٨٢. وبِيع من رواية دونَّا وولفولك كروس «البابا جون» التي نُشرت عام ١٩٩٧ مليونَا نسخة في ألمانيا، ثم حُوِّلت في عام ٢٠٠٩ إلى فيلم يحصد الجوائز. وتُظهرها دعاية الفيلم بوصفها «قصة حقيقية مذهلة»، وتبدأ بعبارة: «غيَّرت وجه الدين وأصبحت بابا. وبعد عامين مُحِيت من التاريخ.»

يُرجع مارتن بولونوس، المذكور أعلاه، تاريخ اعتلاء البابا الأنثى الكرسي البابوي إلى القرن التاسع، ما بين عهدَي البابا ليو الرابع والبابا بندكت الثالث. ويشير إليها في كتابه «تاريخ البابوات والأباطرة» (MGH:SS, XXII, 1265, p. 428)، بأنها جون أنجليكوس (جون الإنجليزي)، وُلدت في ماينتس (في ألمانيا الحديثة)، إلا أنه يقول: «يُقال إن هذا الذي يُدعى جون كان امرأة، سبق أن ذهبت وهي فتاة إلى أثينا متنكرة في زي رجل بصحبة أحد عشاقها.» ويصفها مارتن بأنها كانت على درجة عالية من العلم لدرجة أنها استطاعت العودة إلى روما والتدريس هناك. وذاع صيتها بوصفها رجل دين جليلًا إلى درجة أن «الجميع اختاروها للكرسي البابوي». إلا أن هذا كان مبتدأ الأوجاع: «وهي بابا ... حبلت من أحد مرافقيها. وبسبب جهلها بالميعاد المحدد للولادة، باغتتها أوجاع الولادة، ووضعت وليدها وهي في موكب متجه من كنيسة القديس بطرس إلى المقر الرسولي في قصر لاتيران، في ممر ضيق بين مدرج الكولسيوم وكنيسة سان كليمنت.» ويزعم مارتن أن قبر جون يقع في البقعة نفسها التي وَضَعت فيها، ولهذا كان البابوات التالون ينعطفون حول هذه البقعة ليتحاشوها عند انطلاق مواكبهم إلى قصر لاتيران.

ويصف جان دو مايِّي، المؤرخ الذي عاش في القرن الثالث عشر، هذه الواقعة بتفاصيل بها شيء من الاختلاف، مشيرًا إلى أنها حدثت في عام ١٠٩٩:

> في أحد الأيام، فيما كانت تمتطي جوادًا، أنجبت وليدها. وبموجب القانون الروماني، أُوثقت في الحال من قدميها في ذيل حصان، وسُحِلت ورُجمت لمسافة

نصف فرسخ. ودُفنت في الموضع الذي ماتت فيه، وكُتب على شاهد قبرها: «بطرس، أبا الآباء، فلتفضح حمل البابا المرأة.» وفي الوقت نفسه، أُقيم للمرة الأولى صيام الأيام الأربعة المسمَّى «صيام البابا الأنثى». (جان دو مايِّي، ص٥١٤)

ثم تلت نسخة دو مايِّي نسخة معاصِره ستيفن البوربوني، إلا أنه يضيف حتى مزيدًا من التفاصيل في عمله De Diversis Materiis Praedicabilibus; Scriptores Ordinis Praedicatorum:

بتوجيه من الشيطان، عُيِّنتْ كاردينالًا ثم اعتلت الكرسي البابوي في نهاية المطاف. وبعد أن حبلت، وضعت وليدها وهي على صهوة [جواد]. لكن عندما بلغ الأمر القضاء الروماني، سُحِلت خارج المدينة، مقيَّدة من قدميها في حوافر حصان، وعلى مدى نصف فرسخ رجمها الناس. وفي الموضع الذي ماتت فيه، دُفنت، وكُتب على حجر وُضع فوق قبرها: «بطرس، أبا الآباء، فلتفضح حمل البابا الأنثى.» انظر كيف تؤدي مثل هذه العجرفة الطائشة إلى مصارع السوء. (كويتيف وإيتشارد، ١٧١٩: ٣٦٧)

وهكذا جرى تداول القصة عبر القرون. وفي القرن الرابع عشر، أسهب الشاعر الإنساني الشهير فرانشيسكو بيترارك (الذي تُوفي عام ١٣٧٤) في تسليط الضوء على الجانب الشرير في فضيحة البابا جون. يكتب بترارك (١٥٣٤: ٧٢) أنه بعد فضحها:

في بريشا أمطرت السماء دمًا ثلاثة أيام بلياليها. أما في فرنسا، فظهر جراد خارق له ستة أجنحة وأسنان فتاكة؛ وكان يُحلق في الهواء بطريقة إعجازية، وفي نهاية المطاف غرق كله في البحر البريطاني. ولفظت أمواج البحر جثث الجراد الذهبية، فلوثت الهواء، وهكذا مات كثير من الناس.

وبحسب بترارك، كان ما فعلته البابا جون هو إطلاق ضربتين من الضربات السبع المذكورة في سفر الرؤيا — أن ينزل من السماء «بَرَدٌ وَنَارٌ مَخْلُوطَانِ بِدَمٍ» (سفر الرؤيا ٨: ٧). والجراد الذي له «أَسْنَان كَأَسْنَانِ الأُسُودِ» (سفر الرؤيا ٩: ٣–١١).

لم يكن بعض النسخ الجديدة من القصة قاسيًا على البابا المرأة مثل ستيفن وبترارك؛ ففي النسخ التي ظهرت في نهاية القرن الخامس عشر، اختارت جون طواعية الفضح

العلني تكفيرًا عن ذنوبها. يكتب ستيفان بلانك في الدليل السياحي إلى روما الذي ألفه نحو عام ١٥٠٠ تحت عنوان «عجائب مدينة روما»:

> ثم ننتقل إلى كنيسة ما صغيرة بين الكولوسيوم وشارع سان كليمنت؛ بُنيت هذه الكنيسة المهجورة في المكان الذي ماتت فيه المرأة التي صارت بابا. كانت حُبلى بطفل عندما سألها ملاك من الرب عمَّا إذا كانت تؤثر أن تندثر إلى الأبد، أم تواجه العالم جهارًا. ولَمَّا لم تشأ أن تُنسَى إلى الأبد، آثرت أن تتكبد خزي توبيخ العامة. (وولفيوس، ١٦٧١: ٢٣١)

يذكر هذا الدليل أيضًا «حجرًا منحوتًا على شكل تمثال للبابا وطفلتها» (وولفيوس، ١٦٧١: ٢٣١). وبعدما ذُكر هذا التمثال للمرة الأولى في طبعة من كُتيب «عجائب مدينة روما» ترجع إلى عام ١٣٧٥ تقريبًا، ذكره كُتاب كثيرون. وعندما زار مارتن لوثر روما في مطلع القرن السادس عشر، وصفه بأنه يصور امرأة في الزي البابوي تحمل طفلًا وصولجانًا. ويُبدي لوثر دهشته من أن البابوات قد سمحوا بعرض مثل هذا الشيء المخزي (مونتز، ١٩٠٠، ٢: ٣٣٣).

ثم جاء جوفريدوس دي كولون، وهو راهب فرنسي كان يكتب في نهاية القرن الثالث عشر، بتفصيلة جديدة للحكاية: «يقال إن الرومانيين يتخذون عادة تفقُّد جنس البابا المنتخَب من خلال ثقب في مقعد حجري.» (بورشارد، الجزء ١، مجلد ١: ٨٣) وكرر هذا بارتولوميو بلاتينا، مدير مكتبة الفاتيكان، في كتابه «حيوات البابوات» الصادر عام ١٤٧٩، حيث أضاف أن «أصغر شمَّاس حاضر» كان يتولَّى مهمة تفقُّد الأعضاء التناسلية (انظر مونتس، ١٩٠٠، الجزء ٢: ٣٣٠). وبعدها ببضع سنوات، أضاف فيلكس هيميرلاين (١٤٩٠ تقريبًا، ٩٩ وما بعدها) أنه عندما يُتم الشماس الصغير مهمته، يصرخ قائلًا: «لديه خصيتان.» فيرد كل الحضور من رجال الدين: «مجدًا لله.» وبعدئذٍ يواصلون في ابتهاج ترسيم البابا المُنتخب.

في أواخر العصور الوسطى، كان جزء من جاذبية هذه القصة يكمن في أنها ربطت البابا جون بشيء كان يمكن لزوَّار روما مشاهدته — مقاعد رخامية حمراء في مكان تتويج البابوات. وقتئذٍ، كان يُستخدم مقعدان مثقوبان في مراسم التنصيب: كان البابا الجديد يجلس أولًا على أحدهما، ثم على الآخر. وهما متطابقان تقريبًا، ويبدو كما لو أنهما صُنعا في روما القديمة. يقول بعض العلماء إنهما أتيا من حمام روماني قديم؛

ويخمن آخرون أنهما كانا يُستخدَمان من قِبل النساء أثناء الولادة. وعلى كل حال، يشير علماء كثيرون إلى أن جمالهما وطرازهما الكلاسيكي هو ما جعلهما يُدرَجان في المراسم البابوية؛ لم يكن لثقبَي المقعدين أهمية.

واستمر استخدام المقعدين في المراسم البابوية حتى تتويج البابا ليو العاشر عام ١٥١٣. ثم ألغى خليفته البابا أدريان السادس استخدامهما. وعلى الرغم من أن قصة تَفقُّد الجنس قد شاعت للغاية، فلا يوجد ما يُشير إلى هذا الإجراء في «الأوردو رومانوس» (الرتب الكنسية الرومانية) وهو الدليل المتبع لإتمام هذه المراسم. وبالفعل، اعتُبِر هذا الطقس خرافة في القرن الخامس عشر؛ فبعد تنصيب البابا جريجوري الثاني عشر عام ١٤٠٦، قال عنها جاكوبو داجنولا دي سكاربيريا إنها «خرافة شعبية فارغة» (فون دولينجر، ١٨٧١: ٥٠).

ولا توجد أدلة أيضًا في سجلات الفاتيكان على وجود البابا جون. يذكر كتاب مارتن بولونوس «تاريخ البابوات والأباطرة» أن البابا جون تولَّت البابوية «عامين وسبعة أشهر وأربعة أيام» بعد ليو الرابع وقبل بندكت الثالث. لكن المؤرخين يخبروننا بأن ليو الرابع حكم منذ عام ٨٤٧ حتى مماته في السابع عشر من يوليو عام ٨٥٥؛ وأن بندكت الثالث قد رُسِّم في ٢٩ سبتمبر عام ٨٥٥ ليستمر في الحكم حتى عام ٨٥٨. والفجوة الزمنية المقدرة بشهرين ونصف الشهر بين ليو وبندكت لا تتسع لولاية أخرى مدتها عامان ونصف العام.

كان هناك بابا يُدعى جون اعتلى الكرسي البابوي عام ٨٧٢، لكنه حكم عشر سنوات، وليس سنتين، وقد اشتُهر باسم «البابا المحارِب» بسبب طريقته الوحشية في التعامل مع أعدائه الكثيرين. ويُقال إن جون ضُرب حتى الموت بعد أن فشلت محاولة لتسميمه. ولو أن جون هذا اكتُشِف أنه امرأة، لما تكبَّد أعداؤها كل هذا العناء لإطاحتها من الكرسي البابوي.

أما التواريخ الأخرى التي أشار إليها كلٌّ من جان دو مايِّي وستيفن البوربوني — حوالي عام ١١٠٠ — فتبدو أكثر إقناعًا؛ إذ كانت تلك هي فترة الدسائس السياسية المحيطة بالبابوية. وطالب بالبابوية عدد من المتنافسين، ومنهم أولئك الذين يُطلق عليهم الآن «البابوات المنافسون». لقي البابا جريجوري السابع حتفه عام ١٠٨٥، بعد أن فقدَ دعم كل رجال الدين تقريبًا في روما؛ فمعظمهم انحازوا إلى البابا كليمنت الثالث، البابا المنافس الذي اختاره الإمبراطور هنري الرابع. حين موت جريجوري، لم يكن هناك من

يشغل رسميًّا منصب البابا في روما، لكن كليمنت ظل يواصل دوره غير الرسمي. وفي عام ١٠٨٦، أصبح فيكتور الثاني بابا لمدة عام، ثم خلفه أوربان الثاني، الشهير بالدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى. إلا أنه، في ظل سيطرة الإمبراطور هنري الرابع على أجزاء كبيرة من إيطاليا، كان لا بد من إجراء مراسم تنصيب أوربان على بُعد مائة كيلومتر جنوب روما. وأخيرًا تمكن من الاستقرار في روما عام ١٠٩٧، ثم وافته المنيَّة في يوليو ١٠٩٩. وبعدها بأسبوعين رُسِّم البابا الجديد باسكال الثاني. ومع أنه كان يواجه صعوبات مع البابوات المنافسين كليمنت الثالث (١٠٨٠–١١٠٠)، وثيودوريك (١١٠٠–١١٠٢)، وألبرت (١١٠٢)، وسيلفستر الرابع (١١٠٥–١١١١)؛ فإنه ظل في المنصب البابوي حتى مماته عام ١١١٨. وهكذا، كما هي الحال مع التواريخ السابقة التي يُقال إن البابا جون اعتلت فيها الكرسي البابوي، لم يكن هناك وقت في حدود العام ١١٠٠ لتتقلد فيه المنصب البابوي.

وهكذا؛ فإن قصة البابا جون تدحضها السجلات التاريخية. ومع ذلك، لا يزال الناس يتحاكون بها. وكما علَّق رئيس مكتبة الفاتيكان في خطاب إلى أحد أصدقائه (مركز معلومات التاريخ الكنسي، على الإنترنت) عام ١٤٧٩ «هذه الأمور التي ذكرتها يتداولها العامة، وإن كان من يتداولونها كُتَّابًا مجهولين وغير جديرين بالثقة، ومِن ثَمَّ أشرتُ إليها بإيجاز ودون خوض في تفاصيل، حتى لا يظن الناس أنني مُكابر ومتعنت في حذف ما يكاد الجميع يقطعون بصحته.» ومِن ثَمَّ فنحن نتوقع أن يستمر تداول القصة.

المراجع

Anonymous. (1687) *The History of Pope Joan and the Whores of Rome*. London.

Boccaccio, G. (1964) *Concerning Famous Women*, translated by Guido Guarino, George Allen & Unwin, London.

Burchard, J., *Liber Notarum; in L.A. Muratori, ed., Rerum Italicarum Scriptores* (Milan 1723–1751), XXXII.

ChurchinHistory Information Centre (online) *Pope Joan,* www.churchinhistory.org/pages/booklets/pope-joan%28n%29.htm (accessed January 10, 2014).

Cooke, A. (1610) *Pope Joane. A Dialogue Between a Protestant and A Papist*. London.

Cross, D.W. (1997) *Pope Joan*, Ballantine, New York.

Rhoides, E. (2000) *The Papess Joanne*, translated and adapted by Lawrence Durrell. Peter Owen, London.

Von Döllinger, J.J.I. (1871) *Fables Respecting the Popes of the Middle Ages*.

Graydon F. Snyder, (2002) *Irish Jesus Roman Jesus* Trinity Press International, Peabody, MA, p. 129.

Haemerlein, F. (c. 1490) *De Nobilitate et Rusticitate Dialogus*.

De Mailly, J. (1879) *Chronica Universalis Mettensis*, in G. Waitz, ed., *Monumenta Germaniae Historica: Scriptores,* Vol. 24. Hahn, Hannover.

Müntz, Eugène, (1900) "La Légende de la Papesse Jeanne dans 1'illustration des Livres, du XVe au XIXe siècle," La Bibliofilia, (Firenza: Leo Olschki), Vol. 2, 325–39.

Petrarch, F. (1534) *Chronica de le Vite de Pontefici et Imperadori Romani*.

Polonus, M. (1872) *Chronicon Pontificum et Imperatum, in Monumenta Germaniae Historica: Scriptores*, Vol. 22. Hahn, Hannover.

Quetif, J. and Echard, I. (1719), eds., Stephen of Bourbon, *De Diversis Materiis Praedicabilibus; in Scriptores Ordinis Praedicatorum,* Vol. I.

Wolfius, J. (1671) *Lectionum Memorabilium et Reconditarum Centenarii XVI*, I.

قراءات إضافية

Boureau, A. (2001) *The Myth of Pope Joan*, translated by Lydia Cochrane, University of Chicago Press, Chicago.

Pardoe, R. and Pardoe, D. (1988) *The Female Pope: The Mystery of Pope Joan. The First Complete Documentation of the Facts behind the Legend*, Crucible, Bath.

(٨) طرد القديس باتريك الثعابين من أيرلندا

من أشهر الصور التي يظهر فيها القديس باتريك هي تلك التي يظهر فيها رجل سيماؤه الورع وعند قدميه ثعابين تتلوَّى. بالطبع كان القديس باتريك شخصًا حقيقيًّا، لكن الثعابين جزء من علم الخرافة. وُلد باتريك في بريطانيا التي كانت خاضعة للحكم الروماني في القرن الخامس. ووفقًا لبعض المؤرخين؛ فإنه أُسر في بريطانيا وهو في السادسة عشرة من عمره على يد المغيرين الأيرلنديين، وأُخذ عبدًا إلى أيرلندا حيث عاش ست سنوات، ثم هرب، وعاد إلى بريطانيا. وفي وقت لاحق، بعدما اعتنق المسيحية، عاد إلى أيرلندا مبشِّرًا.

وثمة أدلة على وجود مبشرين مسيحيين آخرين في أيرلندا في أواخر القرن الرابع، وفي عام ٤٣١ أرسل البابا سلستين القديس بلاديسو لخدمة «الأيرلنديين الذين آمنوا بالمسيح». لكنه تفوَّق على جميع من سبقوه من حيث نجاحه في تحويل القبائل السلتية المحلية إلى المسيحية. وهكذا، في القرن السابع طُوِّب باتريك باعتباره شفيع أيرلندا. واليوم يُحتفَل بعيد القديس باتريك في ١٧ مارس، اليوم الذي يُعتقد أنه لقي حتفه فيه، ليس في أيرلندا وحدها، ولكن في جميع أنحاء العالم. أما بالنسبة إلى الكاثوليك في أيرلندا، فهو يوم مقدس يستلزم حضورهم القداس المُقام لتخليد ذكراه، وأما خارج أيرلندا فهو يوم للاحتفاء بأيرلندا والثقافة الأيرلندية.

لم يبقَ من خطابات باتريك سوى خطابين، ولم يؤكد المؤرخون سوى تفاصيل قليلة عن حياته. غير أنه، وكما يحدث كثيرًا مع الشخصيات الدينية المهمة، ظهر كثير من القصص عن باتريك وانتقلت إلى الأجيال التالية؛ فمنذ القرون الأولى وحتى وقتنا هذا، والمسيحيون يكتبون سِيَر القديسين، التي يصور كثير منها قصص الأعمال الرائعة التي تُظهر القوى الخارقة التي يتمتع بها القديسون. وقصة طرد الثعابين من أيرلندا هي واحدة من أشهر القصص في سِيَر حياة القديس باتريك.

يمكن تفسير طرد الثعابين من أيرلندا إما حرفيًّا وإما مجازيًّا. أما التفسير الحرفي فهو أن القديس باتريك قد تخلَّص من كل الزواحف عديمة الأرجل في الجزيرة. ووفقًا لما جاء في نسخة من القصة، فقد صام أربعين يومًا على قمة جبل، وفي نهاية صومه، هاجمته الثعابين. وبعصاه ساقها جميعًا نحو البحر، ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، لم تعد توجد ثعابين في أيرلندا. وفي تنويعة على القصة، قاوم ثعبان عجوز باتريك، لكن القديس صنع صندوقًا، ودعاه إلى دخوله. أصرَّ الثعبان على أن الصندوق كان أصغر من أن يسعَه،

لكن باتريك قال إنه لم يكن كذلك. ولكي يثبت الثعبان العجوز أن باتريك كان مخطئًا، انكمش وحشر نفسه في الصندوق ليريه كم كان ضيقًا — وحينئذٍ أغلق باتريك الغطاء بقوة ورمى الصندوق في البحر.

كيف يمكن تأويل قصة طرد القديس باتريك الثعابين من أيرلندا مجازيًّا؟ كان بعض الأديان الدرويدية التي حوَّل باتريك الأيرلنديين منها إلى المسيحية يتخذ من الثعابين رموزًا. وهكذا يمكن تأويل طرد الثعابين من الجزيرة على أنه تخلُّص من تلك الأديان الدرويدية.

لكن الثعابين ترمز إلى ما هو أكثر من الدرويدية؛ فهي ترمز في كثير من الثقافات إلى الشر، مِن ثَمَّ قد يكون طرد باتريك للثعابين من أيرلندا استعارة تدل على قهره الشر على الجزيرة الزمردية. يجري اقتران الثعابين بالشر عميقًا في النفس البشرية. فكِّر في غواية الحية لحواء في سفر التكوين، السفر الافتتاحي من الكتاب المقدس. ويَعتبر أغلب المسيحيين أن ذلك الثعبان هو الشيطان، الذي هو الشر في أنقى صوره وأقواها. وفكِّر في الكنائس المسيحية الخمسينية في المنطقة الأبالاشية من الولايات المتحدة الأمريكية التي تتعامل مع الثعابين السامة وفقًا لطقس ديني، بحسب ما جاء في الآيات الكتابية مثل تلك المذكورة في إنجيل لوقا (١٠: ١٩) «هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدوِّ وَلَا يَضُرُّكُمْ شَيْءٌ.» هنا أيضًا نجد الثعابين قريبة من تجسيد الشر الخالص.

إن رمزية الثعابين والتأويلات المجازية لطرد باتريك إياها من أيرلندا شائقة، غير أن الرموز والاستعارات لا يمكن القول إنها صحيحة أو خاطئة، ومِن ثَمَّ لا يمكن اعتبارها خرافات، بهذا المعنى للخرافة الذي يشير إليه هذا الكتاب — قصة يعتقدها قطاعٌ عريضٌ من الناس مشكوكًا في صحتها. لكن ماذا عن التأويل الحرفي للزعم بأن القديس باتريك طرد كل الثعابين من أيرلندا؟ ما الأدلة التي يمكن أن يقدمها المرء لإثبات هذا الزعم؟ يمكن القول إننا إذا فتَّشنا الجزيرة الزمردية اليوم، فلن نجد أي ثعابين في البَرِّيَّة. هذا صحيح، لكن لدى العلماء تفسير لغياب الثعابين من الجزيرة أبسط من معجزة القديس باتريك: «لم يكن قط» في أيرلندا أي ثعابين. قام نايجل موناجان من المتحف القومي لأيرلندا في دبلن ببحث شامل في المجموعات الحفرية والسجلات الأيرلندية، وخلُص إلى أنه «لم يكن هناك في أيِّ زمنٍ قطُّ أي شيء يرجِّح وجود ثعابين في أيرلندا، وهكذا لم يكن هناك ما يمكن للقديس باتريك أن يطرده» (ورد هذا الاقتباس في مقال جيمس أون، بعنوان «أيرلندا بلا ثعابين: لوموا العصر الجليدي لا القديس باتريك»

١٣ مارس ٢٠٠٨، http://news.nationalgeographic.com/news/2008/03/080313-snakes-ireland.html).

تطورت الثعابين من أنواع سابقة من العظاءات منذ حوالي ١٠٠ مليون سنة، زمن ظهور التيرانوصور ريكس. ولم يُعثر على حفريات الثعابين الأولى إلا في القارات الجنوبية. حينئذٍ، لم يكن ممكنًا للمنطقة التي ستصير فيما بعدُ أيرلندا أن تئوي ثعابين، لأنها كانت مغمورة بالكامل تحت المحيط. واعتبارًا من حوالي ٦٥ مليون سنة ماضية، بدأت الأرض تجف، وظهرت الموائل الكبيرة المفتوحة مثل الأراضي العشبية في أنحاء نصف الكرة الأرضية الشمالي. وانقرضت الديناصورات الكبيرة مثل تيرانوصور ريكس، بذا تهيَّأت البيئات الإيكولوجية للحيوانات الأصغر مثل الثدييات والثعابين. وقبل ٥٠–٣٥ مليون سنة من الآن، كانت أسلاف ثعابين البوا العاصرة والبيثون تنتشر في أرجاء نصف الكرة الأرضية الشمالي. ومنذ حوالي ٢٥ مليون سنة، تطوَّرت الأفاعي والكوبرا. وفي نهاية المطاف، انتشرت فصائل مختلفة من الثعابين في كل مكان فعليًّا في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي؛ والمقصود بكل مكان هو كل أنحاء العالم باستثناء جزر نيوزيلندا، وأيسلندا، وجرينلاند، والقارة القطبية الجنوبية، وأيرلندا.

انفصلت نيوزيلندا عن أستراليا وآسيا قبل تطوُّر الثعابين. واليوم، تفصل مسافة ١٣٠٠ ميلٍ من المحيط المفتوح نيوزيلندا عن أستراليا، وهي مسافة لا يمكن لأي ثعبان أن يقطعها سباحةً. وتعد أيرلندا قريبة من اسكتلندا مقارنة بهذه المسافة — ١٢ ميلًا فقط عند نقطة ما — غير أنها ١٢ ميلًا من المياه الجليدية. على كل حال، لم يكن يوجد كثير من الثعابين في اسكتلندا. ولا يوجد سوى أربعة أنواع من الزواحف الأرضية الأصيلة في اسكتلندا — الأفعى الأوروبية الشائعة، والعظاءة العمياء، والسحلية الشائعة، وثعبان العشب النادر في اسكتلندا على الرغم من انتشاره في أماكن أخرى.

ومع ارتفاع المحيطات وانخفاضها خلال العصور الجيولوجية، ظهرت جسور من اليابسة بين أيرلندا وأجزاء أخرى من بريطانيا العظمى، فأتاحت للبشر والحيوانات الأخرى العبور. لكن حتى لو كانت أي ثعابين تمكنت من قطع هذه الرحلة، فما كانت لتنجو من العصور الجليدية التالية. بدأ أحدث عصر جليدي منذ ثلاثة ملايين سنة ولا يزال مستمرًّا. وقد تخلل الفترات الدافئة، كتلك التي نحيا فيها الآن، أنهار جليدية تتقدم وتتراجع أكثر من ٢٠ مرة. وفي معظم الأوقات كانت أيرلندا مغطاة تمامًا بالجليد. ولما كانت الثعابين من الكائنات ذوات الدم البارد، فهي لا تستطيع أن تنجو حيثما تكون

الأرض مجمدة طول السنة. آخر ذوبان للجليد شهدته أيرلندا كان قبل حوالي ١٥ ألف سنة فقط. ومنذ ذلك الحين، كانت هناك فترات يمكن أن تحيا فيها الثعابين في أيرلندا، ولا يفصل سوى ١٢ ميلًا من المحيط بين أيرلندا واسكتلندا؛ لكن، كما ذكرنا، ما كان أيٌّ من الثعابين الصغيرة في اسكتلندا ليصمد في الرحلة عبر القناة الشمالية الباردة كالثلج.

يمكن أن تجدوا مزيدًا من الخرافات على الرابط الآتي: www.wiley.com/go/50Greatmythsaboutreligions.

هنداوي